النُّورُ المبُينِ فِي تفَسِيرِ الْقُرآنِ الكَرِيم

تفَسِيرِ سُورَةِ النِسَاءِ المُبَارَكَة

تأليف

السيّد محمّد مهدي الخادمي (الصدر)

المجلّد الثالث

صدر خادمی، سید محمد مهدی، ۱۳۴۱-
النور المبین فی تفسیر للقرآن الکریم/ تألیف السید محمد مهدی صدر الخادمی.
قم: مؤسسه انصاریان للطباعة و النشر، ١٤٤١ق=١٣٩٨.
۳ جلد.
ISBN: 978-964-219-637-1 (vol. 1)/ 978-964-219-639-5 (vol. 2)
978-964-219-640-1 (vol. 3)/ 978-964-219-638-8 (set)
عربی.
۱- تفاسیر شیعه - قرن ۱۴ ۲- Qur'an - Shiite hermeneutics
BP۹۸ ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی: ۵۸۹۷۵۹۰

النور المبين في تفسير القرآن الكريم

تفسير سورة النساء المباركه

(المجلّد الثالث)

تأليف: السيّد محمّد مهدي الخادمي (الصدر)

الناشر: مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر
الطبعة الأولي ١٤٠٠ - ١٤٤٣ - ٢٠٢١
المطبعة: نگين
الكمية: ٥٠٠ نسخة
عدد الصفحات: ٥١٢ ص.
حجم الغلاف: كبير
رقم الإيداع الدولي: ٩٧٨-٩٦٤-٢١٩-٦٤٠-١
رقم الإيداع للدوره: ٩٧٨-٩٦٤-٢١٩-٦٣٨-٨

(تم تمويل الطباعة من ثلث المرحوم الحاج حمزه محمد علي السلمان)

مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر
جمهورية ايران الإسلامية
قم – شارع الشهداء – فرع ٢٢ – ص. ب ١٨٧
هاتف: ٣٧٧٤١٧٤٤ (٢٥) (٩٨) فاكس: ٣٧٧٤٢٦٤٧
البريد الالكترونى : Int_ansarian@yahoo.com
www.ansariyan.ir

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفسِيرِ سُورَةِ النِّسَاءِ المُبَارَكَة

المقدمة

هذه السورة المباركة نزلت في الوقت الذي كان رسول الله(ص) بصدد تأسيس حكومة الإسلاميّة بل ومجتمعاً إنسانياً سليماً في المدينة، ومن هنا؛ فقد حوت هذه السورة الجليلة الكثيرمن القوانين المؤثّرة في تطهيرالمجتمع. ولأنّ اللّبنة الأولى في ذلك المجتمع الحديث بالإسلام كانت تتشكل من أفراد كانوا إلى وقت قريب من عبدة الأوثان وملوّثين بأقسام وأشكال الخبائث الجاهلية، فكان من الأجدر تطهيرهم ممّا ترسّب في أرواحهم وأنفسهم، وإفساح المجال فيها أمام القوانين والمناهج والقناعات الخاصّة بتأسيس مجتمع حديث على أنقاض ماضيهم غيرالمحمود، ولهذا ترانا نطالع في هذه السورة بحوثاً عامّة مختلفة، وهي عبارة عن:

١. الدعوة إلى الإيمان والعدالة وقطع العلاقة الحميمة مع الأعداء المعاندين.

٢. استعراض مقاطع من مصير الماضين لمزيد التعرّف على مصير المجتمعات غير السليمة.

٣. دعم المحتاجين للمساعدة، مثل الأيتام، وجملة التعاليم اللّازمة لحفظ وضمان حقوقهم.

٤. تبيين قوانين الإرث تأسيساً على أسلوب طبيعي وعادل، في مقابل الصورة القبيحة والمخزية التي كانت سارية في حقبة الجاهليّة، حيث كان الضعفاء يسلبون حقوقهم بشتّى الحجج.

٥. القوانين الخاصّة بالزواج والأساليب الحافظة للعفّة العامّة.

٦. القوانين الكلّيّة لحفظ الأموال العامّة.

٧. حفظ وضبط وتنمية اللّبنة الاجتماعيّة الأولى، أي: الأسرة.

٨. حقوق ووظائف الأفراد المتقابلة فيما بينهم.

٩. كشف أعداء المجتمع المسلم وتحذير المسلمين منهم.

١٠. التعريف بالحكومة الإسلامية ولزوم طاعة قائدها.

١١. تشجيع المسلمين على مواجهة الأعداء المكشوفين.

١٢. كشف الأعداء الذين يمارسون عداءهم بالسرّ.

١٣. أهميّة الهجرة وضرورتها لدى مواجهة المجتمع الفاسد غير القابل للإصلاح.

١٤. بحوث الميراث ولزوم تقسيم الثروات المتراكمة بين الورثة.

فضيلة تلاوة هذه السورة

طبقاً للأحاديث الواردة عن نبيّ الإسلام(ص)؛ فإنّ من قرأ سورة النساء، كان له من الأجر بمقدار كلّ مسلم ورث من غيره كما قرّرت هذه السورة والنفقة في سبيل الله تعالى وأجر من أعتق عبداً.[١] ولكنّ الواضح وبلا شك، وفقاً الروايات، أنّ إعطاء ثواب القراءة لهذه السورة ليس لمجرّد قراءة آياتها؛ وإنّما يجب أن يفهم بأنّ القراءة لابدّ أن تكون مقدّمة للفهم والوعي والإدراك، وهذا بدوره ينبغي أن يكون مقدّمة لتطبيق مفاهيمها على الصعيد الفردي والاجتماعي.... والمسلّم في الأمر هو أنّ المسلمين لو استلهموا من معاني آيات هذه السورة المباركة لحياتهم، لحظوا بكلّ ذلك الأجر الأخروي، ناهيك عن النتائج والثمار الدنيويّة العظيمة.

١- مجمع البيان، ج٣، ص٣

الآية ١

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا
زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ
بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. لأن مضامين هذه السورة تتعرّض إلى بيان حاجات ومقتضيات البشريّة جمعاء في حياتها، فقد توجّهت الآية الأولى من السورة المباركة بالخطاب إلى جميع الناس: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾.

٢. جاءت دعوة الناس إلى التقوى في مطلع هذه السورة وفي هذه الآية؛ باعتبا رأنّ الناس في أصل الإنسانيّة وفي حقيقة البشريّة متّحد ون، لا فرق بينهم إذا ما عرضوا على أساس رعاية التقوى؛ فهم سواء بين النساء والرجال؛ والصغيروالكبيروالقويّ والضعيف... وعلى هذا؛ ولكي يتجذّ ر أصل المنهج السليم في بناء المجتمع الصالح؛ مثل أن تراعى الحقوق العامة؛ وأن تراعى العدالة في تقسيم المواريث، وأن يحفظ اليتامى، وأن تصان الحقوق العائليّة وغيرذلك ضمن المحافظة على التقوى والتزام الورع من قبل جميع الناس، مع الإشارة إلى أنّه ما من مجتمع يفتقرإلى التقوى، فإنّه لن يحقق الأهداف السامية، ولوأنّ منهج التقوى اتُّخذ مسلكاً ومقياساً؛ فإنّ المرأة والرجل والصغيروالكبيرلن يظلم بعضهم بعضاً، ولن يتلوّث مجتمع يراد له أن يهتدي إلى الحقّ بظلم... فالمجتمع الذي كانت الغاية من خلقته نيل الهدى والسعادة يلتزم الأحكام والقوانين المنقذة من الضياع... وهو المجتمع الذي أسّسه الله على قواعد

الهدى ليطوي مسيرته المستقيمة واليسيرة مرابطاً يحفظ نفسه دون الانحراف والدمار...

٣. يمكن أن يقال: لماذا وجّهت الآية الشريفة خطابها إلى عموم الناس ولم تخصّ به المؤمنين؟ ولماذا قيّدت أمرها بالتقوى بكلمة ﴿ ربّكم ﴾ ولم تقل: اتّقوا الله؟ والجواب هو أنّ الآية أرادت القول بأنّ الله الربّ هو مصدر المدد لجميع الناس وليس للمؤمنين خاصّة، وهذه الصفة بحدّ ذاتها إحدى آثار الربوبيّة؛ فهو سبحانه المدبّر والمكمّل بربوبيّته...

٤. في هذه الآية؛ وبالإشارة إلى إحدى الصفات الإلهيّة التي هي أصل الوحدة الاجتماعيّة لجميع البشر للتأكيد على أنّ الله الربّ، هو الرقيب لجميع أعمال الإنسان، ويتضمّن هذا المنحى طرد جميع الميزات الوهميّة التي جعلتها كلّ جماعة لنفسها من دون الآخرين؛ من قبيل الميزات القوميّة واللّغويّة والجغرافيّة والقبليّة وأمثال ذلك، وهي التي أدّت إلى سطوة آلاف المشاكل والأزمات على المجتمعات البشريّة... والحال أنّ المجتمع الإسلامي يجب أن يتطهّر منها؛ لأنّ الناس جميعاً يعودون إلى جذر واحد، لكونهم يرجعون إلى أب واحد وأمٍّ واحدة، وهم في خلقتهم يشتركون في مادّة واحدة ﴿ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾.

٥. قوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يوضّح الموقف الصريح والضمنيّ والكنائي للقرآن المجيد لدى مواجهة العنصريّة القوميّة؛ لاسيّما وأن المجتمع المعاصر للنبيّ الأكرم(ص) كان مجتمعاً عنصريّاً قبليّاً بمعنى الكلمة... فكان الموقف القرآني هذا يعكس مدى أهمّيّة هذه المواجهة، وقد ورد مثل هذا التعبير القرآنيّ في آيات أخرى؛ يشار إليها في محلّها.

٦. ﴿ نفسٍ ﴾ في لغة العرب هي عين كلّ شيءٍ، فيقال مثلاً: جاءني فلان نفسه، فيقصد عينه لا غيره. ونفس الإنسان تعبير عن روحه وجسمه الدنيويين، أمّا الروح؛ فهي التي تبقى في الحياة البرزخيّة.

٧. سؤال: ما المقصود من ﴿ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وهل يراد بها الشخص الواحد؟ أم النوع الواحد

أي: (الجنس المذكر)؟

يفهم من ظاهر السياق أنّ المراد من ﴿ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ هو آدم(ع)، فيما المراد من ﴿ زَوْجَهَا ﴾ حوّاء(ع)، وهما والد ووالدة الأجيال البشريّة... ونحن ننتمي إليهما، فيفهم من السياق القرآني في هذه الآية ومثيلاتها أنّ جميع أفراد النوع الإنساني ينتهون إليهما... ولا ريب في أنّ ظاهر التعبير القرآني أريد به الشخص الواحد، وفي الحقيقة هو إشارة إلى الإنسان الأوّل الذي سمّاه القرآن بآدم أبي الإنسانيّة المعروفة... وإنّ مصطلح (بني آدم) الوارد في العديد من الآيات القرآنيّة يشار به إلى هذا المعنى.

أمّا احتمال أنّ المقصود من (النفس الواحدة) الوحدة النوعيّة، وأنّها وزوجها ـ كما في هذه الآية الشريفة ـ مطلق الذكور والإناث في الجيل البشري، أي أنّ؛ كلّ البشر قد ولدوا من أب واحد وأمٍّ واحدة.. وبالنتيجة يكون معنى الآية أنّ كلّ فردٍ منكم هو نوع بشريّ من أب واحد وأمٍّ واحدة، أو بعبارة أخرى: أنّكم خلقتم من فردين بشريّين من دون أن يكون ثمّ فرق بينكم..

وهذا المعنى والاحتمال بعيد جدّاً عن ظاهر الآية، لأنّها تريد أن تبيّن بأنّ أفراد الإنسان من حيث الحقيقة والجنس لهم واقعيّة واحدة، ومع الكثرة المتوفّرة فيهم إلّا أنّهم متشعّبون من جذر واحد.. لاسيّما وأنّ قوله تعالى: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ يستفاد منه هذا المعنى بصراحة ووضوح، وعلى أساس هذا المعنى؛ فإنّه لا يكتمل احتمال أنّ المراد من (النفس الواحدة) وزوجها جميع الذكور والإناث.. بالإضافة إلى أنّ هذا المعنى والاحتمال لا يتّفق والهدف الذي تريده سورة النساء المباركة..

٨. كلمة (زوج) لغةً بمعنى القرين، وعلى قول الراغب هو بمعنى الزوج والزوجة، أي أنّ الكلمة تطلق على كلّ واحد من القرين؛ الذكر والأنثى، وكذلك على غير الحيوانات، مثل الحذاء؛ فالواحد زوج الآخر، وتطلق على كلّ شيء شبيه للآخر أو ضدّه، ولهذا؛ قال الراغب ـ اللغويّ العربيّ المعروف ـ بأن استعمال كلمة (الزوجة) للمرأة غير مطلوب، أي أنّ المفردة

الصحيحة للمرأة هي: الزوج وليس الزوجة.[١]

٩. ما المقصود من قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ زوج آدم؟

للمفسّرين في معنى هذه العبارة أقوال متعدّدة؛ ونذكر هنا قولين منها:

القول الأوّل: فهم بعض المفسرين من هذه العبارة أنّ حوّاء زوج آدم قد خلقت من بدنه، وتشير بعض الروايات (غير المعتبرة) إلى أنّ حوّاء قد خلقت من أحد أضلاع آدم فاعتبروها شاهداً على قولهم ودليلاً (الفصل الثاني من سفر التكوين من التوراة صرّحت بهذا المعنى).

القول الثاني: بالالتفات إلى سائر الآيات القرآنيّة يفهم ويستفاد أنّ مقصود الآية هو أنّ زوج آدم من نوع آدم، وقد كانت إنساناً مثله، وكلّ أفراد البشر الذين يصعب إحصاؤهم ممن انتشروا على وجه البسيطة هم من ذريّة الإنسانين الأولين، وكلّهم من منشأ واحد، وعليه؛ فإنّ كلمة ﴿ منهم ﴾ كلمة منشأويّة، والجملة محطّ بحثنا توحي بأنّه كما يفيد قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[٢] وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾.[٣] حيث تؤكد بوضوح أن أزواجكم قد جعلت لكم من أنفسكم، أي: من جنسكم ونوعكم وليس من أبدانكم، وعلى أساس المرويّ عن مولانا الإمام الباقر(ع) في (تفسير العيّاشي) فقد كذّب القول بأنّ حواء مخلوقة من أضلاع آدم، بل هي مخلوقة من بقيّة الطين الذي خلق منه آدم،[٤] مع أنّ هذا لا يستفاد من نفس الآية؛ كما أنّ ظاهرها لا يدلّ على ذلك..

١٠. كلمة ﴿ بثّ ﴾ بمعنى الفصل عبر النشر، وقد جاء نظير هذا الاستعمال القرآني في قوله

١- مفردات ألفاظ القرآن، ص٣٨٤

٢- سورة الروم / ٢١.

٣- سورة النحل / ٧٢.

٤- تفسير العياشي، ج١، ص٢١٦

تعالى: ﴿ فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثًّا ﴾ أي: تتفرّق الجبال كما تتفرّق الذرّات، ومن هنا يقال لبيان الأخبار ونشرها: بثّاً، إذ الأخبار المجموعة تنشر وتنتشر وتبثّ، كما يقال للشكوى من الهمّ والغمّ والانزعاج بثّاً، إذ الغمّ المتراكم المجموع والمتكرّس في القلب يبثّ لدى نشره وإيضاحه والتحدّث عنه.. ولهذا تستعمل كلمة البثّ ويراد بها الحزن نفسه، فيستعمل المصدر في اسم المفعول، لأنّ من شأن الهمّ أن يبثّ حسب طبع الإنسان.. قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ ﴾ وهو ينطبق على هذا المعنى، وأريد به: إنّما أنشر وافصح عن حزني وهمّي إلى الله تعالى ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾.

١١. سؤال: كيف تمّت زيجات أولاد آدم؟

من قوله تعالى: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ يظهر احتمالان:

الاحتمال الأوّل: أنّه سبحانه وتعالى قد خلق من آدم وحواء رجالاً ونساءً كثيرين، فكانت الأجيال منهما فقط، ولم يكن ثمّ مدخليّة لموجود ثالث.. ولازم هذا القول أن أبناء وبنات آدم وحواء قد تزوّجوا من بعضهم، لأنّهم إن كانوا تزوّجوا من آخرين؛ لم يبق معنىً لكلمة ﴿ مِنْهُمَا ﴾ ولا يصدق عليها.. وفي هذا الموضوع وردت روايات عديدة، وهي ليست موضع تعجّب.. وذلك لأنّ هذه المسألة تشريعيّة، والمسألة التشريعيّة من خصائص الله وحده لاشريك له.. ولذا؛ فهو قادر على أن يجعل عملاً ما حلالاً في يوم وحراماً في يوم آخر: ﴿ وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ[١] ﴾ ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ[٢] ﴾ ﴿ وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[٣] ﴾ وبناءً على استدلال بعض المأثور عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، فإنّ تلك الزيجات في تلك الحقبة قد تمّت وفقاً للضرورات ومصالح التناسل؛ وكانت فعلاً مباحاً،

١- سورة الرعد / ٤١.

٢- سورة الأنعام / ٥٧.

٣- سورة القصص / ٧٠.

ولم يكن حكم تحريم زواج الأخ من الأخت قد نزل بعد.. ومعلوم أنّ تحريم أمرما منوط بتحريم الله تعالى له.. ثمّ ما المانع بأن توجب الضرورة والمصلحة أن يباح فعل من الأفعال في فترة ما ثم يحرّم في فترة أخرى.. إلّا أنّه بالبناء على نصوص حديثيّة أخرى قد ورد أنّ أولاد آدم(ع) لم يتزوّجوا من بعضهم أبداً، وقد هاجمت هذه النصوص القائلين بحصول زواج أولاد آدم فيما بينهم..[1] ولو كان من المفترض أن نعمل بما هو موافق لظاهر القرآن، لرجّحنا أحاديث القسم الأوّل لموافقتها للآية أعلاه.

الاحتمال الثاني: أنّ أولاد آدم تزوّجوا بالمتبقّين من البشر الذين سبقوا وجودهم على الأرض وجود أبينا آدم، وطبقاً للروايات؛ فإنّ آدم يمكن أن لا يكون هو الأوّل في الحياة على الأرض.. حيث تشير البحوث العلميّة إلى أنّ نوع الإنسان قد مضى على وجوده في الأرض ملايين السنين، في حين أنّ تاريخ خلقة آدم وحتّى الآن لم تستغرق زمناً مديداً.. وعليه؛ يجب أن نقبل أن ثمّ بشراً آخرين قد سبقوا آدم في الأرض، وحينما نزل آدم إلى الأرض كانوا في حال انقراض.. وما المانع أن يتزوّج أولاد آدم بالمتبقين من الجيل السابق لآدم.. ولكن كما ذكرنا؛ فإنّ هذا الاحتمال لا يتّفق ـ تماماً ـ مع ظاهر الآية أعلاه. (وهذا الكلام بحاجة إلى مزيد من البحث الذي يخرج عن طبيعة التفسير).[2]

١٢. تكرار موضوع التقوى في آخر الآية تابع لأهمّيّتها في ترسيخ البنية التحتيّة للمجتمع السالم، ولهذا؛ وردت الدعوة للناس بالتزام التقوى والورع في ذيل الآية، والفارق هنا هو في الجملة المضافة: ﴿ وَاتَّقُواْ اللهَ ﴾ الذي تعظّمونه وحينما يطلب أحدكم من آخر شيئاً: فتذكرون اسمه سبحانه: ﴿ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾.

١- راجع: بحار الأنوار، ج١١، ص٢٢٠ إلى ٢٢٩

٢- وهناك نصوص أخرى تؤكد على أنّه تعالى قد خلق لولدي آدم امرأتين، فتزوج كلٌّ منهما بواحدة، ومنهما تكاثرت ذرّيّة آدم. (راجع: تفسير العياشي، ج١، ص٢١٦.) [المترجم].

١٣. ذكر كلمتي ﴿ واتّقوا... والأرحام ﴾ بعد الله تعالى والعطف على اسم الجلالة يبيّن مسألة أهمّيّة الورع عن قطع الأرحام والأواصر.. وذكر هذه المسألة يعني:

أوّلاً: إشارة إلى الأهمّيّة الفائقة والاستثنائيّة التي حدّدها القرآن الكريم لموضوع صلة الأرحام، إلى الحدّ الذي ورد فيه ذكر الأرحام بعد ذكر اسم الجلالة المقدّس.

ثانياً: إشارة إلى قضيّة ذكرت في مطلع الآية المجيدة، أنّ الناس جميعاً ينتمون ـ بالنسب ـ إلى أب واحد وأمٍّ واحدة، وفي الحقيقة؛ إنّ جميع الناس أقارب لبعضهم، وهذا الارتباط يوجب إيلاء جميع أفراد البشريّة ـ مهما تفرّعت انتماءاتهم القوميّة والقبليّة ـ المحبّة كما هي الحالة لدى العلاقة بين الأقارب المقرّبين.

١٤. كلمة ﴿ الأرحام ﴾ جمع رحم، والرحم لغةً بمعنى موضع نشأة الجنين في بطن الأمّ، وهو العضو الباطني الذي خلقه الله في بطون النساء لتنمو فيه النطفة حتّى تتحوّل إلى طفل كامل.. وهذا هو المعنى الأصليّ لكلمة (الرحم)، ولأن الأقارب قد خرجوا ـ في الأصل ـ من رحم واحد، فكلمة (الرحم) تستعمل وتعني القريب، والأرحام بمعنى أقارب الإنسان.

١٥. معنى التساؤل بالله تعالى أنّ الناس ـ وبالقسم بالله ـ يطلب بعضهم أشياءهم من بعضهم الآخر، فيقال لأحدهم مثلاً: بالله عليك إلّا ما فعلتَ كذا. ولعلّ التساؤل بالله كناية على أنّه تعالى مقدّس ومعظّم في نظرهم وكونهم يحبّونه، وذلك لأنّ الإنسان لا يقسم بجهة أو شيء إلّا إذا كان يجلّهما ويعظّمهما ويحبّهما: ﴿ وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾.

١٦. الرقيب لغةً تقال لمن يراقب من علٍ، وتستعمل هذه الكلمة بمعنى الحافظ والحارس، ذلك لأنّ الحراسة من لوازم المراقبة، ويمكن أن يكون ارتفاع موضع الرقيب له معنىً ماديّ ـ وهو المكان المرتفع ـ ويمكن أن يلحظ ذلك من الناحية المعنويّة أيضاً: ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾.

استعمال فعل ﴿ كان ﴾ في عبارة ﴿ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ وهو فعل ماضي أريد به التأكيد

واستمرار المراقبة الإلهيّة، وهو يبيّن أنّه تعالى يراقب جميع أفعال الناس ونواياهم، كما أنّه جلّ جلاله حارس الناس وحافظهم من خطر الحوادث.

الآية ٢

وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ
وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ
كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾

شأن نزول هذه الآية

روي أنّ رجلاً من قبيلة بني غطفان كان له أخ غنيّ قد فارق الحياة، فصار يدير شؤون أولاده اليتامى ويتصرّف بأمواله.. وحينما بلغ أولاد أخيه رشدهم، امتنع عن تسليمهم أموالهم.. فسئل رسول الله(ص) عن ذلك؛ فنزلت الآية أعلاه.. فتاب الرجل عن امتناعه حين سمع بالآية وأعاد إليهم أموالهم وقال: أعوذ بالله من الحوب الكبير..[1]

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. من الطبيعي أن يتوفّى الآباء ويتركوا وراءهم أولاداً صغاراً، إلّا أنّ المجتمعات غيرالصالحة تشهد ـ لدى ذلك ـ مشاكل وأزمات ـ كما الحال الذي كان عليه عرب الجاهليّة.. فقد لوحظ أنّ عدد الأيتام كان كبيراً، وكان لابد للحكومة الإسلاميّة أن تحمي أفراد المسلمين بمن فيهم، أو في مقدّمتهم الأيتام..

٢. بمطالعة الآيات القرآنيّة النازلة بخصوص اليتامى يعلم أن الإسلام قد أولاهم أهمّيّة استثنائيّة وفائقة، وقد هدّدت الآيات والروايات الذين يخونون في أموال اليتامى بأشدّ العقوبة والعذاب، ودعا الإسلام بأصرح النصوص و أكثرها قاطعيّة مسؤولي اليتامى إلى حفظ ورعاية

١- كشف الأسرار، ج٢، ص٤٠٧

أموالهم، وسنتناول هذه المسألة في عدّة آيات في سورة النساء، وكذلك في الآية (١٥٢) من سورة الأنعام والآية (٣٤) من سورة الإسراء..

٣. قد ترك اللّحن الشديد الذي اتّصفت به آيات القرآن ذات الصلة بأموال اليتامى تأثيراً في قلوب المسلمين، حتى انتهى الأمر ببعضهم إلى الامتناع عن أن يصنع طعاماً مشتركاً بين أمواله وأموالهم الخاصّة، فراح يعزل طعامهم ويعزلهم عن نفسه في هذه المسألة؛ مع أنّه تسبّب للطرفين بالانزعاج وعدم الانبساط.. ولهذا ترى الآية (٢٢٠) من سورة البقرة تشير إلى عدم المانع من المشاركة في هذا الصدد إذا كانت النيّة ـ منذ البداية ـ خيراً وصلاحاً، وأباحت خلط الأموال والطعام المشترك مع اليتامى..

٤. أوردت الآية الشريفة أعلاه ثلاثة تعاليم فيما يرتبط بأموال اليتامى:

الأوّل: أن يعطى اليتامى أموالهم حين يبلغون رشدهم، وأنّ التصرّف بأموالهم يجب أن يكون من منطلق الأمانة والرقابة والوكالة دون الملكيّة ﴿ وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ﴾.

الثاني: أن لا تعملوا على تدنيس أموالهم الطيّبة بأموالكم غير الطيّبة، وهذا الأمر في حقيقته لدحض الحيف والرغبة الشخصيّة. حيث يعمد الوصيّ على الأيتام ـ وبحجّة استعمال أموالهم في مصلحتهم أو بمبرر إبقائها ثابتة لئلّا تضيع ـ في بعض الأحيان إلى تناول أموالهم وتبديلها بأمواله غير الطيّبة وغير المرغوبة ﴿ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾.

الثالث: لا تخلطوا أموال اليتامى بأموالكم بحيث ينتهي الأمر الى تملّكها وحيازتها جميعاً.. أو: لا تخلطوا أموالهم الطيّبة بأموالكم الخبيثة بحيث تضيع حقوقهم، و﴿ إِلَى ﴾ في هذه الجملة بمعنى: (مَعَ) ﴿ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ أي أنّ التعدّي على أموال اليتامى يستوجب ارتكاب ذنب عظيم؛ تأكيداً وإثباتاً لأهميّة وخطورة المسألة.

٥. يقول الراغب الإصفهاني في (مفرداته): الحوبة لغةً بمعنى الحاجة التي تجرّ الإنسان إلى

الذنب العظيم..[١] ومن هنا؛ كان تعدّي المشرفين على أموال اليتامى يتمّ في الغالب بداعي الحاجة.. وقد استعملت مفردة (الحوب) في الآية بدلاً من كلمة (الإثم) لتتمّ الإشارة إلى هذه الحقيقة..

١- مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٦١

الآية ٣

وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ
مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ
فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣

شأن نزول الآية

كان معروفاً قبل الإسلام أنّ كثيراً من الرجال في الجزيرة العربية وتحت طائلة كفالة الأيتام، يُسكنون اليتيمات في بيوتهم ثمّ يتزوّجونهن ليستولوا على أموالهنّ.. ولأنّهم كانوا يتصرّفون في كلّ شيء؛ فقد كانوا يعطونهنّ أقلّ المهور، وكانوا يطلّقوهن بعد ذلك لأدنى انزعاج يشعرون به تجاههنّ، وفي الحقيقة لم يكونوا يعاملوهنّ كزوجات، فنزلت هذه الآية لمعالجة هذه الحالة المزرية وأمرت من يدير شؤون التيامى بمراعاة جانب العدالة بكافة أبعادها، فإن لم يتمكّنوا من إحراز جانب العدالة فليس لهم أن يتزوّجوا بهنّ، فلهم أن يختاروا زوجات أخرى دونهنّ...[1]

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. في هذه الآية وبعد الأمر الوارد في الآية السالفة، ورد الأمر بحفظ أموال اليتامى؛ وذلك بالإشارة إلى حقٍّ آخر من حقوقهم حيث صرّحت الآية قائلة: إن لم تستطيعوا مراعاة جانب الحقّ والعدالة حين الزواج باليتيمات وخفتم أن تضيّعوا أموالهن، فعليكم أن تغضّوا الطرف عن الزواج بهن وأن تقصدوا نساءً غيرهنّ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ ﴾.

٢. سؤال: لماذا كانت بداية هذه الآية عن اليتامى ونهايتها عن الزواج، والحال أنّ ظاهر

١- تفسير الامثل، ج٣، ص٢٥٢

الأمرين غير مرتبطين؟

جواب هذا السؤال واضح، إذ بالالتفات إلى أنّ جهة الخطاب في الآية هم الأوصياء على شؤون اليتامى؛ وإلى أنّ الآية الماضية تضمنت جملة تعاليم تأمر بالمحافظة على أموالهم، وإلى أنّ الموضوع كان في صدرها وذيلها عن الزواج باليتيمات وضرورة مراعاة العدالة في أموالهن والتصرّف معهنّ بمنتهى الدقّة والأمانة والاحترام و المصلحة.. و في حال عدم الاطمئنان إلى إمكانيّة مراعاة ذلك؛ وجب عدم الزواج بهنّ والتوجّه إلى نساء أخر.. فلعلّ من جملة الشواهد على التفسير أعلاه ما ورد في الآية (١٢٧) من سورة النساء التي صرّحت بلزوم مراعاة العدالة لدى الزواج باليتيمات؛ وهذا ما سنسلط مزيداً من الضوء عليه في ذيل هذه الآية وما ورد في ذلك من روايات في مختلف المصاد ريشير إلى تفاصيل ذلك..

٣.﴿ مثنى ﴾ لغةً بمعنى اثنين اثنين، و﴿ ثلاث ﴾ يعني ثلاثاً ثلاثاً، و﴿ رباع ﴾ بمعنى أربعة أربعة..

٤. لأن خطاب هذه الآية كان موجّهاً إلى جميع المسلمين، صار معنى الآية كالتالي: لكي تنأوا بأنفسكم عن إلحاق الظلم باليتيمات، فإنّ لكم الحقّ في الامتناع عن الزواج بهنّ، ثمّ الزواج من أخريات لا تسمح لكم الحالة الاجتماعيّة أو أهلوهن بأن تظلموهنّ.. ولكم أن تتزوّجوا اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً منهنّ.

٥. حرف الواو يعني التخيير وليس الجمع، إذ ليس هذا هو مراد الآية؛ فتعمدوا إلى الزواج من اثنتين مع ثلاث وأربع ليكون المجموع تسعاً.. ولو كان هذا هو المقصود؛ للزم أن يذكر العدد تسعة بصراحة وليس بالتفريق، مضافاً إلى أنّ هذه المسألة من الناحية الفقهيّة من ضروريّات المسائل؛ حيث يحرم الزواج والجمع بين أكثر من أربع نساء في وقت واحد..

٦. تعيين وذكر وجوب مراعاة العدالة بعد الإذن للرجال بالزواج الآخر في القرآن المجيد، يبيّن حقيقة النظرة القرآنيّة في السماح بتعدّد الزوجات المشروط برعاية العدالة التامّة.. وأمّا

مع عجز الرجل عن ذلك؛ فيلزمه الاكتفاء بواحدة ليتحاشى ممارسة الظلم ضدّ الأخرى أو الأخريات ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً ﴾.

٧. أنّ الله تعالى في قوله الحقّ: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً ﴾ قد جعل حكم المسألة معلّقاً على الخوف والاحتمال دون العلم والحاجة إلى القطع، فهو لم يقل: إن علمتم عجزكم عن أن تعدلوا.. إذ في مثل هذه المسألة يكون تأثير الوساوس الشيطانيّة والرغبات النفسية واضحاً دون أن يحصل العلم، ولو أنّه تعالى اشترط العلم؛ لفاتت المصلحة، ولكان متاحاً لكلّ انتهازيّ أن يتزوّج أكثر من واحدة تحت طائل عدم إحرازه العلم في عجزه أو عدم عجزه عن التزام العدالة حين الزواج الثاني ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ فكان في الخوف من ممارسة الظلم رادعاً من الزواج الثاني..

٨. لا شكّ في أنّ وجود جملة ﴿ أَوْمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ في إباحة اختيار الجواري للرجال الخائفين من عدم مراعاة العدالة بين الزوجات لا يشير ولا يلمّح إلى أنّ الله تعالى يريد أو يسمح بإلحاق الظلم بالمملوكات.. فالله لا يقول: لأنّكم ملزمون برعاية العدالة بين زوجاتكم الحرّات، فإنّكم غير ملزمين بمراعاة العدالة بين جواريكم.. ومعنى عدم لزوم مراعاة العدالة من جانب الرجال بين الزوجات الجواري، عدم الوجوب في التشريع بلزوم تقسيم المبيت بينهنّ، ولهذا كانت مراعاة العدالة بينهنّ أكثر يسراً.. وإنّ عدم لزوم مراعاة العدالة بين الجواري لا يعني جواز ظلمهنّ، إذ مع أنّ الظلم حرام بحقّ كلّ إنسان وكما ورد في القرآن التصريح بأنّ الله لا يحبّ الظالمين وقوله تعالى أيضاً: ﴿ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

٩. إباحة الزواج بالجواري اللّاتي يملكهنّ الرجال واختيارهنّ للحياة المشتركة كزوجات من قبل مالكيهنّ.. يشير. أوّلاً. إلى احترام الإسلام لهنّ في فترة ملكيّتهنّ لينلن حقوقهنّ الحقة كنساء، وبطبيعة الحال؛ فإنّ الجارية إذا أنجبت لمولاها ولداً صارت حرّة تلقائيّاً. وثانياً: انتخاب المملوكة بدلاً من انتخاب الزوجة الثانية له شرائطه الأسهل بعد الزواج مع لزوم

إعطائهنّ حقوقهن الحقّة.. ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾.

١٠. اختيار الزوجة أو الجارية للزواج يمنع من الظلم و الانحراف عن العدالة بشكل كبير﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ ﴾.

١١. ما هو الهدف من العدالة التي أضحت من جملة شروط إباحة تعدّد الزوجات؟

وهل أنّ هذه العدالة متعلّقة بشؤون الحياة؛ من قبيل النوم المشترك ووسائل الرفاهية و الراحة؟

وهل المراد بالعدالة وجودها في القلب وعلى مستوى العواطف الإنسانيّة؟

لا ريب في أنّ جميع ما يكلّف به الرجل من مراعاة العدالة متعلّق بالناحية العمليّة و الخارجيّة، أمّا رعاية العدالة على مستوى المحبّة القلبيّة؛ فهو خارج عن وسع الإنسان، إذ لا أحد قادر على ضبط محبّته التي هي خارجة عن وجوده، ولهذا لم تعدّ مراعاة النحو من العدالة أمراً واجباً، وقد قال سبحانه وتعالى في الآية (١٢٩) من سورة النساء: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ وعليه؛ فما دامت المحبّة القلبيّة لا توجب ترجيح واحدة على أخرى من الزوجات من الناحية العمليّة؛ فهي غير ممنوعة..

١٢. يمكن للبعض أن يتصوّر بأنّه بضمّ العبارة الأخيرة من هذه الآية﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً ﴾ إلى الآية (١٢٩) من هذه السورة القائلة: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ يمكن الاستنتاج والقول بأنّ تعدّد الزوجات في الإسلام ممنوع على الإطلاق، ذلك لأنّ الآية الأولى اشترط فيها العدالة لدى التعدّد، و الآية الثانية عدّت التزام العدالة بين الزوجات أمراً محالاً... إلّا أنّ هذا النوع من الاستنتاج من ضمّ الآيتين إلى بعضهما مسألة خاطئة لأنّه:

أوّلاً: كما وردت الإشارة إلى أنّ المراعاة المطلوبة في العدالة هي غير تلك الخارجة عن قدرة الإنسان ووسعه القلبيّ، وهذه المراعاة ليست من شروط تعدّد الزوجات، وإنّما المطلوب هو ما

يرتبط بالعدالة العلميّة.

ثانياً: قوله تعالى في آخر الآية (١٢٩) من سورة النساء: ﴿ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ أي: حيث تعجزون عن تقسيم المساواة في المحبّة بين زوجاتكم، فلا تميلوا لواحدة من زوجاتكم كلّ الميل القلبي بحيث تتركون الأخرى وتجعلون منها معلّقة.. وهذا بحدّ ذاته يعدّ دليلاً على أنّ المراد من قوله تعالى ﴿ لَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ ﴾ في عدم إمكان إظهار المحبّة والميل القلبي من ناحية الزوج الى زوجاته بشكل متساوي، وإنّ ذيل هذه الآية دليل على جواز تعدّد الزوجات، وبالنتيجة؛ فإنّ الذين اجتزؤوا قسماً من هذه الآية مع قسم من الآية الأخرى، أو غفلوا عنه.. تورّطوا في هذه الشبهة فيما يتعلّق بمسألة تعدّد الزوجات، وهو مثار تعجّب لكلّ مفسّر، بالإضافة إلى أنّ وجهة النظر الفقهيّة وجملة المصادر الشيعيّة والسنّيّة في مسألة تعدّد الزوجات لا تدع فرصة للجدل أو التنازل، باعتبار أنّ المسألة من ضروريّات الفقه الإسلامي..

١٣. بالالتفات إلى أنّ الآية أعلاه أباحت تعدّد الزوجات ضمن شروط أساسيّة وحدود معيّنة.. وها هنا نواجه اعتراضات المعترضين الذين لم يتجرّدوا عن عواطفهم ولم يعمدوا إلى التحقيق العلمي والمنصف فرفعوا عقائرهم ضد القانون الإسلامي. ولاسيّما الغربيّون منهم. و راحوا يتساءلون عن إباحة الإسلام تعدّد الزوجات وقولهم بأنّ القرآن قد فوّض للرجل أن يجعل لنفسه أجواء السلاطين الذين لا يكتفون بامرأة واحدة...

١٤. سؤال: ترى ما هي فلسفة الإسلام في إباحته للرجال تعدّد الزوجات؟ الإجابة على هذا السؤال الهامّ بحاجة إلى مقدّمات:

المقدّمة الأولى: لا شكّ في أنّه لدى قراءة مختلف الأجواء التي سبقت الإسلام، نصل إلى النتيجة القائلة بأنّ موضوع تعدّد الزوجات لم يكن من مقترحات الإسلام، إذ أنّ المجتمعات، بما فيها مجتمع الوثنيّين قبل ظهور الإسلام كان لبعض أفراده عشر زوجات أو أكثر أو أقلّ،

والحال أنّ الإسلام لم يكن ليجيز تأسيس أجنحة نساء وسراري كما يتصوّر البسطاء ذلك، كما أنّه لم يجز تعدّد الزوجات بلا قيد وشرط وحدود، بل إنّ دين الله تعالى أطّر الموضوع بأطر خاصّة ضروريّة ووضع له قيوداً مهمّة وشروطاً جادّة..

المقدّمة الثانية: أنّ قوانين الإسلام تحوم حول حمى الحاجات الواقعيّة للناس، فلم تتبع الشعارات والدعايات والعواطف.. ولقد نظر الإسلام إلى قضيّة تعدّد الزوجات من هذه الزاوية الحكيمة.

المقدّمة الثالثة: لا ينكر أحد أنّ الرجال معرّضون لمخاطر الحوادث أكثر من النساء، من قبيل الحروب، حيث يسقطون ضحايا فيها دون النساء.

المقدّمة الرابعة: لا شكّ أنّ عمر الحياة الجنسيّة للرجال أطول ممّا هو في النساء، إذ النساء يفتقدن استعدادهنّ وقابليتهنّ الجنسية في مرحلة سنيّة معيّنة تقريباً، والحال أنّ الرجال ليسوا كذلك.

المقدّمة الخامسة: ثمّ موانع تعترض النساء على الصعيد الجنسي حين العادة الشهريّة وفترة الحمل، وهذا ما لا يبتلى به الرجال..

المقدّمة السادسة: هناك العديد من النسوة من يفقدن أزواجهنّ لأسباب كثيرة، فلا يستطعن في الغالب أن يجذبن الرجال إليهن كزوجات أوّليات، ولو منعت مسألة تعدّد الزوجات؛ بقين بلا أزواج طيلة أعمارهن.

والآن؛ وبالنظر لهذه الواقعيّات في مثل هذه الحالات، حيث يلغى التوازن بين الرجل والمرأة بعلل مختلفة، ترانا مجبرين على اختيار واحدة من ثلاث طرق:

الف: أن يقنع الرجل بزوجة واحدة، فتبقى النساء الأخريات بلا أزواج إلى آخر أعمارهنّ، فيقضى ـ في هذه الحالة ـ على جميع أحاسيسهنّ وميولهنّ الفطريّة والغريزيّة.. فإذا أردنا اختيار هذه الطريق؛ وجب علينا النهوض في مواجهة ومقارعة الفطرة والغريزة والحاجة

الروحيّة والجسميّة للمرأة وتجاهل عواطفها ومشاعرها.. ولا ريب أنّ هذه المواجهة التي لا غالب فيها. وعلى فرض تحقيق هذه الخطوة والاختيار بصورة عمليّة. فإنّه لن يخفى على أحد نواحيها غير الإنسانيّة. وفي الحقيقة إنّ مسألة تعدّد الزوجات في مواقع الضرورة يجب أن لا ينظر إليها أو لا تطالع من نافذة عين الزوجة الأولى، بل ينبغي أن تبحث من زاوية الزوجة الثانية.. والذين يرفعون عقائرهم ويتحدّثون عن مشاكل الزوجة الأولى في مسألة تعدّد الزوجات هم من ينظرون إلى المسألة ذات الأبعاد الثلاثة من زاوية واحدة فقط، ذلك لأن مسألة تعدّد الزوجات يجب أن تقرأ من زاوية الرجل ومن زاوية الزوجة الأولى وكذلك من زاوية ونظرة الزوجة الثانية، ثمّ يجب إصدار الحكم تبعاً لمصلحة المجموع..

ب: أن يكون للرجل زوجة قانونيّة واحدة، ولكن العلاقة الإباحيّة واللّامشروعة مع نساء غير متزوّجات. بصورة المرأة المعشوقة. ولو جرى اختيار هذه الطريق؛ وجب الاعتراف والإقرار بالفحشاء بشكل رسميّ، إضافة إلى أنّ المرأة المعشوقة التي نالت حظّاً من رغبتها الجنسيّة لا ضمان لمستقبلها ولا تبقى لها شخصيّة وكرامة إنسانيّة، بل إنّها ترمى بعد أن يقضي الرجل منها وطره، وهذا من جملة أمور لا يجيزها أيّ عاقل..

ج: القادرون على اتّخاذ أكثر من زوجة؛ ولا يتسبّب لهم ذلك. من الناحية الجسميّة والماليّة والأخلاقيّة. بمشكلة ما، وهم في الوقت نفسه قادرون على مراعاة العدالة بين زوجاتهم وأولادهم.. يتاح لهم أن يختاروا أكثر من زوجة.. ولا ريب في أنّ هذه الطريق الثالثة تلبّي المتطلّبات الفطريّة والرغبات والميول الغريزيّة للنساء بشكل إيجابيّ، كما تجنّبهنّ العواقب السّيئة للفحشاء والحياة المضطربة وتخلّص المجتمع من السقوط في مستنقع الرذيلة والخطيئة..

١٥. معلوم أنّ حلّيّة تعدّد الزوجات للرجال تعتبر في بعض الحالات ضرورة اجتماعيّة ومن جملة الأحكام المسلّمة في الإسلام. ولكنّ توفّر شروطها في العصر الحاضر يتفاوت بصورة

كبيرة عما كان عليه في العصور الماضية، ذلك لأنّ الحياة في الماضي كانت تسير بشكل بسيط وعادي، ولذا؛ كانت مراعاة المساواة والعدالة بين الزوجات أمراً أكثر يسراً وتتأتّى لغالب الأفراد.. ولكنّ العصر الحاضر يوجب على الذين يريدون الاستفادة من هذه الحلّيّة أن يولوا سلوكهم كلّ الدقّة والرقابة لضمان العدالة التامّة والشاملة، فإن ثبتت قدرتهم على ذلك؛ أقدموا على اختيار أكثر من زوجة.. ومن المؤكّد أن اختيار أكثر من زوجة ينبغي أن لا يتمّ بدافع الرغبة والهوى..

١٦. لا شكّ في أن بعض مدّعي الإسلام يسيئون استغلال التشريع الإسلامي في تعدّد الزوجات دون مراعاة الروح الإسلاميّة في هذا القانون، فتراهم يتّخذون لأنفسهم أجنحة نساء و حريم ويعتدون على حقوق النساء والزوجات.. ولكن يبقى أنّ هذا العيب ليس من القانون في شيء، بل إنّ الممارسات الظالمة لهؤلاء لا يصح حسابها من جملة التعاليم الإسلاميّة.. ومن الطبيعي بمكان أن يظهر أفراد في كلّ مجتمع وملّة يسيؤون الانتفاع من القانون..

١٧. مع عدم إنكار ميول بعض الرجال إلى تعدّد الزوجات في كلّ عصر، ورغم أنّ تلكم الميول الصادرة عن الرغبة والهوى ليست بالظاهرة العامّة، إلّا أنّه يحدث تارة أن تكون المرأة عاقراً وتكون رغبة الرجل في الذرّيّة شديدة، فيكون الميل إلى اتّخاذ زوجة أخرى أمراً منطقيّاً.. وقد يحدث في تارة أخرى أن يضطرّ الرجل إلى زوجة أخرى بدافع ميله الجنسيّ الشديد أو عجز الزوجة الأولى عن إشباعه جنسيّاً، بل إنّه قد يقدم على إشباع غريزته الجنسية عبر طرق غير مشروعة.. وفي مثل هكذا حالات لا يمكن كذلك إنكار منطقيّة إرادة الرجل...

١٨. سؤال: هل يمكن - كما في الظروف والحالات المتقدّمة الذكر - تحليل ذلك للمرأة أو النساء، فيباح لها ولهنّ اتّخاذ أكثر من زوج؟!

يجب أن يقال لدى الإجابة:

أوّلاً: (خلافاً لما هو معروف بين العوامّ) إنّ الرغبة الجنسيّة لدى الرجال أشدّ ممّا في النساء،

ولعلّ من جملة موارد الاضطراب والانزعاج المذكورة في الكتب العلميّة الخاصّة بالمسائل الجنسيّة؛ مسألة برودة المزاج على عكس ما يتمتع به الرجل، بل إنّ الحركة الجنسية لدى الحيوانات الأخرى غالباً ما تصدر عن الذكر.

ثانياً: أنّ تعدّد الزوجات لا تسبّب بمشاكل اجتماعيّة وحقوقيّة، والحال أنّ المرأة إذا ما اتّخذت لنفسها أكثر من زوج، فإنّها ستنتهي إلى مشاكل كثيرة وكبيرة، ولعلّ أبسطها مجهوليّة نسب وليدها، حيث لا يعلم لأيّ الزوجين أو الأزواج يعود، ولاريب أنّ هكذا ولد لن يحظى برعاية أيّ من الآباء مع امكانيّة تحديد نسبه بواسطة الاختبارات الحديثة (DNA)، وطبقاً لمذاهب بعض العلماء والمحقّقين، فإنّ الولد مجهول الأب قلّ أن يتمتع برعاية أبويه وحنان أمومة، وبهذا؛ سيعيش هكذا أطفال محرومين من العاطفة، كما أن واقعهم القانوني سيكون مبهماً، إضافة إلى أنّ استعمال موانع الحمل وانعقاد النطفة غير مضمونة على الدوام، ولا يمكن أن تكون دليلاً على عدم الإنجاب، فقد تعمد كثير من النساء إلى استعمال هذه الوسائل؛ فيخطئن في طريقة الاستعمال؛ فتنعقد النطفة، وعلى هذا؛ ليس ثمَّ امرأة تلجأ إلى تعدّد الأزواج بالاعتماد على ذلك، ولهذا؛ لا يمكن أن يكون تعدّد الأزواج أمراً منطقيّاً، وهذا ما يكون طبيعياً ومنطقيّاً وعمليّاً في تعدّد الزوجات مع مراعاة الظروف والشروط..

الآية ٤

وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. كلمة ﴿ نحلة ﴾ تعني ـ فيما تعني ـ العطية والهدية المجّانية التي لم تعط مقابل ثمن، كما أنّ النحلة لغةً تعني الدين والقرض..

٢. ﴿ صدقاتهنّ ﴾ جمع صداق بمعنى المهر.

٣. وبتفسير كلمه ﴿ نحلة ﴾ الواردة في هذه الآية بمعنى الدين، فإنّه يلزم أن يقال بأنّ الآية وضمن الإشارة إلى أحد الحقوق المسلّم بها للنساء، تؤكد على أن مهور النساء يجب أن تسلّم لهن كما تسلّم الديون إلى أصحابها، مضافاً إلى عدم الانتقاص منها، فينظر إلى المهور كما ينظر إلى الديون.. وإذا ما فُسرت كلمة ﴿ نحلة ﴾ بمعنى العطيّة؟ صار المعنى: أن المهر عطيّة إلهية، وأنه تعالى قد خصّ المرأة بالمهر؛ للزيادة في حقوقها على الصعيد الاجتماعي؛ جبراً لضعفها الجسماني؟ فكان لابدّ من أن يسدّد لها بصورة تامّة كاملة.

٤. رغم أنه قد ورد في مطلع الآية وبصراحة الحكم بوجوب حفظ حقوق النساء، من قبيل إيتائهن مهورهن كاملة.. إلّا أن ذيل الآية تضمّن القول بضرورة احترام مشاعر الطرفين لتوطيد العلاقة والروابط القلبية والعاطفية، فقال تعالى: ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ أي: حلالاً طيباً.. لكي لا تتحكم القوانين الحادة والباردة بالمحيط الأسري، بل لابد من أن تأخذ العواطف والحب دورهما أيضاً بين الزوجين وأجواء الأسرة..

٥. من المعلوم والواضح أن الرجال في عصر الجاهلية لم يكونوا يكنّون احتراماً يذكر

للنساء، ومن هنا؛ كان أولياء المرأة يعطون مهرها بشكل كامل، فكان الأولياء يعتقدون بأن مهر المرأة جزءٌ من أملاكهم دونها، ولعل البعض منهم كانوا يجعلون من مهر ابنتهم أو أختهم مهراً لمن يتزوّجون بها.. أي أنهم يجعلون من أختهم التي يزوّجونها مهراً للمرأة التي يتزوجونها في مقابلها.. فكان هذا هو مهر المرأتين.. إلّا أن الإسلام أبطل هذا السلوك والمذهب الباطلين الظالمين.. وجعل المهر حقّاً مسلّماً به معلوماً وخاصاً للمرأة دون غيرها.. ولطالما أوصت آيات القرآن الرجال بمراعاة حقوق النساء.

٦. مع أن الإسلام لم يعين مقداراً للمهر، وأنّه قد أوكل ذلك إلى اتفاق طرفي عقد الزواج.. إلّا أنّه ـ من ناحية أخرى كما هو الوارد في نصوص العديد من الروايات ـ أكّد وأصرّ على عدم المغالاة والمبالغة في مقدار المهر[١] مع أن هذا التأكيد لا يمثل حكماً إلزامياً بمقدار ما هو أمر مندوب..

٧. سؤال: حيث أن العلاقة الزوجيّة علاقة مبنية على أساس المنفعة المشتركة والمتبادلة، وأن الرجل والمرأة ينتفعان بصورة عادلة أو متساوية ضمن عقد الزواج.. ترى ما هو الدليل الذي يوجب على الرجل أن يدفع مبلغاً ـ قليلاً أو كثيراً ـ للمرأة الزوجة تحت مسمّى المهر؟ ثمّ ألا يعرّض هذا الموضوع المرأة إلى الضرر المعنوي، أو يصور المرأة بهيئة. السلعة التي تباع و تشترى؟

لدى الإجابة على التساؤل أعلاه، ينبغي القول: صحيح أنّ الرجل والمرأة ينتفعان حين العلاقة الزوجية بشكل متعادل.. إلّا أن حذف المهر لا يضيف لشخصية المرأة شيئاً، بل ولعلّه يعرّض حالها إلى الخطر، إذ لا شك لدى انفصال المرأة عن الرجل أنّها ستحتمل نوع ومقدار خسارة وغبن، لأنّه:

١- راجع: وسائل الشيعة، ج٢١، ص٢٤٩ إلى ٢٥٣

أولاً: بناءً على أساس الحقيقة والواقع الواضح وغير القابل للإنكار والمعلوم من الوضع البشري الاجتماعي. وحتى على مستوى المجتمعات الغربية حيث تتمتّع النساء بمستوى من الحرية يكاد يكون تاماً. فإن الرجال وطبقاً لقابلياتهم البدنية التي تؤدي بهم إلى نوع و مستوى أكبر من النفوذ والسطوة والقيادة..

ثانياً: أن الرجال لهم الحظوة الأكبر في اختيار الزوجة الأخرى. بعد طلاق الزوجة الأولى أو موتها. إلّا أن الزوجة المطلقة أو الأرملة، ولا سيما بعد مرور الأعوام المديدة على عمرها وافتقارها لرأس مالها المتمثل بالنضارة والشباب، فإن قابليتها في اختيار الزوج تتضاءل، ومن هنا؛ و بالالتفات إلى هذه الجهات الواضحة حيث تهبط إمكانات المرأة أكثر مما يمكن تهبط لدى الرجل.. وإذ ذاك يكون المهر بمثابة جبر لخسارة المرأة ووسيلة لضمان حياتها المستقبلية، مضافاً إلى أن قضية المهر غالباً ما تأخذ طابعاً رمزياً في مقابل ميول الرجل نحو الانفصال والطلاق.

٨. رغم أن المهر من وجهة القوانين الشرعية الإسلامية يعد عاملاً لتثبيت عقد الزواج والعلاقة الزوجية؛ فيبقى متعلقاً في ذمة الزوج، وللزوجة المطالبة الفورية والمباشرة به، ولكن حيث أنه يأخذ شكلاً كشكل الدين في ذمّة الرجل، وهكذا يعتبر توفيراً مالياً يضمن شيئاً من مستقبلها، ودعماً لحفظ حقوقها، ومانعاً دون انهيار عقد العلاقة الزوجية (ولا ريب في أن لهذا الموضوع استثناءات، إلّا أن ما أشرنا إليه يصدق على كثير من الموارد).

٩. التفسير الخاطئ الذي أدلى به بعض الأفراد الجهلة للمهر، فوصفوه على أنه نوع ثمن للمرأة.. لا علاقة للقوانين الإسلامية به، إذ المهر لا وجه له أبداً بالقيمة والثمن والبضاعة في الشريعة الإسلامية، وإن أدلّ دليل على ذلك ما أوجبه الإسلام من صيغة إجراء عقد الزواج، حيث تصير فيه المرأة والرجل ركنين أساسيين في الزواج، حيث المهر إذ ذاك وتحديده شيء إضافي وكمالي، وهكذا لا تبطل صيغة عقد الزواج إذا لم يذكر المهر.. والحال أن عقود البيع

والشراء وكثيراً من العقود التجارية والمعاملات تواجه البطلان إذا لم تذكر فيها القيم والأثمان (ولكن الثابت في الأمر أنّ المهر إذا لم يذكر في صيغة العقد صار الزوج موظفاً ـ في حال المباشرة الجنسية ـ أن يعطي الزوجة مهر المثل للزوجة).

١٠. كلمة ﴿ هنيئاً ﴾ صفة مشبهة من مادّة هناء، وهي تعني سهولة هضم الطعام، وكذلك تعني قبول الطبع، والكلمة تستعمل في الأطعمة وتناولها، فيقال مثلاً: هنيئاً مريئاً، و هنيئاً طيباً. أمّا كلمة ﴿ مريئاً ﴾ فتعني اليسر في هضم المشروبات.. فالشراب المرئ هو ذلك الشراب الذي يهضم بيسر من قبل الجهاز الهضمي و يتقبّله طبع الإنسان. و على هذا؛ فالهنيء يستعمل في المطعومات و المشروبات.. أمّا المرئ؛ فيستعمل في المشروبات فحسب.. وهكذا إذا قال لك أحدهم: هنيئاً مريئاً، فإن المعنى يكون: طاب وهنئ ما طعمته وشربته.

الآية ٥

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

٢. يقول الراغب في (مفرداته): السفه على وزن تبه، وهو في اللغة نوع من قلة الوزن والخفة في البدن؛ بحيث لا يحفظ التعادل لدى المشي، و من هنا؛ يقال للسرج غير المتّزن و المتحرك دوماً: سفيهاً.. ثم لعدم التناسب هذا، تستعمل هذه المفردة في الأفراد عديمي الرشد الذهني، وتارة يشا ربها إلى خفة عقولهم فيما يتعلّق بالبعدين المادي والمعنوي.[1]

٣. معلوم أن المقصود بالسفاهة في هذه الآية عدم الرشد الكافي بخصوص الأمور المالية وطريقة التصرف بالمال التي تكون في مصلحة الفرد، وتتجلّى هذه السفاهة بحيث يعجز الشخص عن إدارة شؤونه المالية وحفظ مصلحته لدى التعامل التجاري بحيث يتعرض للخديعه، والشاهد على هذا قوله تعالى في الآية الثانية: ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾.

٤. مع أن بحث هذه الآية متعلق بالأيتام، إلا أنه يحكي عن حكم كلي وعام في جميع الموارد، حيث لا ينبغي للانسان ـ في أيّ مورد كان ـ أن يجعل الأموال التي هي تحت رعايته، أو كانت حياته ومعيشته منوطة بها بشكل من الأشكال، تحت تصرف أفراد قليلي العقل وغير رشيدين، ولا يبقى ـ بهذا الصدد ـ ثَمَّ فرق بين الأموال العامة (أموال الدولة الإسلامية) وغيرها، و الشاهد على ذلك الروايات المنقولة في هذا المجال عن أئمة الهدى،[2] وفضلاً عن اتّساع

١- مفردات ألفاظ القرآن، ص٤١٤

٢- راجع: الكافي، ج١، ص٦٠ وج٦، ص٣٩٧ و٣٩٨ وتفسير القمي، ج١، ص١٣١

مفهوم الآية؛ ولا سيما كلمة (السفيه).

٥. مفردة (السفيه) بمعنى خفّة العقل، ولعلّها تعني في اللغة مطلق الخفّة والفراغ في شيء أن يكون كذلك، ومن هذا الباب يقال للّجام الرقيق والدقيق: زمام السفيه وللخرقة الخلقِة والرقيقة الحياكة: ثوب سفيه، فالثوب السفيه، هو الثوب الذي حيك قماشه حياكة رديئة.. ولكن الكلمة أكثر ما تستعمل؛ في ضعف العقل؛ و تختلف المعاني حسب اختلاف المقاصد والأغراض.. فمثلاً يقال للضعيف والقاصر والعاجز عن إدارة أمور دنياه: سفيهاً، كما يقال: سفيه، ويراد به المقصّر في مراعاة أمور آخرته ولو كان فطناً في إدارة أمور دنياه.. فهو غير مبالٍ لأمور آخرته وقد يرتكب أعمال الفسق والفجور. ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾

٦. تعريف الأشخاص السفهاء من جهة نظر الروايات:

أ. نقرأ عن مولانا الإمام الصادق (ع) أنّ شخصاً يدعى إبراهيم بن عبدالحميد قال: سألت الإمام عن تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ ﴾ فقال: شاربو الخمر سفهاء ولا ينبغي إيتاؤهم الأموال..[1]

ب. وورد في رواية أخرى النهي عن اختيار شارب الخمر لكي يكون أميناً على المال.[2]

ج. أطلقت رواية أخرى عنوان السفيه على جميع الأفراد غير الجديرين بالاعتماد لجهة من الجهات، وقد ورد النهي عن إيداع الأموال (الشخصيّة والعامّة) لديهم. قال يونس بن يعقوب: سألت الإمام جعفر الصادق (ع) عن تفسير الآية: ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ ﴾ فقال: «مَن لا تثق به» والسفيه هو من لم يكن محطّ اعتماد.[3]

١- تفسير العياشي، ج١، ص٢٢٠

٢- نفس المصدر.

٣- نفس المصدر.

٧. يفهم من هذه الروايات أن لكلمة (السفيه) معنىً واسعاً، وهو الذي ورد النهي عن إيداع الأموال العامّة والخاصّة لديه.. علماً أنّ النهي قد ورد في بعض الموارد بعنوان التحريم، وفي بعضها الآخر بمعنى الكراهة فيما لو لم يكن السفه شديداً.

٨. السبب في تفسير السفه والسفيه بشارب الخمر أن الشخص المعاقر للخمر يضيّع ويفرّط بماله مضافاً إلى تفريطه بشخصيّته وكرامته، إذ أيّ سفهٍ أشد من أن يفرّط المرء بماله وبعقله ويبيعهما ليشتري الجنون؟! فهو يكرّس قواه البدنيّة لهذا الغرض التافه ليتسبب بالمضار والخسائر الاجتماعيّة الكثيرة...

٩. رغم احتمال خطور السؤال التالي على أذهاننا.. وهو: إذا كانت الآية وردت بخصوص أموال اليتامى، فلماذا استعملت كلمة ﴿ أموالكم ﴾ ولم تقل: أموالهم ـ اليتامى ـ؟ للإجابة على هذا السؤال ورد تفسيران:

التفسير الأوّل: يمكن أن يكون السبب في استعمال كلمة ﴿ أموالكم ﴾ إيضاح مسألة اجتماعيّة واقتصاديّة؛ حيث يعدّ الإسلام جميع أفراد المجتمع كتلة واحدة، بحيث لا يمكن عزل مصلحة فرد واحد عن مصالح بقيّة الأفراد، وكذلك هو الضرر الفردي الذي لا ينبغي تصوره في معزل عن الضرر الاجتماعي العام.. ولهذا السبب؛ استعمل ضمير المخاطب ﴿ أموالكم ﴾ بدلاً عن ضمير الغائب (أموالهم) فيكون المعنى: أنّ هذه الأموال غير متعلّقة ـ في الحقيقة ـ بالأيتام فحسب، بل إنّها متعلّقة بالجميع، وإن تعرّضت للضرر؛ فإنّكم ستتضررون بشكل غير مباشر، مما يوجب على الجميع تحصينها والعمل للمحافظة عليها.

التفسير الثاني: أنّ المقصود من كلمة ﴿ أموالكم ﴾ أموال الأوصياء لا أموال اليتامى، بمعنى: إنْ رمتم مساعدة الأفراد اليتامى الذين لم يبلغوا رشدهم، فلعلّكم تتأثرون بالعواطف و الأحاسيس غير المنضبطة فتؤتونهم أموالاً وتكلّفونهم بمهام خارجة عن طاقاتهم، وإن الأفضل من هذه الأعمال غير العاقلة أن يُكفوا نفقتهم في الملبس والمسكن والمأكل حتّى

يبلغوا رشدهم..

١٠. أن المنع والنهي القرآني عن إيتاء السفهاء الأموال العامّة والخاصّة يؤكّد درساً اجتماعياً عظيماً يقدّمه القرآن لنا لكي لا نكلّف الأفراد القاصرين والعاجزين بما لا يطيقون، وحتّى لو تُصوّر وجود منفعة جزئيّة لهم، فإنّ من المتوقّع تعرّضهم لأضرار كبيرة، ممّا يستدعي إدارة شؤونهم عبر تقديم المساعدة المجّانيّة..

١١. ﴿ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾ واضح أن التأكيد والمنع القرآني عن إيتاء الأموال العامّة والخاصّة للسفهاء من الأفراد، يشير إلى الأهمّيّة التي يوليها الإسلام للمسائل المالية والاقتصاديّة، ذلك لأنّ الأمّة الفقيرة عاجزة عن المقاومة والاستقامة ﴿ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾.

١٢. مفهوم استعمال القرآن في هذه الآية كلمة (فيها) في عبارة ﴿ وارزقوهم فيها ﴾ بدلاً من كلمة (منها) يبين أن معيشة الأيتام يجب أن تؤمّن ضمن رؤوس أموالهم والأرباح التي تدرّ منها، ذلك لأنّه إذا كان قال: ارزقوهم من رؤوس أموالهم، صار مفهوم العبارة القرآنيّة: وجوب الأخذ من رؤوس أموالهم شيئاً فشيئاً.. والحال أنّهم ـ اليتامى ـ إذا بلغوا رشدهم وجدوا شطراً من أموالهم قد ضاع.. ولهذا؛ وجدنا في الأمر القرآني ـ الوصية للأوصياء على اليتامى أن يحرصوا كل الحرص على إحراز المنفعة والربح في أموالهم؛ حفظاً لأصول هذه الأموال على الأقل.

١٣. ما يفهم من ظاهر الآية الشريفة المنع والنهي عن التفريط في الإنفاق على السفهاء، إذ ورد المنع عن إيتائهم من الأموال ما يزيد على حاجتهم.. والمسألة الجديرة بالالتفات أن بحث الآية الشريفة في إطار أموال اليتامى (حيث الأمر لأولياء أمور اليتامى وضرورة تحقيق الربح لهذه الأموال) وهذا المعنى هو القرينة على أنّ المراد من السفهاء ليس عموم السفهاء؛ وإنّما هم السفهاء من اليتامى.

١٤. المراد من كلمة ﴿ أموالكم ﴾ في الحقيقة هي الأموال ذات الصلة بأولياء اليتامى، كما

أن عبارة ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾ بمثابة الشاهد على هذا المعنى.. ولو اضطررنا ونسبنا تكليف سائر أولياء السفهاء إلى الآية الشريفة، صار لابد لنا من القول إن المقصود من حكمة السفهاء؛ عامّة السفهاء (اليتيم وغير اليتيم) ولكنّ الاحتمال الأوّل (إذ المقصود خاصّة السفهاء الأيتام) احتمال راجح وواضح.

١٥. إذا كان مقصود الآية من السفهاء؛ السفهاء اليتامى، فالمراد من جملة ﴿ أموالكم... ﴾ هو أموال اليتامى خاصّة، وإنّ العلّة في نسبة أموال اليتامى إلى أولياء الأيتام. وهم مخاطب الآية الشريفة. وذلك بواسطة أن أحكام الإسلام لها بعد أساسي.. وينبغي أن نعلم أن المالك الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى، وأنّه المتصرّف المطلق في أموال الدنيا، وقد جعلها تحت تصرّف البشر.. كما قال عزّوجلّ: ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ وقد جعل المال وسيلة معاش وبقاء الحياة الإنسانيّة، ولم يجعلها حكراً على شخص بذاته لكي لا يطالها التغيير والتبديل أو لا يقوم هذا الشخص المحدّد بإنفاقها على أحد ليعجز عن حجر ذلك الشخص ضمن دائرة القوانين الدينيّة.. ولكن من أجل مصالح معيّنة، أذن في أن تتاح هذه النعمة لمجموع الناس وطبقاً لحالات محدّدة مثل الوراثة والحيازة والتجارة حيث شرّعها الله واتاحها لأشخاص معيّنين. مع اشتراط صفات محدّدة في المتصرّف؛ مثل العقل والبلوغ والإرادة وغير ذلك من الشروط من هذا القبيل، ولهذا؛ فقد أوجب على أفراد البشر حفظ هذا المال ونهاهم عن الإسراف فيه، وعليه؛ لا يصح أن يؤذن للسفهاء في الإسراف والتبذير، بل لا بدّ أن يدير العقلاء أموال السفهاء كما يديرون شؤون وأموال الصغار، وألزمهم الله تعالى أن يصلحوا في شؤونهم، وجعل أمر الإصلاح هذا فيما منفعة المال بالتجارة وأمثالها، وأن يستوفي ذو المال (السفهاء) حقوقهم من أرباح الأموال لئلّا يلحق الضرر برأس المال..

١٦. يمكن أن يفهم من الآية الشريفة قضية ولاية الولي تجاه مختلف أمور المحجور عليهم، حيث يعلم منها أن الله تعالى لا يرضى أن يكون ثم فرق بين أمور الفرد السفيه والمجنون

وأي محجورآخر وبين سائرأفراد الناس.. وإنما يتوجب على المجتمع المسلم أن يتولّى أمور المحجورعليهم.. فإن توفّرت طبقات الأولياء من قبيل الأب أو الجدّ للأب، لزم أن يتولّيا أمور المحجور عليه ويباشرا إدارة شؤونهما.. وما لم تتوفّر طبقة الأولياء وأفرادها، وجب على الحكومة الشرعيّة المسلمة أن تتولّى ذلك (وتعيّن فرداً من الأفراد وليّاً على المحجورعليه) وما لم تتوفّر حكومة المسلمين الشرعيّة؛ وكان الحاكم الطاغوت هو المسيطر على شؤون المسلمين، لزم جمع المؤمنين أن يتولّوا شؤون المحجورعليه.

١٧.عبارة: ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ... ﴾ نظير جملة: ﴿ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾ وعلى هذا؛ يصير المراد من الرزق؛ الطعام الذي يتناوله الإنسان واللباس الذي يرتديه ليحفظ بهما صحته وقوامه ويؤمن البرد أو الحر اللذين قد يصيبانه.. إلّا أن لفظة (الرزق والكسوة) في العرف القرآني هي ذات كلمة الكسوة والنفقة في استعمالنا اللّغوي.. أو مثل الكناية فتتوفّر من مجموع نفقة المعيشة والمخارج.. وعليه؛ فإنّ ما سوى الطعام واللباس يدخل جميع ما يحتاجه المرء؛ من قبيل المسكن والدواء تحت مسمّى الرزق، كما أنّ كلمة (الأكل) تتضمن معنيين، أحدهما؛ بحسب الأصل اللّغوي الذي يعني مضغ الطعام وابتلاعه. والآخر له بُعد كنائي يتضمن مطلق التصرفات.. وهو المعنى الذي تناوله قوله سبحانه: ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾.

١٨. جملة: ﴿ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ جملة أخلاقيّة، يتمخّض عن الالتزام بها إصلاح أمر ولاية الأفراد السفهاء؛ وإن كان هؤلاء محجورين وممنوعين من التصرّف بأموالهم الخاصّة؛ إلّا أنّهم ليسوا حيوانات لا يميزون بين الخطاب الصالح وبين الخطاب الطالح، بل هم بشر؛ ولابد من معاملتهم معاملة إنسانيّة، ومخاطبتهم بالخطاب البشري، دون السوء من المعاملة و القول؛ كما لابدّ من معاشرتهم معاشرة إنسانيّة.. كما يمكن أن تكون الجملة ـ محطّ البحث بمعناها اللّغوي .... تشير إلى ضرورة عدم الاكتفاء بمجرد الخطاب والتكلّم؛ بل إنّها تتضمن

إشارة وكناية تتضمن مطلق المعاشرة والتعامل.. فتقول: إنّ أولياء الأفراد السفهاء عليهم أن يعاملوهم معاملة إنسانية من جميع الحيثيّات؛ في الخطاب والجلوس والقيام، كما قلنا بخصوص الآية الجليلة: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ إنّها تعني مطلق التعامل والمعاشرة..

روايات في الموضوع

روي في (تفسير العيّاشي) عن يونس بن يعقوب قال: سألت الإمام الصادق(ع) عن قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ ﴾ وما المقصود بالسفهاء ومن يكونون؟ فقال: هم من لا تثق بهم ولا تعتمد عليهم.[١]

وفي نفس المصدر روي عن إبراهيم بن عبد الحميد قال: سألت الإمام الصادق(ع) عن معنى الآية: ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ... ﴾ فقال: من يشرب الشراب فهو سفيه.[٢]

وفي المصدر أعلاه عن علي بن أبي حمزة عن الإمام الصادق(ع) في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ ﴾ فقال: السفهاء هم الأيتام؛ فلا تؤتوهم أموالهم حتى يرشدوا.. فقلت: فلماذا عدّت الآية أموال اليتامى أموالنا، فقالت: أموالكم؟ فقال(ع): هم من يرثون اليتامى...[٣]

وورد في (تفسير القمي) عن الإمام الباقر(ع) أنّه قال في ذيل هذه الآية: حين يعلم المرء سفهاً في أهله أو ولده، يلزمه أن لا يسلّطه على شيءٍ من ماله، لأن الله سبحانه قد جعل المال وسيلة قوام الحياة.. ثم قال(ع) : المراد من قوام الحياة: المعاش (إلى آخر الحديث..).[٤]

١- نفس المصدر.

٢- نفس المصدر.

٣- نفس المصدر.

٤- تفسير القمي، ج١، ص١٣١

الآية ٦

وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

نقاط جديرة بالاستفادة من الآية

١. استعمال مفردة الابتلاء والامتحان بخصوص الأيتام قبل بلوغهم يشير إلى أنّ هذا الامتحان المطلوب نوع تربية عمليّة لهم، بحيث يجب أن يعمد إليه بصورة مكررة ومستمرة حتى يتزوّجوا.. فيتبين حالهم من حيث الرشد العقلي لتتوفر فيهم القدرة والقابليّة على إدارة أمورهم الماليّة: ﴿ وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ ﴾.

٢. الهدف والمقصود من امتحان وابتلاء اليتامى إلى مرحلة الزواج هو التعليم والتربية الفكرية بصورة تدريجيّة، ليتمكّنوا. بشكل مستقل. من إدارة حياتهم الاقتصادية بالاستفادة من ميراثهم وأموالهم الخاصّة.. ولهذا يتّضح أنّه ليست الغاية إعطاءهم وتسليمهم أموالهم حين البلوغ بشكل مفاجئ أن يتلقّوا التربية والتعليم. بل ينبغي إعدادهم. قبيل البلوغ. ضمن منهج تربوي عملي ليخوضوا بعد ذلك حياتهم الجديدة المستقلّة.

٣. يمكن أن تكون كيفية اختبار اليتيم إلى وقت ومرحلة الزواج بحيث يعطى شطراً من مال، على سبيل الاختبار والتجربة، ليمارس عملية الشراء أو البيع ضمن مراقبة وليّ أمره دون أن يتدخل مباشرةً أو أن يسلبه صفة الاستقلال في التصرف التجاري.. ثم إن عُلم في اليتيم

القابليّة على إدارة شأنه الاقتصادي والتجاري.. لزم أن يُعطى ماله بالتمام والكمال إذا ما نجح في الاختبار.. وإلّا وجب العمل على مواصلة تربيته وتعليمه وإعداده ليتسنّى في مستقبل أيامه

أن يمسك بزمام حياته ومصيره في نهاية المطاف.

٤. يمكن أن تكون جملة ﴿ حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ ﴾ إشارة إلى الحقيقة القائلة بأن لغاية و منتهى مراقبة وإشراف ولي أمر اليتيم حدّاً محدوداً، وهو زمان بلوغه مرحلة الزواج، إذ الغالب في أنّ من تكون له القدرة على النكاح؛ تتوفر فيه القدرة على تأسيس كيان الأسرة، ومثل هذا الفرد يكون عاجزاً عن تحقيق أهدافه، وعليه؛ فإنّ بداية الحياة الزوجية تقترن ببداية الحياة الاقتصادية المستقلة.. وبعبارة أخرى؛ تصير أمواله إلى أيدي اليتامى حينما تكتمل قابليات أبدانهم، وتشتد حاجتهم إلى المال، مضافاً إلى بلوغهم الفكري وتتوفّر فيهم القدرة على حفظ المال..

٥. يمكن أن يفهم من انضمام قوله تعالى: ﴿ وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى ﴾ إلى غاية ومنتهى فترة الابتلاء والامتحان حيث تبيّن أنّها عند حدّ ﴿ حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ ﴾ أنّه وإن كان امتحانهم يجسّد تربيةً وتعليماً، إلّا أن هذه الغاية الزمانية ﴿ حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ ﴾ تشير إلى أن منتهى الامتحان قد رسمت لتعيين فهم ورشد اليتيم وليس لبيان حكم عدم استقلاله حتى فترة الزواج، إذ من الممكن أن تتوفر في يتيم ما قدرة ذكاء ونبوغ تؤهله إلى إدارة شؤونه المالية وميراثه حتى قبل فترة زواجه.. وهنا ليس ثم مانع من اعتباره قد بلغ الحدّ المحدود؛ فلا يصحّ حرمانه من استقلاله..

٦.﴿ ءانستم ﴾ مشتقة من الإيناس بمعنى المشاهدة والرؤية، كما أن هذه المادة مشتقة من مادة الإنسان حيث أن أحد معانيها بؤبؤ العين (لأن الإنسان حين الرؤية لشيء يستعين ببؤبؤ عينه، ومن هنا قيل للمشاهدة إيناساً) وهذه الجملة إشارة إلى أن رشد اليتيم يجب أن يحرز

تماماً.

٧. ينبغي لولي أمر اليتيم ومدير شؤونه أن يعلم أنّ مال اليتيم أمانة في يده.. ليترعرع اليتيم وينمو ثم لتتوفر فيه القابلية على استثمار ماله بشكل أفضل، أو يقوم هو. الولي. بالتصرف و الانتفاع لليتيم.. وعليه أن يحرص أن تتضاءل ثروة اليتيم بدلاً من أن تنمو أو تضيع وتتبعثر؛ فيتضرر اليتيم اقتصادياً ﴿ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ﴾.

٨. لعلّ إدارة أموال اليتامى والإسراف عليها وحفظها بسبب اشتداد الحاجة إلى الوقت والمكان، والوليّ إذا وجد في نفسه الحرج المالي لدى إدارة شؤون اليتيم، كان له حق الاستفادة من مال اليتيم تحت مسمّى الأجرة.. فلو كان الأمر كذلك أبيح له ذلك مع مراعاة الورع والعفاف.. أما إذا كان الولي فقيراً، كان له الأخذ والاستيفاء من مال اليتيم مع رعاية العدل والانصاف بما يساوي ما يبذله من جهد. وقد ورد في هذا المجال روايات أوضحت ما تقدم، ومن جملتها ما روي عن الإمام الصادق (ع):

«فذلك رجل يحبس نفسه عن المعيشة؛ فلا بأس أن يأكل بالمعروف إذا كان يصلح لهم، فإن كان المال قليلاً فلا يأكل منه شيئاً»[1] أي: إذا كان مال اليتيم قليلاً، فلا يأخذ منه الولي شيئاً؟ لأنه لا يستحق العمل به أجرة، ولو أخذ منه شيء لتلاشى ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾.

٩. آخر حكم جرى بيانه بخصوص إدارة الأيتام في هذه الآية هو أنّه حينما يصار إلى تسليمهم أموالهم، يلزم إشهاد شهيدين لدرء أي نزاع أو تهمة: ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ﴾.

١٠. الموضوع الأهم هو أن نعلم أنّ الحاكم الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى.. وأن عمل

١- الكافي، ج٥، ص١٣٠

الإنسان سيصار إليه وهو الذي يحكم عليه ويزكّيه.. لأنه سبحانه وحده المحاسب الواقعي لأعمال البشر.. ولو أنّ ذنباً أو خيانة صدرت عنا بعيدة عن عيون الآخرين؛ فإنّه تعالى سيحاسب عليها.. ﴿ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا ﴾.

الآية ٧

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾

شأن نزول هذه الآية

كان مشهوراً في عصر الجاهلية أن الرجال وحدهم هم الذين يرثون موتاهم، وكان العرب يذهبون ـ إذ ذاك ـ إلى أنّ العاجزين عن حمل السلاح والدفاع، وكذلك العاجزون عن الإغارة على الخصوم، ليس لهم الحق في الميراث.. ولهذا؛ كانوا يحرمون النساء والأطفال من الإرث، ويعمدون إلى تقسيمه فيما بين الرجال وإن كانوا من الأباعد عن الميت.. حتّى صادف أن أحد الأنصار وكان يدعى أوس بن ثابت مات وقد ترك وراءه بنات وبنين صغار، فجاء أولاد أعمامهم؛ ومنهم رجلان كانا يدعيان خالد وأرفطه وقسّما أموال عمهما بينهما ولم يتركا شيئاً لزوجة المتوفّى ولا لأولاده..

فشكت الزوجة أمرها إلى النبي(ص).. ولم يكن حتّى ذلك الوقت قد نزل حكم شرعي بهذا الشأن.. وهنالك نزلت الآية أعلاه، فاستدعى صلوات الله عليه وآله الرجلين وأمرهما أن لا يتدخّلا في أمر ميراث عمّهما أوس بن ثابت، وأن يدعاه إلى الطبقه الأولى من الورثة، وهم المتمثلون في الزوجة والأولاد لتتم عملية القسمة طبقاً لما يتنزّل من الآيات والأحكام السماوية فيما بعد.[1]

١- الدر المنثور، ج٢، ص١٢٢

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية. وضمن المواجهة العلمية وإبطالها عادات الجاهلية وأحكامها في عدم رعاية حقوق النساء والأطفال في الميراث. عمدت إلى بيان حق الإرث بين الرجال والنساء.

٢. إن حفظ حقوق المرأة كما هي حقوق الرجل من أهم النقاط التي اهتمت بالتساوي في ألفاظ هذه الآية الخاصة بسهمان الإرث الموزّعة بين النساء والرجال من آبائهم وأمهاتهم ﴿ للرجال نصيب... وللنساء نصيب... ﴾.

٣. عبارة ﴿ نصيباً مفروضاً ﴾ شرح للحكم الخاص بتعيين الإرث، وهي تزيل الشكّ والترديد في إعطاء الرجال والنساء أسهمهم من الارث، وكونه واجب الأداء.

الآية ٨

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ٨﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية الكريمة تبيّن حكماً أخلاقياً واستحبابياً فيما يتعلّق بطبقات الأقارب من الدرجة الثانية أو الثالثة وكذلك بعض الأيتام والفقراء مع وجود الطبقات الأقرب.. فأولئك محرومون من الإرث مع وجود هؤلاء.. علماً أن هذه الآية نزلت بعد نزول قانون تقسيم الميراث، لأنّها تقول: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ ولا ريب في أن تعيين مقدار هذا الرزق والعطاء منوط بإرادة الورثة وبكميّة التركة.. وهكذا يُحال دون الحسد والحقد والبغضاء التي تؤدّي إلى تنافر ذوي القربى، مضافاً إلى توطيد صلة القربى..

٢. رغم أن كلمة ﴿ اليتامى والمساكين ﴾ وردت مطلقة؛ ولكنّ المقصود ـ ظاهراً هم ذوو القربى أيتاماً ومساكين..

٣. احتمل بعض المفسرين في هذه الآية احتمالين:

الاحتمال الأوّل: أنّ المقصود من الأيتام والمساكين في هذه الآية كل يتيم ومسكين؛ سواء كانوا من أقارب الميت أو غيرهم.. إلّا أن هذا الاحتمال يبدو بعيداً، إذ يندر حضور غير الأقارب لدى تقسيم الميراث.

الاحتمال الثاني: أنّ هذه الآية تبيّن حكماً وجوبياً لا استحبابياً.. ولكنّ هذا بعيد أيضاً، ذلك لأنّه لو كان لهؤلاء حق واجب لجرى تعيين حدوده، والحال أنّه قد أنيط ذلك إلى الورثة الحقيقيّين..

٤. فضلاً عن ناحية المساعدة الماديّة للمساكين واليتامى، لزم الحديث عن الصلاح

والخير مع ملاحظة الخُلق الإسلامي بهدف إحراز المحبّة وحفظ الحرمات والاحترام الشخصي لهذا النوع من الأفراد؛ لاسيما ذوو القرابة.. مضافاً إلى طرد احتمال الحسد والبغضاء والعداوة.. وعليه؛ فإنّ هذا الأمر دليل آخر على استحباب الحكم المذكور﴿ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾.

٥. يمكن أن يكون ورثة الميت أشدّ حاجة من غيرهم، أو أن يكون من بينهم من هو في حاجة أشد لكونه فقيراً أو يتيماً، وبالتالي يقدّم على غيره من الأيتام والمساكين الأقارب، وفي هذه الحالة؛ إن أريد عدم إعانة اليتيم والمسكين الحاضر في القسمة من الأقارب، لزم أن يبرّر عدم المساعدة بصورة لائقة محترمة لتجنّب إلحاق الضرر والإحراج ﴿ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾

٦. واضح. بملاحظة ما تقدّم من نقاط آنفة. وعدم التضادّ بين آيات الإرث هذه الآية؛ لا دليل في أيدينا على أن نقول بأن حكم الآية المذكورة قد نسخ بالآيات التي حدّدت أسهم الإرث..

الآية ٩

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. الذين يخشون على مستقبل أولادهم، يجب أن يخشوا خيانة الأيتام، وأن يتصرّفوا تجاه أيتام الناس بما يجب أن يكون التصرف مع أيتامهم.

٢. الذين يسنّون ـ بأعمالهم السيئة والقبيحة ـ سنّة الظلم الاجتماعي (كأكل مال اليتامى و يشيعونه في المجتمع) إنّما هم ـ في حقيقة الأمر ـ يتسبّبون في تعرّض أولادهم لهذا النوع من الأذى في المستقبل، وعليه؛ فإنّهم لا يظلمون أولاد الآخرين فحسب، بل ويمهّدون للظلم بحقّ أولادهم؛ هم أيضاً..

٣. حاجة الطفل اليتيم لا تنحصر في المأكل والملبس، وإنّما التجاوب مع عواطفه ومشاعره أمر أهمّ ممّا تقدم بكثير، وهي ذات تأثير عظيم في مستقبله، ذلك لأنّ الطفل اليتيم كما هو شأن غيره، عبارة عن إنسان؛ ولابد من تغذيته من وجهة النظر العاطفية، ولابد من انتفاعه بالحنان والمحبّة، كما هو الشأن في الطفل الطبيعي الذي يتمتّع بحنان الأبوين ومحبّتهم.. بل لابدّ من رعايته النفسية كما تتم الرعاية البدنيّة.. وغير ذلك؛ وإلّا سيتحول إلى كائن منكسر فاقد لقوّة الشخصيّة، وقاسي القلب خطير التصرّف.. ومن هنا؟ كان لزاماً على أولياء اليتامى أن يتورّعوا عن مخالفة الأحكام الإلهيّة الخاصّة باليتامى، كما أن عليهم أن يختاروا لمنطقهم مع اليتامى ألفاظاً تعبّر عن أنبل العواطف لتكون خير بلسم لجراحاتهم النفسية والقلبية: ﴿ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴾.

الآية ١٠

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. كما قلنا في مقدمة تفسير هذه السورة، فإنّ آياتها قد نزلت بهدف بناء مجتمع سالم لغرض تأسيس حكومة إسلامية، ولهذا؛ فهي تعمد إلى إزالة رواسب العهد الجاهلي ومساوئ الحقبة السابقة للعهد النبوي التي كانت ما تزال عالقة متشبّثة في قلوب حديثي الإسلام، لتتهيّأ أرضية المجتمع السالم.. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾.

٢. رغم أن السورة من بدايتها قد استعملت تعابير شديدة اللّهجة بخصوص السلوك السيّئ في أموال اليتامى، إلّا أن هذه الآية هي الأصرح والأبلغ..

٣. نظير العقوبة التي ينتظرها المتجاوزون على مال اليتامى والتي ورد ذكرها في هذه الآية؛ لم يرد إلّا مرة واحدة في القرآن؛ حيث الآية الرابعة والسبعون بعد المئة، وذلك فيما يتعلّق بالذين يعمدون إلى إخفاء وتحريف الحقائق والآيات الإلهيّة بدافع إحراز المنافع والمصالح التافهة والحقيرة والقصيرة الأمد، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ ﴾.

٤. ﴿ سيصلى ﴾ فعل مأخوذ في الأصل من مادّة (صَلَى) بمعنى الدخول في النار والاحتراق فيها. و﴿ سعيراً ﴾ بمعنى النار الملتهبة.

٥. من قوله عزّوجلّ: ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ يستفاد ويعلم أن

أعمالنا وفضلاً عن وجهها الظاهري، فنّ لها وجه حقيقي وواقعي رغم خفائه عن أنظارنا في هذا العالم، وإنّما سيتجلّى الوجه الواقعي للأعمال في عالم آخر، وهنالك ستتّضح مسألة تجسّم الأعمال..

٦. مع أن ظاهر عمل هؤلاء الذين يأكلون مال اليتيم أنهم يتناولون لذيذ الطعام وألوانه، إلّا أن حقيقة هذا الطعام نار محرقة، وهذا الواقع سيكشف بكل جلاء في يوم القيامة، هذابالإضافة إلى أن الوجه الواقعي للعمل له ما يناسبه ـ تماماً ـ بطبيعته الظاهريّة.. وكما أن أكل مال اليتيم وغصبه حقوقه يحرق قلبه ويؤذي روحه، كذلك فإنّ حقيقة هذا العمل نار حارقة..

٧. إنّ الالتفات إلى حقائق الأعمال من جهة الذين يؤمنون بها بمثابة المانع الأفضل دون ارتكاب السيئ منها، وإذا ما رأينا رجال الله تعالى يتجنّبون مجرّد التفكير في المعصية، فإنّما مردّهم إلى هذه المسألة.. إذ لا جرم أنهم يرون الوجه الحقيقي للأعمال فلا يتورطون في التفكير في الخوض في المعاصي؛ تبعاً لمدى إيمانهم وعلمهم وتربيتهم الأخلاقية الراقية.

٨. لا يسع مدّعي الإيمان بالله تقدّست أسماؤه أن يأكلوا ـ من ـ مال اليتيم بغير حق.. إذ مَثَلُ من يفعل ذلك مثل من يتناول قِطَعاً من النار ويضعها في فمه ثم يبتلعها.. وكذلك هو مَثَلُ غير الناضجين وغير المؤمنين ممّن لا يتجاوز نظرهم غير ظواهر الأمور؛ مثل طفل جاهل لا يعلم من أمره وممّا حوله شيئاً.. فلعلّه ينجذب إلى ظاهرة ضوئيّة وهو لا يعلم كونها ناراً حارقة؛ فيضع كفّه فيها.. غير أن الناضج الخبير كان قد خبر حرقَ النار مراراً؛ فتراه يمتنع امتناعاً مطلقاً عن التحرّش بلهيب النار أو وضع كفّه فيها..

٩. هناك الكثير من الأحاديث والروايات الواردة في المنع من التجاوز على أموال اليتامى،

ولطالما صرّحت بأن أكل مال اليتامى يسري إلى أدنى درجات التجاوز..[1] وقد ورد عن أحد الصادقين(ع) في معرض الإجابة عن مقدا ر التجاوز ومسمّاه وما يلحق ذلك من العقوبة.. فقال: ولو بمقدا ر الدرهمين...[2]

١- راجع: وسائل الشيعة، ج١٧، ص٢٤٤ إلى ٢٤٨

٢- تفسير العياشي، ج١، ص٢٢٣ و٢٢٤

الآية ١١

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ
فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ
فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا
ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن
كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ
فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي
بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ
نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾

شأن نزول الآية

روي عن جابر بن عبدالله قال: مرضت ذات يوم فعادني رسول الله(ص) وكنت قد غبت عن وعيي، فطلب النبي(ص)، ماءً فجيئ به، فتوضأ بشيء منه ونثر الباقي عليّ، فعدت إلى وعيي وقلت: يا رسول الله! ماذا سيحلّ بأموالي من بعدي؟ فأطرق صلوات الله عليه وآله هنيئة حتّى نزلت الآيات . أعلاه . وعينت سهام الميراث..[١]

١- مجمع البيان، ج٣، ص٢٣

نقاط ست كمقدّمة في بيان قانون الإرث

١. يحكم العقل والمنطق والعدل ـ بناءً على أنّ كلّ إنسان مالك طبيعي لأتعابه ـ وكما أنّ الأب والأم وأقارب الإنسان ينقلون قسماً من خصائصهم الوراثيّة وصفاتهم الجسديّة والروحيّة (طبقاً لقوانين الوراثة الطبيعيّة) لأجيالهم الّلاحقة، وطبقاً للفطرة ترى جميع الناس يرغبون بنقل أموالهم وما يتركون بعد موتهم، وهي حاصل جهودهم وأتباعهم، إلى أقرب أقاربهم..

٢.لأنّ موت الإنسان يوجب انفصاله عن أمواله، فإن الرأي الأعدل أن تنتقل تلكم الأموال إلى الذين يمتّون إليه بصلة القرابة، وذلك لأن استمرار الموتى تتجسّد في أقاربه..

٣. مع أنّ قانون الإرث أمر طبيعي وفطري، إلّا أنّ أثره عميق في توسعة الجهود الاقتصاديّة، ولهذا السبب؛ تجد الكثير من الناس ومع حيازتهم الطائل من الأموال؛ لا يكفّون عن مساعيهم المالية والتجارية لغرض تأمين وضمان حياة أولادهم..

٤. لأن لقانون الإرث جذراً فطرياً في وجود الإنسان، ترانا إذا ما راجعنا تواريخ الأمم الماضية، والتوراة والإنجيل وجدنا هذا القانون ماثلاً أمام نواظرنا.. فمثلاً؛ نرى في التوراة هذا القانون قد ورد بصراحة في سفر الأعداد؛ حيث جاء القول: قل لبني إسرائيل إذا مات أحدهم ولم يكن له ابن؛ فميراثه لابنته، وإن لم تكن له بنت؛ فميراثه لإخوانه، وإن لم يكن له إخوة؛ فليكن ميراثه لإخوة أبيه، وإن لم يكن لأبيه إخوة؛ فليكن ميراثه لأقرب أقاربه.. وهذا الأمر كان حكماً واجباً في بني اسرائيل حيث أمر الله نبيّه موسى(ع) بذلك بعد أن كانت قوانين الإرث فيهم تدور حول أقارب الرجل في نسبه دون ذكر للزوجة... وفي دين المسيح عليه السلام لابد من سريان القانون الإرثي أعلاه، لاسيما وأن الأناجيل المتوفّرة قد نقلت عن المسيح(ع) قوله بأنه لم يبعث ليغيّر شيئاً من أحكام التوراة، ولهذا لا نجد أثراً في كتب النصرانيّة ورسائلها الدينيّة بحثاً عن موضوع الإرث الّلهمّ إلا بضع كلمات تشير إلى الإرث المعنوي والأخرويّ..

٥. قانون الإرث في قبائل العرب ـ قبل الإسلام ـ كان ضمن ثلاث طرائق:

الف: النسب (والمقصود بالنسب عندهم مجرّد البنين والرجال بعد أن حرموا الأطفال والنساء من الإرث).

ب: التبنّي، أي أن يعمد الرجل إلى نسبة ولد إليه كان قد طرد من أسرته، وهنا يعطى هذا المتبنّى من ميراث الذي تبنّاه..

ج: العهد والميثاق، كأن يتعاهد شخصان على الدفاع عن بعضهما في الحياة وأن يتوارثا بعد موت أحدهما..

٦. الإسلام وبطرده الخرافات والتمييز الظالم الذي كان ولا يزال بين المرأة والرجل من جهة، وبين الكبار والصغار من جهة أخرى في قانون الإرث، يكون قد لخّص أساس وقاعدة الإرث في ثلاثة أمور:

الف: النسب؛ بمفهومه وأفقه الواسع. أي كلّ صلة عن طريق الولادة بين شخصين في مختلف الأبعاد، وأشمل من أن يكون في الرجل والمرأة والكبير والصغير.

ب: السبب: أي؛ العلائق الناتجة عن طريق الزواج بين الأفراد.

ج: الولاء: أي؛ العلائق الأخرى المتكوّنة من غير طريقي (السبب والنسب) بين فردين، مثل:

* ولاء العتق:

يعني: إذا أعتق الرجل عبده، ولم يكن لهذا العبد أقارب في النسب أو السبب، عاد ما ترك العبد المعتق إلى من حرّره (وهذا بحدّ ذاته نوع تشجيع وأجر لمن يعتق عبده ويحرّره).

* ولاء ضمان الجريرة:

وهذا عهد وميثاق خاص يتمّ بين شخصين بإرادتهما واختيارهما، فيتعهّد الطرفان بالدفاع المتبادل عن بعضهما في مختلف الحالات، وإن يتوارثا عند موت أحدهما (فيما لو انعدم أقارب السبب والنسب).

* ولاء الإمامة:

أي؛ إذا مات أحدهم ولم يكن له وارث نسبي وسببي وغير ذلك، كان ميراثه للإمام المعصوم(ع)، وبتعبير آخر: إلى بيت مال المسلمين (الشرعي).

ولمزيد من الاطّلاع على شرائط وأحكام ميراث كلّ طبقة من الطبقات، راجع الكتب الفقهيّة المتخصّصة بهذا الصدد.

خصائص قانون الإرث الإسلامي

١. طبقاً لنظام الإرث الإسلامي؛ فإن أحداً من ذوي المتوفّى ونظراً لطبيعة الطبقات، لا يحرم من الإرث، وما كان معروفاً بين عرب الجاهليّة أو بعض البلدان إذ ذاك؛ حيث تحرم النساء أو الأطفال بداعي العجز عن حمل السلاح والمشاركة في الحروب؛ ويعطى الإرث للأقارب وإن بعدوا.. فهو يمثل قاعدة لا يعترف بها الشرع الإسلامي، بل إنّ هذا الأخير قد أتاح لجميع الأفراد من أقارب المتوفّى أن يرثوا تبعاً لطبقاتهم المحدّدة في قانون الإرث.

٢. هذا القانون يلبّي الحاجات الفطريّة الإنسانية المشروعة، ذلك لأنّ الناس يرغبون ـ دوماً ـ أن يروا حاصل أتعابهم بين من يعدّونهم جزءاً من وجودهم، إذ يمثّل هؤلاء استمراراً لحياة أولئك، ولذا؛ نجد ـ طبقاً لهذا القانون ـ أن سهم الأولاد أكثر من غيره، كما أنّ أسهم الأب والأم وسائر الأقارب ـ كلٌّ بحسبه ـ جديرة بالملاحظة من حيث الأهمّيّة.

٣. هذا القانون يشجّع الأفراد الأكثر حرصاً على السعي والإنتاج وتحريك العجلة الاقتصاديّة، ذلك لأنّ الإنسان يندفع إلى مزيد من السعي والإنتاج حينما يرى حاصل أتعاب عمره قد صار إلى يد من هو متعلّق بهم، مهما كان قد بلغ من العمر وفي ظلّ أي ظرف اجتماعي، حتّى أنه سيحرص على تجاوز ما قد يصادفه من عقبات وأزمات.

٤. لا ريب أن قانون الإرث الإسلامي يمنع تراكم الثروة وتكدّسها، لاسيّما وأن نظام الإرث في الإسلام يقسّم الثروة بعد كلّ جيل بشكل عادل بين أفراد عديدين، وعبر هذا السبيل يساعد

على توزيع الثروة بصورة عادلة، وهذا التقسيم للثروة وضع بحيث يرضى به الجميع..

٥. لم ينظّم قانون الإرث في الإسلام على أساس طبيعة علاقة المتوفّى بالوارث، وإنّما جرى الاهتمام بالحاجة الواقعيّة التي تعتري الورثة. فمثلاً؛ إذا وجدنا إرث البنين ضعف إرث البنات ـ حسب الظاهر ـ أو أن إرث الأب ـ في بعض الموارد ـ أكثر من إرث الأم، فإنما المردّ في هذا لأنّ الرجال مثقلون بالمسؤوليات الماليّة الكبيرة طبقاً للشرع الإسلامي، وهم يتحمّلون نفقات النساء، ومن هنا؛ أضحت حاجاتهم الماليّة أكبر من حاجات النساء..

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. التأكيد القرآني على رعاية حقوق الأولاد في العبارة الأولى من الآية يحكي حقيقة أنّ حقّ الولد على أبيه ليس مجرد إظهار العواطف والأحاسيس، وإنّما هناك ما يتعدّى ذلك من حيث الوصيّة بالعطاء المالي فيما بعد الموت للولد، ولهذا؛ كان حرمان الأولاد من الإرث من الذنوب الكبيرة ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾

٢. حيث لا صلة قربى أقوى من قرابة الإبن والأب، نجد القرآن المجيد قد حكم بتقديم وأولويّة الأولاد على غيرهم من الطبقات في الإرث ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾.

٣. الدقّة المستعملة في هذه الآية من حيث الترتيب وطبيعة إيضاحها تشير إلى حقيقة أن إرث البنات هو الأصل والقاعدة، فيما جعل إرث البنين بصورة الفرع وكونه تابعاً لذلك التعيين والتحديد.. وذلك لأنه ـ القرآن ـ يقول: ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ وهذا نوع تأكيد على استحقاق البنات للأرث وكصراع ومواجهة للسنن والعادات الجاهليّة الحاكمة آنذاك، حيث كنّ يحرمن الإرث تماماً.. ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾.

أسئلة في موضوع الآية

* السؤال الأوّل:

أن يرد في هذه الآية الشريفة القول إن كنّ ﴿ فوق اثنتين ﴾ فإنّه يعني: إن كانت البنات أكثر من اثنتين، فإن ثلثي المال والتركة يعودان إليهن، وعلى هذا؛ فإنّ هذه الآية قد سكتت عن حكم الاثنتين، وإنّما الذي تحدّثت عنه هو حكم البنت الواحد والبنات المتعدّدات..

والجواب على هذا السؤال أو الوجهة في الحديث يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل:

بملاحظة العبارة الأولى من الآية: ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ تتّضح الإجابة على هذا السؤال إجمالاً، إذ أن ورثة الميت إن كانوا ابناً واحداً وبنتاً واحدة فقط؛ لكان للبنت ثلث وللإبن ثلثان، وعلى هذا؛ يكون سهم البنتين. طبقاً لهذه الآية. مساوياً لسهم الابن حيث يكون ثلثين، ولهذا السبب لم يرد الحديث في المقطع التالي من الآية عن سهم البنتين، ولم ترد الإشارة فيه إلا لسهم البنات المتعددات لما يزيد على اثنتين، وهو الذي لا يتجاوز الثلثين ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ أي: إن كان أولاد الميت بنتين أو أكثر؛ فإن ثلثي التركة يعودان إليهنّ ﴿ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ من مجموع المال ولا يتجاوز الثلثين..

القسم الثاني:

لنا أن نجيب على هذا التساؤل بإمعان النظر وبمراجعة آخر آية من سورة النساء، حيث جرت الإشارة إلى أن سهم الأخت الواحدة هو النصف (كما هو سهم البنت الواحدة) ثمّ تضيف الآية قائلة: ﴿ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾.[1] ومن هذا الحكم نفهم أنّ الأختين تأخذان الثلثين أيضاً.

١- سورة النساء/ ١٧٦.

القسم الثالث:

يمكن أن نجيب أيضاً بأنّ هذا التعبير مستعمل في لغة العرب، حيث يقولون: فوق اثنتين، ويريدون الاثنتين وما فوقهما.. ثمّ إن الحكم المذكور- من وجهة النظر القانونيّة الإسلاميّة ومصادر الحديث الصحيح - وإن شابه نوع إبهام؛ فإنّه يزول بملاحظة السنّة (مصادر الحديث).

* السؤال الثاني: لماذا جعل الاسلام إرث الرجل الواحد ضعف إرث المرأتين؟

كمقدّمة؛ يجب أن نقول: وإن كان الظاهر من هذه الآية يشير إلى أن إرث الذكر ضعف إرث الأنثى، إلّا أنّ مزيد الدقّة والملاحظة يوضّح ويؤكّد بأنّ إرث الأنثى ضعف إرث الذكر.. وذلك بسبب دعم وحماية الإسلام لحقوق ومكانة المرأة.

أمّا الإجابة على السؤال أعلاه؛ فينبغي أن نعرف بأن الغالب في الدنيا هو إلقاء مسؤوليات ووظائف على عاتق الرجال مع أن نصف ما يحصل عليه الرجل الواحد ينتهي إلى النفقة على المرأة بشكل عملي، في حين أنّها خليّة من أيّة وظيفة ومسؤوليّة ماليّة.. فالرجل مسؤول عن توفير نفقة ومعاش زوجته بما يناسب العرف وما تحتاج إليه من مسكن وملبس ومأكل وأمثال ذلك، كما أنّ الرجل ملزم بتوفير حاجات الأولاد، فيما الزوجة - المرأة - غير مكلّفة بذلك لنفسها أو لصغارها على حدٍ سواء.. وعلى هذا؛ يكون بمستطاع المرأة أن تدّخر كلّ سهمها من الإرث لنفسها، بينما الرجل مضطرٌّ إلى إنفاق سهمه على زوجته وأولاده.. وبالنتيجة سينفق الرجل نصف ما يحصل من المال - إرثاً أو غيره - على زوجته، ويبقي النصف الآخر لنفسه، فيما سيبقى سهم الأنثى لشأنها الخاص دون نقصان...

مثال لإيضاح المطلب:

لنفترض أن مجموع الثروة الموجودة في العالم تعادل (٦٠٠) مليارد دينار، ثمّ يجري تقسيم هذه الثروة عن طريق الإرث بين النساء والرجال (البنات والبنون).. ثم لنحصي مجموع ما

يحصل عليه الرجال مع ما تحصل عليه نساء العالم عن طريق الإرث، لنجد أن هذا المبلغ سيكون عبارة عن (٤٠٠) مليار سهم للرجال و (٢٠٠) مليار هي سهم النساء.. ولكن حسب المتعارف.. تنتهي النساء إلى الزواج وتكون وظيفة الإنفاق عليهن على عاتق الرجال، ولهذا؛ يكون للنساء أن يدّخرن حصّتهنّ البالغة (٢٠٠) مليار، وأن يشاركن الرجال في حصّتهم البالغة (٤٠٠) مليار عملياً، لأنّ حصّة الرجال ستُصرف في إطار حاجاتهنّ وحاجات باقي أفراد الأسرة، وعلى هذا؛ سيتم صرف مبلغ (٢٠٠) مليار من حصّة الرجال عليهن، فإذا أضفنا حصصهنّ الأصليّة، صار لهنّ مبلغ (٤٠٠) مليار، أي ما يعادل ثلثي ثروة العالم.. فيما الرجال لم يبقى لهم سوى (٢٠٠) مليار.. أي نصف ما جمعته النساء.. أمّا التفاوت الظاهري الحاصل في مبدأ تقسيم الإرث؛ فعائد إلى ضعف قدرتهنّ على إنتاج الثروة. قياساً بقدرات الرجال.. وهذا نوع دعم وحماية منطقية وعادلة قد قنّنها الإسلام لتصبّ في مصلحة النساء.. فيصير سهم المرأة من الإرث ضعف سهم الرجل في حقيقة الأمر..

وبالعودة إلى المأثور من الروايات الخاصّة بهذا الشأن نعرف أنّ هذا السؤال طالما خطر على أذهان الناس الذين توجّهوا به للأئمّة المعصومين عليهم السلام.. ومن ذلك ما نجده في كتاب (عيون أخبار الرضاع) حيث أجاب قائلاً عن سبب أن إرث النساء نصف إرث الرجال؛ إنّ المرأة حين تتزوج تأخذ شيئاً فيما الرجل يضطرّ إلى إعطاء شيء، فضلاً عمّا ينفقه على أهله.. بينما المرأة غير مسؤولة عن نفقة الأسرة..[1]

* السؤال الثالث:

ما هو العول والتعصيب في الإرث؟

جذر وأصل بحثي العول والتعصيب في كتاب الإرث الإسلامي فيما يتعلّق بسهمان الإرث

١- عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٩٨

كما ورد في الآيات القرآنيّة السالفة فيما لو قلّت عن مجموع المال أو زادت، مثال ذلك:

إذا كان الورثة أختين من أب وأم وكانتا متزوجتين، فإنّ سهم الأختين ثلثا التركة.. ونصف المال الذي يشكل مجموعه (٧/٦) أي أكثر من مجموع المال بمعدل (١/٦) هنا يرد البحث وهو: هل يخصم السدس من جميع أسهم الورثة بشكل عادل؟ أم يخصم من أسهم ورثة محدّدين؟ المشهور بين فقاء المخالفين هو وجوب الخصم من أسهم الجميع، وهذا ما يسمّيه الفقهاء بالعول (ذلك لأنّ العول في اللغة يعني الزيادة والارتفاع).

وفي المثال أعلاه يقولون: السدس الزائد يجب أن يخصم من الثنتين سهماهما، وكذلك في الحالات الأخرى.. وفي الحقيقة يكون ذوو الأسهم بمثابة الدائنين الذين يعجز المدين عن السداد لجميعهم، فكأنّه مفلس وقد أعلن إفلاسه، ونحن نعلم أن مقدار النقص الحاصل يسدّ من جميع الدائنين..

إلّا أن الرأي السائد لدى فقهاء الشيعة يذهب إلى أن النقص يتوجّه إلى أفراد خاصّين، وفي المثال المذكور؛ يتوجه سدّ النقص إلى الأختين فقط.. فيقولون: كما ورد في الحديث، فإنّ الله تعالى الذي حسب لكل شيء حسابه بما في ذلك رمل الصحاري، فإنّه سبحانه قد رتّب أسهم الإرث بحيث يتبعها الكسر.. ولابد أنّه تعالى قد وضع لذلك قانوناً، وطبقاً لإعمال هذا القانون لا يبقى نقص يُتصوّر.. والقانون هو أن الورثة قد ذكر لبعضهم - في القرآن - سهم ثابت من حيث المستوى الأدنى والمستوى الأعلى، مثل أسهم الزوج والزوجة والأب والأم.. ولكن هناك من الورثة من لم يعيّن لهم سهم محدد ثابت، مثل الأختين والبنتين.. ومن هذا نعرف أن النقص والكسر يطالهما على الدوام، مع عدم تحديد حدّه الأدنى أو الأعلى.. فهو إذن قابل للتغيّر والتذبذب، ولذا - في المثال أعلاه - لا يطال الزوج نقص، وإنّما الذي يجب أن يحذف هو السدس الإضافي من سهم الأختين.

وتارة يحدث العكس، إذ يكون مجموع الأسهم أقل من مجموع المال، ويبقى مقدار

إضافي.. مثال ذلك: إذا مات رجل وترك وراءه بنتاً وأمّاً فقط، ونحن نعلم أنّ سهم الأم في هذه الحالة هو(١/٦) وسهم البنت هو(٣/٦) من المال، ومجموع السهمين هو(٤/٦)، فيكون الزائد (٢/٦).. قال مجتهد والمخالفين: ينبغي أن يعطى المال الزائد إلى عصبة الرجل وهم الطبقة التالية، مثل إخوة المتوفّى، وهذا ما يطلق عليه هنا بالتعصّب.. ولكنّ فقهاء الشيعة ذهبوا إلى لزوم تقسيم المبلغ الزائد إلى الاثنتين بنسبة (١ و٣) وذلك لأنّ وجود الطبقة السابقة يحول دون استحقاق الطبقة التالية.. هذا بالإضافة إلى إعطاء المقدار الزائد لرجال الطبقة التالية أشبه شيء بقوانين الحقبة الجاهليّة؛ حيث كانت النساء تحرم من الإرث بلا أيّ مبرّر(البحث أعلاه بحث علمي معقد أوردناه هنا على سبيل الإيجاز أما تفصيله فمتوفر في الكتب الفقهيّة).

* السؤال الرابع:

وردت صيغة الجمع في لفظ الأخوة ﴿ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ ﴾ نعلم أنّ أقلّ الجمع ثلاثة في حين أن جميع علماء المسلمين يذهبون إلى أنّ للأخوين أن يمنعا تنزّل إرث الأم..

الجواب: بالرجوع إلى الآيات القرآنية الأخرى يتّضح عدم لزوم استعمال لفظ الجمع. دوماً. في الثلاثة أفراد وأكثر، إذ لعلّ الجمع يشمل الفردين أيضاً مثل قوله تعالى: ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾.[1]

وطبقاً لتفسير المفسّرين؛ فإن هذه الآية متعلّقة بالنبيين داود وسليمان(ع)، وقد استعمل القرآن الكريم ضمير الجمع (هم) لهذين الرجلين النبيّين..[2] ومن هنا يتّضح أن لفظ الجمع يستعمل تارةً للمثنّى أيضاً.. ولكن مع وجود الشاهد والقرينة.. وفي الآية محطّ البحث ثمّ

١- سورة الأنبياء / ٧٨.

٢- مجمع البيان، ج٧، ص٩١

←

شاهد؛ وهو اتّفاق المسلمين وورود الدليل من جهة الأئمة، ذلك لأنّ جميع علماء المسلمين ـ شيعة وسنّة (إلّا ابن عباس) ذهبوا إلى كون الأخوين مشمولين بحكم الآية الشريفة.[1]

١. أشير في هذه الآية لإرث الآباء والأمهات ـ الذين هم في الطبقة الأولى من الإرث وفي مصافّ الأولاد ـ ضمن ثلاث حالات:

الحالة الأولى: شخص متوفّى، وله ولد أو أولاد.. يكون ـ في هذه الحالة ـ لكل واحد من أبيه وأمّه السدس ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ﴾.

الحالة الثانية: لا يكون ولد، وكان الوارث أباً وأمّاً فحسب.. صار سهم الأم ثلث مجموع المال ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾ وحيث لا نجد حديثاً وإشارة إلى سهم الأب، فذلك لأن سهمه معروف، وهو الثلثان، فضلاً عن أن يحدث أن يكون للميت زوجة، وفي هذه الحالة يقلّل سهم الزوجة من سهم الأب، وعليه؛ يكون سهم الأب في الحالة الثانية متغيّراً متذبذباً.

الحالة الثالثة: أن يكون الوارث أباً وأماً فقط، ولا يكون للمتوفّى أولاد.. ولكن كان له إخوة من جهة الأب والأم، أو من جهة الأب فقط.. في هذه الحالة يكون سهم الأم سدساً بدل الثلث، وفي الواقع؛ فإنّ الإخوة وإن لم يرثوا من أخاهم هنا إلّا أنهم يمنعون المقدار الزائد من إرث الأم وسهمها، وهكذا صار اسمهم: «الحاجبون» ﴿ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾.

وعلّة هذا الحكم بيّنة واضحة، ذلك لأنّ وجود الإخوة المتعدّدين يوجب ثقل كاهل حياة الأب، لأن هذا الأخير مسؤول عن إعالة هؤلاء حتّى يشبّوا، بل وهناك من التكاليف والنفقات التي يدفعها الأب لهم حتّى بعد بلوغهم، ومن هنا كان وجود الأخوة العلّة في تنزّل سهم الأم.. هذا حال الإخوة من الأب والأم، أو من الأب فقط، أمّا الإخوة من الأم فقط، فإن والد المتوفّى غير

١- نفس المصدر، ج٣، ص٢٥

مسؤول عنهم؛ فلا يحجبون..

٢. بناءً على هذه الآية؛ إذا أوصى الميّت وصيّة، أو كانت عليه ديون، فالواجب العمل بالوصيّة أو بسداد الدين بدءاً (وكما ورد في كتاب الوصيّة حيث للمرء أن يوصي بما يستغرق ثلث ما يترك، والوصية ليست بصحيحة إذا زادت على الثلث إلّا أن يجيزها الورثة.. ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾.

٣. لا شكّ أنّ الإنسان عاجز عن تحديد خيره وصلاحه على الدوام وفي كل مكان، لهذا؛ حتّى إن ظنّ البعض بأنّ الآباء والأمهات يسدّون حاجة ولدهم الميت؛ وأنّهم يجب أن يقدّموا على أولاد الميت في الإرث.. ولعلّ البعض الآخر يظنون غير ذلك، وعليه؛ لو كان قانون الإرث بيد الناس لعمّت الفوضى بمختلف أبعادها وأشكالها، لأنّ الإنسان عاجز عن تمييز خيره وصلاحه دائماً.. ولكنّ الله تعالى الذي يعلم الواقع بما هو واقع قد أرسى قانون الإرث على نظام ثابت يتضمّن خير البشر القائمة أساساً على المصالح الواقعيّة للناس، وإنّ تحديد هذه المصالح منوط ومختصّ بالله تعالى: ﴿ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ﴾.

٤. العبارة الخاتمة في هذه الآية تقول: ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمًا ﴾ هي تأكيد ـ في الحقيقة ـ على الآية السالفة.. درءاً لاحتمال تغيير الأحكام الالهيّة والقوانين السماوية المتعلّقة بسهام الإرث على مرّ العصور والدهور..

الآية ١٢

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

شأن نزول هذه الآية

توفّي عبدالرحمن بن ثابت الأنصاري أخو حسان بن ثابت الشاعر المعروف في صدر الإسلام، وترك وراءه زوجته وأولاداً خمسة، فعمد إخوة عبد الرحمن إلى تقسيم ميراثه فيما بينهم وحرموا زوجته وأولاده، فأخبروا رسول الله(ص) وشكوا أمرهم إليه، فنزلت الآية أعلاه وحدّدت

ميراث الأزواج بدقّة ووضوح.[١]

وكذلك روي عن جابربن عبد الله الأنصاري قال: مرضت، فعادني رسول الله(ص)، وكنت قد غبت عن الوعي، فطلب صلوات الله عليه وآله شيئاً من الماء، ولما جيئ له به توضّأ بمقدار منه، ورشّني بالباقي، وحين أفقت قلت لرسول الله(ص): يا رسول الله! ماذا سيكون مصير أموالي من بعدي؟ فسكت النبي هنيهة حتى نزلت آية الإرث وحكت عن أسهمه...[٢]

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. أولت هذه الآية الشريفة شرح كيفيّة توزيع تركة الميّت وأوضحتها بالصورة أدناه:

الف: إذا ماتت المرأة؛ أخذ زوجها. بعد أداء ما عليها من دين ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ وتنفيذ ما كانت أوصت به. نصف التركة في حال لم يكن لها ولد، وإن هي خلّفت وراءها ولد (وإن كان ولد من زوج آخر) لم ينل الزوج غير الربع من التركة ﴿ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ﴾.

ب: في حال وفاة الزوج، يكون سهم الزوجة. بعد أداء ديونه وتنفيذ وصيته. ربع التركة إن لم يخلّف ولداً وراءه، وإن كان له ولد؛ صار سهمها الثمن من أصل المال كما قال سبحانه: ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ﴾.

ج: لو كان للرجل زوجات متعدّدة، قسّم السهم المشار إليه بينهنّ بالتساوي، وهذا هو ظاهر الآية.

د: تتنزّل أسهم الزوجات والأزواج إلى النصف إذا تركوا أولاداً، وذلك رعاية لحال الأولاد..

هـ: العلّة الواردة في الآية السابقة بخصوص مضاعفة سهم الابن على سهم البنت؛ هي ذاتها

١- تفسير الطبري، ج٤، ص١٨٥

٢- مجمع البيان، ج٣، ص٢٣

في مضاعفة سهم الزوج على سهم الزوجة..

٢. ورد استعمال مصطلح (الكلالة) مرّتين في القرآن المجيد:

الف: في هذه الآية. ب: في الآية الأخيرة من سورة النساء.

٣.(الكلالة) في اللّغة من الكلال والكلل بمعنى التعب وذهاب القوّة والقدرة.. أمّا في الشرع فتطلق على الأخوات والإخوان الذين يرثون من المتوفّى.. ولعلّ هذا الإطلاق والتسمية عائدان إلى أن الأخوات والإخوان من جملة أفراد طبقة الإرث الثانية، وهم لا يرثون إلا في حال انعدام الأب والأم وولد الميت.. والذي لا أب ولا أم ولا ولد له يعيش التعب وقلّة القدرة والحيلة، ولذلك قيل له: كلالة ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً ﴾.

٤. بناءً على تعريف الراغب في (المفردات) فإنّ الكلالة تطلق على من يرث المتوفّى الذي ليس له أب أو أم أو ولد.. وقد ورد عن رسول الله(ص) أنّ الكلالة عنوان للشخص المتوفّى ولم يخلّف أباً ولا أمّاً ولا ولداً، ولا مانع من أن تطلق على الشخص المتوفّى أو أقاربه الذين يرثونه..[1]

٥. سؤال: لماذا استعمل القرآن مصطلح الكلالة بدلاً من مفردة الأخ والأخت؟

يمكن أن تكون العلة في ذلك أن من لا أب ولا أم ولا ولد لهم يحافظون على أمواله، ستؤول أمواله الى أفراد يدلّون على ضعفه، وعلى هذا؛ وقبل انتفاع الآخرين من المال، تراهم يتقدمون لصرفها في مواقع الضرورة في إطار مساعدة المحتاجين وحفظ المصالح العامة..

٦. الحكم الذي جرى إيضاحه في هذه الآية، حيث إذا توفّي الرجل أو المرأة ويتركان أخاً أو أختاً، فإنّ كلاً منهما يرث سدس المال، وهذا الحكم سارٍ إذا ترك المتوفّى أخاً واحدة أو أختاً واحدة، أمّا إذا كانا أكثر من واحد، ورثوا جميعاً ثلث المال ويقسم عليهم ﴿ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ ﴾.

١- مفردات ألفاظ القرآن، ص٧١٩ و٧٢٠

٧. ليس للإنسان عن طريق الوصيّة أو الإقرار بدين في ذمّته وهو ليس كذلك أن يحرم الورثة من حقوقهم، وإنّما هو مسؤول عن الإيصاء بديونه الحقيقيّة، أو أن يوصي بصرف ثلث تركته أو أقل في أمور هو يختارها، إذ أن شرط وجوب العمل بوصيّة الميت أو دينه وإخراجهما من أصل التركة وقبل تقسيمها بين الورثة في وقت لا يكون القصد من الإيصاء إلحاق الضرر بالورثة، إذ بناءً على الأحاديث النبويّة وروايات الأئمة عليهم السلام أن الوصية بما يزيد على ثلث التركة إضرار بالورثة، وأنّ إنقاذ الوصية مشروط برضاهم..[1] ونقرأ في الحديث: «إنّ الضرار في الوصيّة من الكبائر».[2]

٨. الهدف من منع الإسلام عن الإيصاء بما يزيد على الثلث من أمواله هو إتاحة الفرصة أمام الإنسان أن ينتفع من ماله حتّى بعد وفاته، مع الأخذ بعين الاعتبار الفائدة المرجوّة للورثة، فإذا ما أوصى بأكثر من الحدّ المعيّن؛ وهو الثلث، كان سبباً في كراهة وحقد الورثة على الميت، وبالتالي إضعاف أواصر محبّة الورثة مع متوفّاهم..

٩. يمكن لفرد أن يظن لدى القراءة الظاهرية للآية أنها قد حوت جميع أحكام ميراث الإخوة والأخوات؛ الأشقّاء وغير الأشقّاء؛ أو الأب لوحده أو الأم لوحدها.. إلّا أنّ إمعان النظر في مفاد وتفسير آخر آية من سورة النساء يبلغ بنا إلى القول بأنّ هدف هذه الآية إيضاح أحكام الإخوة والأخوات من أمٍّ فقط (أي: غير الأشقّاء للميت) أمّا أحكام ميراث سائر الأخوة والأخوات؛ فسيأتي لدى تفسير الآية الأخيرة من سورة النساء المباركة..

١٠. مفهوم الشركة يؤكد تساوي أسهم الشركاء في مال الشراكة، ولهذا كان للأخوة والأخوات لأم واحدة، وفي حال كانوا أكثر من واحد وأخذوا ثلث التركة؛ كان لهم أن يقسموه بالتساوي، ولا تفاوت هنا بين ذكرانهم وإناثهم ﴿ هم شركاء في الثلث ﴾.

١- راجع: وسائل الشيعة، ج١٩، ص٢٦٧ و٢٦٨

٢- مجمع البيان، ج٣، ص٢٩

١١. واضح أن قانون الإرث قائم على أساس الطبقات، ولهذا؛ فإنّما يكون للأخوة والأخوات أن يرثوا فيما لو لم يخلّف الميت أباً أو أمّاً أو ولداً.. كما هو مؤاد قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾[1] وهذه الأولويّة تحكي تحديد طبقات الإرث وترجيح بعضها على بعض.

١٢. قوله تعالى: ﴿ وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ يؤكد ضرورة احترام الإرشادات والوصايا الإلهيّة، وذلك لأنّه سبحانه وتعالى هو العالم العليم بمصالح العباد ومنافعهم، كما هو العالم بنوايا الموصين.. وهو في الوقت نفسه حليم؛ بمعنى أنه لا يسارع في عقوبة من يعصيه..

١- سورة الأنفال / ٧٥.

الآية ١٣

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. الحدود جمع حدٍّ، وهو لغة المانع أولاً، ثم أنّه يطلق على كلّ شيءٍ يفصل بين شيئين ويميّز بينهما، مثل حدود البيت والبستان والمدينة والبلاد حيث تفصل هذه الحدود ما يراد الفصل بينها وتمييزها عن غيرها.

٢. في كلمة ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى قوانين الإرث، وتبيّن أن هذه القوانين لها حدودها الإلهيّة، ويمنع الإفراط والتفريط بها، فلا يصح تجاوزها، ومن يتجاوزها مخطئ مذنب.

٣. قوله تعالى: ﴿ تلك حدود الله ﴾ تكرّر في آيات الذكر الحكيم، وهو يشير إلى بيان مجموعة وسلسلة من الأحكام والمقرّرات الاجتماعيّة، مثل الآية (١٨٧) من سورة البقرة بعد الحديث عن ممنوعيّة المقاربة الجنسية في حال الاعتكاف وأحكام الصوم، وكذلك الآيات (٢٢٩ و٢٣٠) من سورة البقرة، والآية (١٠) من سورة الطلاق بعد بيان قسم من أحكام الطلاق، وفي الآية (٤) من سورة المجادلة بعد الإشارة إلى كفّارة الظهار.. وفي كل ذلك ثم أحكام وقوانين يحرم التعدّي عليها، ولهذا؛ سمّيت حدوداً إلهيّة.

٤. إن الآيات التي تحثّ على مراعاة (حدود الله) في القرآن المجيد مثل المنع عن المباشرة الجنسيّة في حال الاعتكاف. أو أحكام الطلاق والصيام والظهار؛ تكشف عن اهتمام خاصّ في الشرع المقدس بالأمر بمراعاة وحفظ حدود التقوى والورع حين الصيام، وحفظ حرمة كرامة

الإنسان والاهتمام بأمر الفروج حين الطلاق والظهار.

٥. النجاح العظيم في امتحانات الدنيا وفي إطاعة الله ورسوله ومراعاة الحدود الإلهيّة وعدم تجاوزها، حيث تعد رعاية هذه الأمور مستلزمة لدخول الجنّة، مع أن البعض يعد ذلك نجاحاً وموفقيّة وفلاحاً في دار الدنيا أيضاً..

الآية ١٤

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ﴿١٤﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. لكل أمر وشرط نقطته المقابلة، كما أن إطاعة الله تعالى ورسوله صلوات الله عليه وآله احترام القوانين والحدود الإلهيّة ما يستلزم رضاه سبحانه ودخول الجنّة الأبديّة، وكما أن للمعصية والتمرّد على الله عزّوجلّ ورسوله(ص) والتعدي على القانون الإلهي وعدم احترام الحدود الربّانيّة ما يستلزم غضبه وعذابه تعالى والخلود في النار. ﴿ ... وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

٢. لا شكّ أن مجرّد معصية الله عزّوجلّ (مهما كانت كبيرة) لا توجب الخلود والأبديّة في جهنّم، وعلى هذا؛ فإنّ مخاطب هذه الآية هم العاصون بطغيانهم وتمرّدهم وعدائهم وإنكارهم الآيات الإلهيّة والضرورات الدينيّة؛ فيضعون أحكام الله تعالى تحت أقدامهم.. وفي الحقيقة؛ إنّهم لا إيمان لهم بالله وبيوم القيامة.. وبالتالي؛ فإنّ من الطبيعي. ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ ﴿ حدوده ﴾ صيغة جمع وتشمل جميع القوانين والأحكام الإلهيّة، فإن هذه النقطة غير بعيدة، ذلك لأنّ من يخترق ويتعدى جميع حدود الله، هو في الغالب عديم الإيمان بالله تعالى، ولو لم يكن طاغياً جباراً متمرّداً لاحترم شيئاً من الحدود الربانيّة..

٣. بمزيد من الدقّة والملاحظة في هذه الآية والآية السابقة لها نلتفت إلى نقطتين:

الأولى: السبب في الاختلاف والتفاوت الحاصل في الآية السابقة: ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ والآية محطّ التفسير: ﴿ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا ﴾ وما ورد في

الآية السابقة من صيغة الجمع، وماورد في الآية هذه من صيغة المفرد.. فكأنّ في ذلك الإشارة إلى أنّ لأهل الجنّة مجتمعهم.. وهذا الواقع الاجتماعي يعدّ نعمة بجدّ ذاته من نعم الجنّة، في حين أن كلّ فرد من أفراد جهنم منشغل بنفسه غير مهتم بمصير وعذاب غيره حيث يعيش وحيداً؛ تماماً كما هي الأنانيّة الطاغية على العصاة الجبّارين في دار الدنيا..

ثانياً: في هذه الآية؛ وفي عبارة: ﴿ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا ﴾ حيثيّة جسمانية تصوّر جهة من جهات العذاب الإلهي، وفي عبارة ﴿ وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي: عذاب وإهانة، وفي ذلك إلى الجهة المعنوية من العذاب..

الآية ١٥

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. مفردة ﴿ الفاحشة ﴾ في اللغة تعني الفعل أو القول القبيح جدّاً، وهذه هي العلّة في تسمية عملية الزنا والفعل المنافي للعفّة بالفاحشة. حيث يتجسّد فيها الخروج والانحراف عن القانون الإلهيّ بأشدّ حالاته.. ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ ﴾.

٢. كلمة ﴿ الفاحشة ﴾ من مادّة (ف ـ ح ـ ش) بمعنى الفعل القبيح والمعيب، ولكنّ الشائع هو استعمالها في الزنا، وفي القرآن المجيد جرى إطلاقها على اللوط والسحاق، وقد وردت هذه المفردة في المصحف الشريف (١٣) مرّة، وأريد بها فعل الزنا تارةً، وفعل اللواط أخرى، ومختلف الأفعال الخارجة عن المعروف عموماً.[1]

٣. هذه الآية ـ وفقاً لبيان وفهم أكثر المفسّرين ـ وبدليل قرينة قوله تعالى: ﴿ من نسائكم... ﴾ إشارة إلى طبيعة العقوبة المقرّرة التي ينبغي إنزالها بالنسوة ذوات البعول اللّاتي يجترحن الفاحشة..

١- كما أن كلمة الفحشاء (الفاحشة) أطلقت في القرآن المجيد على عموم العداوة و النصب لأهل البيت عليهم الصلاة و شيعتهم المخلصين أو على أعدائهم مباشرة (راجع: بصائر الدرجات، ج١، ص٣٤ و٥٢٨)، كما أن كلمة المعروف أطلقها القرآن العظيم على أشخاص أهل البيت عليهم السلام و على ولايتهم و محبتهم، و ذلك حيث قال تعالى: ﴿ إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر ﴾ فالصلاة كناية عن أهل البيت عليهم السلام و ولايتهم، فيما الفحشاء و المنكر أشخاص ممّن أسسوا لظلمهم و عداوتهم و قتالهم و للظلم و العداوة بحدّ ذاتها، كما يمكن أطلاقها على أشياع الظالمين. ([المترجم].

٤. عبارة ﴿ من نسائكم ﴾ وردت بخصوص الزوجات عدّة مرّات في القرآن المجيد، وعليه؛ فإنّ العقوبة على هذا العمل المنافي للعفّة للنساء ذوات الأزواج . كما ورد في هذه الآية . هو الحبس المؤبّد...

٥. من قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾ يستفاد إمّا لزوم استمرار الحبس . العقوبة . عليهنّ حتّى يدركهنّ الموت، أو إلى ما تقدّم، فإنّه يفهم بأنّ هذه الحكم كان حكماً مؤقّتاً، لاسيّما وأنّه منذ البداية كان قد أعلن أن المستقبل . بعد تهيؤ الظروف . سينزل حكم جديد بخصوص هذا النوع من النساء..

٦. حيث يفهم من ظاهر الآية ولحنها أن حكمها ليس حكماً دائماً وأنّه سينسخ فيما بعد، إذ قال سبحانه: ﴿ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾ ولهذا؛ فقد أورد المفسّرون رواية مفادها أنّ رسول الله(ص) قال حين نزلت الآية الأولى من سورة النور، وكانت خاصّة بحدّ وعقوبة الزنا: هذا هو السبيل الذي وعده الله سبحانه في الآية الخامسة عشرة من سورة النساء...[1]

٧. من الطبيعي بمكان أنّ يشمل الحكم والقانون الجديد جميع اللواتي يرتكبن فاحشة (زنا المحصنة) ولهذا؛ وبعد إعلان الحكم الإسلاميّ الجديد فيما يتعلق بالنسوة ذوات الأزواج، فإنّ اللواتي شملهن الحبس الدائمي . قبل نزول الحكم الجديد . وكن لا يزلن على قيد الحياة؛ وجب إخراجهنّ من الحبس وتحريرهنّ، ولم يصح بعد ذلك تنفيذ العقوبة الجديدة بحقّهن، والعلة في عدم شمولهنّ بالحكم الجديد أنّ هذا الحكم لا يشمل من كنّ قد ارتكبن الفاحشة المقصودة قبل نزوله وإعلانه، وهكذا صار السبيل الذي جرت الإشارة إليه في الآية والذي هو عبارة عن الحكم المستقبلي إذ ذاك.. صار طريقاً ووسيلةً لنجاتهنّ.

٨. رغم أنّ بعض المفسّرين احتملوا أن يكون المراد من جملة ﴿ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾

١- مجمع البيان، ج٣، ص٣٤

أنه سبحانه وتعالى وبواسطة الحكم المستقبلي ـ الذي هو الرجم بالحجارة للزانية المحصنة بالزواج ـ ولمن هم على شاكلتها؛ كالرجال المتزوّجين، قد فتح نافذة مشرعة لحرّياتهنّ.. إلّا أنّه بإعمال الدقّة في مفاد الآية نصل إلى النتيجة أدناه: وهي أنّ هذا الاحتمال لا يتّفق وسياق ﴿ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾، إذ لا يمكن أن يكون القتل والاعدام سبيلاً ونجاةً للإنسان.

٩. بناءً على النصوص الحديثيّة المسلّم بصحّتها؛ فإنّ قانون الإسلام وحكمه بخصوص مرتكبي (زنا المحصنة و المحصن) هو الرجم، رغم عدم ورود الإشارة إلى ذلك في القرآن المجيد، ولهذا يمكن أن نتلقّى ونعتبر هذا الحكم منوطاً بالحكومة والحاكم، حيث يكون هذا الأخير مخوّلاً في تبديله وتغييره تبعاً للظرف والزمان...

١٠. نظراً لما تقدّم؛ صار من الواضح أنّ الآية أعلاه لم تنسخ أبداً، ذلك لأنّ النسخ يتعلّق بأحكام قد نزلت مطلقةً منذ البداية؛ لا مؤقّتة ومحدودة، والحال أنّ هذه الآية ذكرت حكم الحبس الدائم على أنّه حكم محدود ومؤقّت.. ولو وجدنا بعضاً من الروايات الدالّة أو المصرّحة بأنّ الآية أعلاه قد نسخت بواسطة أحكام وردت بخصوص عقوبة الممارسة المنافية للعفّة،[1] فإنّ المراد منها ـ تلكم الروايات ـ ليس النسخ الاصطلاحي، لأنّ النسخ في لسان الروايات لا يطلق على أي تقييد وتخصيص للحكم أبداً...

١١. حبس المرأة الدائمي متوقّف ومشروط بشهادة أربعة شهود؛ دون الاكتفاء على أصل حصول العمل القبيح.. فإن لم يشهدوا؛ على ما هو واقع رأوه لم يصدر الحكم، ولو حصل اليقين للحاكم بصدور المنكر من المرأة.. وهذا أحد وجوه المنّة الإلهيّة على المسلمين حيث جرى العفو ودرء تنفيذ الحكم لمجرد حصول الخلل في الشهادة أو تراجع أحد الشهود وأمثال ذلك.. إذ الحدود تُدرأ بالشبهات.. أدنى الشبهات... ﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ﴾..

١- وسائل الشيعة، ج٢٨، ص٦٧

١٢. يمكن أن يتصدّى سؤال في البين، وهو: كيف فُهم من الآية ـ أو مقطع منها ـ أن الحكم والعقوبة لهذه الجريرة هو الحبس الدائم؟

تنبغي الإجابة هنا بالقول: يفهم ذلك بقرينة قوله تعالى: ﴿ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ ﴾.

١٣. تحديد العقوبة بالحبس الدائم لمرتكبة جريمة زنا الإحصان حتى الموت دليل واضح على أنّه تعالى أراد تيسير الأمر على المسلمين والتغافل عن العسر..

ينبغي الالتفات إلى أنّ الأمر بحبس هكذا نسوة في بيوتهنّ هو حكم يصبّ في صالحهن من جهة، لأنّه خير من الحبس في السجون العامّة بمراتب، ولأن السجون العامّة قد تؤثّر تأثيراً سلبياً عميقاً في نفوسهنّ، حتّى أنّ هذا الأخير قد يتحول إلى مدرسة سيّئة تعلّم المساوئ الكبيرة للسجناء البسطاء، وذلك حيث يقرنون إلى عتاة المجرمين الذين ينقلون تجاربهم القاتلة للبسطاء لدى المعاشرة.

١٤. أشكل الجبّائي، وهو أحد مفسّري المخالفين حيث ظنّ في موضوع الآية بأنّ الحكم الأوّلي للزنا لا ينسخ بالروايات، لأنّ النسخ عبارة عن أن تنسخ آيةٌ آيةً أخرى متقدّمة تتضمّن بظاهرها حكماً دائمياً.. إلّا أن المسألة محطّ البحث ليست كذلك.. لأن آية الحبس المؤبد ليس فيها ظهور دالّ على أبديّة هذا الحكم، بل إنّها تتضمّن ظهوراً يشير إلى سرعان ما سيتبدّل الحكم إلى حكم آخر، لأنّه تعالى قال: ﴿ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾ وهذا التعبير يحوي الظهور في أن حكم الحبس المؤبّد للمرأة المحصنة الزانية سيتبدل عن قريب إلى حكم آخر.. فإذا عمد أحدهم إلى إطلاق مصطلح (النسخ) على هذا الحكم؛ فلا إشكال، ولكن لا يصح اعتباره نسخاً للآية برواية، لأنّ الآية بحدّ ذاتها تُشعر باقتراب رفع حكمها، وقد أراد رسول الله(ص) في تلك الرواية بيان آفاق الآية محطّ البحث والتفسير..

الآية ١٦

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦ ﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هاتان الآيتان يتناسب محتواهما ومضمونهما.. وضمير المؤنّث ﴿ ها ﴾ في كلمة ﴿ يأتيانهما ﴾ يعود قطعاً إلى كلمة ﴿ فاحشة ﴾ وهذا بحدّ ذاته يؤيّد هذا المعنى، وهو أنّ الآيتين تتحدّثان عن حكم الزنا.

٢. وضع المفسرون عدداً من الاحتمالات حول هاتين الآيتين:

الاحتمال الأوّل: أن الآيتين معاً تتناولان حكم الزنا، وأنّ الآية الأولى متمّمة للحكم الوارد في الآية الثانية.. فالآية الأولى تعرّضت في البدء إلى الحكم فحسب (الحكم الأوّلي وهو الحبس الدائم في البيت) للنساء الزانيات، والآية الثانية بيّنت حكم المرأة والرجل الزانيين، وهو عبارة عن إقامة الحدّ الشرعي للزنا.. وبالنتيجة؛ يعلم من مجموع الآيتين حكم الرجل الزاني والمرأة الزانية معاً، وهو تنفيذ الحدّ الشرعي عليهما.. لكنّ هذا الاحتمال مع الأخذ بعين الاعتبار ما ورد من الآية التالية ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَا ﴾ لا يتّفق مع ذلك، حيث الآية ـ مورد البحث ـ صرحت بحبس المرأة الثابت اقترافها للزنا حبساً مؤبّداً، ولكنّ هذه الآية تصرّح بأنّ المرأة والرجل في حال توبتهما يتركان لحالهما.. وهنا نضطرّ إلى القول: المقصود من الإعراض عنهما هو الكفّ عن إقامة الحدّ الشرعي عليهما وليس عن الحبس حيث يجب أن يبقى كما هو..

الاحتمال الثاني: قال بعض المفسّرين بناءً على بعض الروايات ـ وسيأتي بيانها لاحقاً ـ: الآية

الأولى متعلّقة بحكم زنا الثيب، والآية الثانية في مقام بيان حكم الفتاة البكر المرتكبة للزنا..[١]

والمقصود من الإيذاء في الآية هو حبس البنات الباكرات غير المتزوجات، ثمّ تحرير اللواتي في حال التوبة وإصلاح أنفسهنّ.. لكن ثمّ سؤالان وإشكالان يردان على هذا الاحتمال الثاني:

السؤال الأوّل: لماذا ورد التصريح في الآية الأولى بخصوص المرأة الزانية؟ ولم تورد الآية الثانية أيّ أمارة يشا ربها إلى أنّ المراد هو البنت الباكر؟

السؤال الثاني: لماذا اختصت الآية الأولى بالمرأة الزانية، فيما الآية الثانية تناولت المرأة و الرجل معاً ﴿ وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ ﴾؟

الاحتمال الثالث: نُسب إلى أبي مسلم المفسّر الذي قال بأنّ الآية الأولى في مقام بيان حكم المساحقة بين المرأة والمرأة، فيما الآية الثانية بصدد بيان حكم اللّواط من الرجال، ولم تنسخ أيٌّ من الآيتين..[٢]

ولكنّ فساد هذا القول واضح.. أمّا الآية الأولى فبدليل جملة ﴿ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ... ﴾ والجواب واضح في أنّ كلمة (الفاحشة) في اللّغة بمعنى المسلك القبيح والسيّئ حيث يستعمل في جريرة الزنا. وأمّا الآية الثانية؛ فبدليل أنّ الوارد في السنّة الثابتة بخصوص حدّ اللّواط. كما روي في الحديث الصحيح عن رسول الله(ص) من جاء بعمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول،[٣] وهذا حكم ابتدائي وغير منسوخ وغير باطل.. أو هو حكم ناسخ ومغيّر لحكم الآية، إذن؛ فقول أبي مسلم باطل على كلّ حال..

الاحتمال الرابع: مع الأخذ بعين الاعتبار؛ الظاهر الذي يخطر في الذهن من هاتين الآيتين

١- التفسير الكبير، ج٩، ص٥٣١

٢- مجمع البيان، ج٣، ص٣٤

٣- الجعفريات، ص١٤٦

والقرائن التي تفهم منهما، وكذلك مع الأخذ بنظر الاعتبار الإشكالات على تفسيرات المفسّرين .والله أعلم ـ هو أنّ الآية الشريفة في معرض بيان حكم زنا النسوة ذوات البعول، بدليل ورود عنوان النساء ـ فحسب ـ في الآية الشريفة

٣. يمكن ورود الإشكال القائل بأنّ الآية إذا كانت بصدد بيان حكم النساء المتزوجات، للزم أن يقال: من زوجاتكم؟ فلماذا ورد التعبير بـ﴿ من نسائكم ﴾؟

ينبغي لدى ردّ هذا الإشكال أن يقال: إنّ مفردة (نساء) مفردة عامّة تستعمل في معنى الزوجات أيضاً (لا سيّما إذا ما أضيفت هذه الكلمة إلى ضمير الرجال أطلقت و بهيئة ﴿ نسائكم ﴾، ناهيك عمّا إذا لم تضف إليهم، مثل قوله تعالى: ﴿ وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ ﴾ حيث نعلم أن النساء هنّ الزوجات.. وكذلك قوله تعالى: ﴿ مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ حيث الواضح أنّ المراد هو الزوجات.. وعلى هذا؛ فإنّ الحكم الأوّلي والمؤقّت لهكذا نساء هو حبسهنّ في البيوت حبساً أبديّاً، ثمّ إنّ هذا الحكم تبدّل وتغيّر إلى الرجم..

أمّا الآية الثانية؛ فتتضمّن حكم الزنا بلا زواج من الزاني، وهو يعمّ زنا الرجل الأعزب والمرأة العزباء، وهذا الحكم عبارة عن تأديب وتعزير، سواء كان المراد من هذا التأديب والتعزير سجناً أو تأديباً تعزيريّاً، أو توبيخاً باللسان أو غير ذلك، وهذه الآية ـ بناءً على هذا ـ قد نسخت بآية الجلد التي تصدّرت سورة النور المباركة، وأمّا الروايات التي تقول بأنّ الآية الشريفة تتضمن حكم الفتيات الباكرات غير المتزوّجات،[1] فهي من طائفة الخبر الواحد، إضافة إلى أنّها روايات مرسلة تفتقر إلى السند، ولهذا قد عدّها علماء الرجال، روايات ضعيفة لكونها مرسلة..[2]

١- راجع: تفسير العياشي، ج١، ص٢٢٧ و٢٢٨

٢- الخبر إمّا أن يكون واحداً أو متواتراً. أمّا الخبر الواحد للذي يكون راويه واحداً، أو كان عدد رولته و في كل واحدة من الطبقات لَقلّ من حدّ التواتر. و خبر الواحد لا يفيد علماً.. ولكنّه حجة في حال تمتع بسند.. أما الخبر المتواتر؛ فهو ما كان عدد رواته في واحدة أو في جميع طبقاته إلى استحالة جعلهم للحديث عادةً، ممّا يفيد العلم بصدور الحديث و مضمونه عن المعصوم عليه السلام...

و الخبر المتواتر قسّم إلى متواتر لفظي و مضموني أو متواتر معنوي. أما الخبر المتواتر اللفظي؛ فهو الخبر الذي يكون جميع ناقليه قد

⟵

٤. رغم عدم التصريح في هذه الآية بعنوان النساء غير المحصنات، إلّا أن تبعيّة هذه الآية للآية السابقة، والعقوبة التي ذكرت وعيّنت للزنا هنا وتفاوتها مع العقوبة الواردة في الآية السالفة وطبيعة التخفيف المذكور فيها، يستفاد بأنّ هذا الحكم خاص بالجماعة المرتكبة للزنا، حيث لم يكن داخلاً في الآية السابقة، ومن حيث الإشارة لها في الآية السابقة بالقرينة واختصاصها بزنا المحصنة... نستنتج أن هذه الآية تبين حكم زنا غير المحصنة..

٥. من الواضح أنّ العقوبة المذكورة في هذه الآية هي عقوبة كلّيّة، وحيث الآية الثانية من سورة النور التي حدّدت عقوبة الزنا بمئة جلدة لكل واحد من طرفي الزنا.. يكون ذلك تفسيراً وتوضيحاً لهذه الآية، وبهذا الدليل يكون هذا الحكم غير منسوخ..

٦. إنّ حقيقة الأمر بالتوبة بمثابة طريق رجعة لهذه الشاكلة من المذنبين، حيث إذا تابوا وصلح أمرهم احتضنهم المجتمع المسلم ورحّب بهم، ولن يكونوا في عداد المطرودين.

٧. لا يصح أبداً توجيه اللوم والتقريع للأفراد التائبين عن هذه الجريرة السابقة.. فلو أنّهم تابوا وأصلحوا قبل ثبوت الجرم عند حاكم الشرع وقبل إدلاء الشهود بشهاداتهم وقبل صدور الحكم الشرعي عليهم، إذ يسقط عنهم الحدّ الشرعي والحكم بمعاقبتهم، وهكذا يلزم المجتمع ـ بطريق أولى ـ أن يغضّ الطرف عنهم.. أو يعاملوا معاملة من أنزلت العقوبة بساحتهم ثم تابوا..

٨. شرط قبول التوبة يكمن في صلاح الفرد بعد فساده، وإنّما التوبة الحقيقية هي تلك التي تبعث الإنسان إلى الصلاح، ولهذا؛ لا نستطيع اعتبار مجرد التوبة اللفظيّة بقول (استغفر الله) توبة واقعيّة، كما أنّ التوبة المؤقّتة الصادرة حين الحالة الانفعالية؛ لا تعدّ توبة صادقة وحقيقيّة.. ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا ﴾.

٩. يمكن لأحدهم أن يسأل أو يستشكل قائلاً: لماذا شدّد الإسلام في القوانين الجزائية لزنا

أدّوه بلفظ واحد، و هذا ما يندر وجوده.. أمّا المتواتر المعنوي؛ ففيه قدر مشترك لمضمون عدّة أخبار تبيّن معنىً و مطلباً واحداً، وهو كثير التحقّق...

المرأة المحصنة، فمثلاً: في عقوبة التلوّث لمرة واحدة بزنا المحصن تبدأ بالحبس الدائم للزانية، وفيما بعد تستبدل بعقوبة الإعدام بالرجم، أو لم يكن من الأفضل أن تعين عقوبات أكثر ملائمة لمثل هذه الذنوب ليتحقّق التعادل بين مستوى الجريمة وطبيعة العقاب؟!

تنبغي الإجابة هنا بالقول: رغم أن ظاهر القوانين الإسلامية الجزائية هو الشدّة والحدّة، إلّا أنّ طريقة إثبات الخطيئة طريقة غير يسيرة لئلّا تعمّ مظاهر العنف، وفي الحقيقة إنّ الإسلام أراد بالتهديد بالعقوبة حفظ هذا القانون الجزائي دون أن يشمل أفراداً كثيرين، إلّا أن ما يقابل ذلك، أنّ إثبات الجناية في الإسلام ليس بالأمر اليسير، وقد جعلت له شروط تقضي إلى عدم تحققها وإحرازها ما لم تقع الخطيئة بالعلن.. مثل رفع عدد الشهود إلى أربعة كما جاء في الآية أعلاه؛ بحيث يصير من الصعب جداً التعرف إلى مقترف الزنا ما لم يكن متجاهراً متهتّكاً.. كما وضع الإسلام شروطاً لصحة قبول الشهادة بحدّ ذاتها، من قبيل الرؤية المباشرة وعدم الاكتفاء بالقرائن، مضافاً إلى التطابق في الشهادة؛ وأمثال ذلك ممّا يعسّر إثبات الجرم.. ومن البديهي أنّ هكذا أشخاص ممن تسهل الشهادة واتفاق عدد الشهود عليهم، وهم المتهتكون؛ يجب أن يعاقبوا بأشدّ أنواع ودرجات العقاب ليكونوا عبرةً للآخرين، ولتطهر ساحة المجتمع المسلم من أمثالهم.

١٠. أسلوب الإسلام في تحديد العقوبة ورسم طريقة إثبات الجريرة أسلوب له أكبر الأثر وأعمقه في تطهير المجتمع من دنس الخطيئة، والحال أنّ الأفراد المستحقين للعقاب في الإسلام قليلون عادةً، ولهذا؛ ترانا نطلق على هذا الأسلوب الجزائي الإسلامي: السهل الممتنع..

الآية ١٧

إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

أ. ما هو الجهل؟

١. أولى الدين الإسلامي أهمّيّة قصوى للمعرفة والعلم والوعي، وجعلها في مكانة لا ينافسها فيها شيء، في سبيل تشييد صرح المجتمع القيمي، ولطالما حذّر الإنسان من خطر (الجهل) وعدم تفعيل المعرفة..

٢. الجهل في نظر الإسلام جذر جميع المساوئ وأفدح المصائب وأفتك الأمراض وأخطر الأعداء، فيما عدّ ديننا السماوي الشخص الجاهل أسوأ الكائنات الحيّة، بل عدّه ميّتاً بين الأحياء، مضافاً إلى أن الجهل آفة تحول دون تفتّح وانبعاث الإنسانية، باعتباره جذر جميع المفاسد الفرديّة والاجتماعيّة، إذ بوجود هذه الآفة تزول الحالة القيميّة من مسرح المجتمع الإنساني..

٣. لمزيد من الفهم الصحيح للآيات والأحاديث فيما يتعلّق بمذمة الجهل والجاهل وعلائم ذلك وأحكامه وضرورة طرد الجهل والتخلص منه ينبغي أوّلاً أن نعرف ما هو الجهل؟ وثانياً هل أن مطلق الجهل مذموم من جانب الإسلام؟ أم أن المستهدف من الجهل ذو معنىً خاصٍ ومعيّن؟ وثالثاً في الحالة الثانية؛ ما هو هذا المعنى الخاصّ والمعيّن؟ ورابعاً ما هو الجهل الذي يمثل جذر جميع الشرور؟ وخامساً أيّ الجهل هو الأشدّ مصيبة والأفدح ضرراً

والأكثر فقراً والأخطر عدوّاً؟! وسادساً من هو الجاهل الذي قصده القرآن المجيد بقوله: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ وما ذهب إليه أميرالمؤمنين(ع) بحديثه: «**ميّت بين الأحياء**»[١]؟

٤. لتعريف مصطلح الجهل الوارد ذمّه في الدين الإسلامي يمكن تصور أربعة معاني:

* كل أشكال الجهل:

مع إمكانيّة التصوّر. بدءاً. أن جميع أنواع وأشكال الجهل مذمومة ومضرّة، إلّا أنّه بالتأمّل يعلم أنّ الحقيقة ليست كلّ جهل مذموم ولا كلّ معرفة ممدوحة محمودة، بل على العكس، إذ يصادف أن تكون بعض المعرفة مضرّة، وأن يكون بعض الجهل محموداً ومفيداً، لهذا السبب؛ نجد الإسلام قد منع السعي للكشف بعض الأمور والأسرار، بل إنّ من الروايات والأحاديث ما منع وحرّم تعلّم بعض العلوم..[٢]

* الجهل بالمعارف والعلوم المفيدة:

لا شكّ في أن الإسلام قد احترم جميع العلوم والمعارف التي يؤدّي تعلّمها والاطّلاع عليها إلى خدمة الانسانية ونهضتها، مثل الرياضيات والفيزياء والكيمياء والنحو والصرف والمنطق والكلام وسائر الشعب العلمية، كما أوجب الإسلام تعلّم هذه العلوم وأضرابها فيما لو كانت الحالة الاجتماعية بمسيس الحاجة لها ولم يكن عديد المتخصصين بها كافياً لسدّ تلكم الحاجة..

ولكن لا يمكن قبول الرأي القائل بأنّ عدم تعلم هذه العلوم يمثّل جذر كلّ المساوئ والشرور وأنّه أعظم المصائب وأضرّ النواقص وأخطر الأعداء وأشدّ الفقر.. أو أن من لا يعرف بعض هذه العلوم هو أسوأ الكائنات الحيّة على وجه الأرض، أو كونه ميتاً بين الأحياء..

* الجهل بـ أكثر المعارف التي يحتاجها الانسان ضرورةً:

١- غرر الحكم، ص١٢١

٢- راجع: وسائل الشيعة، ج١٧، ص١٤١ إلى ١٤٨

إنّ أكثر المعارف التي يحتاجها الإنسان وأشدّها ضرورةً، هي تلك العلوم والمعارف التي تدلّه على مبدئه ومقصده؛ وتبين له طريق الوصول إلى فلسفة خلقته؛ لأنّ الإنسان متكرّسة فيه الرغبة إلى معرفة كيف خلق ووجد؛ وحقيقة الهدف الذي خلق من أجله؟ وماذا عليه أن يفعل ليبلغ فلسفة خلقته؟ وإلى أين يذهب أو يُسا ربه؟

إنّ المعارف التي توفّر الإجابة على هذه المسائل هي ذاتها التي تسمّى ميراث الأنبياء.. فهذه المعارف مبدأ كلّ أشكال الخير وهي المقدّمة لتفتّح العقل العلمي وهي جوهر العلم.. أمّا الجهل بهذه المعارف؛ فيعرّض المجتمع إلى أفدح الخطوب والمصائب والشرور.. ولا ريب أن معرفة هذه العلوم غير منجية لوحدها، بل إنّها تكون مفيدة في حال تتمّ السيطرة على الجهل بمفهومه الرابع بواسطة العقل..

* الطاقة المضادّة للعقل..

للجهل - في النصوص الدينية الإسلاميّة - مفهوم يتفاوت والمعاني السالفة، فهو أمر وجودي وغير عدميّ، وهو الشعور المثير المقابل - المضاد - للعقل؛ العقل المخلوق من قبل الله المتعال، وله آثاره وانعكاساته.. ولقد جرى التعبير عنه بـ (جنود الجهل) في مقابل (جنود العقل) ولعلّ وجه تسمية هذه الطاقة بالجهل، هو ذاته الوجه في تسميه الطاقة المقابلة له بالعقل.. ولهذه الطاقة أسماء أخرى، منها الوعاء الذي يضمّ ويحوي جميع وجوه الجمال الأخلاقية والاعتقادية والسلوكية، مثل: (الخير والعلم والمعرفة والحكمة والإيمان والعدالة والإنصاف والألفة والرحمة والمودّة والرأفة والبركة والقناعة والسخاء والأمانة، والشهامة والحياء والنزاهة والأمل والوفاء بالعهد والصدق والحلم والصبر والتواضع والغنى والنشاط والحيويّة..).

ومقابل ذلك تقف جميع القبائح الاعتقادية والأخلاقية والسلوكيّة مثل: (الشرّ والجهل والحمق والكفر والظلم والانعزال والقسوة وقطع الرحم والعداوة والبغض والغضب والحرص والمحق والبخل والخيانة والغباء واليأس والكذب والاضطراب والتكبّر والفقر والكسل

والهتك..) وهذا وأضرابه من جنود الجهل.. والإنسان حرٌّ مريد في انتخاب شاكلة من جنود هاتين الطاقتين.. فهو قادر على اتّباع طاقة العقل.. وله أن يقضي على طاقة الجهل أو النفس الأمّارة والشهوة بإحياء طاقة العقل، كما له أن يبلغ أسمى المراتب الإنسانية ويكون خليفة الله في الأرض ـ بشكل من الأشكال ـ عبر تربية وتنمية جنود العقل.. وكذلك هو قادر ـ باتباع طاقة الجهل وبتربية جنوده ـ على أن يسقط إلى أسفل سافلين...

٥. رغم أنّ الإسلام يواجه أكثر أنواع الجهل، لاسيّما المفهوم الثالث منه، إلا أن أخطر أشكاله هو المفهوم الرابع الذي يقصد به اختيار طريق طاقة الجهل التي تجرّ الإنسان إليها.. ذلك لأنّ الانسان إذا اختار طريق العقل الذي يرسمه له، فلا شكّ أنّه سينال بذلك العلم والحكمة التي ـ بدورها ـ ستأخذ بيده إلى سائر جنود العقل وتهديه إلى مبدأ ومقصد الإنسانية وتدلّه على جميع المعارف المفيدة والبنّاءة، وتبلغ به إلى اكتشاف فلسفة خلقته بما يناسب مستوى استعداده وسعيه..

ولكن! إذا اختار الإنسان طريقاً ـ بجهله ـ فإنّ جنود الجهل ستسد دونه طريق المعارف البنّاءة وسبيل الحقائق الإنسانية القيّمة وإمكانيّة بلوغ الهدف الإنساني الأعلى.. وفي هذه الحالة: ولو صار الإنسان أعظم العلماء على وجه الأرض، فإنّ علمه لن ينفعه في الاهتداء، بل إنّ داء الجهل سيحطّمه ويذلّه: ﴿ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ وعلى هذا الأساس، فإنّ المحور الأصلي لخطاب النصوص الإسلاميّة، وذلك لدى التحقيق في موضوع الجهل.. ستعنى بمفهومه الرابع ثمّ يليه معاني الجهل الأخرى حسب الترتيب من حيث الخطورة والأهمّيّة..

٦. سؤال: ما هو سرّ التقابل بين (العقل) و(الجهل) في النصوص الدينيّة الإسلاميّة؟ ولماذا صير إلى هذه المقابلة والتضاد خلافاً للمتعارف في مقابلة الجهل للعلم؟ والحال أنّ القرآن المجيد والحديث الشريف طالما انتهجا مسلك المقابلة بين الجهل والعقل؟!

لدى الإجابة نقول: العلّة في أنّنا لدى مراجعة كتب الحديث نعي عدم مقابلة العلم

والجهل، بل ونجد التـ أكيد على مقابلة العقل والجهل، وذلك لأنّ الإسلام يعدّ الجهل ـ بمفهومه الرابع الذي هو أمـر وجودي مقابل لوجود العقل، وأنّه أشد خطراً من الجهل طبقاً للمفهومين الثاني والثالث اللذين هما أمران عدميّان ويقابلان العلم..

وبعبارة أخرى؛ يكون التقابل والتضاد بين العقل والجهل في النصوص الإسلاميّة أمارة في أن الإسلام يعدّ التقابل بين الجهل والعقل أخطر من مقابلة الجهل للعلم.. وما لم يتمّ اقتلاع هذا الجهل (الأخطر) من جذوره، فإنّ اقتلاع الجهل المقابل للعلم؛ لن يحقّق الفائدة الأساسية والمنفعة الأصليّة للمجتمع المسلم.. وهذه النقطة ـ بحدّ ذاتها ـ تمثل غاية الدقّة ومنعطفاً مهمّاً جدّاً..

٧. سؤال: ما المراد من (الجهالة) الوارد ذكرها في هذه الآية؟ وهل هي الجهل وعدم الاطّلاع على الذنب؟ أم هي عدم معرفة الآثار السيّئة السلبيّة الخاصّة بكل خطيئة؟!

إنّ كلمة (الجهل) ومشتقّاته رغم تضمّنها معانٍ عدّة إلّا أنّ المستفاد من القرائن التي توصي بأنّ المقصود والمراد من الآية هو طغيان الغرائز وسطوة الرغبات وتمرّدها على طاقة العقل والإيمان، وفي هذه الحالة؛ حيث لا يمكن القول بإزاحة العلم والمعرفة وإدراك الإنسان للخطيئة بشكل تام. إلّا أنّه يحمل الإنسان على الخضوع للغرائز الطاغية المتمرّدة إلى الحدّ الذي يسلبها القدرة على التأثير الإيجابي، وحينما يفقد العلم قدرته على التأثير الإيجابي المطلوب، نرى الجهل يكون هو المسيطر بشكل عمليّ..

٨. بناءً على هذه الآية، فإنّ شرط قبول التوبة يكمن في أن الخطيئة قد اقترفت في حال الجهالة.. أمّا إذا لم ترتكب بهذه الهيئة لإرادته سبحانه وتعالى، فإنّ هذه الخطيئة تحكي عن كفر فاعلها، ولهذا لا تقبل التوبة عنها إلّا حين العودة والكفّ عن العناد والإنكار والجحد..

٩. الحقيقة هي أنّ مفهوم هذه الآية الشريفة يبيّنه النصّ الكريم الوارد عن مولانا الإمام السجاد(ع) والمعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي إذ قال:

«إلهي! لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيّتك جاحد ولا بأمرك مستخفّ ولا لعقوبتك متعرّض ولا لوعيدك متهاون، لكن خطيئة عرضت وسوّلت لي نفسي وغلبني هواي...».[1]

١٠. سؤال: ما المراد من كلمة ﴿ قريب ﴾ الواردة في الآية؟

للمفسّرين لدى الإجابة على هذا السؤال آراء مختلفة، ونشير هنا إلى رأيين من تلكم الآراء:

الرأي الأوّل: كثير منهم يذهبون إلى أنّ التوبة من قريب هي التوبة الحاصلة قبل ظهور علامات الموت.. والآية التالية القائلة: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ... ﴾ ممّا يحكي أن هذا الأخير كان متهاوناً بأمر الرب أو جاحداً له، ولكنّه أعلن توبته حين ما شهد جدّيّة وحتميّة وحقيقة الموت.. وعلى هذا؛ فالتعبير بكلمة ﴿ قريب ﴾ لعلّه أن عالم الدنيا ـ مهما كان ـ يبقى قصيراً ونهايته قريبة..

الرأي الثاني: بعض آخر من المفسّرين عدّوا التوبة عن قريب، أنّها القريبة ـ زمنياً ـ من فعل الذنب، أي أن المذنب سرعان ما يندم ويتوب عن ذنبه ويعود إلى ربّه، لأنّ التوبة الحقيقيّة النصوح والكاملة هي التي تؤدّي إلى محق آثار ورواسب الذنب عن روح الإنسان المذنب ونفسه بشكل كامل، فلا يبقى لهما أدنى أثر في قلبه بل وكل وجوده.. وهذا ما يمكن في حال كانت التوبة قريبةً من وقت وقوع الذنب وقبل تجذّر الخطيئة في وجود فاعلها وظهورها بهيئة أخرى.. وفي غير هذه الصورة، تبقى آثار الذنب ـ في الغالب ـ كامنة في زوايا قلب المذنب وروحه.. إذن؛ فالتوبة التامّة هي التي تحصل من المذنب بعيد اقترافه للذنب مباشرة، وكلمة ﴿ قريب ﴾ لغةً وعرفاً أكثر تناسباً وهذا المعنى..

١١. صحيح أنّ التوبة تقبل وإن طال بالذنب المدى، إلّا أنها لا تصبح توبة كاملة، ولعلّ عبارة ﴿ على الله ﴾ التي تعني: أنّ حقّاً على الله أن يتوب عن قريب.. إشارة إلى هذا المعنى، لأنّ هذا

١- مصباح المتهجد، ج٢، ص٥٨٩

التعبير لم يرد في القرآن المجيد إلّا في حين أنّ قبول الأشكال الأخرى من التوبة نوع تفضّل ورحمة إلهية، وليس حقّاً.

١٢. بعد ذكر شروط التوبة ورد قوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ فهو سبحانه عليم بأحوالهم وحقيقة توبتهم، ولا يصدر عنه سوى الحكمة التي تنتهي إلى قبول توبتهم الصادقة والمطلوبة..

الآية ١٨

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. واضح هو دليل عدم قبول توبة العصاة حين الموت، لأن الحجب تتكشّف عن عين الإنسان وهو على حافّة الموت وحين الاحتضار، ثم تحصل له رؤية جديدة، فينظر بعينه جانباً من الحقائق المتعلّقة بالعالم الآخر ونتيجة أعماله التي مارسها طيلة أيّام حياته الدنيا، وواضح في هذه الصورة، أن كلّ عاصٍ ومذنب سيندم على أخطائه، إذ سيكون كمن يرى شعلة نار قريبة منه فيحاول الفرار منها: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ... ﴾

٢. التوبة الجميلة ومحطّ القبول الإلهي هي التوبة التي تتكون على أساس الاختيار وانتخاب العقل والإيمان بجدوى العمل الصحيح ومديّات الغيب الإلهي، دون الاضطرار أو بعد معاينة آثار العذاب الإلهي الأخروي.. ولهذا؛ كان سبب ودليل عدم قبول توبة الطاغية فرعون. وطبقاً للنصّ القرآني المقدّس الذي ورد في الآيتين (٩٠ و٩١) من سورة يونس المباركة: ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوإِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ولهذا لم تحظ توبته الكاذبة أو المتأخّرة جدّاً جدّاً بالقبول..

٣. بناءً على النصّ القرآني في هذه الآية وكذلك بعض الآيات القرآنية الأخرى (مثل الآية ١٢

من سورة السجدة) يستفاد أن توبة العصاة إنّما تكون إذا قدّر لها أن تقبل من جهة الله تعالى، فهي تكون في دار الدنيا وفي حال السلامة والاختيار، دون أن تقع في دار الآخرة حين مشاهدة العذاب.. حيث لا تكون ثمّ فائدة من ورائها..

٤. معلوم أنّ عدم قبول توبة وندم المحتضرين المذنبين حين الموت، وكذلك المذنبين الذين تصدر منهم في مشاهد القيامة بعد معاينة العذاب الإلهي.. وجرّاء هذا الواقع يكون هذا النوع من التوبة عديم الفضيلة والكمال لأصحابها، لأنّ هذه التوبة شبيهة بتوبة وندم المجرمين حينما يرون حبال المشانق ماثلة أمام أعينهم، أو يتحسّسون بتكلم الحبال وقد التفّت على حناجرهم..

٥. لا شكّ أن مفهوم هذه الآية وجملة الروايات الخاصّة بشأن التوبة ومدى قبولها تذهبان إلى أنّ التوبة تقبل إلى آخر نفس وأنّه لا منافاة بينهما، لأنّ المراد من تلكم الروايات اللحظات التي تسبق ظهور أمارات الموت القطعية على جسد الفرد العاصي، وبكلمة أخرى: لمّا تحصل له الرؤية البرزخيّة.

٦. سؤال: في هذه الآية ـ كما الآيات الأخرى ـ جرت الإشارة إلى حقيقة عدم قبول توبة أفراد غادروا الدنيا وهم على الكفر﴿ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ ولكنّ سؤالاً يتصدر هنا قائلاً: متى يتوب هؤلاء الكافرون المغادرون للدنيا حتى يقال: لا تُقبل توبتهم؟

أدرج المفسّرون ـ لدى الإجابة عن هذا السؤال ـ احتمالات عدّة:

الاحتمال الأوّل: احتمل بعض المفسّرين أن توبة هؤلاء لا ولن تقبل في عالم الآخر.

الاحتمال الثاني: احتمل آخرون أن يكون المراد من التوبة هنا ليس توبة العباد، بل قبول التوبة من جهة الله تعالى وعودته بالعفو والرحمة الإلهيّة.

الاحتمال الثالث: أنّ ظاهر الآية يقصد ويستهدف موضوعاً آخر يقول: الذين تابوا في حال سلامتهم وإيمانهم عن ذنوبهم ولكنّهم لم يغادروا الدنيا على حال الإيمان، فإنّ توبتهم السالفة

غير ذات بال وغير مؤثّرة، ذلك لأنّ أحد شروط قبول الأعمال الصالحة للإنسان هو الموت على الإيمان ثمّ مغادرة الدنيا.. والذين يموتون وهم على حال الكفر، فإنّ أعمالهم السالفة (حتّى الأعمال التي قاموا بها وهم مؤمنون) وطبقاً لصريح الآيات القرآنية، ستحبط وتمحق. وإنّ توبات هؤلاء عن الذنوب ولو صدرت في حال إيمانهم فإنّها ستتبخر فلا تقبل..

٧. يفهم من هذه الآية أيضاً أنّ على الإنسان أن لا يؤخّر ويرجئ توبته، لأنّ من الممكن أن يفاجأه الموت فتغلق دونه أبواب التوبة.. وهذا ما جرى التعبير عنه بتسويف التوبة، وقد قرنت في هذه الآية إلى الموت في حالة الكفر، وهذا ما يشير إلى الأهمّيّة العظيمة التي أولاها القرآن المجيد لهذا الموضوع.

وعلى سبيل الإيجاز؛ فإن شرط قبول التوبة أمران: الأول: أن تقع قبل معاينة أمارات الموت، والثاني: أن يغادر الفرد دنياه وهو في حال الإيمان..

٨. للفريقين من التائبين الذين كانت توبتهم اختيارية ولم تكن في حالة الإيمان، ثمّ وقعت منهم بعد مشاهدة آثار وملامح الموت وفي حالة الكفر، أو سوف تصدر عنهم في دار الآخرة، فإنّ الله تعالى قد أعدّ لهم عذاباً أليماً: ﴿ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

الآية ١٩

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾

شأن نزول الآية

روي في تفسير (مجمع البيان) عن مولانا الإمام الباقر(ع) أنّ هذه الآية نزلت في الذين يتصرّفون مع زوجاتهم كمن لا أزواج لهن ولكنّهم يبقون معهن على أمل أن يقضين ليستولوا على أموالهن.[1]

ونقل عن ابن عبّاس أنّها نزلت في الذين أمهروا نساءهم مهوراً كبيرة مع عدم رغبتهم في مواصلة الحياة الزوجيّة ولا يطلّقونهن لعظيم مهورهن، فيضايقوهن لعلّهن يتنازلن عن مهورهن فيطلّقونهنّ.[2]

ونقل جمع من المفسرين شأناً آخر لنزول هذه الآية، وهو غير متّفق مع سياقها، بل هو يتناسب مع الآية (٢٢) من هذه السورة، وسنعمد إلى ذكره في موضعه...

١- مجمع البيان، ج٣، ص٣٩

٢- نفس المصدر.

النقاط المستفادة من هذه الآية

مقدّمة للإشارة إلى عادتين قبيحتين بخصوص ظلم النساء في الجاهليّة:

١. كما تقدّم في شأن نزول الآية؛ حيث تناول طبيعة السلوك الظالم تجاه المرأة، إذ كان الرجال يعمدون إلى الزوجات الغنيّات وغير الجميلات، ثم يهملهنّ، فلا يطلّقونهنّ ولا يعاملونهنّ كزوجات لهنّ أزواج.. رجاء موتهنّ ثم الاستيلاء على أموالهنّ.. فحرّمت الآية أعلاه على المؤمنين أن يرثوا أزواجهم إكراهاً.. وبالتالي؛ فالآية قد أدانت ذلك السلوك المشين..

٢. من عاداتهم القبيحة الأخرى؛ أنّهم كانوا يعمدون إلى الضغط على زوجاتهم بوسائل مختلفة ليتنازلن لأزواجهنّ عن مهورهنّ ثم يطلّقونهنّ.. وهذا السلوك المشين كان أكثرما يبد و حين يكون مهرالزوجة كبيراً، فمنعت الآية الشريفة ذلك السلوك وأدانته بقولها: ﴿ وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾.

٣. جرى الخطاب في هذه الآية للمؤمنين الصالحين ـ كما في العديد من الآيات الأخرى من سورة النساء ـ ودافع عن حقوق النساء وواجه الممارسات القبيحة بحقّهن في الحقبة الجاهليّة، وبالإشارة إلى جملة من العادات السيّئة الخاصّة بتلك الحقبة وحذّرت المسلمين من مخاطر التلوّث بها:

الف: لا تحبسوا نساءكم وزوجاتكم من أجل أموالهن.

ب: لا تضغطوا على نسائكم ليتنازلن لكم عن أموالهن.

٤. في هذه الآية جرى الاستثناء من الحكم أعلاه وأعطي الأزواج حقاً في الضغط على الزوجات اللّاتي يأتين بالخطيئة القبيحة؛ وحيث تعسر مواصلة الحياة الزوجيّة الطبيعيّة معهنّ، وحيث يضطرالرجل أن يتّخذ زوجة جديدة بعد طلاق الزوجة العاصية ويقدم للجديدة مهراً، فله أن يضغط على الأولى لتعفيه من مهرها.. وهذا الاستثناء ـ في الحقيقة ـ نوع عقوبة وشبيه بتغريمها في مقابل ما ارتكبته من فحشاء ﴿ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾.

٥. سؤال: ترى هل أنّ المراد من (الفاحشة المبيّنة) في الآية أعلاه العمل المنافي للعفّة، أم هو شامل لكل عمل قبيح؟

اختلف المفسّرون في تعريف كلمة (الفاحشة المبيّنة) إلّا أنّ الرواية المنقولة عن مولانا الإمام الباقر(ع)، قد فنّدت اختلاف المفسّرين وصرّحت بأنّ كلمة (الفاحشة المبيّنة) تشمل كل تمرّد ونشوز ومعصية شديدة من المرأة،[١] دون المعصية البسيطة، ذلك لأنّ مفهوم كلمة (الفاحشة المبيّنة) يتضمّن الأهمّيّة القصوى، وما يؤكّد ذلك ورود كلمة (مبيّنة)..

٦. احتمل بعض المفسّرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ عدّة احتمالات:

الاحتمال الأوّل: المعروف يعني كلّ شيء يحظى باعتراف العقل والنقل المعتبر. وهما العنصران الكاشفان . ويقبلانه.. ولطالما أصدر الله المتعال الأمر للرجال بمعاشرة زوجاتهم بالمعروف وبالسلوك الإنساني المعتدل، بعد نهيه تعالى عن إيذائهنّ وغمطهنّ حقوقهنّ.. ومعنى المعروف هو السلوك المناسب من حيث العاطفة والإحساس ومراعاة الحقوق الجسدية وضمان نفقات المعيشة.

الاحتمال الثاني: بالرحمة والبشاشة..

الاحتمال الثالث: قال عدّة مفسّرين: ينبغي العيش مع النساء طبقاً للعدل والإنصاف والانسانية والنبل.

الاحتمال الرابع: ينبغي السلوك الإنساني والطيّب معهنّ، ، فتحترم حقوقهنّ الاجتماعيّة الموافقة لمنزلتهنّ بالمعروف.. وبالتالي فإن لكلّ فرد من الأفراد وظائف ومسؤوليّات تتناسب وطبيعة بدنه وروحه، ويجب أن تحترم هذه الطبيعة، ومن هنا؛ لا يصح معاملة النساء معاملة

١- نفس المصدر، ص٤٠

ظالمة عنيفة تفوق طاقتهن الجسميّة والروحيّة وما يتعدى حدود مسؤوليّاتهن الزوجيّة.

الاحتمال الخامس: أحد حقوق المرأة أن يسلك الرجل معها سلوكاً طيّباً نبيلاً، وأن لا يحرمها حقوقها المعترف بها، فلا يصادرها حقوقها ظلماً ورغبة في الانتقام.. ولطالما اعتمد التشريع الإسلامي العرف العام ـ ما يتعارف عليه المؤمنون ويقرّونه ـ وهكذا فعل المقنن الإسلامي من الاتّكاء على العرف المذكور، وقد أقرّ طبيعة المعاشرة الزوجيّة الطيّبة التي كان العرف قد أقرّها.

الاحتمال السادس: يقول المرحوم الطباطبائي في تعريفه المعروف: هو ما يقال للفعل غير المجهول ـ الغريب ـ في المجتمع، فيكون معنى الآية كما التالي: عاشروا النساء بما هو مرسوم ومعروف.. والمعاشرة المعروفة؛ المعاشرة في الحياة الاجتماعيّة وفي مجتمع يمثل كلّ فرد من أفراده لبنة، وهو متساوٍ ومشترك مع سائر الأفراد في النظام الإجتماعي الإنساني.. ولهذا؛ إذا حدث أن جرت معاملة فرد من الأفراد ـ الطبيعيين ـ على النقيض ممّا تقدّم، حيث ينتفع منه دون ضمان حقه ومصلحته.. يكون قد وقع الخلل والخطأ في المعاشرة بالمعروف.. مع أنّه سبحانه وتعالى قد صرّح في القرآن المجيد بأنّ الناس ـ الرجل والمرأة ـ أغصان لجذر واحد والمجتمع بحاجة ـ لصياغة كيانه ـ إلى هكذا أفراد.. إذن؛ فالمرأة والرجل مع وجوه التفاوت بينهما، فإنّهما متساويان في التأثير.. وهذا الحكم الذي يخلق شكل وجوهر المجتمع؛ المجتمع القائم على أساس طريقة الفطرة غير المنحرفة وينبع منها.. وهكذا يجب تطبيق وتحقيق المساواة في المعاشرة والمعيشة، بمعنى الحرّيّة الاجتماعية، فتتصرّف المرأة كما الرجل ويفكّران بحرّيّة. إذ الإنسان إنّما يعدّ إنساناً إذا ما تمتع بالتفكير والإرادة، فهو حرّ في جلب المنفعة ودفع الضرر.. وإذا ما دخل هذا الإنسان في المجتمع لابد أن يتمتع بتلكم المميّزات

والاستقلال التام.[1]

٧. فلسفة القانون الإسلامي القاضي بوجوب حُسن معاشرة المرأة تعكس احترام الحرّيّة وحقوق المرأة.. فالله العظيم في هذه الآية وبأمر عام؛ قد كلّف الرجل بحسن المعاشرة، وتبعاً لذلك؛ الذي هو في الحقيقة أساس وقاعدة صرح العائلة. قال تعالى: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ لأنّكم لا علم لكم بالغيب، ولعل الخير كلّه متعلّق بزوجاتكم وإن كنتم تجدون فيهنّ كراهة.

٨. الآية الشريفة تقول في واقعها: أنتم أيّها الرجال موظّفون بحسن معاشرة النساء والتخلّق بالأخلاق المتعارفة التي هي في الحقيقة سبب مواصلة الحياة الزوجيّة الكريمة والنبيلة... ناهيك عن عدم حقّكم في التعامل مع النساء بعسر وتعدٍّ وإكراه، وحملهنّ على التنازل عن مهورهن أو إعطائكم من أموالهنّ الخاصّة..

٩. التعبير بحسن المعاشرة الوارد في هذه الآية تحت مسمّى وظيفة الزوج ومسؤوليّته باعتباره حقّ للمرأة.. إنّما هو عامل تكريس الحياة الزوجيّة وعلّة استمرارها، وهذا الأمر له بعد في معرفة النفس، ذلك لأنّ حسن السلوك قائم على المنطلق القائل: «الناس عبيد الإحسان» تنتج عنه المحبّة ويؤدّي إلى استسهال المصاعب والمشاكل حتّى تتحول الحياة الزوجيّة إلى حياة طيّبة متواصلة الروعة.. وهذا هو مؤدّى الخطاب الإلهي القائل: ﴿ هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾.

١٠. إذا أمعنّا النظر، وجدنا الرجل يضمن حاجاته الروحيّة، فضلاً عن ضمان حاجات زوجته الروحيّة أيضاً، حتّى أنّه ليبني ـ بذلك ـ صرح بيئته بالأمن والاطمئنان، ولا ريب أنّه مكلّف بإشباع حاجة زوجته بهذا الصدد.

١- الميزان، ج٤، ص٢٥٥

١١. رغم أنّ قوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يخاطب الرجال دون اختصاصه بالأزواج.. فإنّه يشمل الزوج مقابل المرأة والرجل مقابل المرأة. فإنّه يشمل طبيعة العلاقة بين الأخ وأخته؛ أو زمالة الرجل والمرأة في العمل..

١٢. سؤال: لماذا أرادت الآية من الرجال ـ فقط ـ معاشرة النساء بالمعروف مع أنّ الزواج علاقة ثنائيّة بين الزوجين؟!

يمكن القول لدى الإجابة عن هذا السؤال: لدى الدقّة والتأمّل في سياقات الآيات القرآنية ولدى الرجوع إلى النصوص التاريخيّة، يتّضح قبح السلوك الظالم والمستبد من جهة عرب الجاهليّة تجاه النساء.. ولذا؛ فإنّ من الطبيعي والمنطقي إذا أريد تحكيم وتكريس الثقافة الصحيحة أن تكون البداية من واقع المرأة الرازحة تحت وطأة الظلم والجهل من (الرجال).. وهكذا وجدنا آيات قرآنيّة نظير: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ تستهدف دعم القيم وضمان الحقوق القانونية والأخلاقية للمرأة. فضلاً عن أن إدارة العائلة لما كانت بعهدة الرجل، اقتضت فسح المجال للرجل في اتخاذ القرارات الزوجيّة، لاسيّما أنّ العادة هي عدم معاشرة الأزواج لأزواجهن بالمعروف، فرأينا الله تعالى يأمرهم مراراً وتكراراً بحسن المعاشرة.. ولذا؛ كانت هذه الصراحة القرآنيّة في هذه الآية لا تعني أحادية هذا السلوك، بل إنّ الثقافة القرآنية قد حثّت الطرفين على اتّخاذ حسن المعاشرة سلوكاً..

١٣. مع أنّ الخطاب القرآني ـ هنا ـ بالمعاشرة بالمعروف يمتاز بالصراحة والشفافيّة، إلّا أنّ القدر المتيقّن من هذا الخطاب عدم الدليل على أن يكون الأصل الأخلاقي فيما يذهب إليه القرآن بخصوص الأزواج أحادي الجانب. فالقرآن يعدّ فلسفة (خلقة الأنفس) بلوغها الاطمئنان.. اطمئناناً تنتج عنه المودّة والرحمة التي جعلها الله تعالى في أنفس الأزواج.. ومن هنا؛ فإنّ هكذا فلسفة تقتضي أن يتصرّف كلا الطرفين بمحبة ورحمة ومعروف، أمّا إذا كان السلوك الحسن أحاديّ الجانب، فإنه لن يفضي ـ طبق هذه الآية ونظائرها إلى ـ اطمئنان

الطرفين معاً..

١٤. إحدى الميزات ووجوه التفاوت المهمّة بين الإنسان والحيوان؛ أنّ الحيوان إذا ما شبع وأشبع في جسمه؛ فإنّه لا يشعر بنقص عاطفي وأخلاقي. أمّا الإنسان؛ فالأمر ليس كذلك، إذ له حاجة ونقص آخر، وهي الحاجة إلى المعاشرة العاطفيّة والأخلاقيّة.. فالناس في أفق هذه المعاشرة المطلوبة بحاجة إلى تلمّس الصفاء والوفاء والحلم والصميميّة.. فهم في بيئة الحياة الأسريّة بحاجة إلى المحبّة والعاطفة النبيلة..

١٥. إنّ البنية التحتيّة للأسرة حسن المعاشرة، فلو تهيّأت وتوفّرت ظروف الحياة وإمكاناتها دون توفّر حسن المعاشرة، فكأنّما كان أساس الأسرة وقواعد البيت على سطح الماء وسرعان ما يتهدم بناء هذا البيت، إذ الأساس الحقّ هو حسن المعاشرة القائم على معرفة مقام ومنزلة وحقوق الطرف الآخر.. فالمرأة يجب أن تعلم طبيعة الحقوق الحقّة للرجل، وكذلك على الرجل أن يدرك حقّ الإدراك حقوق ومقام ومنزلة المرأة.. وبذلك يؤدّي كلٌّ منهما حقوق الآخر..

١٦. إنّ فلسفة هذه التعاليم؛ احترام الحرّيّة وحقوق المرأة، والله سبحانه وتعالى في هذه الآية ومن خلال أمرٍ عام، قد كلّف الرجل بحسن المعاشرة.. وتبعاً لهذا الأمر. الذي هو في الحقيقة قاعدة وأساس صرح الأسرة العظيم. قال: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ وذلك لأن الرجل. كإنسان. لا يعي من عالم الغيب شيئاً، ولعل الخير في هذه المرأة بعينها.

١٧. قوله عزّوجلّ: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يتضمّن صدور الأمر الإلهي بالمعاشرة الطيّبة والسلوك الإنساني النبيل مع المرأة ثمّ تضيف الآية الكريمة: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ أي: حتّى وإن سخطتم ولم ترضوا عن زوجاتكم رضاً تامّاً وأدى ذلك إلى كرهكم إيّاهنّ، فلا تتعجّلوا إنفصالكم عنهنّ أو أن تتصرّفوا معهن بالسوء، وإنّما عليكم مداراتهنّ ما استطعتم، إذ لعلّكم على خطأٍ من الرأي والموقف والقرار، والحال أن ما

تكرهون قد يكون فيه الخير لكم والبركة عليكم.. وعلى هذا؛ فما لم تصل الأمور إلى ما لا تحمد عقباه عليكم بحسن معاشرة النساء وأن لا تعمدوا إلى تحكيم الظنّ فيما بينكم؛ وهو العادة السيئة التي تغلب في العلاقة الزوجيّة لدى تعرّضها للتهديد، حيث الغالب فيه أيضاً أن ينتهي إلى الخطأ ثم الندم بعد أن يتّضح الحقّ وتتجلّى الحقيقة.

١٨. من الممكن أن ينخفض معدل العطف والحب بين المرأة والرجل؛ لاسيّما لدى شيخوخة العلاقة الزوجيّة وبداعي بعض الأسباب.. ولكنّ أهمّيّة حفظ (نظام الأسرة) من جهة، ووجود حقّ الطلاق الموكول للرجل من جهة أخرى، يتطلب أن يسلك الرجل تجاه زوجته سلوكاً نبيلاً ذكيّاً عاقلاً لتتجسّد بذلك قاعدة المداراة في أمور المعيشة.. ومن هنا؛ صدرت الوصيّة في الروايات الشريفة للرجال أن يداروا النساء، كما روي عن مولانا أميرالمؤمنين(ع): «فدارها على كلّ حال، وأحسن الصحبة لها فيصفو عيشك»[1]

١٩. بناءً على الأمر الإلهي في القرآن؛ فإنّ الناس ـ الرجل منهم والمرأة وبلا استثناء ـ بمثابة أغصان وأجزاء شجرة واحدة، وإنّ المجتمع الإنساني بالقدر الذي يحتاج به لشريحة الرجال؛ كذلك بمسيس الحاجة للنساء، وكما قال تعالى في وصفه للرجال والنساء: ﴿ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ ولا منافاة بين هذا المعنى وهذا الحكم.. وأنّ كل واحدة من شريحتي المرأة والرجل لها خصوصيّاتها لنفسها.. فشريحة الرجال تتّصف بالشدّة والقوة والبأس.. وشريحة النساء لها طبيعة الرقّة والعاطفة.. ولأنّ الطبيعة الإنسانيّة ـ بناءً على نوع الخلقة وعلى الأساس الاجتماعي للإنسان ـ بحاجة إلى إظهار وإعمال الشدّة والقوّة، وإلى إظهار وإعمال المودّة والرحمة والعاطفة، ولهذا؛ فإنّ كلا الشريحتين من حيث التأثير الوجودي متعادلتان، على الرغم من اختلافهما وتفاوتهما في أفق الشؤون الطبيعيّة والاجتماعيّة. كذلك الأمر بالنسبة لشريحة

١- من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٩٢

الرجال مع جميع أوجه التفاوت والاختلاف في الشؤون الطبيعيّة والاجتماعيّة التي يمتازون بها، مثل التفاوت الحاصل في كون بعضهم أقوياء أو علماء أو أذكياء أو عظماء أو رؤساء أو مخدومين أو أشراف.. وفي كون بعضهم الآخر ضعيفاً جاهلاً غبيّاً مرؤوساً وخادماً وحقيراً.. إذن؛ يجب أن يقال أنّ ذلك الحكم الصادر عن الذوق الاجتماعي السليم والبعيد عن الإفراط والتفريط؛ هو القائم على أساس الفطرة الإنسانيّة في مثل هكذا مجتمع، فلا يجد مناصاً من المعاشرة والمعايشة على أساس حكم القرآن، حيث ينظر إلى كلٍّ من النساء والرجال بمنظار واحد ومفعم بالاحترام وضرورة الإيمان بالوحدة، وإنّ تبادل الاحترام بين المرأة و الرجل أمر لا منافاة فيه مع وجود التفاوت والتفاضل بين الطبقات أو الأفراء،.. ذلك التفاضل النابع عن بعض الخصائص والمزايا والمصالح أو الحرمان منها.. فالرجال في الإسلام ـ مثلاً ـ لهم أن يكونوا قضاة أو حكّاماً ويذهبون إلى القتال والجهاد.. ويتوجب عليهم توفير النفقة للنساء.. و هناك أحكام خاصّة بالرجال لا تشمل النساء.. أو أن يكون الأطفال غير مقبولي الإقرار حتّى يبلغوا، كما ليس لهم إبرام العقود على سبيل الاستقلال، كما لا يكلّفون بتكاليف الإسلام.. وذلك كلّه تابع لأوجه التفاوت والخصوصيّات التي ينتج عنها أحكام تتوجه إلى طبقات وأشخاص محدّدين.. وعلّة الاختصاص هذا هو الموقع الاجتماعي و الطبيعة الإنسانية ذات المدارج والصور، مع أنّ الجميع في الأصل مشتركون في الإنسانيّة و الانتماء للمجتمع، إذ الأصل والمعيار هو الوزن الإنساني والتمتّع بقدرة التفكير والإرادة، و هي متوفّرة في الجميع.

٢٠. هذه الآية الشريفة أوصت الرجال فيما لو لم يرضوا بشكل تام عن نسائهم لسبب من الأسباب، بأنّ ينظروا إليهن بنظرة الكرامة.. وإن تضاءل فيهم معدل المحبّة والعطف ولم تعد مواصلتهم للحياة الزوجيّة ممكنةً، فليتّخذوا من الصبر سلوكاً، دون أن يبادروا إلى الانفصال عنهنّ ما أوتوا من قابليّة.. فلعلّهم في موقفهم من نسائهم على خطأ.. وأن ما يكرهونه

قد يكون فيه الخير والبركة والمنفعة من وجهة النظر الإلهيّة.. وهي الصحيحة والحقّة على الإطلاق..

٢١. للحب والعلاقة بين الرجل والمرأة تجلّيات.. وبين أيدينا جملة من جواهر الكلام الصادر عن المعصومين سلام الله عليهم، وقد تضمن الأمر والوصيّة بحسن المعاشرة.. إذ ورد عن مولانا الإمام الصادقعليه السلام:«إنّ المرء يحتاج في منزله وعياله إلى ثلاث خلالٍ؛ يتكلّفها وإن لم يكن في طبعه ذلك: معاشرة جميلة...».[1]

المعاشرة بالمعروف: لها مصاديق جمّة و تشمل الكثير من السجايا الأخلاقيّة و التطبيقات السلوكية، وهنا نشير إلى بعض من تلكم المصاديق:

* حسن الخلق: وهو صفة محمودة، ولطالما أوصى بها الإسلام.. وله مكانة عظيمة ودور جسيم في العلاقات الأسريّة؛ ولاسيّما فيما بين الزوجين.. و في ذلك يقول مولانا الإمام الصادقعليه السلام:

«لا غنى بالزوج عن ثلاثة أشياء فيما بينه وبين زوجه؛ وهي: الموافقة؛ ليجتلبها [ليجتلب بها] ومحبّتها وهواها، حسن خلقه، واستعماله استمالة قلبها بالهيئة الحسنة في عينها، و توسعته عليها».[2]

احترام المرأة: الاحترام المتبادل و المتقابل في الحياة الزوجيّة المشتركة أصل أساسيّ أصيل... ومراعاة الحرمة الشخصيّة بين المرأة والرجل حُسن، وينبغي لكلٍّ منهما تقصّي و تتبع الميزات الإيجابية لديهما، فيكرم كلٌّ منهما الآخر لأجلها، إذ الاحترام والتكريم حاجة طبيعيّة في كلّ فرد.. فإذا ما تحقّق التكريم لكلّ فرد من أفراد الأسرة.. تصاعد معدل الثقة

١- تحف العقول، ص٣٢٢

٢- نفس المصدر، ص٣٢٣

←

بالنفس و تعاظمت الشخصيّة، و سعى كلٌّ منهم للمساهمة في نجاح الآخر.. و هنا يكون احترام و إكرام المرأة منزلة خاصة و مميّزة كما روي عن مولانا الإمام الباقر عليه السلام: «مَن اتّخذ امرأة؛ فليكرمها»[١]

المحبّة و إعلانها: أصل المحبّة و العاطفة هو علاقة الزوجين وطبيعة موقفهما من بعضهما، وقد جعل الله المتعال في وجود كلّ منهما مودّة ورأفة تجاه بعضهما منذ بداية الحياة المشتركة.. وتلك المودّة تزداد وتتضاعف باستمرا ر الحياة الزوجيّة.. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الرجل إذا نظر إلى امرأته ونظرت إليه؛ نظر الله تعالى إليهما نظر الرحمة».[٢]

وعن مولانا الإمام الصادق عليه السلام قال: «كلّ من اشتدّ لنا حبّاً؛ اشتدّ للنساء حبّاً»[٣]

وهذه المحبّة تشمل الأمّ والزوجة والبنت والأخت و...

و يعد (إظها ر المحبّة) في الثقافة الإسلاميّة الغنيّة من لوازم المحبّة، و قد أوصى أهل البيت عليهم الصلاة والسلام الرجل بإظها رمحبّته القلبيّة للزوجة، أي أن ينطق بها بلسانه و يظهرها بعمله لتتكرّس هذه المحبّة بين الزوج وزوجته.

وروي أن رجلاً سأل مولانا الإمام الصادق عليه السلام عن حقّ المرأة على زوجها، فقال: «يشبع بطنها ويكسو جثّتها، وإن جهلت؛ غفر لها»[٤]

المدارة: وهي الرفق والمراعاة في جميع الأمور المتعلّقة بها والامتناع عن العناد والقسوة في التعامل. وقد ورد عن أميرالمؤمنين القول بهذا الصدد: «... فدارها على كلّ حال وأحسِن لها فيصفو عيشك»[٥]

١- قرب الإسناد، ص٧٠
٢- نهج الفصاحة، ص٢٧٨
٣- السرائر، ج٣، ص٦٣٦
٤- من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٤٤٠
٥- نفس المصدر، ج٤، ص٣٩٢

←

٢٢. لدى مراجعة سيرة الأئمّة المعصومين عليهم السلام يتّضح جليّاً أنّهم كانوا يعاملون زوجاتهم بمنتهى حسن المعاشرة.. وثناء الأئمة المقدّسين على زوجاتهم دليل هذا المدّعى.. وكما كان الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله يوصي الناس بحسن المعاشرة، فقد كان هو السبّاق والقدوة الحسنة في ذلك، وهوالقائل: «خيركم؛ خيركم لنسائه، وأنا خيركم لنسائي»[١]

وقال أميرالمؤمنين عليه السلام في تعظيم الصديقة الزهراء عليها السلام: «ولقد كنتُ أنظر إليها؛ فتنكشف عنّي الهموم والأحزان».[٢]

١- نفس المصدر، ج٣، ص٤٤٣

٢- كشف الغمّة، ج ١، ص ٣٦٣.

الآية ٢٠

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾

شأن نزول الآية

كان معروفاً قبل الإسلام أنّه إذا أُريد تطليق الزوجة السابقة ثمّ الزواج من زوجة جديدة، اتّهموا السابقة بما ينافي العفّة والشرف تهرّباً من إعطائها حقوقها، أو أن يضيّقوا عليها لتعيد لهم ما كانت قد أخذته من صداق؛ فتحصل على طلاقها، ثمّ يقدّم هذا المهر والصداق ـ المستردّ ـ بالحرام للزوجة الجديدة. ولكنّ الآية أعلاه اختصّت بالحيلولة دون الاستمرار على هذا السلوك المشين وأدانت هذه العادة الجاهليّة الظالمه للمرأة.[1]

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. فسّرت كلمة ﴿ قنطار ﴾ في (مفردات الراغب) بمعنى القنطرة والجسر. والقنطار في لغة العرب يعني المال والثروة الكبيرة، إذ المال الكثير بمثابة الجسر الذي ينتفع منه في الحياة، ولذلك قيل له: قنطار..[2]

٢. في هذه الآية كما الآيات الأخرى؛ صدر الأمر الإلهي لعامّة المسلمين بحماية حقوق المرأة، حيث يمنع الرجل ـ لدى زواجه الجديد ـ من التجاوز على مهر الزوجة الأولى... أو إذا

١- أنوار التنزيل، ج٢، ص٦٦

٢- مفردات ألفاظ القرآن، ص٦٧٧

كان قد دفعه لها، فإنّه يمنع من استرداده، مهما كان مقدا رذلك المهر، وذلك لأنّ الفرض في هذه الحالة أن يكون الطلاق هنا يقصد به منفعة الزوج وليس انحراف الزوجة عن جادّة العفّة، وعلى هذا؛ لا يبقى ثمّ دليل على مشروعيّة تضييع حق الزوجة الأولى ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ... ﴾.

٣. ترى هل أنّ من الرجولة والشرف بمكان أن يتّهم الزوج زوجته بما ينافي العفّة لمجرد طمعه في استرداد صداقها؟ لا ريب أنّ هذا السلوك لا يعبر إلّا عن الظلم وتعمّد الخطيئة، بل إنّ التوسل بوسيلة جبانة و خاطئة يجسد بدوره ذنباً مفضوحاً... ﴿ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ﴾...

الآية ٢١

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. لمزيد من إثارة عواطف الرجال الإنسانيّة تكرر في هذه الآية وبأسلوب الاستفهام الإنكاري.. القول للرجال: لطالما خلوتم بنسائكم حتى صرتم كما الروح في بدنين، ولطالما عاشرتم بعضكم، فكيف تتعاملون بعد كلّ تلك المقاربة كما يتعامل الأجانب عن بعضهم أو كالاعداء وتضيعون حقوق زوجاتكم؟ وفي الحقيقة؛ إن الظلم في هكذا موارد ومصاديق بحق شريك الحياة يسبّب ألماً لذات الإنسان: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾.

٢. أنتم الذين أخذتم من زوجاتكم العهد والميثاق الغليظ؛ كيف تتجاهلون ذلك الميثاق وتقومون بنقضه؟

٣. رغم أنّ هذه الآية قد وردت في طلاق الزوجة السابقة واختيار الزوجة الجديدة، إلّا أنّها غير مختصّة بذلك، وإنّما المراد هو أنّه لدى كلّ طلاق وانفصال يتمّ باقتراح الرجل مع عدم ميل الزوجة لذلك.. فعلى الرجل أن يدفع إليها كل المهر، وإذا كان قد دفعه إليها، فليس له الحقّ أن يسلبها إيّاه، سواء كان الرجل قد قرّر زواجاً آخر أم لا.. وعليه؛ فإنّ عبارة: ﴿ إِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ... ﴾ ناظرة ـ في الواقع ـ إلى الحالة الجاهليّة قبيل الإسلام، ولا مدخلية له في أصل الحكم ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾.

٤. ﴿ استبدال ﴾ بمعنى طلب التبديل، وعلى هذا؛ يكون معنى الطلب والإرادة قد وقع في (الاستبدال) فإذا شاهدنا انضمام أمر ما إلى ﴿ أردتم ﴾ فذلك للإشارة إلى حرمة التقدم و التوسّل بما ليس مشروعاً ونبيلاً لدى التصميم على تبديل الزوجة..

الآية ٢٢

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾

شأن نزول الآية

كان معروفاً في الجاهليّة أن الرجل إذا مات وخلف زوجة وأولاداً، فإذا كانت الزوجة غير أمّهم، كان لهم أن يرثوها كما يرثون سائر أموال أبيهم.. وبهذا كان لهم أن يتزوّجوا بها أو أن يزوجوها بشخص آخر.. ثمّ جاء الإسلام، وحدث أن وقع لأحد المسلمين وكان يدعى أباقيس من الأنصار، إذ مات وترك وراءه زوجةً ليست أمّاً لأولاده، فقالت الزوجة لأحد أبناء زوجها الذي أراد الزواج بها: أعدّك إبناً لي ولا أرى زواجك بي مناسباً.. ولك أن تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم... فأخبر النبيّ بذلك، فنزلت هذه الآية الشريفة ونهت عن الزواج بزوجة الأب نهياً قاطعاً..[1]

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ضمن منع هذه الآية نكاح زوجة الأب المتوفّى [أو المطلّق] وقد كان متاحاً في الجاهلية، رغم قبحه، حيث ليس ثم قانون في البين.. ولهذا فقد أمضيت الزيجات السابقة للقانون الإسلامي بهذا الصدد ﴿ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾

٢. كان من الطبيعي أن تمضى حالات الزواج بزوجات الآباء السابقة للقانون الإسلامي لضرورة حفظ نظام الأسرة وعدم التسبّب بمشكلات كان المجتمع في غنىً عنها، وليس

١- مجمع البيان، ج٣، ص٤٣ و٤٤

تأييداً لعملية الزواج بزوجة الأب كواقع حال.. و في هذه الآية وردت ثلاثة أسباب لتـأكيد المخالفة القرآنيّة لمنع هذا النوع من الزواج:

الأوّل: أنّ هذا الفعل فعل قبيح للغاية ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾.

الثاني: أنّ هذا الفعل يوجب الرفض والتنفّر في أذهان الناس وخواطرهم، أي: عدم قبول الطبيعة الإنسانيّة له ﴿ وَمَقْتًا ﴾ و لقد نقرأ في صفحات التاريخ الجاهلي أنّ الناس كانوا يبغضون هذا الزواج. وإن كانوا يحلّونه. حتّى أنهم كانوا يطلقون على ثمرة هذا الزواج: المقيت.

الثالث: أنَه يجسّد مسلكاً منحرفاً ﴿ وَسَاء سَبِيلاً ﴾

٣. واضح أنّ علّة الحكم بحرمة وممنوعيّة الزواج بزوجة الأب بداعي المصالح وفلسفات مختلفة.. لأنّه أوّلاً: الزواج بزوجة الأب كالزواج بالأمّ من جهة، لأنّ زوجة الأب لها حكم الأم الثانية.. ومن جهة أخرى؛ يعتبر انتهاكاً لحرمة الأب وعدم احترامه.

و ثانياً: أنّ إباحة هذا الزواج يزرع بذور النفاق بين أولاد الشخص، إذ من الممكن وقوع الاختلاف لدى. حيازة. زوجة الأب بين الأولاد.. وفي العادة يقع الحسد والبغضاء بين الزوجة الثانية والأولى، إذا ما كان الزواج بزوجة الأب في حياة الأب (بعد طلاقها من الأب) وعلّة الحسد واضحة.. ولو وقع بعد موت الأب لأمكن نشوب الحسد أيضاً تجاه الأب الفقيد.. و العبارات الثلاث الواردة بخصوص تحريم هذا النوع من الزواج في الآية لا تبعد أن تكون إشارة إلى الفلسفات الثلاث...

الآية ٢٣

وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ
الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ
وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ
اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ
مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. حرّمت هذه الآية الشريفة بصراحة الزواج بالنساء المحارم، وبذكرهن تكون مصاديق المحرميّة بناءً على ثلاثة أبعاد:

الف: الولادة، و يعبّر عنها بالعلاقة النسبيّة، فتكون المحارم النسبية سبعة أشكال: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ ﴾.

ب: عن طريق الزواج، ويعبّر عنها بالعلاقة السببيّة:

ج: عن طريق الرضاعة، ويعبّر عنها بالعلاقة الرضاعيّة (وقد ذكر مقدار وعدد الرضعات

المحرّمة وشروطها وكيفيتها ودقائقها في الكتب الفقهيّة، فيراجع).[1]

٢. ينبغي الالتفات والتأكّد من أنّ المراد بالأم ليست الأمّ التي تولّد منها الولد بلا واسطة، وإنّما الجدّة للأمّ والجدّة للأب هما أمّان أيضاً، كما أنّ المراد من البنت ليست البنت المباشرة من الصلب، وإنّما بنت البنت وبنت الإبن هما بنتان أيضاً، وكذلك الشأن في المصاديق الخمسة الأخرى...

٣. من الجدير ذكره أنّ جميع الأشخاص يتنفّرون ـ بطبعهم ـ من الزواج بالمحارم، ولهذا؛ فإنّ جميع الأمم (باستثناء أفراد قلائل) تمنع زواج المحارم، حتّى أن المجوس الذين يجيزونه في مصادرهم الأصليّة القديمة صاروا الى إنكاره في العصر الراهن.

٤. مع أنّ البعض يسعى إلى نسبة هذا الموضوع إلى العادات والتقاليد القديمة، إلّا أنّنا نعلم بأنّ عمومية قانون ما بين أفراد البشر على مرّ العصور يحكي عن بُعده الفطريّ والنفسي، ذلك لأنّ العادة والتقليد لا يمكن أن تأخذ لنفسها بعداً عامّاً ودائميّاً.

٥. قد ثبت في العصر الحديث حقيقة أنّ زواج الأقارب له مخاطره العديدة.. أي أنّ الأمراض الوراثيّة والجينيّة تتكرّس وتتجلّى (وليس أنّ زواج الأقارب هو المتسبّب بالمرض) حتّى أن البعض، وفضلاً عن المحارم، يعدّون زواج الأقارب الأبعدين، مثل أولاد العمومة أمراً ليس بالمستحسن.. ويؤمنون بأنّ مخاطر الأمراض الوراثيّة تزداد احتمالاً.. ولكنّ هذه المسألة تتضاءل احتمالاتها كلما بعدت القرابة..

٦. في الأغلب العام. نجد الجاذبيّة الجنسيّة بين المحارم تتضاءل إلى درجة كبيرة جدّاً، لأنّ أفراد المحارم في الغالب يشبون مع بعضهم وهم لبعضهم مجرّد موجودات عاديّة؛ مع وجود استثناءات نادرة جدّاً لا تمثّل معياراً للحالة العامة والقانون العام.. ونعلم أنّ الجاذبيّة الجنسيّة

١- راجع: مسالك الافهام، ج٧، ص٢٠٧ إلى ٢٤٠

هي شرط تكريس واستمرار العلاقة الزوجيّة، وعلى هذا؛ إذا حصل الزواج بين المحارم، فسيكون زواجاً تافهاً وسرعان ما ينتهي إلى الفشل..

٧. رغم أنّ القرآن المجيد في هذه الآية لم يشر إلّا مجموعتين؛ وهما الأخوات والأمهات الرضاعيّات، ولكن طبقاً للروايات المستفيضة المتوفّرة لم تحصر محارم الرضاعة بهاتيك الإناث، فحسب الحديث النبويّ الشريف المعروف ورد أنّه: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[١] ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ ﴾...

٨. إنّ فلسفة تحريم المحارم من الرضاعة هي أنّ نمو اللّحم والعظام من لبن شخص معيّن تؤدي إلى الشبه فيما بينه وبين أولاد المرأة المرضع.. فمثلاً: إذا أرضعت المرأة صغيراً من لبنها بما ينمي بدنه بصورة مميّزة، فإنّ ذلك يكرّس الشبه بأولادها الذين أرضعتهم، وفي الحقيقة يكون كلٌّ منهم جزءاً من بدن تلك الأم المرضع، ولعل حالهم يكون كحال الأولاد والأخوة في النسب..

٩. عنونت هذه الآية المحرميّة بسبب الزواج بعدة عناوين:

الف: بمجرّد أن تتزوّج امرأة من رجل وتقرأ صيغة العقد بينهما؛ حرمت عليه أمّها وجدّتها و... حرمة أبدية ﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ ﴾

ب: بنات الزوجة الّلاتي يخضعن لإدارة الأزواج.. ومحرميتهنّ مشروطة - فضلاً عن العقد الشرعي - أن تكون المقاربة الجنسية قد وقعت (خلافاً لمحرمية أم الزوجة التي لم تقيّد بهذا القيد) أي: أنّ مجرد قراءة صيغة العقد الشرعي لا يحرمهن على الزواج إذا طلّقها أو توفيت قبل أن يباشرها جنسيّاً ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾

ج: رغم أن ظاهر قيد ﴿ فِي حُجُورِكُم ﴾ الوارد في الآية يشير الى أن بنت الزوجة من زوج آخر

١- الكافي، ج٥، ص٤٤٦

لو لم تترعرع تحت مظلة هذا الزوج؛ فإنّها لا تحرم عليه.. إلّا أنّه بقرينة الروايات والحكم المسلّم به؛ فإنّ هذا القيد لا يمكن أن تكون له موضوعيّة.. بل إنّه يوجب حرمة أبديّة على زوج الأم، لأنّ مثل هذه البنت التي أقدمت والدتها على زواج آخر؛ ليس لها من العمر الكثير، وفي الغالب ستعيش تحت مضلة زوج أمّها، فيرعاها كما يرعى ابنته بالنظرة والنفقة والقُرب.. والآية تقول: هذه البنت كبنت الزوج الحقيقيّة.. فهل يتزوج المرء من ابنته؟ واستعمال كلمة (ربائب) التي هي جمع ربيبة؛ بمعنى الخاضعة لإدارة وتربية زوج الأم..

د: من جملة الذين تنالهم المحرميّة بواسطة الزواج: زوجات الأبناء: ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾.

١٠. استعمال عبارة ﴿ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ في هذه الآية يبين سبب بطلان آخر لعادة جاهلية مقيتة أخرى كانت تسمّى: ولد الأسرة، إذ في حقبة الجاهليّة كان متعارفاً أن يتّخذ بعض الأولاد الغرباء كأولاد حقيقيين فتشملهم جميع الأولاد الحقيقيين من الأصلاب، ولذلك؛ كانوا لا يتزوجون زوجات الأبناء الذين يتمّ تبنّيهم..

١١. الإسلام لا يجيز الجمع في نكاح الأختين في وقت واحد.. فيما أباح الإسلام الزواج بهما في زمنين مختلفين وبعد الانفصال أو موت واحدة منهما ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ ﴾.

١٢. لمّا كان الجمع بين الاختين أمراً رائجاً في الجاهليّة، وقد عمد إلى ذلك العديد من الرجال، رأينا القرآن المجيد وبعد إعلانه الحكم بممنوعيّة هذا الجمع.. ودرءاً لظهور المشاكل الجديدة على الصعيد الأسري في العوائل حديثة الإسلام.. فلم يصدر الدين حكماً بالعقوبة لهم رغم لزوم اختيارهم واحدةً منهما ﴿ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾.

١٣. السرّ في منع الاسلام هكذا زيجات أنّ الأختين بحكم نسبتهما وعلاقتهما الطبيعيّة، تراهما متعلّقتين ببعضهما أشدّ التعلّق، ولكنّهما إذا ما صارتا متنافستين في الزواج من رجل واحد، فإنّهما ستعجزان عن حفظ الإيجابيّة في علاقتهما.. وسيتسبب واقعهما الجديد

بتناقض عاطفي خطير على حياتهما.. لاسيّما وأن الباعث للمودّة بينهما سيزول بصراع مرير..

١٤.احتمل بعض المفسّرين أن تكون جملة ﴿ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ عائدة إلى جميع المحارم.. أي: إذا كانوا قد تزوجوا قبل نزول هذه الآية بأحد المحارم المذكورين طبقاً للقوانين المتعارفة آنذاك، فإن الحكم بالتحريم لا يشملهم.. وإنّ أولادهم أولاد شرعيّون.. ولا ريب أنّ من الواجب انفصالهم الفوري عن بعضهم بعد نزول هذه الآية.. ولهذا؛ كانت خاتمة الآية حيث قولها: ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ مناسبة للمعنى المشا رإليه....

الآية ٢٤

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية تبيّن موضوع و بحث الآية السابقة.. فعن النساء اللاتي يحرم الزواج منهنّ تضيف قائلة: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء ﴾ حيث الزواج والمعاشرة الجنسية مع النساء المتزوّجات حرام..

٢. ﴿ الْمُحْصَنَاتُ ﴾ جمع محصنة من مادّة حصن، بمعنى القلعة..

٣. مع أنّ كلمة (المحصنة) تستعمل تارة بمعنى المرأة الحرّة في مقابل المرأة المملوكة والجارية، لأنّ حرية المرأة بمثابة حريم مرسوم حولها؛ ولا حقّ لأحد بالنفوذ واختراق حريمها بلا إذن منها.. ولكن من الواضح أنّ هذه الكلمة أطلقت في هذه الآية على المرأة المتزوجة والمرأة العفيفة التي تحفظ نفسها من المعاشرة الجنسيّة مع الآخرين أو تجعل نفسها تحت حماية وإدارة الرجال..

٤. إن حرمة وممنوعيّة الزواج من النساء المتزوّجات لا يختصّ بالمسلمات فقط، وإنّما يشمل جميع النساء المتزوّجات من كل مذهب وقوميّة ودين..

٥. من وجهة النظر الإسلاميّة، فإنّ النساء غير المسلمات وفي حال الحرب ضد جيش المسلمين ممن يقعن في أسر المسلمين، كما المرأة التي لم تكن مسلمة، ففي حالة اعتناقها الإسلام وانقطاع علاقتها بزوجها السابق (في حال بقائه على الكفر) فإنّ علاقة هكذا نساء تقطع مع أزواجهن بمجرد أسرهن.. ويصبحن كنساء بلا أزواج، ولهذا؛ يكون وقوعهنّ في الأسر بمثابة طلاقهنّ من أزواجهنّ السابقين.. فيؤذن للمسلمين أن يتزوجوا منهنّ بعد انقضاء عدّتهنّ، أو أن يعاملوهن معاملة الجواري ﴿ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾..

٦. إنّ فلسفة الحكم بالزواج من هذا النوع من النساء تبيّن حقيقة أنّ هكذا نساء إما أن يعدن إلى بيئتهنّ الكافرة، أو أن يبقين كافرات ويعشن بين المسلمين، أو أن تقطع علاقتهن بأزواجهنّ السابقين ليتزوجن من جديد.. ولكنّ الصورة الأولى مخالفة للأصول التربوية الإسلامية، والصورة الثانية صورة ظالمة.. فلا يبقى سوى الصورة والحالة الثالثة.

٧. قوله تعالى: ﴿ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ يؤيّد ويؤكّد أن الأحكام السالفة فيما يتعلّق بالمحارم وأمثالهم من الأمور التي قرّرها الله تعالى لكم وكتبها، وعليه؛ فهي لا تتغيّر ولا تتبدّل بمرور الزمان.

٨. غير هذه المجموعات التي ذكرت في هذه الآية والآية سبقتها، فإنّ لكم أن تتزوّجوا بسائر النساء على شرط أن تكون زيجاتكم طبقاً للقوانين الإسلاميّة مع مراعاة العفّة والنزاهة والابتعاد عن الفساد والإفساد ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾.

٩. مادّة سفاح (على وزن كتاب) بمعنى الزنا، وفي الأصل؛ هي من السفح بمعنى انسكاب الماء أو الأعمال السفيهة والصادرة بلا تفكير.. ولأنّ القرآن المجيد يستعمل في هذه الموارد

وأمثالها أسلوب الكناية، جعل هذه المفردة بمثابة الكناية عن المعاشرة غير الشرعيّة، وهنا؛ كانت كلمة ﴿ مُّحْصِنِينَ ﴾ إشارة إلى الرجال بمعنى العفيفين، و﴿ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ يؤكّد ذلك.

١٠. عبارة ﴿ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ في هذه الآية لعلّها تبيّن حقيقة ألّا يكون هدفكم من مسألة الزواج الرغبة الجنسية العارمة وإرضاء الغريزة، والحال أنّها مسألة مصيريّة لتحقيق هدف سامٍ قد وضعت الغريزة في آخره، وهو بقاء النسل وصونه من التلوّث..

١١. هذا القسم من الآية؛ إشارة إلى مسألة الزواج المؤقت أو ما يسمّى بالمتعة ويقول: ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ وواجب..

١٢. المتعة لغةً من مادّة (متع) وهو بمعنى ذلك الشيء الذي ينتفع به، أو كان الانتفاع به قليلاً ومؤقّتاً.[1]

١٣. المتعة في التعريف الفقهي والديني زواج يتم فيه النكاح بين رجل وامرأة مدّة محدودة ومهر معيّن، ثم ينفصلان عن بعضهما عند انقضاء المدّة بلا طلاق، ولكن على المرأة أن تعتد عدّتها الشرعية الخاصّة.[2]

١٤. أركان المتعة: للمتعة أركان يوجب عدم رعايتها بطلان عقدها:

الف: صيغة العقد.

ب: تعيين المدّة: أحد الأركان الأساسيّة لنكاح المتعة ذكر المدّة. وقد جاء في القانون المدني: النكاح الوقتي مؤقّت يقع إلى مدّة معيّنة معلومة، يعني: يجب تحديد مبدئه ومنتهاه، فينبغي أن يراعى ويلاحظ حين العقد.. أمّا إذا لم تذكر المدّة ولم تحدّد لنسيان أو عمد؛ تبدل

١- مفردات ألفاظ القرآن، ص٧٥٧ ولسان العرب، ج٨، ص٣٣٢

٢- مفردات ألفاظ القرآن، ص٧٥٨

←

نكاح المتعة إلى نكاح دائم.(١)

ج: تعيين المهر: ما يستفاد من الآية الشريفة أنّ أصل التشريع في الزواج المؤقّت كان قبل نزول الآية أمراً مسلّماً به، وقد جرت الوصيّة في هذه الآية على إعطاء المهر. ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾.

١٥.الشيعة قائلون بجواز المتعة طبقاً لحكم القرآن والسنّة، ولإثبات مدّعاهم، ثمّ دلائل نذكر بعضها على سبيل الإيجاز:

وإنّ أكثر مصدر لاستنباط المسائل الشرعيّة اعتباراً هو القرآن الكريم.. ودليل الشيعة على صحة وإباحة الزواج المؤقّت هو القرآن والآية هي الوحيدة التي طرحت بحث المتعة في القرآن، وهي الرابعة والعشرين من سورة النساء، حيث تحدثت عن الزيجات الحلال ومنها الزواج الموقّت وبيّنت حلّيتها وشرائطها، وذلك بعد بيان جملة من الأحكام، ومنها حكم تعدّد الزوجات في أوائل سورة النساء، وأشكال الزواج الحرام في الآيات السالفة..

﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾. وقد بيّن الله تعالى في هذه الآية الدلائل أدناه وحكمة وفلسفة تحليل الزواج المؤقّت:

الدليل الأوّل: ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ في هذه الآية دلالة على الزواج المؤقّت دون الدائم، لأنّ الزواج الدائم والزواج بالجارية مسائل تصرّح بها آيات أخرى، ولا حاجة لأن يكرّر المعنى نفسه بصيغة جديدة بعد قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُم... ﴾.(٢)

الدليل الثاني: بين أيدينا روايات عديدة نقلت عن الأئمّة الأطهار عليهم الصلاة والسلام تشير إلى أن الآية الشريفة تتحدّث عن الزواج المؤقّت،٣ ومن جملة ذلك ما أجاب به مولانا

١- تحرير الوسيلة، ج٢، ص٢٧١.
٢- الفرقان، ج٦، ص٤٢٤
٣- راجع: وسائل الشيعة، ج٢١، ص٥ إلى ١٠

←

الإمام الصادق عليه السلام أباحنيفة الذي سأله عن الزواج المؤقّت.. وقد استشهد عليه السلام بآية ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ... ﴾.[١]

الدليل الثالث: إذا لم نعتبر أنّ مصطلح ﴿ اسْتَمْتَعْتُم ﴾ بمعنى الزواج المؤقّت، ونظرنا إلى معناه اللّغوي فحسب وعزوناه إلى الزواج الدائم، فإنّ معنى الآية سيكون التالي: إذا استمتعتم بالنساء فآتوهنّ أجورهنّ.. والحال أنّ الزواج الدائم لايشترط في إعطاء المهر عليه أن يتم الاستمتاع بالزوجة، بل إنّ نصف المهر يكون واجب الدفع بمجرد قراءة صيغة العقد.[٢]

الدليل الرابع: أنّ كلمة ﴿ أُجُورَهُنَّ ﴾ يبين معنى المتعة، ذلك لأنّ النكاح الدائم يُعبّر عن مهره بالصداق والمهر ﴿ وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾.

ولا ريب أن حكم المتعة إذا ما ورد في النصّ القرآني الصريح فإن مشروعيته تبقى ثابتة إلى الأبد.

الدليل الخامس: أنّ كبار الصحابة والتابعين؛ مثل ابن عبّاس المفسّر المعروف وأبي بن كعب وجابر بن عبدالله الأنصاري وعمران بن حصين وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة، وفريق كبير من مفسّري المخالفين وجميع مفسّري الشيعة قد فهموا من الآية مشروعيّة الزواج المؤقّت.. حتّى أنّ الرازي الشافعي؛ هو الذي طالما أشكل على الشيعة، قد أقرّ. مع كل شهرته . بعد بحث تفصيلي في هذه الآية وقال: لا نخالف في أنّ الآية قد أحلّت زواج المتعة؛ إلّا أنّنا نقول بأنّ الحكم المذكور قد جرى نسخه بعد مدّة!!

الدليل السادس: أنّ أهل البيت عليهم السلام؛ وهم المطلعون كلّ الاطّلاع على أسرار الوحي؛ فهم حاملو هذه الأسرار، وقد فسّروا الآية بالزواج المؤقّت، ونقلت عنهم روايات كثيرة

١- الكافي، ج٥، ص٤٤٩ و٤٥٠

٢- الميزان، ج٤، ص٢٧٣.

←

بهذا الصدد..

من جملة ذلك قول مولانا الإمام الصادق(ع): «المتعة نزل بها القرآن وجرت بها السنّة من رسول الله».[١]

وعن مولانا الإمام الباقر(ع) ردّاً على أبي بصير بخصوص المتعة: «نزلت في القرآن؛ ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾».[٢]

وروي عنه(ع) أيضاً في معرض الإجابة سؤال تقدم به عبدالله بن عمير الليثي في إطار المتعة فقال: «أحلّها الله في كتابه وعلى لسان نبيّه؛ فهي حلال إلى يوم القيامة».[٣]

وسأل فتح بن يزيد مولانا الإمام الرضا(ع) عن المتعة، فقال(ع): المتعة حلال لمن لم يغنه الله بالزواج الدائم أو من كانت زوجته غائبة.[(٤)]

١٦. إنّ فلسفة تشريع المتعة في الإسلام هي أنّه سبحانه وتعالى قد خفّف على هذه الأمّة لتصون نفسها عن الذنب ويحجم المسلمون فيها عن خطيئة الزنا.. وتشريع المتعة جاء كحلٍّ من حلول العسر في الزواج الدائم، فيتزوج المسلم المضطر زواجاً مؤقّتاً ليحلّ أزمته الجنسيّة بدلاً من التعرّض للحرام مع أنّه لا يكون مسؤولاً عن النفقة..

١٧. الزواج المؤقّت في كثير من الحالات الخاصّة بأفراد معيّنين من حيث السنّ أو من حيث وفاة الزوجة وعدم القدرة على تكرار الزواج الدائم بوجود الأولاد، أو بسبب الدراسة المديدة، أو بسبب اجتماعي يحول دون عقد الزواج الدائم، أو بعلّة عدم الإشباع الجنسي، لاسيّما وأنّ الغريزة الجنسية إحدى أقوى الغرائز الإنسانيّة غير القابلة للتجاهل والإنكار إلى

١- الكافي، ج٥، ص٤٤٩

٢- نفس المصدر، ص٤٤٨

٣- نفس المصدر، ص٤٤٩

٤- نفس المصدر، ص٤٥٢ و٤٥٣

الحدّ الذي عدّها بعض علماء النفس الغريزة الإنسانية الأصيلة الوحيدة وأنّ جميع الغرائز الأخرى عائدة إليها.. وأنّه ما لم يشبع الفرد هذه الغريزة بشكل صحيح؛ فإنّه لا يجد له مخرجاً غير ثلاث طرق:

الطريقة الأولى: التشجيع على الفساد والإباحة الجنسية المرادفة للخطايا والذنوب والانحراف.

الطريقة الثانية: الدعوة إلى ردم هذه الغريزة ومواجهتها (كما الرهبان والراهبات) وما هذا إلّا مواجهة مع قانون الخلقة، وهو أمر ليس بالعاقل.

الطريقة الثالثة: إشباع الغرائز بالطريق الصحيح والمعقول والشرعي وضمن شرائطه الشرعيّة.

١٨. نجيب على الإشكالات التي تورد على الزواج المؤقّت بشكل مختصر:

الإشكال الأوّل: يقولون تارةً: ما الفرق بين الزواج المؤقّت وبين الزنا.. فكل واحد منهما بمثابة بيع المرأة لنفسها مقابل مبلغ مالي، وإنّما الزواج هذا مجرد نقاب تخفى وراءه الفحشاء والقذارة الجنسيّة، وليس التفاوت بينهما إلا قراءة جملتين في صيغة العقد؟!

الجواب: هؤلاء الذين قالوا ما تقدّم لا يدركون مفهوم الزواج المؤقّت، لأنّ هذا الأخير لا يتمّ بالنطق بجملتين فحسب، وإنّما له مقرّراته كما هو الزواج الدائم، أي أنّ المرأة في هذا الزواج - طيلة مدّته - تكون تحت إدارة الزوج، وعليها التزام عدّتها عند انتهاء مدّة الزواج، أي ما لا يقل عن خمسة وأربعين يوماً تمتنع فيها عن أي زواج آخر مع شخص آخر، ليتّضح مصير جنينها إن حملت من زوجها الأول.. ولو أنّها كانت تستخدم وسائل منع الحمل؛ فإنّها تبقى ملزمة بمراعاة العدّة.. وإذا ما حملت منه؛ ألحق الوليد بأبيه كإلحاقه من الزواج الدائم، وتنطبق عليه جميع أحكام الولد المشروع والطبيعي.. فيما الفحشاء مجرّدة عن هذا الواقع والشروط والتبعات.. فهل يبقى ثم وجه للمقايسة بين الزواج المؤقّت والزنا؟! وطبعاً ثمّ تفاوت بين

الزواجين المؤقّت والدائم في مسألة الإرث والنفقة وبعض الأحكام الجانبيّة الأخرى، ولكنّ أوجه التفاوت هذه لا تضع الزواج المؤقّت إلى جانب الفحشاء أبداً.. وعلى أيّ حال؛ فهو شكل من أشكال الزواج وخاضع لقوانين الزواج..

الإشكال الثاني: أنّ هذا الزواج يحرّض بعض الأشخاص الشهوانيّين على استغلال هذا القانون، فيمارسون الفحشاء تحت طائلة إباحة هذا الزواج، فيما يمنع المحترمين والنبلاء من الأشخاص دون من هذا الزواج، كما أنّ ذوات الكرامة تمتنع عن قبول فكرته أو ممارسته..

الجواب: ترى أيّ قانون في العالم لم يتعرّض للاستغلال وسوء الاستفادة؟ وهل أنّ هذه الإساءة يمكن أن تحول دون الانتفاع من قانون فطري وضرورة اجتماعيّة؟ أم أنّ علينا أن نمنع إساءة الاستفادة والاستغلال؟ فلو أن جماعة أساؤوا التصرّف خلال زيارة بيت الله الحرام، وعمدوا مثلاً إلى نشر المخدرات وبيعها، فهل يمكننا منع جميع الناس من المشاركة وحضور الاجتماع الإلهي العظيم ـ الحجّ ـ؟ أم علينا أن نقمع المستغلين بسوء؟ وحيث نرى البعض ـ المحترم ـ في الفترة الراهنة يأبون استيعاب هذا القانون الإسلامي، فإنّ العيب لا يعود إلى القانون؟ وإنّما هو عائد إلى العاملين به.. وبكلمة أصحّ: المسيئون الاستفادة منه.. ولو أنّ العمل بهذا القانون تمّ في المجتمع المعاصر بشكل سليم وقنّنته الحكومة الإسلامية ضمن ضوابط ومقرّرات خاصّة ونفّذته بصورة صحيحة؛ لتغيّرت النظرة إليه من جهة من يأيوبه، ولما كان عرضة لسوء الاستفادة والتصرف.

الإشكال الثالث: أنّ الزواج المؤقّت يتسبب في تكاثر الأولاد المحرومين من الآباء كما هم الأولاد غير الشرعيّين في المجتمع..

الجواب: ممّا ذكرنا تتضح الإجابة على هذا الإشكال، لأن الأولاد غير الشرعيين لا ينتمون إلى أب وأم من الناحية القانونيّة، في حين أنّ أولاد الزواج المؤقّت لا يفرقون ـ بأي وجه من الوجوه ـ عن أولاد الزواج الدائم، بما في ذلك الميراث وسائر الحقوق الاجتماعيّة.. ولعلّ عدم الالتفات

إلى هذه الحقيقة هو الدافع لطرح هذا الإشكال..

١٩. أدلّة المخالفين القرآنية على عدم جواز المتعة:

يذهب غالب علماء المخالفين إلى أنّ الآية الشريفة متعلقة بالنكاح الدائم، وعلى فرض تعلّقها بالنكاح المؤقّت؛ فهي قد صارت بعد مدة من نزولها من الآيات المنسوخة.. وهناك من الآيات ما يوردونها دعماً لمدّعاهم..[1] نذكر بعضاً منها مقرونة بإجابة الشيعة وردّهم عليها:

الف: النسخ بآيات أحكام الزواج:

يذهب فريق من علماء المخالفين إلى أنّ هذه الآية الشريفة قد نسخت بآيات سورة المعارج والمؤمنون: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾.[2]

فتبعاً لحكم هذه الآيات؛ قد حرّمت المعاشرة الجنسية مع غير الزوجة والجارية، وحين يقع التعارض بين الحلّيّة والحرمة، تقدّم الحرمة على الحلّيّة . بهذا الصدد . فالمراد من الاستمتاع الوارد في الآية الرابعة والعشرين من سورة النساء هو الدخول؛ لا المتعة التي تقول بها الشيعة.. وإن كان المراد هو المتعة، والمتعة بحكم معاشرة المملوكة (الجارية) والزوجة؛ فهو ممنوع أيضاً؛ لأنّ جميع لوازم الزوجية (الإرث، العدّة، الطلاق، والنفقة) منتفية.[3]

٢. النسخ بآيات الإرث:

يذهب بعض علماء المخالفين إلى أنّ آية المتعة قد نسخت بآية الإرث القائلة: ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ... ﴾.

هذه الآية الشريفة تحدّد سهم الزوجة والزوج من الإرث، بمعنى أن التوارث هو شرط الزواج،

١- راجع: التفسير الكبير، ج١٠، ص٤١ و٤٢ وروح المعاني، ج٣، ص٧ و٨

٢- سورة المؤمنون / ٥ ـ ٧ وسورة المعارج / ٢٩ ـ ٣١.

٣- روح المعاني، ج٣، ص٨.

←

وأن الزوجة والزوج يجب أن يتوارثا.. هذا في حين أنّ المتعة مجرّدة عن التوارث.. والمسألة الثانية هي حصول الزوجيّة في إثبات نسب الأولاد، في حين أنّ إجماع العلماء لم يثبت النسبية في الأولاد.[1]

٣. النسخ بآيات الطلاق والعدّة:

يعدّ المخالفون آيات الطلاق والعدّة ناسخة لمشروعيّة المتعة وآياتها، وأنّ المتعة حكم لا أساس له.. من ذلك قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ... ﴾.[2]

و: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا... ﴾.[3]

فالمخالفون وبالاستناد إلى هاتين الآيتين وغيرهما، وروايات مشابهة يستدلون بها على أنّ الطلاق والعدّة والإرث من لوازم الزوجيّة.. بمعنى أن في حال انتفاء الطلاق والعدّة والإرث؛ يكون النكاح منتفياً أيضاً، ولو أنّهم قالوا بالعدّة، فإنّها في نكاح العدّة أقلّ من عدّة الطلاق.

ردّ الشيعة على المخالفين

أدلى علماء الشيعة بأجوبة وردود على دلائل المخالفين الخاوية والضعيفة التي بيّنونها، ونوردها هنا بإيجاز:

أوّلاً: أساس دليل المخالفين جملة روايات من أشكال الخبر الواحد، والحال أنّ الخبر الواحد لا يثبت نسخاً من جهة، ومن جهة أخرى أنّ هذه الأخبار تتعارض وروايات عديدة واردة عن أهل البيت عليهم السلام تفيد إباحة المتعة وعدم نهي النبي الأكرم(ص) عنها، وهي

١- مفاتيح الغيب، ج١٠، ص٤١.

٢- سورة الطلاق / ١.

٣- سورة البقرة / ٢٣٤.

←

الروايات المتواترة.[١]

ثانياً: لجأ المخالفون بعد استدلالاتهم بأخبار الآحاد إلى الدلائل القرآنيّة، وهو أكر مردود بإعمال أدنى الدقّة والتأمّل، نذكر هنا بعض الموارد:

الف: أنّ القائلين بنسخ آية المتعة بآيات أحكام الزواج، كأنّهم تصوّروا كون الزواج المؤقت ليس بزواج أصلاً.. والحال أن المقطوع به كون الزواج المؤقّت أحد أقسام الزواج.. وأنّ المراد من التحريم في الآيات المذكورة هو إشباع الغريزة الجنسية من الطريق الخطأ وغير المشروع.

ب ـ من جهة تاريخ النزول، نجد سورتي (المؤمنون والمعارج) قد سبقتا سورة (النساء) لأنّهما نزلتا في مكّة، في حين أنّ سورة (النساء) قد نزلت في المدينة، وقد كانت المتعة معروفة بين المسلمين.. ولكنّ لازم مدّعى هؤلاء أنّ المتعة قد منعت قبل الهجرة النبوية إلى المدينة، في حين أن مدّعى المخالفين خلاف هذا القول، لأنّ مدّعاهم يفضي إلى أنّ المتعة قد نسخ حكمها في أواخر عمر النبيّ(ص) أو بعد استشهاده الأليم. وعلى هذا؛ تعجز الآيات المذكورة أن تكون ناسخة لآية وحكم المتعة، لأنّ الناسخ ينزل بعد المنسوخ ومن جهة صاحب الوحي والرسالة دون غيره، إذ الوحي قد سُدَّ بابه بعد الشهادة النبويّة، كما أنّ آية الميراث الذي اقترن بحكم المتعة في سورة واحدة وسياق واحد، حيث يكون حكم المتعة مخصّصاً لآية الإرث ونزوله متأخّر عن نزول حكم الإرث[٢]

ج: أنّه لا دليل على أنّ التوارث ـ بصورة مطلقة ـ من اللّوازم الثابتة للزوجيّة، إذ القوانين الاسلاميّة تتضمّن انتفاء التوارث بين الزوجين في حالات ما، مثل انتفاء إرث الزوجة الكافرة من الزوج المسلم، ومثل انتفاء إرث الزوج القاتل لزوجته.. وبالنتيجة؛ فإنّ التوارث لا يختصّ

١- راجع: وسائل الشيعة، ج٢١، ص٥ إلى ٢١

٢- الميزان، ج٤، ص٢٧٢ إلى ٢٧٤.

←

بالنكاح الدائم.[١]

د: أنّ آيات الطلاق لا علاقة لها بمسألة المتعة، لأنّ الطلاق فرع على بقاء آثار النكاح، وبخصوص المتعة، فهي تنتهي بانتهاء المدّة المحدّدة أو ببذلها والتنازل عنها. فلا يبقى نكاح ليتوجّب طلاق، ولأنّ النكاح الدائم غير مؤقّت؛ تراه بحاجة إلى طلاق، ولكنّ المؤقّت من النكاح لا حاجة لطلاق فيه.

هـ: أنّ تشريع الطلاق لا يحصر إباحة الوطء (الدخول والمقاربة) وشرعيّته في أنّ المقاربة شرط للطلاق، إذ المتعة والزواج من الجارية مسألة تختلف عن ذلك (فالمباشرة مباحة دون أن يكون طلاق في البين) وعليه؛ فمسألة الطلاق هي الايقاع الذي يحل عقدة الزواج الدائم واستمراره.[٢]

ز: أنّ عدّة المتعة أقل من عدّة الطلاق، والآية الشريفة ساكتة ولا تدلّ على ذلك، وكذلك هي لا تدلّ على تساوي العدّتين، فذلك لأنّ انتهاء المتعة لا يعدّ طلاقاً.. أمّا أنّ الشيعة قائلون بعدم العدّة في المتعة، فهذه تهمة عظيمة للشيعة على أن هذه الآيات ليست بصدد بيان موارد الطلاق؛ فضلاً عن حديثها عن عدم الطلاق في نوع من الزواج ليكون ذلك دليلاً على نسخ ذلك الزواج.[٣]

س: من الأمور الدالّة على حلّيّة المتعة قول عمر بن الخطّاب: متعتان كانتا على عهد رسول الله، وأنا أنهى عنهما ومعاقب عليهما... ولو كان ثمّ نسخ وارد من جهة الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله لاستشهد به عمر، ولكنّه لم يجد ذلك ولم يستدلّ به، وعلى هذا؛ فالرواية مصرّحة بأنّ المتعة كانت مباحة في العصر النبوي، وما تحريمها إلّا بدعة صدرت عن عمر..

١- البيان في تفسير القرآن، ص٣١٥.

٢- آلاء الرحمن، ج٢، ص٨٢ و٨٣

٣- البيان في تفسير القرآن، ص٣١٤.

مصادر هذه الرواية عند المخالفين:

نقل السرخسي في كتابيه هذه الرواية من جملة روايات عن عمر قائلاً: وقد صحّ عن عمر نهي الناس عن المتعة فقال: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه (وآله) وأنا أنهى الناس عنهما؛ متعتا النساء ومتعة الحجّ.[1]

وقد نقلت هذه الرواية في المصادر أدناه:

(مسند احمد، ج ٣، ص ٣٢٥، رقم ١٤٥١٩) و(المغني، ج ٧، ص ١٣٦) و(أحكام القرآن للجصّاص، ج ١، ص ٣٤٧) و(تفسير القرطبي، ج ٢، ص ٣٩٢) و(تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٣٦٦) و(التفسير الكبير، ج ٥، ص ١٣٠) و(بداية المجتهد، ج ١، ص ٢٤٤) و(وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٦، ص ١٥٠).

٢٠. ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمًا ﴾ إشارة إلى أحكام هذه الآية، وهي أحكام تتضمن الخير والسعادة للبشر، لأنّه تعالى عليم بمصالح العباد وحكيم فيما يوجب عليهم أو ينهاهم عنه....

١- المبسوط للسرخسي، ج ٤، ص ٢٧ وأصول السرخسي، ج ٢، ص ٦.

الآية ٢٥

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ
الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن
فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن
بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ
أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ
مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ
الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. هذه الآية وضمن بيانها شروط الزواج بالجواري، تلمّح إلى أنّ باستطاعة من لا قدرة له على الزواج بالنساء الحرات أن يتزوج بالجواري اللّاتي تقل مهورهنّ ونفقاتهن في الغالب ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ... ﴾.

٢. المقصود من الزواج بالجواري ليس أن من يملك الجارية؛ عليه أن يتزوّجها، وإنّما ـ ضمن شروط خاصّة ذكرت في كتب الفقه والأحكام ـ له أن يعاملها معاملة الزوجة، وبهذا؛ يكون المراد زواج الفرد غير المالك للجارية أن يتزوّجها، مضافاً إلى استعمال كلمة (المؤمنات) حيث ينبغي أن تكون الجارية مؤمنة ليتاح الزواج بها، وعليه؛ فإنّ الزواج من الجارية الكتابيّة غير صحيح.

٣. وصف القرآن الجواري في هذه الآية بالفتيات، وهي جمع فتاة، وهذا التعبير يوحي بالاحترام الخاص غالباً بين النساء، وفي الأغلب يستعمل بخصوص البنات الشابات..

٤. بناءً على الأمر القرآني؛ فإنّ تحديد إيمان الجواري راجع إلى إقرارهنّ ووصفهنّ أنفسهن.

٥. الإيمان الظاهري كافٍ في الزواج، إذ لسنا مكلّفين بكشف بواطن الناس، لاسيّما وأنّه تعالى عليم بأسرار الناس وعقائدهم ﴿ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ﴾.

٦. لمّا كان بعض الناس تأبى أنفسهم عن الزواج بالجواري.. نرى القرآن المجيد يشير إلى أنّ الزواج بالجواري ليس كما يأبى البعض ويكره، لأنّ جميع الناس قد خلقوا من أب واحد وأمٍّ واحدة، وأنّ الجميع بعضهم من بعض.. وهكذا لا ينبغي إيجاد التفاوت بين الزواج من حرّات أو جاريات مملوكات.. أمّا الناحية المعنوية؛ فمردّها إلى تقوى الأفراد وورعهم، والكراهة في ذلك أمر مذموم إذ الأفراد يكمّل بعضهم بعضاً ﴿ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾.

٧. لابدّ أن يتمّ هذا الزواج بإذن المالك، وهو باطل بلا استئذان ورضا المالك.. مثل إذن الأب في زواج البنت.. أمّا السبب في استعمال كلمة ﴿ أَهْلِهِنَّ ﴾ بدلاً من (المالك)، فلعلّه للإشارة إلى المالك بضرورة معاملة الجواري كمعاملة الأهل، فلا يعتبرهنّ متاعاً مملوكاً، وإنّما عليه أن يعدّ نفسه مديراً راعياً يتعامل معهنّ معاملة إنسانية ﴿ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾.

٨. عبارة ﴿ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يبين أن تحدّد لهنّ مهورهنّ كما في النسوة الحرّات، وأن يسلّمن هذه المهور ويملّكنه.. هذا في حين أنّ بعض المفسّرين ذهبوا إلى أنّ ثم محذوفاً للآية، وأنّ الأصل هو: آتوا مالكهنّ أجورهنّ.. ولكن هذا المذهب والتفسير لا يوافق ظاهر الآية وإن كانت تؤيّده بعض الروايات..[١]

١- تفسير الامثل، ج٣، ص٣٤٩

٩. يعلم من ظاهر الآية أنّ للعبيد أن يملكوا الأموال التي اكتسبوها من طريق مشروع ﴿ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾.

١٠. يجب تحديد مقدار المهر بما يحكم به العرف وشأن المرأة، بالإضافة إلى أنّه يستفاد من التعبير ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ التحرّز من الظلم أن يلحق بهنّ لدى تعيين المهر، وإنّما الواجب أداء الحقّ بهنّ طبقاً للعرف والمعروف ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾.

١١. شرط بقاء الزواج: العفّة والابتعاد عن الفحشاء والعلاقات غير المشروعة ﴿ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ﴾ سواء فية العلن أو في السرّ ﴿ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾.

١٢. كلمة ﴿ أَخْدَانٍ ﴾ جمع (خدن) بمعنى الصديق، وتستعمل في العادة للذين يتخذون الصديق (العشيق) بصورة خفيّة لأمر غير مشروع، وهذه الكلمة استعملت في مقابل ﴿ مُسَافِحَاتٍ ﴾ بمعنى الذين يتجاهرون بالفحشاء والزنا.

١٣. يمكن أن يُسأل: النهي عن الزنا بعبارة ﴿ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ﴾ ألم يكن كافياً عن اتخاذ الرفيق بالخفاء ﴿ أَخْدَانٍ ﴾؟

للإجابة ينبغي القول: حيث كان من أهل الجاهليّة من يعد الزنا العلني فقط أمراً مذموماً دون اتّخاذ الرفيق في الخفاء.. تتّضح الحكمة القرآنيّة في تقسيم التصريح إلى قسمين.

١٤. في هذه الآية وطبقاً لتناسب الأحكام الخاصّة بالزواج جرى وضع الأحكام الخاصّة بالمملوكات والدفاع عن حقوقهنّ.. مثل: عقوبة المرأة المملوكة إذا زنت وخرجت عن جادّة العفّة.. هي نصف عقوبة المرأة الحرّة الزانية ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ ﴾.

١٥. سؤال: ما هو المقصود من قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ ﴾؟

احتمل المفسّرون احتمالين:

الأوّل: أنّ العبارة بمعنى المرأة ذات الزوج (حسب الاصطلاح الفقهي المعروف وطبقاً للآية السابقة).

الثاني: أنّها بمعنى المرأة المسلمة الجارية.

ولكن من الواضح وبالنظر إلى تكرار كلمة (محصن) مرتين في هذه العبارة؛ ولزوم أن تكونا ذات معنىً واحدٍ، وحيث أن عقوبة المرأة المحصنة إذا زنت هي الرجم دون الجلد، فإنّ التفسير والاحتمال الأوّل القائل بأنّها هي المرأة ذات البعل غير مقبول، كما أنّ الاحتمال الثاني لا شاهد على ضرورة إسلام الجارية..

الثالث: بالالتفات إلى أنّ كلمة (المحصنات) في القرآن الكريم تستعمل و يراد بها ـ في الأغلب ـ المرأة العفيفة، كما أشارت إليه الآية أعلاه، بمعنى أنّ الجارية إذ تضطر إلى غير العفة بداعي ضغط مالكها، فإنّها تعفى من العقوبة، إلّا أن الجارية التي لا تتعرّض للضغط المذكور وتستطيع الحفاظ على عفّتها، لو أنّها ارتكبت عملاً منافياً للشرف، عوقبت كما المرأة الحرّة، إلّا أنّها تعاقب بنصف عقوبة المرأة الحرّة.

١٦.﴿ الْعَنَتَ ﴾ على وزن سنَد، في الأصل بمعنى تجدّد الكسر في العظم، أي: الكسر بعد الشفاء بسبب حادثة ما.. وبديهيّ أنّ هذا النوع من الكسر مؤلم للغاية، ولهذا تستعمل هذه الكلمة للمشاكل الحالكة والأفعال المضنية: ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ﴾.

١٧. القرآن المجيد في عبارة ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ﴾ يريد القول بأنّ الزواج بالجواري جعل للذين يتعرّضون لضغط الغريزة الجنسيّة وهم عاجزون عن الزواج بالحرّات، وعليه؛ يكون الزواج بالمملوكات لغير هؤلاء غير جائز.

١٨. من الممكن أن تكون فلسفة حكم الزواج بالجواري؛ أنّهنّ لا يحظين ـ لاسيّما في تلك الأزمنة ـ بتربية مطلوبة، مع تعرّضهن لنقائص أخلاقية ونفسيّة وعاطفيّة.. فلا شكّ أن تكون ثمرة هذا الزواج ذرّيّة غير متعادلة تبعاً لعدم التعادل ـ في الغالب ـ الذي تعاني منه النساء المملوكات، ومن هنا؛ كان للإسلام منهج دقيق في تحرير الإمام والعبيد بشكل تدريجيّ بعد الزواج لتحاشي الانتهاء للنتيجة المذكورة.. ولتتاح الفرصة لهم للزواج من بعضهم.

١٩. لبعض الجواري حالات استثنائيّة خاصّة من الناحية الأخلاقيّة والتربويّة، ولهذا كانت بعض أمّهات عظماء الإسلام جوار من هذا المنطلق.. ولكن يجب أن يلتفت أنّ ما هو ممنوع في غير الضرورة هو الزواج دون المعاشرة الجنسية.

٢٠. الامتناع عن الزواج بالجواري بالقدر المستطاع، ومن الأهمّيّة بمكان الحرص على مراعاة العفّة، لما لذلك من نفع يعود على الرجل﴿ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾.

٢١. يغفر الله لكم ما مضى من أفعالكم لما كنتم تجهلون ﴿ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

الآية ٢٦

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. سؤال: يمكن أن يقال: ما المراد من كلّ هذه القيود والقوانين التي حكتها الآيات السابقة في موضوع الزواج؟ وألم يكن من الأفضل أن تتاح الحرّيّة في هذه المسائل للأفراد، فيتمتعوا بها كما هو الحال بالنسبة لعبّاد الدنيا حيث يغتنمون كلّ فرصة للتلذذ؟!

للإجابة على هذا السؤال ينبغي أن يقال:

أوّلاً: الحقيقة هي أنّ هذه الآية والآيتين التاليتين تتضمن الردّ على هذا السؤال ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ... ﴾ إلى منافعكم ويدرأ عنكم المضار والشرور..

ثانياً: لستم أيّها المسلمون الوحيدين من نزل عليه التكليف بهذه السنن والمناهج، فشأنكم شأن الأقوام العفيفة في ذلك..

ثالثاً: أنّ الله تعالى يريد تطهيركم بالتوبة بعد انحرافات كنتم تعرّضتم إليها، بشرط أن تعزموا على الرجوع مما كنتم عليه في الجاهليّة.

٢. أنّه تعالى عليم بأسرار أحكامه التي يصوغها بناءً على حكمته المتعالية ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

الآية ٢٧

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. ضمن تأكيدها المتجدّد، تشير هذه الآية الكريمة إلى أنّه سبحانه وتعالى يريد. عبر هذه الأحكام. أن يعيد عليكم النعم والبركات التي كانت قد قطعت عليكم بداعي الممارسات الباطلة في تلبية الرغبات والشهوات.

٢. أنّ عبّاد الشهوات الغارقين في الخطايا والرذائل يريدون الانحراف التام بكم عن طريق السعادة والهدى، وأن يجعلوا منكم نسخاً أخرى مماثلة لهم في التورّط بأنواع الذنوب.

٣. ترى أيّهما الأفضل؛ التقيّد القرين بالسعادة، أم التحلّل المزيج بالإباحيّة والتلوّث والانحطاط؟!

٤. هذه الآيات في حقيقتها وعمقها تردّ على الأشخاص المعاصرين. كمن كانوا في السابق. ممّن يشكل على القوانين الدينيّة، ولاسيّما تلك المتعلّقة بالمسائل الجنسيّة. وتؤكّد لهم بأنّ الإباحية ليست أكثر من سراب، وما نتيجتها إلّا الانحراف والابتعاد عن السعادة والتكامل الإنساني والتعرّض لخطر السقوط والضياع.. ولذلك نماذج كثيرة رأيناها بأمّ أعيننا حيث تتلاشى المجتمعات والعوائل بفعل الجرائم الجنسية، وتتضاعف أعداد الأولاد غير الشرعيّين، وتتكرّس الأمراض الجنسية والروحيّة إلى حدود كبيرة وخطيرة للغاية..

الآية ٢٨

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. الإنسان كائن ضعيف في الأصل، ولابد من تزويده وتزوّده بطرق ووسائل شرعيّة ليتمكّن من مواجهة عواصف الغرائزالمختلفة التي تهاجمه من كلّ حدب وصوب.. فإذا ما تمكّن من هذه المواجهة المطلوبة؛ يكون قد حفظ نفسه من الانحراف والضياع: ﴿ يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ... ﴾.

٢. أنّ الحكم السالف الخاصّ بإباحة الزواج من الجواري . وضمن شروط معيّنة وخاصّة . هو نوع تخفيف وتيسير..

الآية ٢٩

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. هذه الآية تمثل البنية التحتية للقوانين الإسلاميّة الخاصّة بقضايا المعاملات والتبادل المالي، ولذلك ترى الفقهاء يستدلّون بها في جميع أبواب المعاملات.

٢. هذه الآية تخاطب المؤمنين وتحرّم عليهم أكل أموال بعضهم بعضاً بالباطل، فلا يجوز لهم التصرّف بأموال غيرهم دون حقٍّ أو إذن صريح وعقلائي، وتسمّي جميع أشكال ذلك بالباطل؛ وله مفهوم واسع جدّاً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾.

٣. التعبير بالأكل هنا كناية عن كلّ أشكال التصرف، سواء كان بالأكل المتعارف أو الارتداء أو السكن وغير ذلك.. وهذا التعبير تعبير رائج منتشر في أكثر من لغة..

٤. طبقاً للعرف والناس، فالباطل يقابل الحقّ، وهو يشمل كل شيء غير حق ومجرّد عن الهدف والأساس.. وعلى هذا؛ فإنّ كل شكل من أشكال التعدّي والغش والتعامل الربوي والمعاملات غير المعلومة الصفات والملامح، وكذلك بيع وشراء الأشياء غير ذات الفائدة المنطقيّة والعقلائيّة، وكذلك بيع وشراء أدوات الفساد والخطيئة... كلّ ذلك وأشباهه يخضع لهذا القانون العام.. وإذا ما وردت كلمة (الباطل) في الروايات للإشارة إلى القمار والربا وأمثالهما،[1] فهي تشير إلى المصاديق الجليّة وليس لحصرها في ذلك.

١- تفسير العياشي، ج١، ص٢٣٦ وتفسير القمي، ج١، ص١٣٦

٥. قد تطرّقت آيات قرآنيّة أخرى وواجهت التصرّف الحرام بمال الغير.. فهي حين تذكر اليهود وممارساتهم الباطلة تقول: ﴿ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾.(١) وكذلك تقول: ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾.(٢) بعنوان المقدّمة للنهي عن جرّ الآخرين إلى المحاكم والقضاة ليتسنى لكم أكل أموالهم بالباطل..

٦. عبارة: ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ ﴾ بالإضافة إلى أنّ هذه الآية عبارة عن قانون كلّي، فالعبارة استثناء من هذا القانون العام، ولكنّها تمثّل ـ في الاصطلاح ـ استثناء منقطعاً، أي أنّ ما ورد في هذه العبارة مشمول بقانون المنع من التصرّف بأموال الآخرين، وهي تقع تحت مسمّى التذكير والتأكيد، لأنّها تقول: التصرّف في أموال الآخرين ممنوع إلّا أن يكون التصرّف عن طريق الرضا الباطني من كلا الطرفين.

٧. أنّ جميع التبادل المالي وأنواع التجارة الرائجة بين الناس؛ إذا ما كانت برضا الطرفين، وكانت لها حيثيّة معقولة ومنطقيّة، فإنّها جائزة من وجهة النظر الإسلاميّة، اللّهمّ إلّا في موارد محدّدة تقتضيها المصلحة الدينية، أو جاء فيها النهي الصريح عنها: ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ ﴾.

٨. الجملة الختاميّة في الآية منعت الإنسان والناس عن قتل أنفسهم.. وبقرينة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ تتبيّن حرمة قتل النفس والانتحار، أي أنّه تعالى رحيم، وفضلاً عن عدم رضاه أن يقتلكم غيركم، فهو لا يرضى بقتل المرء نفسه وتدميرها.

٩. قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ فسّر في روايات أهل البيت عليهم السلام بالانتحار....

١- سورة النساء / ١٦١.

٢- سورة البقرة / ١٨٨.

الآية ٣٠

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. سؤال: ما هي العلاقة بين مسألة قتل النفس وبين التصرّف الباطل وغير المشروع في أموال الناس؟

الإجابة على هذا السؤال واضحة، لأنّ القرآن بذكره سببين قد أشار إلى نقطة اجتماعيّة مهمّة، وهي أنّ العلاقات الماليّة بين الناس إذا لم تكن على أساس صحيح؛ ولم تتقدم عجلة الاقتصاد بصورة سليمة، ووقع التصرّف الباطل في أموال الغير.. صار المجتمع إلى شكل من أشكال الانتحار.. مضافاً إلى تصاعد معدلات الانتحار الفردي، ولهذا الأخير آثار ضمنيّة في الانتحار الاجتماعي..

٢. أنّ سلامة المجتمع رهينة بسلامة الاقتصاد.. ولهذا؛ كانت الوقائع والثورات الاجتماعيّة في العالم المعاصر شاهداً ناطقاً على هذه الحقيقة.. وحيث أنّ الله تعالى رحيم بعباده، فقد حذّرهم ونبّههم إلى الخطر المحدق بهم، وأن يلتفتوا إلى أن لا تكون معاملاتهم المالية باطلة أو أن يكون اقتصادهم غير سليم، لأنّ ذلك ينتهي بالمجتمع إلى الدمار والسقوط ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ﴾.

٣. كلّ من يتمرّد على هذا الأمر الإلهي فيلوّث يديه بأموال الآخرين عبر التصرّف والأكل الحرام؛ أو يقدم على الانتحار، فإنّه لا يحترق بنار عالم الدنيا، وإنّما سيتعرّض لنار الغضب الجهنّمي في الآخرة، وهذا أمر يسير على الله تعالى ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا ﴾.

الآية ٣١

إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. هذه الآية تصرّح بوضوح: إذا اجتنبتم الذنوب الكبيرة التي نُهيتم عنها، فإنّه تعالى يمحو سيّئاتكم ويعفوها وينزلكم منزلاً كريماً.

٢. من مفردات هذه الآية الكريمة يعلم أنّ الذنوب تقسم إلى قسمين بارزين؛ يطلق عليهما تارة: الذنوب الكبيرة والذنوب الصغيرة، وتارة: الذنوب الكبيرة والسّيئة، وتارة: الكبائر واللّمم. كما ورد في الآية (٣٢) من سورة النجم. والآية (٤٩) من سورة الكهف ذكرت الكبيرة في مقابل الصغيرة: ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾.

٣. إذا رجعنا إلى المعنى اللغوي للكبيرة، فهي كل ذنب يعدّه الإسلام كبيراً مهمّاً.. وأمارة أهمّيّته أن القرآن لم يكتفِ بالنهي عنه، وإنّما أتبعه بالتهديد بعذاب النار، مثل قتل النفس والزنا و أكل الربا ونظائر ذلك.. ولذا؛ نقرأ في المأثور عن أهل البيت عليهم الصلاة والسلام: «الكبائر التي أوجب الله عزّوجل عليها النار»[1] أمّا الذنوب الكبيرة؛ فهي التي قرنها الله تعالى بالعقوبة الجهنميّة؛ فتعبّر عنها مضامين نصوص الإمام الباقر والصادق والرضا صلوات الله عليهم..[2] وعلى هذا؛ فإنّ تمييز الذنوب الكبيرة ومعرفتها يعدّ أمراً يسيراً بالنظر إلى الضابط والمعيار المذكور.. وإن أمعنّا النظر، وجدنا من بعض الروايات أنّها تعدّ الكبائر سبعاً، وبعضها

١- الكافي، ج٢، ص٢٧٦

٢- نفس المصدر، ص٢٧٦ إلى ٢٨٧.

←

تحصيها بعشرين كبيرة، وأخرى تعدّها سبعين،[١] ولا منافاة بين ذلك وبين المذكور أعلاه، ذلك لأنّ بعضاً من تلكم الروايات تشير إلى الذنوب الكبيرة في درجاتها الأولى، وبعضها في درجتها الثانية، وبعضها تشير إلى أنّها كبيرة كلّها..

٤. سؤال: ما هو الضابط في تعيين الكبيرة والصغيرة؟

مع أنّ البعض يقول إنّ الذنوب الكبيرة والصغيرة من الأمور النسبيّة، أي: حين مقايسة هذين النوعين من الذنوب إلى بعضهما، تتبيّن أهمّيّة وخطر و فداحة أحدهما، وما كانت أهمّيّته أقل؛ فهو الصغير.. وعلى هذا؛ فإنّ كلّ ذنب بالنسبة إلى الكبير صغير، وبدوره يكون كبيراً بالنسبة لما هو أصغر منه.. ولكن من الواضح أنّ هذا المعنى لا يتّفق ـ بوجه من الوجوه ـ مع مفاد الآية أعلاه، لأنّها ميّزت بين النوعين من الذنوب وقابلت فيما بينهما، وعدّت الورع عن أحدهما موجباً للعفو عن الآخر..

٥. يمكن أن يرد إشكال في البين:

أنّ هذه الآية تشجّع الناس على الصغائر، فهي تقول: بترككم الكبائر لا يبقى ثمّ مانع من ارتكاب الصغائر!

الجواب:

من العبارة القرآنيّة المذكورة تتّضح الإجابة، لأنّ القرآن يقول: ﴿ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أي أنّ الامتناع عن اجتراح الكبائر لا سيّما لدى توفّر فرصها يخلق في الإنسان حالةً من التقوى والروحانيّة لها أن تطهر آثار الصغائر، وفي الحقيقة، فإنّ الآية أعلاه مثل الآية القائلة: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾.[٢] و في الواقع هي إشارة إلى أحد الآثار الواقعي للأعمال الصالحة، وهذا شبيه ـ تماماً ـ بقولنا: إذا امتنع الإنسان عن ملامسة أو تناول المادّة السامة

١- وسائل الشيعة، ج١٥، ص٣٢٤ و٣٢٥ وتفسير الطبري، ج٥، ص٢٧

٢- سورة هود / ١١٤.

الخطيرة وتمتّع بمزاج سليم، كان بمستطاعه إزالة الآثار غير المناسبة لبعض الأطعمة غير المناسبة، وذلك عبر سلامة مزاجه.. أو بعبارة أخرى: إنّ العفو عن الصغائر بمثابة الجائزة المعنويّة على ترك الكبائر.. وهذا بحدّ ذاته تشجيع على ترك الكبائر..

٦. الذنوب الصغيرة تكون كذلك حين لا تتكرّر، فضلاً عن ضرورة عدم اقترانها بالغرور والطغيان واللّامسؤوليّة والإصرار عليها..

٧. سؤال: في أيّ موقع تتبدّل الصغيرة إلى كبيرة؟

الصغائر. وطبقاً لما يفهم من القرآن والروايات. تتبدّل الى كبائر في عدّة حالات، وهي ستٌّ:

الف: في حالة التكرار، كما ورد عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام: «لا صغيرة مع الإصرار».[١]

ب: في حالة الاستهزاء والاستهانة بالصغيرة.. ونقرأ في (نهج البلاغة) قول أميرالمؤمنين عليه السلام: «أشدّ الذنوب ما استهان به صاحبه».[٢]

ج: في حالة ارتكابها غروراً وطغياناً وتكبّراً وتمرّداً متعمّداً على أمره سبحانه وتعالى، وهذا يعلم من إجمال الآيات القرآنيّة كما في الآية (٣٧) من سورة النازعات.

د: في حال صدورها عن أفراد ذوي مكانة اجتماعيّة مميّزة، فلا يكون الزلل منهم كزلل سائر الأفراد، كما نقرأ فحوى ذلك في القرآن بخصوص زوجات النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ... ﴾.[٣] وكما روي من الحديث النبويّ الشريف: «من سنّ سنّةً سيّئة؛ فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».[٤]

١- الكافي، ج٢، ص٢٨٨

٢- نهج البلاغة، ص٥٣٥

٣- سورة الأحزاب / ٣٠.

٤- الفصول المختارة، ص١٣٦

←

هـ : أن ترتكب الصغيرة بطغيان وفخر.. قال صلوات الله عليه وآله: «من أذنب ذنباً وهو ضاحك؛ دخل النار وهو باك»[1]

و: أن ترتكب الصغيرة وصاحبها يظنّ أن الله جلّ ذكره عنه راضٍ لأنّه لم يعاقب من فوره على صغيرته، كما نقرأ ذلك في قوله تعالى عن بعض المغرورين المذنبين: ﴿ ...وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ... ﴾.[2]

١- ثواب الأعمال، ص٢٢٣

٢- سورة المجادلة / ٨.

الآية ٣٢

وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

شأن نزول الآية

نقل المفسّر المعروف الطبرسي في (مجمع البيان) أنّ أمّ سلمة أمّ المؤمنين قالت للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: لَم يذهب الرجال إلى الجهاد (القتال) دون النساء؟ ولم صار ميراثنا (النساء) نصف الرجال؟ فليتنا كنّا رجالاً فنذهب معهم إلى الجهاد ونكون مثلهم في الميراث.. فنزلت الآية أعلاه وأجابت على أسئلة أمّ سلمة.[١]

ونقرأ في تفسير (المنار) أن جماعة من رجال المسلمين حين نزلت آية الميراث وجعلت سهم الرجال ضعف سهم النساء قالوا: ليت أجرنا كان ضعف أجر النساء أيضاً. فقالت بعض النسوة: ليت عقوبتنا وجزاءنا كان نصف ما على الرجال من العقوبة كما هو سهمنا من الميراث، فنزلت هذه الآية وردّتهم.[٢] وقد روي شأن النزول هذا في تفسير (في ظلال القرآن) و (روح المعاني) باختلاف بسيط..[٣]

١- مجمع البيان، ج٣، ص٦٣

٢- تفسير المنار، ج٥، ص٥٧

٣- فى ظلال القرآن، ج٢، ص٦٤٣ وروح المعاني، ج٣، ص٢٠

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. لا تطمحوا إلى هذا التفاوت أبداً، لأنّ كلّ تفاوت قرّره الله تعالى بين بعضكم له أسراره الخافية عليكم، سواء كان هذا التفاوت في التكوين من خلقة وصفة وروح، أو في التشريع من أحكام و واجبات وحقوق.. نظراً للموقع والمكانة، كما هو الحال في تفاوت الميراث.. وإنّ جميع أشكال التفاوت قد قرّرها سبحانه طبقاً للعدالة، ولو كانت المصلحة في غير هذا، لكان هو المقرّر، ولهذا؛ اعتبر تمنّي حصول التغيير نوع مخالفة لمشيئة الله عزّوجلّ، والحال أنّه عين الحقّ والعدل ﴿ وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ... ﴾.

٢. لا شكّ في أنّ هذه الآية إشارة إلى أوجه التفاوت الواقعيّة والطبيعيّة، دون التفاوت المصطنع بفعل الاستعمار والاستثمار الطبقي الذي لا يعبّر عن إدارة الله تعالى ولا يعتبر تغييرها أمراً صحيحاً، بل هي أوجه تفاوت ظالمة غير منطقيّة. فمثلاً: ليس للنساء أن يتمنّين أنّهن لو كنّ كما الرجال.. وليس للرجال أيضاً أن يتمنّوا مكانة النساء، ذلك لأنّ هذين الجنسين يشكّلان أساس النظام الاجتماعي والإنساني.. وفي الوقت ذاته أن يؤدّي هذا التفاوت بأحد هذين الجنسين إلى التجاوز على حقوق الجنس الآخر ثم يواصل التمييز الاجتماعي الباطل ضدّه..

٣. أنّ لكلٍّ من الرجال والنساء منفعتهم من مساعيهم ومكانتهم، سواء كانت هذه المكانة طبيعيّة (مثل تفاوت الرجل والمرأة عن بعضهما في جنسيّتهما) أو التفاوت الحاصل بسبب السعي والعمل وبذل الجهد ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾.

٤. كلمة (اكتساب) بمعنى التحصيل والحيازة، ولها مفهوم واسع يشمل السعي الإرادي، وما يحوزه المرء بواسطة هيكليّته الطبيعيّة.

٥. يمكن أن تبيّن عبارة ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ خطأ. تمنّي هذه الأوجه من التفاوت، وإنّما ينبغي تمنّي ومسألة الله تعالى من فضله وكرمه ونعمه المختلفة وتوفيقه وثوابه؛ لتكونوا في نهاية

المطاف من السعداء، سواء كنتم رجالاً أو نساءً، ومن هذه القوميّة أو تلك.. وعلى أيّ حال؛ فالخير كلّ الخير والسعادة كلّ السعادة فيما تطلبون من ربكم، لا ما تتخيّلون ﴿ وَاسْأَلُواْ اللهَ مِن فَضْلِهِ ﴾

٦. واضح أنّ سؤال الله من فضله وكرمه لا يعني قعود الإنسان السائل عن توفير أسباب وعوامل الاستحقاق.. بل لابد من وضع هذه الأسباب بين حنايا السعي وبذل الجهد.

٧. الله تعالى عليم بكلّ شيء.. وهو يعلم ماذا ينبغي أن يجعل من أوجه التفاوت الطبيعيّة أو الحقوقيّة، وعلى هذا؛ فلا تمييز ولا ظلم في إرادة الله تعالى وفعله.. وهو عالم بأسرار وبواطن الناس، ويعلم أيّ الأفراد يتمنّون في بواطنهم الأماني الخاطئة، وأيّهم يفكّرون بما هو إيجابي صحيح ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾.

٨. سؤال: كثير من الأشخاص يسألون أنفسهم أو الآخرين عن السبب أو الأسباب في كون أحدهم أكبر قابليّة من غيره، حيث يكون على قدر كبير من الجمال - مثلاً - فيما الآخر ليس كذلك.. أو كون أحدهم قويّ الجسم، فيما الآخر ليس له تلك القوّة والشدّة.. فلماذا هذا التفاوت الطبيعي؟ وهل أنّ هذا التفاوت يتناسب والعدالة الإلهيّة؟ للإجابة على ما تقدّم ينبغي الالتفات إلى بعض النقاط:

الأولى: أنّ قسماً من التفاوت البدني والروحي في الناس معلول الاختلافات الطبقيّة والمظالم الاجتماعيّة، أو معلول التساهل الفردي الذي لا علاقة بينه وبين الخلقة الإلهيّة. مثال ذلك: أن كثيراً من الأولاد الفقراء، وذلك بداعي طبيعة تغذيتهم وصحّتهم، والحال أن نظراءهم الفقراء محرومون من ذلك.. كما أنّ من الأفراد من فقد قوّته الجسديّة أو موهبته بداعي التساهل والتكاسل.. ومن الطبيعي أنّ أوجه الاختلاف هي أوجه مصطنعة غير مبرّرة، ولو أنّها أزيحت؛ لعمّت العدالة الاجتماعيّة.. علماً أنّ الإسلام لم يقرّ بأوجه التفاوت تلك ولم يتوان عن مواجهتها ورفضها..

الثانية: قسم آخر من التفاوت طبيعي ولازم لخلقة الإنسان.. بمعنى أن المجتمع ـ وإن كان متنعّماً بالعدالة الاجتماعيّة التامّة ـ فإنّ أفراده لن يكونوا متشابهين متساوين كما هي الأشياء المصنوعة في مصنع واحد.. بل إنّ طبيعة الحياة تستدعي جملة من أوجه التفاوت، وأنّ المواهب الإلهيّة والقابليات الجسدية والروحيّة للناس قد قسّمت على الأفراد بأعدل ما يكون التقسيم.. فلا تجد فرداً يحوز كلّ المواهب ولا كمالاً تامّاً.. فمنهم من تراه قوياً أو ذكيّاً أو جميلاً أو عاطفياً.. وإنّ المهمّ في كلّ ذلك أن يكتشف المجتمع قابليات أفراده ثم يعمد إلى تنميتها ضمن بيئة سليمة، ويسخّرها للصالح العام..

الثالثة: أنّ التفاوت في البنية الروحيّة والجسميّة للمرأة والرجل في النواحي الطبيعية غير ظالمة ولا اِجبارية، وإنّما ذلك عائد إلى مقتضى الحكمة الربوبيّة، لأنّ العدالة لا تنفكّ عن الحكمة أبداً.. والعدالة هي وضع الشيء في موضعه المناسب.. والمجتمع بمثابة جسم الإنسان؛ بحاجة إلى أنسجة وعضلات وخلايا متنوّعة. فإذا كانت خلايا البدن كلّها من النوع الدقيق كخلايا العين والمخّ. فذلك ما هو بعيد عن الحكمة ولا قابليّة فيها على الاستمرار.. كما لو كانت جميع خلايا الجسم من النوع غير الدقيق الذي تحتاجه العظام، فإنّها لن تؤدّي وظائفها المطلوبة.. وإنّما اللّازم هو أن تتنوّع الخلايا لتؤدّي كلّ منها وظائف التفكير والرؤية والسماع والتكلّم... أو إذا حدث ذات يوم أن صار جميع أفراد المجتمع يفكّرون على شاكلة واحدة، وكانت لهم مواهب متشابهة، فإنّ مجتمعهم سينهار.. فيما المجتمع السليم هو ذلك المجتمع المتعدّد المواهب والقابليات في أبدان أفراده ومعنوياتهم ومنطلقات تفكيرهم.. وهذا لا يعني أن يعيش بعض أفراده الحرمان أو يجري استغلال إمكانات بعضهم أو يحتقرون.. كما أنّ خلايا الجسم ـ على وجود التفاوت بينها ـ بحاجة إلى الغذاء والهواء وغير ذلك لتنتفع بها بالمقدار اللازم.

٩ـ من البديهيّ أن جميع أفراد البشر لو كانوا نساءً أو كانوا رجالاً، لا نقرضوا، ولزالت أشكال

مهمة من اللّذّات المشروعة.. أمّا إذا استشكل البعض على العلّة في خلقته فرداً ذكراً، وآخر أنثى، وعن طبيعة العدل في ذلك، فلا ريب أن إشكالهم هذا ليس منطقياً بمكان، لأنّهم لم يمعنوا النظر في الحكمة من وراء ذلك...

الآية ٣٣

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. حيث أنّ هذه الآية عادت إلى مسائل الإرث، تراها تؤكد تقسيمات السهام وأحكام الإرث التي وردت الإشارة إليها في الآيات السالفة.. فهي تتحدّث عن أنّه تعالى قد جعل لكلّ فرد ـ رجلاً كان أو امرأة ـ ورثة يرثونه، وأنّه لابد من تقسيم ما ترك الوالد أو الوالدة أو الأقارب بين الورثة طبقاً للمنهج المرسوم ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ... ﴾

٢. الذين عاهدوا هؤلاء عهداً يجب أن يسلّموا نصيبهم من التركة... والتعبير بكلمة ﴿ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ إشارة وكناية إلى أنّ التعاهد الذي يشبه عقد العقدة التي تنجز بالكفّ اليمنى ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾

٣. سؤال: من هم المتعاهد معهم والذين يجب أن ينالوا نصيبهم؟

الاحتمال الأوّل لبعض المفسّرين هم: المرأة والرجل اللّذان يتعاهدان بعهد الزواج.. ولكنّ هذا الاحتمال بعيد، لأنّ وصف الزواج بعقد اليمين وأمثال ذلك قليل ما هو في القرآن، مضافاً إلى كون ذلك تكراراً للمطالب السالفة.

احتمال المفسّرين الثاني: أنّ المراد من العقد ما هو راجع إلى من هو طرف فيما يسمّى بضمان الجريرة الذي كان معمولاً به قبل الإسلام ثمّ أصلحه الإسلام وأقرّه لتضمّنه نواحٍ

إيجابيّة.. وتفصيله أن يتعاقد شخصان فيما بينهما على الأخوّة والتعاون والنصرة المتبادلة في مواجهة المشاكل.. وعلى أنّ أحدهما إن مات ورثه الآخر، فأقرّ الإسلام هذا التعاقد، مع تأكيده على أنّ التوارث بينهما إنّما يكون في حال عدم وجود طبقات الأقارب للميت.. فلو أنّ قريباً للميت لم يتوفّر، ورثه المتعاقد معه بولاء ضمان الجريرة (لتفصيل القول في ذلك تراجع الكتب الفقهيّة).

٤. إذا حصل التقصير في إعطاء الأسهم لأصحابها الورثة، فإنّ الله شاهد وناظر لكلّ عمل.. ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

الآية ٣٤

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ٣٤﴾

مقدّمة: هل تحتاج الأسرة إلى رئيس؟!

يعمد بعض الأفراد الجهلة أو ربّما المغرضون إلى رفع شعار يناهض إدارة الرجل للأسرة، متأثّرين بأفكار غربيّة المنشأ بحجّة الدفاع عن حقوق المرأة.. وهم بالطبع لا ينادون بإدارة المرأة للعائلة، ولكنهم يقولون بأنّ العائلة لا تحتاج إلى رئيس.. وهم بذلك؛ إمّا كونهم جهلة في الحقيقة، أو لإرادتهم تخريب النظام الأسري المنسجم في البلاد المسلمة، ويريدون توريط المجتمع المسلم بالمصائب التي ابتليت بها المجتمعات الغربيّة.

نقول: لا شك ـ عقلاً ـ أنّ كلّ حياة اجتماعيّة؛ صغيرة كانت أو كبيرة؛ بحاجة إلى مسؤول وناظم لحفظ مسار تلك الحياة، وإلّا تعرضت للفوضى والانهيار. والقرآن المجيد لم يتحدّث عن رئيس، وإنّما صرح بكون الرجل قوّام على المرأة، والقوّام هو الكثير القيمومة، وهو بمعنى الشخص المسؤول على نظم وانسجام شطر من تلك الحياة الاجتماعيّة.

فالقرآن يسمّي هذا الشخص قوّاماً، ورجل العائلة قوّامها، فيقول: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى

النِّسَاء ﴾ أي أنّه كثير القيام بشؤون إدارة الأسرة ورعاية شؤون زوجته. إنّ المدرسة بحاجة إلى مدير وناظم ليقوم بإدارة وتمشية أمورها. وصفّ الدرس بحاجة إلى معلّم ومراقب ليؤدّي وظيفة إدارته.. وكذلك المدينة بحاجة إلى قائم مقام ومدير بلديّة ليرعيا شؤون المدينة.. والدولة بدورها بحاجة إلى قائد ورئيس ووزير ليديروا أمر الدولة والبلاد.. والأسرة عبارة عن مجتمع مهمّ للغاية وتمثل اللبنة الأساسيّة والأولى والفعالة للمجتمع الكبير. لذا؛ فهي تنهار إن لم يكن فيها قوّام، وتصاب بالفوضى بدونه..

ولذا؛ فإن اعتبر (القوّام) مديراً، فلاستمراره في الإدارة واستعداده للخدمة والعمل. فالمدير يعني من يقف على رؤوس غيره ليرعى شؤونهم.. ومن هنا؛ كان هذا المصطلح في الأصل دالّاً على مسؤوليّة كبيرة لأحدهم لا أفضليّته على الآخرين.

أمّا من الناحية النفسية؛ فينبغي التعامل مع مثل هكذا فرد حيث لا يرى نفسه خادماً.. فحينما يراد انتخاب خادم لصفّ الدرس؛ كأن ينظّف لوحة الدرس، أو يأتي بالطباشير أو يحافظ على نظم الصف.. فلا يقال: من يريد أن يصير صفّاً...؟ وإنّما يقال: من يريد أن يصير مراقباً للصفّ، والحال أنّ المراقب ليس في وسعه غير الخدمة.. أما إذا قيل: من يريد أن يكون خادم الصفّ؟... فإنّ أحداً من التلاميذ لا يرفع يده للترشّح. ولكن إذا قيل: من يريد أن يكون مراقباً للصفّ، رأيت الجميع يرفعون أيديهم لهذا المنصب.. وقوّام الأسرة في الحقيقة خادمها، بمعنى أنّه الذي يؤمّن نفقات الأسرة ويحفظ أمنها ويحلّ منازعاتها و.. أمّا الله تعالى؛ فقد استعمل مفردة (قوّام) بدلاً من خادم الأسرة؛ لئلّا يتنصّل الرجل عن مسؤوليّات البيت.

ولا شكّ في أنّ الأولاد لا يستطيعون أن يكونوا قوّامي الأسرة، وهكذا يدور الأمر بين أن تكون القيمومة لشخصين؛ وهما الوالد والوالدة، وقد أوكل الله تعالى هذا الأمر إلى الرجل ليكون قوّاماً في تأمين وتوفير حاجات المرأة ومتطلّبات أولاده.. وذلك لأنّه الذي تتوفّر فيه المواصفات البدنيّة والنفسيّة الّلازمة للتكليف بهذه المسؤولية وتولّيها.. كما أنّه سبحانه قد ألقى بمسؤوليّة

حضانة وتربية الأولاد على عاتق المرأة الزوجة لميزات تتوفّر فيها أكثر منها في الرجل الزوج، فهي أكثر تناسباً وهذه المسؤوليّة بشكل استثنائي ومميّز.

لمَ لا يتشارك الوالدان في إدارة الأسرة؟!

لا ريبَ في أنّ المرأة والرجل هما اللّذان يديران الأسرة، إلّا أنّ الحديث هو حينما لا يتوصل الطرفان إلى قرار مشترك، فمن ذا الذي تكون له الكلمة الأخيرة؟ إذ الاختلاف بين المرأة والرجل حالة طبيعيّة، ولا بدّ من التوصّل إلى خيار نهائي.. فإذا ادّعى مدّعٍ أنّ كلمة قرار المرأة هو الذي يجب أن يسري؛ فما هي حجّته؟ وإذا قال قائل بأنّ خيار الرجل هو الذي يجب أن يفوق خيار المرأة؛ فما هو دليله أيضاً؟ إذا كان القرار لنا ونحن البشر ذو والفهم الناقص لحقائق التكوين.. فليعلم بأنّنا لن نصل إلى نتيجة واحدة، لأنّ جماعة يقبلون الرأي الأوّل، وجماعة يقبلون الرأي الثاني، وعليه؛ فإنّ النزاع لن يُحلّ.. وهكذا يجب إيكال القضاء والفصل في الحكم إلى الله سبحانه وتعالى، لأنّه العالم بحقيقة تكوين وقابليّات كلٍّ من الرجل والمرأة وأعلم بهما من كلّ أحد.. وطبعاً أن كلاًّ من الزوج والزوجة هما مستشاران لبعضهما.. ولذا؛ فإنّ الحديث ليس عن تفضيل أحدهما عن الآخر كما تذهب المدّعيات الغربيّة، بمقدار ما ينبغي أن تتمّ فيه إدارة الأسرة...

النقاط المستفادة من هذه الآية

١. في عالمنا المعاصر و أكثر من أيّ وقت مضى. وإذا ما أمرت هيئة (ولو كانت من شخصين) بأداء مهمّة ما، فلابد أن يكون واحد من الشخصين رئيساً والآخر معاوناً أو عضواً، وإلّا تحكّمت فيهما الفوضى.. وإدارة الرجل في الأسرة من هذا القبيل.

٢. أنّ تصريح القرآن بإدارة الرجل للعائلة بداعي أنّها تمثل وحدة اجتماعية صغيرة، وهي كما المجتمع الكبير المحتاج إلى قائد ومدير واحد، لأنّ قيادة وإدارة المرأة والرجل مشتركين

لا مفهوم لها.. وبالنتيجة؛ إمّا أن يكون الرجل أو المرأة مديراً للأسرة ويكون الآخر بمثابة المعاون الذي يخضع لتلك الإدارة.. والقرآن يصرّح هنا أن منصب الإدارة يجب أن يعطى للرجل.. دون أن يتمخّض ذلك عن استبداد الرجل وتعدّيه واجحافه بحقّ الأسرة، وإنّما الّلازم أن تكون إدارته عامل تنظيم وتوجيه نظراً لمسؤوليّات الرجل واستشارته.

٣. ترجيح قدرة الرجل الفكريّة على الطاقة العاطفيّة والشعورية (حيث تغلب عاطفة المرأة على تفكيرها غالباً) للمرأة.. وتمتّع الرجل بالقوّة الجسمانيّة الأكبر.. تؤهل الطرفين للدفاع عن حدود الأسرة.. أدّى الى أن يوكل الله تعالى إدارة الأسرة للرجل.. مضافاً إلى أنّ هذا الأخير قد تعهد للمرأة والأولاد بتوفير النفقة وسداد مهر المرأة وضمان المعيشة الكريمة للأسرة.. فكان له أن يقود أعضاء العائلة.. وقوله تعالى: ﴿ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ إشارة إلى الحقيقة المذكورة.

٤. من الممكن أن تكون بعض النساء ـ لأسباب ما ـ أكثر أهليّة من أزواجهنّ.. ولكنّنا كنا قد ذكرنا مراراً أنّ القوانين لا تنظر إلى الحالات الفرديّة والاستثنائيّة، وإنّما هي ذات بُعد كلّي ونوعيّ، ولا شكّ في أنّ النظرة النوعيّة والكلّيّة تنتهي إلى الإيمان بقابليات الرجل بما يفوق المرأة.. رغم أنّ للنساء مسؤوليّات لابدّ من القول بأهمّيّتها..

٥. من لوازم ضمان تحقيق المصلحة البشريّة وحركة عجلة الحياة أن يكون لكل موجود ـ بناء على طبيعة خلقته ـ خصوصيّات منحصرة فيه.. ولهذا؛ وجدنا الله تعالى قد خلق الرجل بعاطفة أقلّ وقدرة تفكير وتعقّل أكبر، كما جعل في المرأة ما يناهض ذلك.. والشأن في ذلك شأن السيارة ـ مثلاً ـ حيث الوقود ضروري لانطلاقها.. والكوابح لازمة لتوقّفها.. لأنّ السيارة بحاجة إلى الأمرين والوسيلتين معاً.. وليس من عاقل يرى في هذا ظلماً وإجحافاً.

٦. لا ريب في أنّ إيكال مسؤولية الإدارة للرجل لا يعدّ دليلاً على أفضليّة شخصيّته الإنسانيّة ولا سبباً لتميّزه على المرأة في هذا العالم.. إذ طبقاً للآية (٣٣) من سورة (الحجرات) المباركة

فإنّ فضل الإنسان على غيره يكمن في تقواه.. كما أنّ الشخصيّة الإنسانيّة لمعاون لأحد الرؤساء قد تكون أرقى ـ من نواحي عديدة ـ من شخصيّة رئيسه.. ولكنّ الرئيس نفسه قد يكون أرقى قابليّة إداريّة من معاونه..

٧. تنقسم النساء إلى قسمين في إطار الوظائف الأسرية الموكولة إليهنّ:

القسم الأوّل: الصالحات، وهنّ الّلاتي يخضعن لنظام الأسرة؛ سواء لدى حضور الرجل أو غيابه، فلا يرتكبن خيانة ماليّة أو شرفيّة أو لدى حفظ شخصيّة الزوج وأسراره في غيابه.. وكذلك إزاء الحقوق التي جعلها الله تعالى لهم، وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله العزيز: ﴿ بِمَا حَفِظَ اللهُ ﴾ حيث يؤدّين مسؤولياتهنّ بما وسعهنّ.. ومعلوم أنّ الرجال مكلّفون أن يؤدّوا بالغ احترامهم وعرفانهم بجميل هكذا نساءٍ.

القسم الثاني: هنّ الّلاتي يتمرّدن على أداء وظائفهن.. والرجال إزاءهنّ لهم وظائفهم التي ينبغي أن يؤدّوها بشكل مرحلي، وأن يحذروا من أن يتجاوزوها.. والآية قد بيّنت وحدّدت تلكم الوظائف: ﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ﴾ وهذه هي المرحلة الأولى في تعامل الرجال مع زوجاتهم غير المطيعات، وهي مرحلة الوعظ والتحذير.. فمن تضع قدمها خارج نطاق نظام وقانون العائلة لابدّ أن توعظ بالتي هي أحسن، وأن يبين لها سوء عاقبة التمرّد على سلامة الأسرة، وأن تذكّر بمسؤوليّاتها: ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾.

٨. في حال عدم انصياعهنّ للموعظة.. يبتعد عنهنّ في المضاجع للإشارة إلى عدم الاعتناء لهنّ وعدم الرضا عنهنّ، لعلّ ردّة الفعل هذه تقع موقع التأثير في روحهن﴿ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾.

٩. في حال تجاوز التمرّد حدوده، وزيد في اللجاجة وعصيان القانون الطبيعي، فلم تنفع الموعظة ولم يجد الهجر في المضجع، يعمد إلى وسيلة أقسى؛ وهي الضرب لحمل المرأة على أداء وظائفها.. ﴿ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾.

١٠. سؤال: هل للرجل حقّ ضرب زوجته؟!

كما أنّ على الرجل مسؤوليّات تجاه الزوجة، مثل: توفير السكن والمأكل والملبس وضمان الأمان والتعامل بغاية المودة والاحترام والمحبّة.. كذلك هي المرأة؛ عليها مسؤوليّات تجاه الزوج، مثل: التمكين الجنسي، وهو حاجة طبيعية غير قابلة للتجاهل.. أمّا إذا قصّر أحد الطرفين في أداء مسؤوليّاته، فقد أعطى الله تعالى للطرف الآخر حقّ استيفاء حقوقه..

فإن لم يؤدِّ الرجل وظائفه، كان للمرأة ـ بمراجعة الحاكم الشرعي ـ أن تحمل زوجها على الانصياع في أداء وظائفه.

أمّا إذا قصّرت المرأة في حقوق زوجها، فليس للزوج أن يضمن حقوقه عبر المحاكم بهذه السهولة؛ لأن حقوق الرجل على المرأة ليست من نوع الأمور التي يمكن كشفها للآخرين.. ولهذا؛ فقد أعطى الله تعالى الإذن للرجل في إعمال القانون لضمان حقوقه:

أمّا أوّلاً: فليس للرجل حقّ الضرب ابتداءً، وإنّما ـ طبقاً للآية ـ للرجل أن ينفصل عن مضجع زوجته، فيحاصرها عاطفياً ـ حسب التعبير ـ لينبّهها إلى سوء معاملتها إيّاه.

ثانياً: فإن لم تفلح خطوة الهجر والمحاصرة العاطفية، كان له أن يضربها كتعبير عن انزعاجه منها..

ولكن ما هي حدود الضرب هذا؟

طبقاً للروايات؛ له أن يضربها بما لا يوجب دية.. وكما ورد في الكتب الفقهيّة: ينبغي أن يكون الضرب خفيفاً بعيداً عن أي عنف، فلا يؤدّي إلى الكسر أو الجرح أو حصول تغيير في لون موضع الضرب.. وقد ورد في بعض الروايات: أن يكون الضرب بمسواك..[1] ولذا؛ كان الإذن بالضرب لمجرّد إبداء الرجل شديد انزعاجه دون قصد الإيذاء والانتقام.. فالضرب هذا أشبه ما

١- الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام، ص٢٤٥

يكون بالملاطفة منه بالضرب..

ثالثاً: يجب أن يلاحظ أنّ هذا الضرب يراد منه كسب مودّة المرأة دون إيذائها.. وواضح أن الإيذاء لا يؤدّي إلى محبّة، بل هو عامل نفرة.. وعليه؛ يجب أن يكون الضرب بشكل محرّك للعاطفة والاحساس، فتعي الزوجة مستوى انزعاج الرجل وألمه، وأنّه لو لم يكن يكنّ لها المودّة لضربها بشدّة ولتجاوز على كرامتها، ولكنّه بالتزامه الحدود الشرعيّة تظاهر بالضرب.. فإذا ما تكرّس في المرأة هذا الوعي والشعور؛ تصاعد الأمل في تركها عادة النشوز..

١١. سؤال: لماذا صار حقّ الرجل الجنسي جدّيّاً إلى هذا الحدّ؟!

المرأة مسؤولة تجاه زوجها عن وظيفة واجبة واحدة، وهي: سدّ حاجته الجنسيّة، وهي مسؤوليّة بسيطة قياساً بما على الرجل من مسؤوليّات، و لكنّه سبحانه وتعالى قد أولى مسؤوليتها هذه كلّ الجدّيّة.. فلماذا يا ترى؟!

الف: الرجال ضعفاء من هذه الناحية إلى حدٍّ كبير، فالمرأة بمقدورها قضاء فترة طويلة دون مقاربة جنسية، لأن إثارتها الجنسية تكون في الأغلب بطريق اللمس، فيما الرجل يثار بكلّ أشكال الإثارة، مثل النظر والرائحة والصوت واللّمس و... بل لعلّه يثار لمجرد فكرة أو أن ينقضي عليه قليل الوقت دونما معاشرة جنسية.. ولذلك كان الرجل ضعيفاً من هذه الناحية، وتهدّده المخاطر الفعلية أو ما هي بالقوة باستمرار.

ب: برود العلاقة وقلّة المقاربة ـ لاسيّما من ناحية المرأة ـ تقلل من درجة المحبّة بين الطرفين، وبالنتيجة يتعرّض كيان الأسرة إلى الانهيار.. وقد أشارت الآية (٢١) من سورة (الروم) إلى العلاقة الجنسية وعدّتها مودّة تثمر ذريّة كرحمة منه تعالى.

ج: نشوز المرأة يوجب ميل الرجل إلى نساء أخريات، وهذا الأمر ـ فضلاً عن عواقبه الأخلاقيّة والشرعيّة السيّئة ـ فهي مؤثّرة في الرجل نفسه، والنساء أنفسهنّ.. وتوجب دمار الأسرة أيضاً.. ولذا؛ لم يكن نشوز المرأة بالأمر البسيط، وإنّما هو معول هدم في كيان الأسرة الواحدة، بل وأسر

عديدة.. ومن هنا؛ أعطى الله تعالى الرجل حقّاً جزئيّاً في إنذار المرأة وتأديبها، ليعرب عن انزعاجه من زوجته.. ولابدّ هنا من ملاحظة أمور:

أوّلاً: الضرب الخفيف بعد الحصار العاطفي:

ثانياً: لا ينبغي أن يكون هذا الضرب شديداً، بل أن يقصد به الإعراب عن الانزعاج، إذ لا طريق للرجل غير ذلك.. وهو إمّا أن يبكي.. وبكاؤه قبيح ويقلل من شأنه وهيبته.. وإمّا أن يصرخ، ولم يجزه الإسلام في ذلك.. فلا يبقى أمامه إلّا أن يعرب عن ألمه وانزعاجه، كأن يعبس أو أن يضربها على بدنها بظهر أصبعيه بما لا يوجب احمراراً في بشرتها.. بل ليلفت انتباهها إلى انزعاجه..

١٢. معلوم أنّ إحدى هذه المراحل إن أثّرت وعادت الزوجة إلى أداء وظائفها، فلن يبقى للرجل حقّاً بالتحجّج ليؤذيها: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾.

١٣. إذا قيل بأنّ مثل العصيان والنشوز هذا قد يصدر عن الرجل، فهل يشمل بالعقوبة التي تعرّضت لها المرأة؟

للإجابة نقول: الرجال يعاقبون كما النساء في حال التنصل والتقصير في أداء مسؤوليّاتهم ووظائفهم، بما في ذلك العقوبة البدنيّة، والفارق أن معاقبة الرجل أمر خارج عن قابليّة المرأة.. وجدنا الحاكم الشرعي مأذون في معاقبة الرجل . وبطرق مختلفة . مثل التعزير (العقوبة البدنيّة) ليعود إلى وعيه وأدائه وظيفته التي يقصّر فيها، وشاهد ذلك حكاية معروفة متداولة عن رجل متعنّت معاند في أداء مسؤوليّاته تجاه زوجته ، حيث جابهه أميرالمؤمنين(ع) أشدّ المجابهة، حتّى أنّه هدّده بسيفه ليسلّم للحقّ والقانون.[1]

١٤. ختاماً: يتجدّد إنذار الرجال في فحوى الآية القرآنيّة في أن لا يسيؤوا التصرّف تجاه

١- راجع: الإختصاص، ص١٥٧

أسرهم، وأن يفكّروا في قدرة الله تعالى العلي العظيم الكبير﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾.

١٥. يعلم من مفهوم الآية الكريمة أنّ الله الذي كلّف شخصاً واحداً لإدارة شؤون الأسرة المكونة من عديد الأشخاص، ولم يكل أمرهم إلى أنفسهم.. كيف يعقل أن يكل أمر الأسرة الكبرى المتمثّلة في المجتمع المسلم؛ فلا ينصب له قائداً ووليّاً، أو أن يجعل ذلك لرأي الأفراد المتعدّدي الولاءات والمشارب والأذواق والمستويات و...؟

الآية ٣٥

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. ﴿ شِقَاقَ ﴾ مصدر على وزن فعال، من الشقّ بمعنى الناحية والجانب.. وهو المنازعة والمحاربة[1] أمّا الآية؛ فعنت باستعماله: الفاصلة بين المرأة وزوجها بسبب الكراهة والنفرة الحادثة بينهما.

٢. قال بعض المفسّرين: المراد من: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ استمرار النزاع بين الزوج والزوجة إلى حدّ الخوف، وفي الجملة دلالة على توقّي الاختلاف والنزاع. أي إذا حصلت دلالة على وجود الكراهية بين الزوج والزوجة، وحصل الخوف من بلوغ هذه الكراهية والنزاع حدّ الشقاق والطلاق؛ فليقصد الحكم..

٣. هل من الواجب أو المستحبّ تشكيل محكمة الأسرة؟

عدّ بعض الفقهاء والمفسّرين الرجوع إلى الحكم أمراً مستحبّاً، إذ لعلّ أمر العائلة ينتهي إلى الصلاح دون الحاجة للرجوع إلى الحكم.. والحقّ ما عليه أكثر الفقهاء. فالأمر ﴿ فَابْعَثُواْ ﴾ يدلّ على الوجوب، فضلاً عن أنّ الشقاق والكدر قد يوقعهما في الحرام والنفرة وتتهيّأ بذلك الأرضيّة السيئة، وعليه يكون من الّلازم المنع من استمرار الفتنة والاختلاف.[2]

١- مجمع البيان، ج ١، ص ٤٠٥ و٤٠٦.

٢- مسالك الافهام، ج٨، ص٣٦٦.

٤. تعيين الحكَم؛ وظيفة من؟

يذهب أغلب الفقهاء والمفسّرين إلى أنّ تعيين الحكم من مسؤوليّة الحاكم رغم استعمال ضمير الغائب.[١]

وفضلاً عمّا تقدّم، فإنّ مسؤوليّة تنفيذ الأحكام وأوامر الشريعة بعهدة الحكومة. قال سعيد بن جبير: في حال عدم التوافق يتوجّه بالرأي إلى الحكومة لتعيّن حكماً.[٢]

و قال الشيخ الطوسي في ذيل هذه الآية: بعث الحكم لرفع الاختلاف الحاصل بين الزوجين بعهدة الحكومة، لأن أنّ ظاهر الآية الشريفة يوحي بالتحكيم.. والتحكيم يتوجّه في المسائل القضائيّة إلى القادة والقضاة بشكل مطلق حينما يرد حكم؛ وكان مطلقاً..

وصرّحت الروايات في تفسير الآية: «**هو السلطان الذي يترافعان إليه**»[٣] المأمور بالتعيين هو الحاكم الذي يُترافع عنده وقال في (الدرّ المنثور): إنّ من وظيفة الحاكم بعث الحكم، لأنّ الحكميّة من شأن الحكومة.

ويمكن الاستدلال على ذلك بسيرة أميرالمؤمنين عليه السلام في إرسال الحكم لدى الاختلافات الحاصلة بين الأزواج.. روى عبيدة السلماني قال: جاء رجل وامرأة (متخالفان) و مع كلٍّ منهما مرافق إلى عليٍّ (ع)، فأمر أمير المؤمنين أن يعيّن كلٌّ منهما حكماً من أسرتيهما وفوّضهما في اختيارهما.[٤]

ونقل ابن جرير الطبري عن محمد بن كعب قال: لطالما اختار علي (ع) لدى الاختلاف حكماً من أقارب الرجل وحكماً من جهة المرأة: فيقول حكم الرجل لحكم المرأة: يا فلان! ممَّ

١- الدر المنثور، ج٢، ص١٥٦
٢- تفسير الطبري، ج٥، ص٤٥
٣- مجمع البيان، ج٣، ص٧٠
٤- تفسير العياشي، ج١، ص٢٤١

←

تشكو؟ ثمّ إنّه يعدّ في ضميره. فيقول له حكم المرأة: إذا نلت مبتغاك، فهلّا خشيت ربّك وأنفقت وألبست بالمعروف مع زوجتك؟ فإذا أخذ الإقرار منه، قال حكم المرأة: يا فلان! ما تشكو

من زوجك؟ فيعدّ ما يريد، فيكرّر الحكم قول صاحبه. فإن قبل؛ جلسا ليحصيا..[١] وأضاف جمع من المفسّرين: في حال عدم الحكومة، كان تعيين الحكم من وظيفة أفراد الناس، لاسيّما عقلاء القوم منهم، لتزول الاختلافات بالتحكيم، ولئلّا تهمل مشاكل الناس ومصائبهم.

٥. إنّ مسؤوليّة الدولة ليست مجرّد توفير الماء والخبز والأمن العام والدفاع عن الحدود الجغرافيّة، وإنّما عليها تحقيق الأمن المعنوي والنفسي في الأسرة. فالدولة و(الحكومة) بمثابة الأب والأمّ بالنسبة للأولاد. وإنّ المحافظة على الأولاد من الأخطار التي تتهددهم من مسؤوليات الوالدين.. إنّ مشرفي الدولة الثقافيين مكلّفون بالسعي إلى تطوير الثقافة العامّة ومواجهة الفقر والجهل والفساد؛ وخلق الألفة والمحبّة في العوائل، وكذلك العمل على إزالة أسباب الأزمات بين النساء وأزواجهن.. وهذه الأمور والوظائف من جملة صلاحيات الدولة الدينيّة.. ويجب أن يكون المكلّفون بكلّ ذلك عارفين بمسائل الدين وحريصين على واقع الأمّة المسلمة، ليكونوا جديرين بريادة التربية الإيمانية والارتقاء بثقافة المودّة والتآلف.

٦. لقد كان مولى المتقين علي(ع) يحرص كلّ الحرص على استقرار العوائل، ولم يكن ليفوته أمر بهذا الصدد، وكانت له ردود فعله المناسبة إزاء المشاكل الداخليّة لها؛ فيعمد إلى توقّيها أو حلّها.. فكان(ع) يبادر في أحيان كثيرة إلى التوجّه للبيوت والأسر المتنازعة فيعمد إلى توجيه النصح والموعظة لهم، بل إنّه(ع) كان يمارس صلاحياته كإمام وأمير وخليفة في حالات معيّنه ليحلّ المنازعات وليصلح بين الأزواج.

١- تفسير الطبري، ج٥، ص٤٧

و كان(ع) يمشي ذات يوم في أزقّة الكوفة، فبادرته امرأة تبد و عليها ملامح الاضطراب وقالت: إنّ زوجي يظلمني وقد أقسم على أن يبرحني ضرباً.. فلبث(ع) هنيئة ثم قال: والله لابد من إعادة الحقّ إلى أهله، وانطلق إلى بيت المرأة.. فخرج عليه رجل شاب بثياب معصفرة، وكان زوج المرأة، فقال له أميرالمؤمنين(ع): اتّقِ الله، لمَ أرعبتَ زوجتك؟ فلم يعرف الشاب المغرور إمامه فقال: ما شأنك وزوجتي؟ والله لأحرقنّها!! فقال(ع): إنّما آمرك بالمعروف وعليك أن تتوب وإلّا عاقبتك..وهنالك تقاطر جمع من الناس وسلّموا على الإمام باسمه وصفته، فما كان من الرجل إلّا أن أسقط ما في يده وراح يعتذر للإمام ويسأله العفو ويقول: والله سأكون ثرىً لتطأني امرأتي بقدميها.. فراح(ع) يقرأ بسرور قوله تعالى: ﴿ لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ثم عاد[1] ونقل مثل هذا ابن شهرآشوب، فقال إنّ أميرالمؤمنين(ع) قصد بيت امرأة في يوم حارٍ جدّاً، وكانت قد فرّت منه خوفاً ورعباً.. فأصلح خلافها مع زوجها الذي روّعها، ثمّ إنّه قال بعد ذلك: يا أمة الله، عودي إلى بيتك ولاتحملي زوجك على ما يفعل.[2]

٧.إنّ قاطبة المؤمنين مسؤولون إزاء مشاكل عوائل الآخرين من إخوانهم، وعليهم جميعاً أن يشعروا بتكليفهم بالمحافظة على هذا المركز المقدس. لأنّ إصلاح شأن المؤمن من المصاديق الواضحة للتعاون على البر والإحسان ومن موارد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٨. شرائط الحكّام:

الف: لا شكّ في أنّ الحكّام يجب أن يكونوا بالغين عاقلين وخبيرين ليحكموا بما هو حقّ وإصلاح.

١- الإختصاص، ص١٥٧

٢- مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، ج٢، ص١٠٦

ب: مضافاً إلى الخبرة، يجب أن يكون الحاكمان عدلين.

ج: يجب أن يكون الحكمان مطّلعين على أحوال وطبيعة حياة المرأة والرجل، وأن يكونا حليمين صبورين لئلّا يحيدا عن جادّة الحقّ والحقيقة في القضاء كما يلزم أن يكونا عارفين بالأحكام الإسلامية المتعلّقة بموضوع الخلاف.

د: مهمّة الحكمين القضاء،[1] وهو كما الطبابة التي لابدّ فيها لمن يتصدّى أن يعرف المفردات الفنيّة والعلميّة لتتحقق الغاية المطلوبة من التمريض والعلاج بعد ممارسة ذلك بإشفاق ورحمة كشرط أوّل وأساس.. وقد صرّح القرآن الكريم لدى الأمر بإرسال الحكم: ﴿ إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾.

٩. قيد (عليم) و(خبير) تحذير للحكم أن يستخفّ بهذه المهمّة، وأن يكون حافظاً للسر أميناً، وأن يحرص كلّ الحرص على إصلاح ذات البين، والله عليم خبير بشؤون الجميع.

١٠. احتمل المفسّرون ثلاثة احتمالات لضمير التثنية في كلمة ﴿ بَيْنَهُمَا ﴾:

الاحتمال الأوّل: إذا كان مرجع الضمير عائداً إلى الحكمين، فالمفهوم يكون: إن قصد الحكمان إصلاحاً، فالله تعالى يجعل بينهما ألفة ويصلان إلى رأي ووفاق في القضاء دونما اختلاف بينهما. ولكنّ هذا الاحتمال بعيد بالنظر إلى ظاهر الآية يتّجه إلى الزوجين اللذين هما فاعل حكمة ﴿ يُرِيدَا ﴾ وليس الحكمين..

الاحتمال الثاني: إذا عاد الضمير إلى المرأة والرجل، بمعنى: إذا أراد الصلاح بينهما حقّاً، ولم يعمدا إلى التبرير، فإنّ الله تعالى يؤلّف بينهما ويرحمهما، لأنّ أساس الزواج قائم على الألفة والرحمة، ولا يزيح ظلال الكدر والوساوس الشيطانية التي أحاطت بالحالة الزوجية الله تعالى ولطفه ورحمته..

١- التبيان، ج٣، ص١٩٢

إمّا أن يكون الضمير الأوّل عائداً إلى الحكمين والضمير الثاني عائداً إلى الزوجين فيكون المعنى هو التالي:

«إذا أحسن الحكمان نيّتهما وابتعدا عن كلّ شائبة، فسيوفّقان إثر ذلك إلى إيجاد الألفة بينهما» وسيعود الاستقرار إلى جوّ العائلة.

الاحتمال الثالث: قضاء الحكمين إنّما يكون قابلاً للتنفيذ حين يكون الاثنان متفقين في الرأي، وهذا ما يفيد به ظهور الآية الكريمة، وقد روي عن مولانا الإمام الصادق(ع): «إذا حكم أحد الحكمين ولم يحكم الآخر؛ فليس حكمه بشيءٍ حتّى يجتمعا».[١]

١١. هذه الآية بدأت بـ﴿ إن ﴾ مرتين، وكان موضوعها في المرّة الأولى لزوم انتخاب حكمين بصورة خاصّة.. فيما المرّة الثانية كان موضوعها بخصوص النيّة وقصد الزوجين وفيما أنّهما إذا أرادا المصالحة؛ أصلح الله بينهما رغم اختلافهما.

١٢. دائرة صلاحيّات الحكمين:

إلى أي مساحة هي دائرة صلاحيّات الحكمين؟ وإن رأى الحكمان المصلحة في التفريق بين الزوجين المتخاصمين؛ فهل لهما أن يفرّقا بينهما أم لا؟

ذهب بعض الفقهاء إلى أنّ صلاحيّات الحكمين مطلقة ولهما أن يقضيا بما شاءا. ولكنّ أكثر الفقهاء فرّقا بين قاضي التحكيم وبين الوكيل. وقالوا: إنّ قاضي التحكيم ليس له إلّا أن يصلح بين الزوجين، فإذا ما قرّرا الفراق، عليهما أن ينظرا في رأي الزوجين. وإن توفّر الوكيل؛ كان له أن يفرّق.[٢]

١٣. في إطار الإصلاح بين الزوجين، يكون للحكمين كلّ الصلاحية ما لم تتعارض والشريعة، وأن يحملا الزوجين على قبول ما حكما به، وإن لم يكن محطّ رضاهما. كتب

١- راجع: الكافي، ج٦، ص١٤٧

٢- حقوق المرأة في الإسلام (فارسي) مرتضى مطهّري، ص ٢٥٩.

الشهيد الثاني في (المسالك):

إذا حدّد الحكمان شرطاً للتوافق، وكان الشرط يسيراً ويعين الزوجين على حياة كريمة، كان شرطاً لازم التنفيذ، وإن لم يرضيا به، كما لو اشترطت الزوجة أن تعيش في مدينة ما، أو أن يكون لها بيت خاصّ، أو أن لا يُسكن أمّه معها، أو أن يسلّمها ما في ذمّته من مهر نقداً، أو أن يبادر إلى أداء ما عليه من دين لها.. فإنّ ذلك يدخل تحت عنوان: «المؤمنون عند شروطهم».[١]

ثانياً: أن يتاح لهم التحكيم

١٤. هل تجب إطاعة أوامر الحكمين؟

ظهور الآية الكريمة في لزوم إرسال الحكمين يقتضي وجوب قبول رأي الحكمين، لأنّه إن لم يكن ذلك ضرورياً، لكان اختيارهما لغواً وبعيداً عن الحكمة.. بالإضافة إلى أنّ اختيار كلمة (حكم) بمعنى الحاكم يشير إلى لزوم التبعيّة لإرشاداتهما.. وذلك كما تقدم القول في وجوب العمل بشروطهما وقبول آرائهما.. ومن الطبيعي أن يكون لكلا الزوجين حقّ الاعتراض والاستفهام إذا ما توفّرت لهما أو لأحدهما الدلائل المعقولة والمنطقية.[٢]

١٥. هل يمكن للحكم أن يكون من غير أعضاء العائلة؟

ظاهر الآية يدلّ على أن يكون الحكم من أعضاء الأسرة.. فيما ذهب بعض الفقهاء إلى أنّ هذا الأمر إرشادي لا مولوي، لأنّ فلسفة التشريع فيه الإصلاح بين الزوجين.. وعلى أيّ حال؛ فإنّه إن لم يتسّنَ اختيار حكم من الأسرة، لزم الاختيار من عقلاء القوم.

١٦. محكمة الصلح العائلية التي أشير إليها في الآية أعلاه تعدّ إحدى روائع الإسلام، إذ لها ميزات كثيرة تفتقر إليها المحاكم العرفيّة والرسميّة، وها نحن نذكر ثمانٍ منها باختصار:

الأُولى: يتعرف الأشخاص الأقارب إلى جذر المشاكل.

١- مسالك الافهام، ج٨، ص٣٧١.

٢- نظام حقوق زن در اسلام (فارسي) ص ٣٣٤.

الثانية: تصان أسرار العائلة في هذه المحكمة، فيما المحاكم العادية يضطرّ طرفا الدعوة ـ للدفاع عن نفسيهما ـ إلى كشف مختلف الأسرار.

الثالثة: المحكمة العائليّة لا تكلّف شيئاً، وهي بعيدة عن التشريفات والإطالة المعروفة في المحاكم الرسميّة.

الرابعة: الأسرة مركز للشعور والعاطفة، ومسائل الأسرة لا يفصل فيها بالأمر والنهي والتعاليم الجافّة والمكتوبة.. وفي الحقيقة؛ كما أن المحاكم الجنائيّة لا يمكن العمل فيها بمعايير الحبّ والعواطف، فإنّ الجوّ الأسري لا يمكن الانقياد فيه إلى المقاييس القانونيّة الجامدة والمقرّرات الفاقدة للروح.. وهنا ينبغي ـ ما أمكن ـ حلّ المشاكل بالطرق العاطفيّة.. ولهذا ورد الأمر بضرورة أن يكون الحكمان ممّن تصلهم بالزوجين صلة قرابة، ليتمكّنا من إثارة أو استغلال عواطف الزوجين في مسار الإصلاح.. ومن البديهي أنّ هذه الميزة تتوفّر في محكمة الأسرة دون سائر المحاكم، لأنّ الصلح والوفاق يجب أن يكونا الحاكم في الحياة الزوجيّة وهو يختلف عن الصلح والوفاق بين شريكين.. إن التوافق في الحياة الزوجية كما هو التعامل بين الآباء والأمهات مع أولادهم حيث يتمّ بالعفو والتضحية والتسامح.. وعلى حدّ تعبير الأستاذ المطهري: لا فائدة من الصلح العسكري (وعلى حدّ التعاليم القرآنيّة؛ يجب حلّ الاختلافات الزوجيّة بالحوار الداخلي بين الأقرباء) لأنّ الجوّ العائلي مركز ومحور العواطف والمشاعر.. ومن الطبيعي أن تكون المقاييس في ذلك غير المقاييس المعمول بها في الأجواء الأُخرى.

الخامس: قد أثبتت التجارب أنّ الزوجين اللّذين يقصدان المحاكم الرسميّة لن يكونا كما في السابق، لأنّ الواحد منهما قد يضطرّ إلى كشف الأسرار في إطار الدفاع عن نفسه أو جرّ الحقّ إليها.. وهذا ما يؤدي إلى جرح مساعر الطرف الآخر؛ ممّا تعسّر فيه عملية الصلح.. ولا ريب في أنّ المرأة أو الرجل إذا أفشيا أسرار الزواج في محضر الغرباء الأجانب؛ فإنّهما وإن عادا إلى بيتهما معاً، إلّا أنّهما لن يحظيا بنفس درجة المحبّة والثقة المتبادلة التي كانا يعيشانها

قبل المحكمة.. وإنّما الاضطرار هو ما يدفع بهما إلى العيش المشترك.. ولكنّ محكمة الأقارب لا تؤدّي إلى واقع مرير، ولن يكون السوء فيها كالذي في المحاكم الرسميّة.

السادس: لما كان الحكمان القريبان شريكين في منفعة الصلح أو ضرره، فإنّهما أكثر حرصاً من الغرباء، فتراهما يبذلان كل جهديهما للإصلاح.. غير أنّ الحكّام الأجانب لا يبالون ـ في الغالب ـ بالصلح والإصلاح..

السابع: أنّ تأثير خطاب ذوي الأرحام والأقارب ـ لاسيما إذا كانوا ذوي شخصيات مميّزة ومحترمة ـ أكبر بكثير من خطاب الغرباء.. وهذا ما لا حاجة فيه إلى الاستدلال..

الثامن: كتب مؤلف تفسير (الكشّاف) في ذيل هذه الآية:

«فلسفة اختيار الحكّام من بين أفراد عائلتي المرأة والرجل كخطوة أولى هي أنّ أقارب المرأة والرجل أكثر إطلاعاً على ضعف وقوّة الزوجين، وأنّ رغبتهم في الإصلاح ـ بداعي القرابة ـ أشدّ من رغبة الغرباء.. وفضلاً عن ذلك، فإنّ ثم أسراراً يكتمها الزوجان ويفضّلان ـ عادة ـ كشفها للأقارب دون الغرباء».[1]

١٧. تشير التجارب إلى أنّه بموازاة اتّساع أعداد المؤسسات القضائيّة، هناك تصاعد في معدّلات الطلاق والاضطراب وتعقيد في أزمات العائلة.. فيما الوقاية من الاختلافات واختيار الحكّام الجديرين من بين أفراد الأسرة منهم الصلاحيات اللازمة.. يقلّل من تبعات الاضطراب ويحول دون اتّساع وتصاعد معدّلات الطلاق؛ كما ينشر الصلح والاستقرار في بيئة الأسرة.. وهذا ليس مجرّد شعار أجوف.. والدالّ عليه سيرة المسلمين المديدة عبر التاريخ.. فالمسلمون كانوا يلجؤون ـ أحياناً ـ إلى محكمة الأقارب، ولطالما انتفعوا من ذلك كلّ النفع.. ولكنّهم في الوقت الراهن، وبداعي الحياة المدنيّة انكمشت هذه الصورة، فأعقب ذلك نتائج

١- الكشاف، ج١، ص٥٠٨

غير مناسبة بالمرّة..

١٨. ضمن إعرابه عن قلقه العميق؛ لفت الشهيد مطهري الأنظار إلى اتّساع دائرة الطلاق في المجتمع المسلم، حاثاً على الرجوع إلى الأصل القرآني الداعي إلى حكميّة الأسرة والاستشارة الذاتية، وعدّ إحياء العمل بها من عوامل الحدّ من معدّلات الطلاق. وكتب نقلاً عن تفسير (المنار) في أهمّيّة الحكمين:

من المؤسف أنّ المسلمين يتجاهلون مزايا التحكيم الأسري، فرغم أن الطلاق حالة متواصلة بداعي الاختلاف والشقاق في العوائل.. إلا أنهم لا يستثمرون أصل وقاعدة التحكيم، فيما العلماء منهمكون في الجدل حول وجوب أو استحباب التحكيم الأسري.. والحال؛ لا فرق بين كونه واجباً أو مستحباً إذا لم يتمّ العمل به..[1]

١٩. إذا بدت علائم الشقاق والافتراق بين الزوجين؛ فلا مناص من بحث العلل والأسباب التي أدّت إلى الخلاف، وتوفير فرص ومقدّمات الصلح والوفاق عبر اختيار حكم من أقارب الزوج وحكم آخر من أقارب الزوجة.. ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا... ﴾.

٢٠. إذا تدخّل الحكمان بحسن نيّة وحرص، وكان هدفهما الإصلاح بين الزوجين، فإنّ الله تعالى يعينهما ويؤلّف بينهما: ﴿ إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا ﴾.

٢١. قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ بمثابة التحذير للحكمين ليحسنوا نيّتهما، لاسيّما وأنّه سبحانه مطّلع على نيتيهما وهدفيهما ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾.

١- تفسير المنار، ج٥، ص٧٩

الآية ٣٦

﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦ ﴾

مقدّمة

الآية أعلاه تبين سلسلة من الحقوق الإسلاميّة بما في ذلك حقّ الله وحقوق العباد وآداب المعاشرة مع الناس.. ويفهم منها ـ عموماً ـ عشرة تعاليم:

النقاط المستفادة من الآية

١. أن تشرع الآية الكريمة بالدعوة إلى عبادة الله وعبوديّته وترك الشرك وعبادة الأصنام، فلأن ذلك يمثل جذر التعاليم والمنهج الإسلامي. ولأنّ الدعوة إلى التوحيد وعبادة الواحد الأحد تطهّر الروح وتخلص النيّة وتقوّي الإرادة والعزم على إنجاز كلّ مشروع مفيد.. ويشير هذا البيان الوارد في الآية إلى جملة من الحقوق الإسلاميّة، وفي مقدّمتها حقّ الله على الناس ﴿ وَاعْبُدُواْ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا... ﴾

٢. حقّ الأب والأم من المسائل التي طالما اعتمدها القرآن المجيد، وأشار إليها في أربعة موارد، جاء فيها الأمر بعدم الشكر لغير الله الواحد الأحد، ثم ـ بلا فصل ـ ضرورة احترامهما.. وهكذا ورد واجب الشكر للوالدين في الآية إلى جانب الشكر في مقابل النعم الإلهيّة، مع أنّ

نعم الله تبارك وتعالى غير قابلة للإحصاء، ممّا يشير إلى عمق ووسعة حقوق الوالدين.. وقد تكرّر استعمال هذا السياق والأسلوب القرآني بحيث تتّضح العلاقة بين الجانبين.. وهكذا هو الأمر.. إذ أن النعمة الكبرى التي أولاها الله للإنسان هي نعمة الوجود والحياة، وتليها نعمة الوالدين التي ترتبط بما سبقها من نعمة ارتباطاً وثيقاً، وذلك لأنّ الولد جزءٌ من الأب والأم، وعليه؛ فإن عدم رعاية حقوق الوالدين قرين الشرك بالله تعالى: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

٣. رغم أنّ العواطف الإنسانيّة والمسائل الحقوقيّة كافية لوحدها للالتزام باحترام الأب والأم، إلّا أنّ الإسلام هنا وحتى في المسائل التي يستقلّ فيها العقل استقلالا تامّاً وتكتشفه العاطفة بوضوح، لم يسكت، وإنّما أصدر تعاليمه وأوامره تأكيداً لها..

٤. يعلم من آيات القرآن وروايات أهل البيت عليهم الصلاة والسلام أنّه ليس عقوق الوالدين حرام وكونه من الكبائر فحسب، وإنّما الإحسان لهما وأداء حقّهما أمر واجب وتركه محرّم.

٥. يرد لفظ الإحسان تارة بـ (إلى) ويذكره في أخرى بـ (ب).. فالصورة الأولى تعني الإحسان لهما وإن كان بشكل غير مباشر.. فيما الصورة الثانية؛ فتعني المباشرة بذلك بلا واسطة.. وعلى هذا؛ فإنّ الآية الشريفة أعلاه تؤكّد على أن موضوع الإحسان بالوالدين ينبغي أن يحمل على محمل الجدّيّة التامّة، وأن يتمّ بلا واسطة.[1]

٦. إشارة لبعض الروايات الخاصّة بحقوق الوالدين:

الف: روي في الحديث النبوي الشريف:

«من آذى والديه فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله ملعون».[2]

ب: روي عن الإمام الصادق عليه السلام: من نظر إلى أبويه نظر ماقت وهما ظالمان له؛ لم يقبل الله

١- نفس المصدر، ج ٨، ص ١٨٥ وتفسير الامثل، ج ٦، ص ٣٣.

٢- مستدرك الوسائل، ج١٥، ص١٩٣

←

منه صلاة.[١]

ج: قال رجل للنبيّ الأكرمﷺ: لم أدع سيئة إلّا فعلتها، فهل لي من توبة؟! فقال صلوات الله عليه وآله: أحسن لأبيك ليكون إحسانك كفّارة لذنوبك. وحين غادر الرجل قال النبي: لو كانت أمّه حيّةً لكان الإحسان لها أفضل.[٢]

د: يا رسول الله! لمن أحسن؟ فقال: لأمّك. فقال: ثمّ لمن أحسن بعدها؟ فقال: لأمّك. فقال ثالثاً: ثمّ لمن أحسن بعدها؟ فقال صلوات الله عليه وآله: لأمّك. وفي المرّة الرابعة أجاب النبيّ: لأبيك.[٣]

هـ: وقال الإمام الباقرعليه السلام راوياً عن النبيّ الأكرمﷺ: إياكم وعقوق الوالدين.. فإنّ ريح الجنّة توجد من مسيرة الف عام، وإنّ عاق الوالدين وقاطع الرحم والشيخ الزاني ومن يخط ثوبه الأرض تكبّراً لا يجدون ريح الجنّة.. إنّ الكبرياء خاصّة بالله..[٤]

ذ: عن الإمام الصادقعليه السلام: لو كان شيء أقلّ من الـ (أُفٍّ) لنهى الله عنه (وهو أقل الإعراب عن الانزعاج) وهذا أقل ما فيه العقوق للوالدين، ومن العقوق نظرة الغضب، والمقت لهما[٥]

ح: وفي الحديث النبوي الشريف: «نظر الولد إلى والديه؛ حبّاً لهما؛ عبادة»[٦]

٧. سؤال: هل الاحترام للوالدين خاصّ بوقت حياتهما، أم أنّه يشمل مماتهما أيضاً؟

الجواب: هو يشمل فترة حياتهما ومماتهما، وقد قال الإمام الصادقعليه السلام: «ما يمنع الرجل

١- الكافي، ج ٢، ص ٣٤٩.

٢- الزهد، ص٣٥

٣- الكافي، ج٢، ص١٥٩ و١٦٠

٤- نفس المصدر، ص٣٤٩

٥- نفس المصدر

٦- تحف العقول، ص٤٦

←

منكم أن يبرّ والديه حيّين وميّتين؟!».[١]

وروي عنه عليه السلام أنّ العبد يحسن لأبويه في حياتهما، ثم إنّهما يموتان فلا يؤدّي عنهما دينهما ولا يستغفر لهما، فيكتب عاقّاً لهما. وقد لا يكون محسناً لهما في حياتهما، فيموتان؛ فيؤدّي دينهما ويستغفر لهما، فيكتبه الله محسناً لهما.[٢]

٨. لا ريب في أنّ للإحسان للأبوين ولعقوقهما أثراً تكوينيّاً في حياة الإنسان في عالم الدنيا، كما روي عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام قوله: «برّوا آباءكم؛ يبرّكم أبناؤكم».[٣]

٩. إشارة إلى بعض الحكايات طبقاً للأحاديث بخصوص الإحسان للوالدين:

الف: عتبة الجنّة؛ جبهة الحور العين!

سأل رجل ذات يوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً:

يا رسول الله! قد أقسمت أن أقبّل عتبة الجنّة وجبهة الحور العين، فما عليّ أن أفعل؟

فقال له: قبّل قدم أمّك وجبهة أبيك.

[أي أنّك إن فعلت ذلك، بلغت أمنيتك في تقبيل جبهة الحور العين وعتبة الجنّة].

فقال الرجل: وإن كانا ميّتين؛ فما أصنع؟

فقال صلوات الله عليه وآله: قبّل قبريهما.[٤]

ب: تعلّموا من الصدّيقة الزهراء عليها السلام..

دخل النبيّ صلوات الله عليه وآله يوماً بيت الصدّيقة الزهراء عليها السلام، وكانت مشغولة بصلاة مندوبة، وحينما سمعت صوت النبيّ قطعت صلاتها وبادرت إلى استقباله واحترامه والسلام

١- الكافي، ج٢، ص١٥٩

٢- نفس المصدر، ص١٦٣

٣- نفس المصدر، ج٥، ص٥٥٤

٤- بيست و پنج أصل از أصول أخلاقي إمامان، ص ٧٩.

←

عليه. فوضع صلى الله عليه وآله وسلم كفّه الحنون على رأسها الشريف وقال: رحمك الله، كيف حالك؟..[١]

ج: الشابّ العاقّ ودعاء المشلول

في باب فضيلة دعاء المشلول؛ روي أنّه علّمه أميرالمؤمنين عليه السلام شابّاً كان قد عقّ أباه.. وكان قد شلّت يده بدعاء أبيه عليه ولعنه إيّاه، وقد أصيب بذلك طيلة ثلاث سنين.. فكان يلجأ إلى المسجد الحرام بعد وفاة أبيه ويستغيث بالله تعالى، فرحمه أميرالمؤمنين وعلّمه هذا الدعاء، فراح يقرأه حتّى شفي ببركة أميرالمؤمنين عليه السلام.[٢]

د: عن الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله أنّه قال لأميرالمؤمنين عليه السلام: يا علي! أنا وأنت أبوا هذه الأمّة، فمن تركنا وآذانا وخرج عن طاعتنا، فلعنة الله عليه... أنا وأنت سيّدا هذه الأمة، فمن فارقنا لعنة الله عليه... أنا وأنت أجيرا هذه الأمة، فمن منعنا أجرنا لعنة الله عليه.. ثمّ قال: اللّهم أجب هذه اللعنة.[٣]

١٠. مصطلح ﴿ ذِي الْقُرْبَى ﴾ لغةً بمعنى الأقارب الأقربون، وقد استعمل في القرآن كثيراً، من ذلك في الآية (٢٣) من سورة الشورى، وقد جعلت مودّة أهل البيت عليهم السلام أجراً على الرسالة النبويّة.

١١. الأمر بالإحسان إلى جميع القربى من الأمور التي أكّد عليها القرآن الكريم، فيتمثّل تارة بصلة الرحم، وأخرى بالإحسان إليهم..

١٢. يريد الإسلام عبر الأمر بالإحسان لذي القربى يريد أن يوجد. فضلاً عن إيجاده الترابط بين جميع أفراد البشر. العلاقات الأكثر صميميّة بين المجموعات الاجتماعيّة الأصغر تحت مسمّى القرابة، ليساعد بعضها بعضاً في مواجهة المشاكل والدفاع عن حقوق بعضهم بعضاً..

١- مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، ج٣، ص٣٣٣

٢- راجع: مهج الدعوات، ص١٥١ إلى ١٥٧

٣- راجع: الروضة في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، ص١٣٣

١٣. في كلّ مجتمع وبسبب الحوادث والوقائع هناك من يسقط كضحايا وقرابين ويخلّفون وراءهم الكثير من اليتامى، ولا ريب أنّ الغفلة عنهم تعرّضهم للخطر، ناهيك عن تعريض المجتمع برمّته للخطر..

١٤. لو بقي اليتامى بلا أولياء، أو لم ينالوا من المحبّة والحنان بالقدر الكافي، فسيتحوّلون إلى أفراد خطيرين أو جناة، وعليه، فإنّ الإحسان لليتامى إحسان لهم وإحسان للمجتمع..

١٥. البحث هنا لا يتحدّد بتوفير المعيشة لهم، لأنّ حاجة الإنسان لا تقتصر في الماء والطعام.. وإنّما ابن آدم متعطش بطبعه إلى المحبّة والعاطفة النبيلة، إذ أنّه مخلوق عاطفي يميل إلى تحسّس المحبّة وإظهارها للآخرين.. وهو ليس كخشبة أو حجر و جماد غريب عن الرأفة والحنان.. وإذا كان الكثير من الحيوانات تتأثّر بالحب وتستجيب له، فالإنسان القائم تكوينه على أساس من العطف والمحبّة، وكيف يمكنه الابتعاد عن المحبّة والعيش من دونها؟.. حقّاً إنّه لا يمكن لشيء سوى المحبّة والرأفة أن يملأ الفراغ الذي يخلّفه الأب والأم.

١٦. حبّ الأيتام لا يؤتي أكله وفائدته إلّا في حالة ملاحظة جميع الأبعاد المادّيّة والعاطفيّة والمعنويّة، وإلّا كان من الممكن ظهور نتائج معاكسة تنتهي إلى تعرّض وإصابة اليتيم بعقد روحيّة ونفسيّة..

١٧. بعض النصوص الروائيّة حول رعاية الأيتام:

أوّلاً: قال الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله: «**من كفل يتيماً وكفل نفقته؛ كنت أنا وهو في الجنّة كهاتين**». وقرن بين أصبعيه المسبّحة والوسطى.[1]

ثانياً: عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام: «من أراد أن يدخله الله عزّوجلّ في رحمته ويسكنه

١- قرب الإسناد، النص، ص٩٤

جنّته؛ فليحسن خُلقه.. وليرحم اليتيم».[١]

إنّ رأفة القلب واستجابة المطالب من الآثا ر الرائعة الأخرى لرعاية الأيتام.

الثالث: ورد في الحديث النبويّ الشريف:«إذا أردت أن يلين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم».[٢]

الرابع: قال النبيّ الأعظم صلوات الله عليه وآله:«والذي نفسي بيده؛ لا يلي مسلم يتيماً فيحسن ولايته ويضع يده على رأسه؛ إلّا رفعه الله عزّوجلّ بكلّ شعرة درجة وكتب له بكلّ شعرة حسنة ومحا عنه بكلّ شعرة سيّئة».[٣]

الخامس: قال مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام:«ما من مؤمن ولا مؤمنة يضع يده على رأس يتيم ترحّماً؛ إلّا كتب الله له بكلّ شعرة مرّت يده عليها حسنة».[٤]

١٨. لا شكّ في أنّ المجتمع السالم الذي يعمل فيه بالعدل؛ هناك من الأشخاص من هو معاق وعاجز عن العمل، ويكون نسيانهم أو تناسيهم خلافاً لجميع الأصول الإنسانيّة.. وإذا ما أريد مواجهة الفقر والحرمان الناتجين عن إهمال العمل بالأصول الإنسانيّة والعدالة الاجتماعيّة واحتمال إصابة الأفراد المعافين بالظلم والاضطهاء؛ فلابدّ من مواجهة ظاهرة تجاهل المعاقين والمحتاجين.. ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾

١٩. للمفسّرين احتمالات مختلفة في معنى الجا ر الجنب:

الاحتمال الأوّل: نقل أبوالفتوح الرازي في تفسيره عن ابن عبّاس أنّ المراد من ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ الجا ر ذوالقربى، وهناك جا ر آخر غريب وليس ذا رحم.[٥]

١- الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٣٨٩

٢- مشكاة الأنوار، ص١٦٧

٣- مجمع البيان، ج١٠، ص٧٦٧

٤- ثواب الأعمال، ص١٩٩

٥- روض الجنان، ج٥، ص٣٥٦ و٣٦٧

ولكنّ هذا التفسير، ونظراً إلى العبارة القرآنية السابقة من هذه الآية يبد وبعيداً..

الاحتمال الثاني: أو لعلّه الجار المذهبي والديني للإنسان. والمقصود هو الجار القريب مكانيّاً، ذلك أنّ الجار الأقرب له حقوق واحترام أكبر..

وكما احتمل السيّد عبدالله شبر في ذيل تفسير هذه الآية... يكون معنى الجيرة: الأقارب أو أصحاب العقيدة الواحدة.. و﴿ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾ الجار البعيد. من حيث الفاصلة المكانيّة. الأقارب البعيدون، أو من هو أبعد من حيث العقيدة.[١]

الاحتمال الثالث: أنّ المراد هو الجار في المكان والموضع، لأنّ الجار الأقرب له حقّه واحترامه الأكبر، وهو الاحتمال الأنسب للواقع ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى ﴾.

٢٠. الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ومن أجل تنزيه العلاقة بين المؤمنين وخلق المعنويّات والثقة المتبادلة ورفد الوحدة والألفة في المجتمع المسلم وتعريف حدود وآفاق الجيرة ورعاية حقوق الجار أكّد صلوات الله عليه وآله أنّ الجيرة إلى أربعين بيتاً من الجهات الأربع لبيت الفرد المسلم.. من الأمام والخلف واليمين واليسار.[٢]

٢١. أهمّيّة رعاية حقوق الجار في روايات المعصومين:

الف: قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الصدد: «مازال جبرئيل يوصيني بالجار حتّى ظننت أنّه سيورثه».[٣]

ب: وروي عن رسول الله (ص) أنه أمر عليّا (ع) وسلمان وأباذر أن ينادوا في المسجد بأعلى أصواتهم بأنه لا إيمان لمن لم يأمن جاره بوائقه فنادوا بها ثلاثا.[٤]

١- تفسير القرآن الكريم، الشبر، ص١١٤

٢- الكافي، ج٢، ص٦٦٩

٣- من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٥٢

٤- الكافي، ج٢، ص٦٦٦

وفي حديث آخر نقرأ عن رسول الله (ص) : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلا يؤذي جاره».[1]

ج: وقالت مولاتنا الزهراء عليها السلام لابنها الإمام الحسن المجتبى (ع): «يا بني! الجار ثمّ الدار».[2]

د: وقال مولانا أمير المؤمنين (ع) في وصية له يخاطب أولاده: «الله الله في جيرانكم».[3]

هـ: وفي رواية عدّ الإمام الباقر (ع) شيعته من يتعهّد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام.[4]

و: وذكر مولانا الإمام السجاد (ع) في (رسالة الحقوق) واحداً وخمسين حقّاً تلزم المسلمين رعايتها.. وقال في حق الجار: أمّا حقّ الجار، حفظه في الخفاء وتبجيله في العلن، ونصرته إذا ظلم، وإن أنذرته؛ فانصحه، ولا تدعه في شدّته، واصفح عنه إذا أخطأ، واعف عن ذنبه وعاشره بالكرامة والتعظيم..[5] وقد خصّ (ع) الجار في أحد أدعيته الشريفة الموسومة بـ (الصحيفة السجّادية).[6]

ز: وعدّ مولانا الإمام الصادق (ع) السلوك بالحسنى مع الجار من الأهمّيّة بعد الصلاة وإلى جانب صلاة الجماعة في المسجد.[7]

ح: وروي عن مولانا الإمام الصادق (ع): «حسن الجوار يعمر الديار ويزيد في الأعمار».[8]

٢٢. طبقاً لتفاسير المفسّرين، فإنّ المراد من جملة ﴿ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾ هو البعد المكاني الذي يشمل الجار البعيد، وحسب جملة من الروايات؛ يعتبر الجار جاراً إلى أربعين بيتاً من

١- مشكاة الأنوار، ص٢١٤

٢- علل الشرائع، ج١، ص١٨٢

٣- نهج البلاغة، ص٤٢٢

٤- الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٦٢٥

٥- تحف العقول، ص٢٦٦

٦- الصحيفة السجادية، ص١٢٤، الدعاء ٢٦

٧- الأمالي، الشيخ المفيد، ص١٨٦

٨- الكافي، ج٢، ص٦٦٧

←

الأطراف والجوانب الأربعة،[١] فتكون أفراد مدينة صغيرة جيرةً كلّهم تقريباً (إذ لو افترضنا بيت كلّ إنسان وشعاعه أربعين منزلاً من كلّ جهة، فإنّ عمليّة حساب بسيطة بخصوص مساحة هكذا دائرة، توضح أنّ مجموع المنازل من أطرافها الأربعة حوالي خمسة آلاف منزل، ولا ريب أنّ المدن الصغيرة لا تستوعب أكثر من هذا العدد).

٢٣. لكي يلفت القرآن الأنظار إلى وسعة مفهوم الجار، رأينا الآية أعلاه، وفضلاً عن ذكر الجار القريب، يصرّح بحقّ الجار البعيد، لأنّ كلمة الجار غالباً لها مفهوم محدود لا يتحمّل غير الجار القريب، ولذا؛ كان من الّلازم إلفات النظر إلى رحاب مفهوم الجار من الزاوية القرآنيّة، فكان لابدّ من التصريح وذكر الجار البعيد، رغم إمكانيّة أن يكون الجار من غير المسلمين، لأنّ حقّ الجوار في الاسلام غير منحصر بالجار المسلم، بل إنّه يشمل المسلم وغير المسلم (اللهم إلّا الكافر الحربي).

٢٤. من المؤسف أنّ عالم اليوم يجهل الناس فيه واقع وأخبار جيرانهم، وقد يجهل أحد اسم جاره ولو بعد عشرين عاماً من الجيرة.. وهنا؛ كان للثقافة الإسلاميّة بهذا الصدد بريقها الخاص والمميّز، لاسيّما وأنّها قد أولت المسائل العاطفيّة والتعاون الإنساني كلّ الاهتمام.. في حين أنّ الحياة المعاصرة تتضاءل وتتحلل فيها العواطف النبيلة يوماً بعد يوم، ليحلّ محلّها القسوة والتنافر.

٢٥. رغم أنّ ظاهر عبارة ﴿ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ ﴾ عبارة عن الإيصاء بالإحسان للأصدقاء والأصحاب.. إلّا أنّه يجب الالتفات إلى أن آراء المفسّرين تؤدّي إلى أن لهذا التعبير معانٍ أوسع وأشمل من الصديق والصاحب والرفيق.. وفي الواقع؛ هو يعمّ كلّ إنسان له صحبة ومعاشرة مع الإنسان، سواء كان هذا الرفيق دائميّاً أو مؤقتاً لفترة قصيرة (كما هو الشخص الذي يجالس أو

١- نفس المصدر، ص٦٦٩

←

يصاحب غيره أثناء السفر.. أو من عبّرت عنه بعض الروايات بالقول «رفيقك في السفر» أو من يأمل المنفعة «المنقطع إليك يرجو نفعك»[١] إلّا أنّ الهدف والمراد ليس هؤلاء بشكل خاصّ، وإنّما استعمل المثالان للإيحاء بسعة المفهوم وشموله غيرهما أيضاً. وهكذا؛ تكون العبارة القرآنيّة قد أصدرت أمراً جامعاً وكلّيّاً لحسن المعاشرة إزاء كلّ من يرتبطون بالإنسان، فضلاً عن الأصدقاء الواقعيّين والزملاء ورفاق السفر والتلاميذ والمستشارين والخدمة.. ﴿ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ ﴾

٢٦. مع أنّ بعض الروايات قد فسّرت الصاحب بالجنب بالزوجة، وكما روى كاتب (المنار) و(روح المعاني) والقرطبي في ذيل هذه الآية عن أميرالمؤمنين(ع)، ولكن لا يبعد أن يكون هذا المروي أحد المصاديق التي تقصدها الآية الشريفة...[٢]

٢٧. الأمر بالإحسان ورعاية المسافرين الغرباء والمحتاج في الطريق ورد لدى استعمال العبارة الجميلة ﴿ ابْنِ السَّبِيلِ ﴾ حيث يلزمنا الاعتناء بهؤلاء الأفراد المسافرين في بلاد الغربة وإن كنّا نجهل أسماءهم وأسماء عشائرهم.. فهم قد يكونون أفراداً أغنياءً في بلدانهم ومدنهم، ولكن لمّا كانوا مسافرين واضطّرتهم الحاجة، فلابدّ من دعمهم ورعايتهم ومساعدتهم.

٢٨. عاشر وصايا هذه الآية؛ الوصيّة بالإحسان بالعبيد والإماء.. وهذه ليست الآية الوحيدة التي وردت فيها الوصيّة بهم، إذ ثَمّ آيات كثيرة أخرى تناولت هذا الأمر. مضافاً إلى أنّ الإسلام قد رسم منهجيّة دقيقة لتحرير العبيد بالتدريج... ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾

٢٩. بدأت الآية بحقّ الله تعالى وانتهت بحقّ العبيد، وذلك لأنّ هذه الحقوق غير منفصلة عن بعضها.

٣٠. في ختام هذه الآية جرى الإعلان عن أنّه جلّ جلاله لا يحبّ المتكبرين والمتفاخرين،

١- مجمع البيان، ج٣، ص٧٢

٢- روح المعاني، ج٣، ص٢٩ و تفسير القرطبي، ج٥، ص١٨٩

وأن كلّ من يتمرّد على أمر الخالق المتعال؛ والممتنع عن حفظ حقوق الأقارب والوالدين واليتامى والمساكين وأبناء السبيل والأصدقاء على اختلاف مشاربهم، لن يحظى بلطف الله فضلاً عن محبّته سبحانه، ولا ريب أنّه سيحرم الخير والسعادة.. ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾

٣١. شاهد المعنى أعلاه رواية ترد في ذيل هذه الآية مفادها أنّ أحد أصحاب النبي(ص)قال: تلوت هذه الآية عند النبيّ، فأحصى المعايب والعواقب التي ذكرتها الآية إلى الحدّ الذي وجدتني أبكي.. فقال: لمَ تبكي؟ فقلت: أحبّ أن تكون ثيابي جميلة.. وأخشى أن أكون بذلك من المتكبّرين.. فقال(ص): لا؛ إنّك من أهل الجنّة وهذا [الملبس الجميل] ليس من التكبّر.. وإنّما هو أن يقف المرء بوجه الحقّ؛ فلا يخضع له، وأن يعدّ نفسه أعلى من الناس فيستحقرهم، ولا يؤدّي حقوقهم...[1]

٣٢. يفهم من قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ أنّ مصدر الشرك والتجاوز على حقوق الآخرين في الغالب هو التكبّر، وأنّ أداء الحقوق، ولاسيّما حقوق الضعفاء من العبيد واليتامى والفقراء والمساكين وأمثالهم بحاجة إلى روح التواضع والنضج...

١- الدر المنثور، ج٢، ص١٦٢

الآية ٣٧ ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. البخل بمعنى الخسّة وضيق النظرة والإمساك والحقارة، بل وكلّ ما من شأنه أن يدفع الإنسان إلى التعلّق والتشبث بالأمور الماديّة، حتّى ينتهي إلى اختزال جميع الخير والصلاح والمصالح في ولهذه الدنيا فحسب، فتراه لا يعطي ممّا أعطاه الله تعالى من النعم، ويمتنع عن مساعدة الآخرين ويحجم عن الانفاق في سبيل الله تبارك وتعالى.

٢. البخيل من يسيء الظنّ بالله بدءاً، ويذهب إلى أنّ ما أعطاه الله؛ لن يعطيه في الغد، وهذا نوع سوء ظنٍّ بخالق الوجود.. هذا في الوقت الذي نقطع الأغصان الزائدة من الشجرة، تتوفر الفرصة لنموّ أغصان أخرى.. وكذلك هو الإنسان حين ينفق من ماله، فإنّ بركات أخرى يتفضّل بها الله تعالى عليه.

٣. يقسّم الإنسان إلى ثلاث مجموعات:

الأولى: الأفراد السمحون والكرماء من الناحية الماديّة والمعنويّة والعلميّة ولا يمتنعون عن العطاء ممّا في أيديهم للآخرين.

الثانية: الممتنعون على كلّ حال عن إيصال الخير والمعونة للمحتاجين.

الثالثة: الأفراد المعتدلون الذين ينظرون إلى الظروف المناسبة للإنفاق أو ما يحملهم على الإمساك.

٤. أن البخل والخسّة ليست خاصّة بالمسائل الماديّة، إذ أنّه يشمل الجوانب العلميّة

والثقافيّة.. فهناك من الأفراد من لا ينال خيرُهم غيرَهم، مضافاً إلى منع الآخرين عن الكرم والجود والإحسان، وقد أشير إلى ذلك في كثير من الآيات القرآنيّة.

٥. أنّ منطق الإسلام هو منطق الاعتدال، ولهذا أمر القرآن الكريم المسلمين بأن لا يقبضوا أيديهم قبضاً تامّاً ولا يبسطوها كلّ البسط، ويرشدهم إلى ضرورة الالتفات والاهتمام بنفقات عوائلهم حين إكرامهم الآخرين، وأن لا يؤدّي بهم كرمهم إلى الضيق في المعيشة وذلك عبر التزام سبيل الاعتدال الذي أوصى به القرآن المجيد.

٦. لا شكّ في أن البخلاء يساهمون في الإخلال في المجتمع، وذلك إن لم يحظ المحتاجون بالمساعدة الّلازمة، تعرّض المجتمع لمزيد من الأضرار العامّة الكبيرة. فالبخل يتجسّد ـ تارة ـ بضيق النظرة، بمعنى أنّ الفرد قد لا يكون محتاجاً، ولكنّه يحدّث نفسه بأنّه لم ينل مساعدة من أحد، فهو معذور في عدم تقديم يد العون لغيره، مضافاً إلى أنّ الخسّة قد تنتشر وتستولي على جميع الأبعاد الثقافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة.

٧. لدى العطاء ينبغي الالتفات بدءاً بالأسرة والأقربون ثمّ تُمدّ يد العون لغيرهم من المحتاجين.. وبإنفاق الانسان على الآخرين تتنزّل عليه بركات الخالق الجواد..

٨. المتكبّرون والأنانيّون هم الذين يحرمون أنفسهم من الإحسان للآخرين فحسب، بل ويدعون غيرهم إلى البخل ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾

٩. البخلاء يحرصون على إخفاء ما وهبهم الله تعالى؛ حذراً من أن يستعين بهم غيرهم ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ﴾.

١٠. لعلّ التعبير بعذاب الكافرين في ختام الآية أعلاه بداعي أن البخل يصدر عن الكفر في الغالب، لأنّ البخلاء ـ في الواقع ـ ليس لهم الإيمان الّلازم بالمواهب الإلهيّة اللامتناهية ووعوده للمحسنين.. فيظنّون أنّ مساعدة الآخرين تؤدّي بهم إلى البؤس والفقر والشقاء.. ومن هنا اختتم القرآن قوله في الآية: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾.

الآية ٣٨

وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. أشارت هذه الآية إلى صفة أخرى من صفات المتكبّرين حيث قالت: ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾.

٢. مفردة الإنفاق من (ن ـ ف ـ ق) بمعنى القلّة والفناء والادّخار والإخفاء والتغطية، وكما قال الراغب؛ اللّغوي المشهور: الإنفاق قرن بإعطاء المال لأنّ المال ينفق ويزول خلاله.[١]

٣. طبقاً لرأي بعض اللغويّين؛ فإنّ الإنفاق يتفاوت مع العطاء من حيث أن الانفاق يؤدّي إلى انتقال مالكيّة الشيء، ولكنّ العطاء لا ينتهي إلى ذلك لزاماً، ولهذا كان إسناد الإنفاق إلى الله كان على سبيل المجاز، وذلك حيث قال تعالى: ﴿ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء ﴾ بمعنى إيصال الرزق إلى العباد.

٤. جاء في القرآن الكريم والنصوص الدينيّة أنّ الإنفاق بمعنى إعطاء المال أو شيءٍ آخر في سبيل الله للفقراء والمصاديق الأخرى مورد الحاجة..

٥. ورد مصطلح (النَفق) ومشتقّاته أكثر من (٧٠) مرّة في القرآن وفي الغالب كان إيرادها بالمعنى الاصطلاحي. بالإضافة إلى أنّ القرآن قد أشار إلى الإنفاق بمفردات وتعابير أخرى مثل: الصدقة أو الصدقات [الزكاة و مشتقّاتها] والإعطاء والجهاد بالمال والقرض الحسن والرزق

١- مفردات ألفاظ القرآن، ص٨١٩

والإطعام، كما أنّ الآيات ذات الصلة ذكرت جملة تكاليف ماليّة مثل إعطاء الزكاة أو الكفّارات التي يمكن أن تكون من مصاديق الإنفاق (بالمعنى العام..) وهناك موارد أخرى كان المراد بالإنفاق فيها غير المعنى الاصطلاحي..

٦. الإنفاق في سبيل الله قابل للتقسيم من عدّة جهات:

الف: تقسيم الانفاق من الناحية المادّيّة أو المعنويّة:

تارة يكون الإنفاق في الأمور المادّيّة والماليّة، وتارة يكون معنويّاً.. والمصداق البارز للإنفاق في القرآن هو الإنفاق من الأموال، مثل: ﴿ جَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ ﴾ و﴿ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ وهناك من الآيات ما يتجاوز الحديث والأمر بها إنفاق المال، مثل: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ و ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ حيث يشمل الأمر الإنفاق من طاقة العقل والمعرفة، وتارة يرد الأمر بالإنفاق من (الخير) كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ إذ فسّره بعضهم بالمال، وآخرون ذهبوا إلى ما هو أشمل من المال.. مثل ما ورد في كلمة (شيء) حيث قال تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ وكذلك ما ورد في قوله العزيز: ﴿ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ حيث يشمل كل ما يقع تحت طائلة رغبة الإنسان ومحبّته ممّا هو قابل للإنفاق وجدير بسدّ حاجة المحتاج.

ب: تقسيم الإنفاق من حيث الحكم الشرعي:

وهو يقسم - شرعياً - إلى إنفاق واجب ومستحبّ وحرام:

الإنفاق الواجب:

ويشمل مساحة واسعة من الواجبات الماليّة، مثل الزكاة والخمس والكفّارات الماليّة وأقسام الفدية والنفقات الواجبة.. مثال ذلك؛ أنّ الزكاة من المصاديق البارزة في الإنفاق الواجب حيث ذكر المفسّرون في ذيل بعض الآيات المتعلّقة بالزكاة والإنفاق، من ذلك ما ورد في الآية (٣) من سورة البقرة: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وآية: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ

وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. ومن موارد الإنفاق الواجب أيضاً؛ إعطاء الخمس: ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ... ﴾ ومصداق آخر هو: النفقة الواجبة للزوجة والأولاد الملقاة على عاتق الزوج: ﴿ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وكذلك الكفّارات الماليّة، مثل كفّارة اليمين، كما أنّ الإنفاق يكون في بعض الأحيان واجباً لأسباب معيّنة بعد أن كان مستحبّاً، مثل: توفير نفقة الجهاد حيث تقول الآية (١٩٥) من سورة البقرة: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ أو سدّ بعض الحاجات الضروريّة الاجتماعيّة، مثل: وضع الجسور وبناء المدارس والمساجد.. وهناك موارد ومصاديق أخرى للإنفاق الواجب تطرّقت لها الآية (٣٤) من سورة التوبة الشريفة.

الإنفاق المستحبّ:

هناك مصاديق للإنفاق مستحبّة؛ حيث ذكرتها بعض الآيات، منها: ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وهناك آيات أُخرى ذكرت الإنفاق بواجبه ومستحبّه.

الإنفاق الحرام:

وله مصاديق قرآنيّة، كما ورد في الآيتين (٣ و٢٧٠) من سورة البقرة، كما هو إنفاق المشركين في إطار المعصية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ أو الآية محطّ التفسير (النساء / ٣٨).

٧. الرياء لغةً عبارة عن التظاهر بالعمل الصالح دون تحقيق هدفه الأصلي، فهو استعراض يراد منه الظهور بالمظهر الحسن والصالح في أعين الناس ﴿ رِئَاء النَّاسِ ﴾.

٨. الرياء في العبادة هو الإتيان بالعبادة لغير الله تعالى بقصد التمظهر والاستعراض أمام أعين الناس، ويقابل ذلك الإخلاص..

٩. يتصوّر بطلان العبادة بالرياء بعدة أشكال:

الأوّل: أن تكون العبادة لمجرّد التظاهر أمام الآخرين.

الثاني: أن تؤدّى العبادة بقصد الامتثال لأمر الله تعالى مضافاً إلى التظاهر بحيث يكون الامتثال والرياء دخيلين في العبادة ويحرّكان للعبادة معاً.

الثالث: أن يكون لكلٍّ من الرياء والامتثال للأمر بالعبادة جهتين مستقلّتين ولا ينضم أحدهما إلى الآخر رغم أنّهما يجتمعان في العبادة.

الرابع: أن يكون الامتثال مستقلاًّ بحيث يكفي وحده في صدور العبادة ولكن للرياء دافعه بالتبع و بحيث لا يكون بمفرده محركاً لأداء العبادة..والقول بعدم بطلان العبادة والعمل الصالح في الصورتين الأخيرتين منسوب للسيد المرتضى من المتقدّمين.

١٠. ليس الهدف ـ في الريا ـ للمرائين بالإنفاق خدمة الناس وتحقيق رضا الله تعالى، ولهذا ترى المرائين في الإنفاق لا يهتمون بمدى استحقاق الجهة المقصودة، وإنّما يحرصون على كيفيّة إنفاقهم لينتفعوا منه أكبر الانتفاع ويحققوا لأنفسهم المصلحة المقصودة والوجاهة المرجوّة، ذلك لأنّهم لا إيمان لهم بالله تعالى ولا اليوم الآخر.. ومن هنا؛ يتجرّد إنفاقهم عن الوجهة الروحيّة.. وإنّما الدافع لهم في ذلك الشهرة وصناعة الشخصيّة الكاذبة.. وتتجلّى لدى ذلك أمارات التكبّر والأنانية.

١١. ﴿ قَرِين ﴾ يقال للرفيق والزميل.

١٢. لمّا كان منطق ومنهج المرائين المتظاهرين منطق ومنهج رفيقهم الشيطان، حيث هو الموسوس لهم بأنّ الإنفاق موجب للفقر: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ [1] وعلى هذا؛ فهم إمّا أن يحجموا عن الإنفاق ويبخلوا (كما أشير إلى ذلك في الآية السابقة) وإمّا أنّهم إذا أنفقوا؛ أنفقوا رياءً بما يحقق هدفهم البعيد عن الإخلاص لله تعالى.. ﴿ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا ﴾.

١- سورة البقرة / ٢٦٨.

١٣. لرفيق السوء دور أساس وفعّال ومؤثّر في تحديد ورسم مصير الإنسان؛ حتّى يضطرّه إلى السقوط في المهاوي.. ﴿ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا ﴾.

١٤. علاقة المتكبّرين بالشيطان والممارسات الشيطانية علامة مستمرة وغير مؤقّتة، لأنّهم اختاروا الشيطان رفيقاً وقريناً وجليساً..

الآية ٣٩

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١.تعرب هذه الآية عن الأسف على الذين جرت الإشارة إليهم في الآيتين السالفتين، وتقول: ماذا على هؤلاء لو عادوا عن ضياعهم وآمنوا بالله ويوم القيامة وصاروا عبيداً لله وحده واستثمروا المواهب الإلهيّة وأخلصوا نواياهم وطهّروا عقولهم ليكسبوا الخير والسعادة لأنفسهم في الدنيا والآخرة.. ولكنّهم آثروا الخسران والشقاء، فلا يعيدون النظر فيما اختاروا لأنفسهم من السوء ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ... ﴾

٢. قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ اللهُ بِهِم عَلِيمًا... ﴾ يشير إلى أنّه سبحانه عليم بنيّاتهم وأعمالهم في كلّ حال، وسيعاقبهم طبقاً لعلمه بهم..

٣. في الآية السالفة كان الحديث عن إنفاق الرياء، ولهذا؛ نُسب الإنفاق إلى الأموال. وفي هذه الآية، نُسب الإنفاق إلى رزق الله تعالى، وهذا التفاوت في التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى ثلاث نقاط:

الأولى: أنّ في إنفاق الرياء لا يلتفت إلى ما إذا كان المال حلالاً أو حراماً، أمّا في الإنفاق الإلهي؛ فيلتفت إلى كونه ممّا رزق الله.

الثانية: في إنفاق الرياء؛ يعد أصحاب المال متعلّقاً بهم، ولذلك؛ فهم لا يمتنعون عن التكبّر والمنّ.. فيما الإنفاق الإلهي، يعدّه أصحابه توفيقاً ربّانيّاً ويؤمنون بأنّ ما بين أيديهم من مال هو مال الله وقد جعلهم أمناء عليه، فلا يعرفون للتكبّر والمنّ معنىً في هذا النطاق.

الثالثة: إنفاق الرياء منحصر في الغالب بالمال، إذ المراؤون مفتقرون إلى الوجهة المعنويّة.. أمّا الإنفاق الإلهي؛ فله أفق واسع ويعم مختلف الإمكانات المادّيّة والمعنوية والاجتماعيّة..

الآية ٤٠

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. الذرّة لغة بمعنى النملة المتناهية في الصغر؛ فلا ترى إلّا بشقّ الأنفس. وقال آخرون: إنّ الذرّة في اللّغة الأجزاء الصغيرة جدّاً من الغبار المعلّق في الهواء، وتتبدّى إذا ما أشرق عليها الضوء من كوّة صغيرة بعد أن كانت خافية في الظلام. والتعريف الثالث للذرّة أنّها تتطاير في الهواء إذا ما نفخ الإنسان على كفّه بعد أن كان مرّ بها على وجه الأرض ماسحاً.

٢. في الوقت الراهن يقال لكل شيءٍ صغير جدّاً: ذرّةً، ولهذا يقال للذرّة ـ وهي أصغر ما يكون من أجزاء الأجسام ـ ذرّة، وإذا كانت في الماضي تطلق على ذرّات الغبار، لأنّها كانت أصغر ما يمكن تصوّره. ولكن ـ في الوقت الحاضر ـ حيث ثبت أن أصغر أجزاء جسم ما مركب المولوكول، وأن أصغر أجزاء الجسم البسيط هي الذرّة، وهي أصغر من المولوكول، وهذا الاسم اختير للذرة في الاصطلاح العلمي، وهو ليس لا يرى بالعين المجرّدة فحسب، وإنّما تعجز أحدث المجاهر ـ مكروسكوب ـ عن رؤيتها.. ولكن وجودها قد تمّ إثباته بوسيلة صيغ علميّة وعن طريق التصوير الخاصّ الذي يتم بوسائل علميّة فائقة التقنيّة، وحيث أن المثقال بمعنى الوزن والثقل، جرى التعبير بمثقال ذرّة، بمعنى ثقل ووزن جسم متناهي الصغر..

٣. يشير الله تعالى في هذه الآية إلى أنّه لا يظلم مخلوقاً ولو بمقدار مثقال ذرّة.. بل إنّه سبحانه يضاعف العمل الصالح ويثيب عليه بأعظم الأجر.

٤. الدليل على أنّ خالق الوجود والقادر على كلّ شيء لا يظلم، أنّ الظلم يصدر إمّا بداعي

الجهل وإمّا للحاجة والنقائص النفسيّة، ولكنّه تعالى يقبّح الظلم وعالم بالجور، كما أنّه لا يحتاج لشيء فيظلم، وهو لا نقص في ذاته المقدّسة، مضافاً إلى أنّ الفعل القبيح والظالم يصدر عن الجاهل بالأحداث والوقائع والنتائج، أو يشعر بالنقص والحاجة، أو يشعر بضرورة وجدوى ممارسة الظلم، غير أنّه تعالى غني مطلق وعليم مطلق ومنزّه عن كلّ العيوب والنقائص.

٥. عدم إمكان الظلم بالنسبة إلى الله تعالى لا يعني كونه عاجزاً عن فعل الظلم (كما تتصور الأشاعرة) بل إنّه سبحانه وبداعي كونه حكيماً عالماً عليماً؛ تراه يمتنع عن ممارسة أدنى الظلم، وقد وضع كلّ شيء في موضعه المناسب من عالم الوجود، ويعامل أفراد مخلوقاته . جميعاً. طبقاً لما يستحقون من الرحمة والعدل.

٦. هذه الآية تقول للأفراد غير المؤمنين البخلاء المذكورين في الآيات السابقة: إنّ أشكال العقاب التي ستتعرّضون لها، إنّما هي ناتج أفعالكم. وأنّ ظلماً من الله تعالى لم يصدر بحقكم.. بل إنّكم لو يمّمتم جهة الله بدلاً من البخل والتكبّر والكفر، لنلتم الأجر المضاعف والعظيم.

٧. الضعف والمضاعف في لغة العرب بمعنى الشيء والأمر المعادل أو ما يفوق عليه مراراً، وعليه؛ فلا منافاة بين ما حكته هذه الآية وبين ما تقوله آيات أخر، بأنّ ثواب الإنفاق عشرة أضعاف أو سبعون ضعفاً أو أكثر من ذلك بما لا يحصيه إلّا الله تبارك وتعالى.. وعلى أيّ حال؛ فهو تصوير للألطاف الإلهيّة بالعباد، حيث لا يعاقبون إلّا بمقدار ما اجترحوا من السيّئات، ولكنّهم سيلقون من الثواب ما يفوق حدود التصور على ما فعلوا من الصالحات والحسنات!!!

الآية ٤١

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. استئنافاً لبحث الآيات السالفة الخاصّة بعقاب المذنبين.. نجد هذه الآية تشير إلى مسألة الشهود في يوم القيامة.

٢. في يوم القيامة وفي ساحة الحشر والحساب، وفضلاً عن شهادة أعضاء جسم الإنسان عليه، وفضلاً عن شهادة الأرض التي عاش عليها، وناهيك عن شهادة ملائكة الله على أعماله.. فإنّ كلّ نبيٍّ سيؤتى به ليشهد على أمّته.. فيما النبيّ المصطفى صلوات الله عليه وآله وهو خاتم أنبياء الله وأعظمهم سيؤتى به ليشهد على أمّته.. وإذ ذاك سيعجز السيّئون من أمّته عن إنكار الحقائق لدى شهادة النبيّ الأعظم، أو أن يتملّصوا من العقاب المحدّد لهم.

٣. يشبه بحث هذه الآية ما ورد في عدّة آيات أخرى، مثل الآية (١٣٤) من سورة البقرة، والآية (٨٩) من سورة النحل والآية (٧٨) من سورة الحج.

٤. سؤال: كيف ستكون شهادة الأنبياء على أعمال أممهم؟

ينبغي القول لدى الإجابة:

كما ورد في تفسير (مجمع البيان): إذا كانت كلمة ﴿ هَؤُلاء ﴾ إشارة للمسلمين،[١] فستّتضح الإجابة على السؤال؛ ذلك لأنّ كل نبيّ مادام بين أفراد أمّته؛ فسيكون شاهداً ناظراً على

١- مجمع البيان، ج٣، ص٧٧

أعمالهم، ثمّ إنّ أوصياءه وخلفاءه سيكونون شاهدين وناظرين.. ولذلك تقرأ فيما يتعلّق بالنبيّ عيسى(ع) أنّ الله تعالى سيسأله في يوم القيامة، فيجيبه مقرّاً متواضعاً: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.[١] ولكنّ بعض المفسّرين احتملوا: أن تكون حكمة ﴿ هَؤُلاء ﴾ إشارة إلى شهود الأمم السابقة فيكون المراد: يا نبيّ الإسلام! سنجعلك شهيداً على جميع الشهداء والأنبياء السالفين. وقد أشارت بعض الروايات لهذا المعنى..[٢] وعليه؛ سيكون مفهوم الآية أنّ كلّ نبيٍّ ناظر أحوال أمّته في حياته ومماته عن طريق المشاهدة (المعايشة) الباطنية والروحانيّة.. وهكذا هي الروح الطاهرة المطهّرة لنبيّ الإسلام صلوات الله عليه وآله ناظرة جميع أحوال الأمم الماضية وأمّته أيضاً.. ومن هذا السبيل يتسنّى لهم أن يشهدوا.. ولعلّ من صلحاء الأمم والأفراد المميّزين بأعلى درجات التقوى أن يشهدوا... فيكون مفهوم ما تقدّم أنّ الروح الطاهرة المطهّرة لنبيّنا الأعظم(ص) كانت موجودة منذ بدء خلقة آدم.. وذلك لأنّ معنى الشهادة هو الوجود والعلم والاطّلاع.. ولكنّ هذا التفسير لا يتّفق ـ كثيراً ـ مع الآية التي تناولت إجابة النبي عيسى(ع)، لأنّها تقول: إنّ المسيح(ع) لم يكن شاهداً على جميع أفعال أمّته، بقدر ما كان شاهداً في نطاق حياته. ويمكن أن ننظر إلى الشهادة على أنّها شهادة عملية، أي كونها مقياساً لأعمال فردٍ ما لأعمال الجميع.. وفي هذه الحالة سيخلو التفسير أعلاه من الإشكال، ذلك لأن كلّ نبيٍّ وبما يمتاز ويحمل من صفات مثالية يصلح أن يكون قدوة لأفراد أمّته، فيتسنّى له تحديد الصالحين من السيّئين من أمّته.. وحيث أنّ نبينا الأعظم صلوات الله عليه وآله هو سيّد أنبياء ربِّ العالمين؛ فقد صارت صفاته وميزاته وأعماله معيار القياس لشخصيّات سائر الأنبياء.. والإشكال الوحيد الذي يخطر في الذهن هو: هل أنّ

١- سورة المائدة / ١١٧.

٢- تفسير العياشي، ج١، ص٢٤٢

الشهادة أريد بها هذا المعنى أو لا؟ ولكن مع الالتفات إلى أنّ أعمال وسلوك وأفكار الأشخاص القدوة تشهد ـ عمليّاً على أنّ من الممكن لإنسان أن يطوي المقامات المعنويّة.. ومثل هذا المعنى ليس ببعيد...

الآية ٤٢

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)

النقاط المستفادة من الآية

١. شبيه هذه العبارة ما نقرأه في الآية الأخيرة من سورة النبأ: ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾.

٢. التعبير بكلمة ﴿ تُسَوَّى ﴾ إشارة إلى مطلب آخر، وهو أنّ الكافرين وفضلاً عن أمنيتهم بأن يكونوا تراباً في القيامة، يرغبون رغبة عارمة في أن تنطبق عليهم قبورهم وتضيع في غياهب الأرض فيضمهم إليه عالم النسيان، وذلك لأنّهم يعجزون عجزاً مطلقاً كتمان الواقعيّات والحقائق ﴿ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا ﴾ حيث لا سبيل للإنكار و هم يواجهون بكلّ أولئك الشهود..

٣. خطاب الآية: ﴿ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا ﴾ لا يتنافى والآيات الأخرى القائلة بأنّ الكافرين في يوم القيامة سيحرصون على كتمان الحقائق والكذب في ساحة الحساب، لأنّ كذبهم سيكون في مرحلة تنسيق استشهاد الشهود، فإذا أحضر الشهود وتكلّمت الأيدي والأرجل والجلود لا يبقى ثم فرصة للكذب، فيضطرّون إلى الإقرار بجميع الحقائق.. وقد صوّر أميرالمؤمنين عليه السلام ذلك المشهد بإشارته إلى أنه عزوجل سيختم على أفواه المجرمين؛ فيعجزون عن النطق.. وهنالك تتكلّم الأيدي وتشهد الأرجل وتقرّ الجلود بذنوب أصحابها، فلا

يكتم إنسان حقيقة على مالكه العظيم.[١]

٤. احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من: ﴿ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا ﴾ أنّهم يتمنّون لو أنّهم كانوا في الدنيا لم يكتموا حقيقة من الحقائق؛ ولا سيّما فيما يرتبط بالنبي الأكرم صلوات الله عليه وآله، وعليه؛ تكون الجملة المذكورة عطفاً على قوله سبحانه: ﴿ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ ﴾، ولكنّ هذا الاحتمال لا يتناسب وظاهر قوله سبحانه: ﴿ لاَ يَكْتُمُونَ ﴾ ولو كان هذا هو المراد للزم أن يقال: ولم يكتموا...

١- نفس المصدر

الآية ٤٣

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي
سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ
أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً
فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. واضح أنّ فلسفة تحريم الصلاة وبطلانها في حال السكر؛ أنّ الصلاة عبادة يتّصل فيها الإنسان بربّه ويناجيه؛ ولابد من أن يكون المصلي في أعلى درجات الانتباه والتركيز، فيما الأفراد السكارى بعيدون عن هذه الحالة..

٢. سؤال: أليس مفهوم هذه الآية أنّ حرمة تناول المسكر مقتصر على حالة أداء الصلاة، وأنّه .المفهوم. يشكّل دليلاً ضمنيّاً على جواز التناول في باقي الحالات؟!

خلاصة الإجابة على السؤال أعلاه هي:

أنّ الإسلام استعمل الطريقة المرحليّة والتدريجيّة في تكريس الكثير من أحكامه، مثل مسألة تحريم تناول الخمر؛ حيث أرجأ تكريسها وإبلاغها إلى عدّة مراحل.. إذ بدأ باعتبار

الخمر شراباً مضرّاً وفي مقابل القول: ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾[١] ثمّ منع عن الصلاة في حال السكر (الآية أعلاه) ثمّ عمد القرآن إلى المقارنة بين منافع الخمر ومضارّه وأشار إلى غلبة المضارّ[٢] وفي المرحلة الأخيرة صدر النهي التامّ والقاطع والصريح[٣] وسنعمد إلى تفصيل القول في هذه المسألة لدى تفسير الآية التسعين من سورة المائدة المباركة.

٣. لا ريب في أنّ اقتلاع مفسدة اجتماعيّة وأخلاقية متجذّرة في النفوس يجب أن يتمّ بأنجع أسلوب، وهو هنا أسلوب التدرج ثم إصدار الحكم النهائي.. وهنا ينبغي الالتفات إلى أنّ الآية أعلاه خليّة عن الدلالة على جواز شرب الخمر، وإنّما كان خطابها المنع من الاقتراب من الصلاة في حال أداء الصلاة، وقد سكتت عن غير الصلاة بانتظار صدور الحكم النهائي والقطعي.

٤. حيث أنّ أوقات الصلوات الخمس لا تبتعد عن بعضها . و في عصر نزول القرآن خصوصاً.. فإنّ أداء الصلوات بالتفات يلزم صرف النظر على تناول المسكر بين أوقاتها وضرورة إحراز الانتباه واليقظة، وعليه؛ يكون حكم الآية شبيهاً بالتحريم المتواصل..

٥.رغم أنّ روايات عديدة وردت في كتب الشيعة والمخالفين تؤكّد تفسير الآية بسكرة النوم، بما يعني عدم صحّة البدء بالصلاة دون اليقظة الكاملة من النوم لكي يعلم ما يقال ويؤدّى فيها... ولكن يبدو أنّ هذا التفسير يفهم من قوله تعالى: ﴿ حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ وإن كان لا يدخل في معنى السكر.. وبعبارة أخرى: إنّ جملة: ﴿ حَتَّىَ تَعْلَمُواْ... ﴾ أن لا يصلّي المرء وهو نائم بعد، سواء كان قد استولت عليه حالة السكر من الشراب أو لمّا يغادر النوم وعيه، مضافاً إلى إمكانيّة فهم القول بأنّ من الأفضل أن لا يصلي المرء حتّى يعود إليه وعيه التام ليتمكن من

١- سورة النحل / ٦٧.

٢- سورة البقرة / ٢١٩.

٣- سورة المائدة / ٩٠.

←

الإقبال على حقيقة الصلاة، وقد ورد عن مولانا الإمام الباقر(ع) النهي عن دخول الصلاة في حالة الكسل أو النعاس؛ لأنّ الله تعالى نهى المؤمنين عن ذلك...[١] [٢]

٦.التفسير الوارد في الروايات والأخبار لقوله تعالى: ﴿ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ... ﴾ أنّ المراد من كلمة ﴿ الصَّلاَةَ ﴾ الواردة في الآية هو موضع أداء الصلاة والمسجد..[٣] أي: لا تدخلوا المسجد في حال كنتم على جنابة.. ثم ورد استثناء من يدخل المسجد عابراً، فقالت الآية: ﴿ إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾ أي: للمجنب أن يمرّ من المسجد، رغم أنّ بطلان الصلاة قد أشير إليه بكلمة ﴿ وَلاَ جُنُبًا ﴾. وهنا ثمّ استثناء في هذا الحكم حين القول: ﴿ إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾ بمعنى: إذا كنتم مسافرين (حيث يفتقر المسافر للماء أحياناً، فيؤدّي صلاته تيمّماً، وسيأتي القول في ذلك في ذيل الآية..) وهنا ينبغي الالتفات إلى أنّ لازم التفسير أعلاه أن يكون لكلمة ﴿ الصَّلاَةَ ﴾ في الآية معنيان.. واحد بمعنى ذات الصلاة، وآخر بمعنى محلّ وموضع الصلاة، لأنّ حكمين مختلفين قد أشير إليهما في الآية محطّ التفسير.. فالامتناع عن الصلاة في حال السكر. سكر النوم أو سكر الشراب . وكذلك امتناع الجنب عن دخول المسجد (ولا ريب في صحّة استعمال اللفظ الواحد الذي يحمل المعنيين أو أكثر، كما قلنا ذلك في الأصول، ولكن فهم معنى أحد المعنيين بما يخالف الظاهر أو في حال عدم وجود القرينة الدالّه أمر غير

١- نفس المصدر

٢- و من الدواهي أنّ سيد قطب صاحب تفسير (في ظلال القرآن) وهو منظّر الإرهاب الأوّل في العصر الحاضر؛ ذهب إلى أنّ الآية ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ قد نزلت في اميرالمؤمنين و إمام المتقين عليّ عليه السلام.. وهو الرأي الذي يخالفه القرآن والسنّة والعقل، مدّعياً ـ زوراً و بهتاناً وكفراً ـ أنّ الإمام و جماعة شربوا الخمر فصلّوا فلم يعلموا شيئاً ممّا قالوا، فنزلت هذه الآية... وذلك لعظيم النصب والعداء؛ الجليّ الذي يكنّه هذا المفسّر (المزوّر) لأميرالمؤمنين عليه السلام.. والأدهى من كل هذا الكفر والتحريف أنّ جماعة ممّن يدّعون الانتماء للتشيّع يبجّلون كتاب التفسير في ظلال القرآن) و يعدّونه من أروع كتب الباب، والحال أنّه ينسب الموبقات لأهل البيت عليهم السلام و يتجاهل عامداً كلّ فضائلهم و مقاماتهم الواردة في القرآن و يكيل أنواع المديح لأعدائهم وقائليهم بكل وقاحة. (المترجم)

٣- دعائم الإسلام، ج١، ص١٤٩

←

جائز.. ولكنّ الروايات الصريحة يمكن أن تكون خير قرينة للمعنى المراد.

٧. يفهم من بعض الروايات أن جماعة من المسلمين وصحابة النبيّ(ص) قد بنوا بيوتاً حول مسجد المدينة، وكانت أبواب تلك البيوت تفتح على المسجد، وقد أجيزوا بالمرور به دون التوقف.. (ثمّ إنّ جميع الأبواب ورد الأمر بإغلاقها فيما بعد، منعاً للمرور الاختياري، وتعظيماً وتطهيراً لبيت علي وفاطمة عليهما السلام وتأكيد مقامهما وفضلهما على غيرهما من الناس أجمعين)...[1]

٨... حكم التيمّم للمعذورين وجميع المبرّرات الشرعيّة للتيمّم؛ ورد في جملة ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ... ﴾ وجمع بالصور أدناه:

الف: حيث يكون في استعمال الماء ضرر على البدن

ب: حيث لا تصل يد الإنسان للماء، وعليه أن يتيمّم: مثل الحالة التي تلي قضاء الحاجة أو بعد المعاشرة الجنسية حيث ينعدم الماء الّلازم للوضوء أو الغسل.. فيعمد إلى التيمّم بالتراب الطاهر: ﴿ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾.

٩. الأمر بالتيمّم نوع تيسير وتخفيف عليكم، لأنّ الله هو الغفور الرحيم..

وهنا يلزم الالتفات إلى بعض النقاط:

١٠. في الغالب قلَّ أن يبتلى ساكن المدينة بشحّة المياه، ولهذا شرعت جملة: ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء ﴾ بفاء التفريع وهي متعلّقة بجملة: ﴿ أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ أي: من الممكن أن لا تجدوا ماءً وأنتم في حال السفر؛ فتحتاجون إلى التيمّم.. أما الساكن في الحاضرة فقلّ أن يفقد الماء.. وعلى هذا الأساس؛ يكون من الواضح جدّاً بطلان قول بعض المفسّرين مثل صاحب (المنار) الذي

١- راجع: بحار الأنوار، ج٣٠، ص٣٦٢ و٣٦٣

ذهب فيه إلى صحّة تيمّم المسافر بدلاً عن الوضوء وإن توفّر الماء لديه،[١] لأنّ حرف فاء التفريع ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ ﴾ يبطل هذا القول، ولأنّ المفهوم هو أنّ السفر يؤثر أو يتسبب في انعدام الماء، وهنا يجب التيمّم، وليس السفر بحدّ ذاته يجيز التيمّم، والعجب أنّ المفسّر المذكور قد هاجم علماء الإسلام بهذا الصدد، والحال أنّه لا مورد ولا وجه لهجومه..

١١. كلمة ﴿ أَوْ ﴾ في جملة ﴿ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ ﴾ بمعنى (و) إذ مجرّد المرض أو السفر لا يبيحان التيمّم، بل في مثل هذه الحال إن توفّرت موجبات الوضوء أو الغسل وجب التيمّم.

١٢. رعاية الأدب في كلام القرآن وعفّته وبيانه في هذه الآية كما هي في الآيات الاخرى مشهودة.. ذلك لأنّه إذا أراد التطرّق لمسألة قضاء الحاجة؛ اختار تعبيراً يوصل المعنى مع غير صراحته وعدم مناسبته، فقال: ﴿ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ... ﴾ لأنّ كلمة الغائط ليست على ما يتبادر إلى الأذهان في الوقت الحاضر، وإنّما هو في اللغة منحدر من الأرض يتوارى الواقف فيها عن الأنظار.. وهكذا كان مسافرو البرّ يفعلون في سالف الأيّام ليتحاشوا نظرات الآخرين، وعلى هذا؛ يكون معنى العبارة: إذا جاء أحدكم من مكان منحدر.. وهو ـ على أيّ حال ـ كناية عن قضاء الحاجة.. والملفت للانتباه استعملت كلمة ﴿ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم ﴾ بدلاً عن كلمة: جئتم، لبيان العفّة في الحديث.. وكذلك حين التعبير عن المباشرة الجنسية ورد القول ﴿ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء ﴾ لإبلاغ المعنى، وكلمة (المس) كناية جميلة عن المعاشرة الجنسية...

١٣. سؤال: مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ الكثير من الأتربة ملوّثة وناقلة للجراثيم، فما هي الفائدة من التيمّم ضرباً بالأكفّ ومسحاً بالوجوه؟!

١- راجع: تفسير المنار، ج٥، ص١١٩ إلى ١٢٢

للإجابة على هذا النوع من الإشكال ينبغي الالتفات إلى أمرين:

الف: الفائدة الأخلاقيّة.. فالتيمّم أحد العبادات، وتنعكس فيه روح العبادة بمعناها الواقعي، لأنّ الإنسان يلمس التراب بكفّه ويضعها على جبهته التي هي أشرف موضع من بدنه؛ تلميحاً الى التواضع والخضوع.. بمعنى أنّه ينوي منتهى التواضع والخضوع لله العظيم بحركتي أو فعلي التيمّم.. وما ذاك إلّا مقدّمة للصلاة أو غيرها مما يستوجب التيمّم.. وهذا ما ينمّي روح التواضع والتسليم والعبوديّة والشكر الواجب للربّ العظيم على عباده..

ب: الفائدة الصحيّة: ثبت في الوقت الراهن أنّ التراب ولتضمّنه بكتيريا كثيرة قادرة على إزاحة أشكال اللوث والتعفّن الكائن في الغالب على سطح الأرض والأعماق الضئيلة..

١٤. التراب أساساً له خاصيّة التعقيم والتجفيف، ودوره في قتل الجراثيم دور كبير، ولهذا؛ فإنّ جثث الحيوانات أو بدن الإنسان إذا دفن بعد الموت، صارت إلى التحلّل والتفسّخ بسبب البكتريا.. ولولا هذه الخاصّيّة لتبدّلت الأرض إلى بؤرة للعفونة في مدّة قصيرة، وعليه؛ فإنّ التراب الطاهر لا يتلوّث فحسب، بل إنّه يصير سبباً لإزالة اللّوث، ويمكن له أن يكون بديلاً عن الماء إلى حدٍّ ما، وإنّما الماء حلال لأنّه يحل الجراثيم ويُذهب بها، ولكنّ التراب قاتل لها.. ومن الطبيعي أن يحرص على أن يكون التراب طاهراً نظيفاً وكما وصفه القرآن بالطيّب.

١٥. التعبير بالصعيد من مادّة الصعود، أي ما هو فوق سطح الأرض، وهو المعرّض لأشعة الشمس والمفعم بالهواء والبكتيريا القاضية على الجراثيم.. وهذا التراب الطيب هو الذي يجعل ويحفظ للتيمّم أثره ودوره المطلوب من دون إلحاقه ضرراً ببدن الإنسان (سنتطرّق إلى مزيد من الشرح لدى تفسير الآية (٦) من سورة المائدة المباركة.)

الآية ٤٤

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. يخاطب الله تعالى نبيّه الكريم صلوات الله عليه وآله في هذه الآية بعبارة تحكي التعجّب إزاء الجماعة التي وفّقت إلى الانتفاع من كتاب السماء، ولكنّها بدلاً عن أن تجعله سبباً لهدايتها وسعادتها، اشترت الضلالة وعزمت على إضلال المؤمنين.. ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ... ﴾

٢. من قوله تعالى: ﴿ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ... ﴾ يُفهم أن ما كان بين يدي علماء اليهود ليس جميع التوراة، وإنّما قسم منها.. وهذا ما يتناسب والحقائق التاريخيّة المسلّم بها، حيث وقع التحريف - بمرور الزمان - في التوراة الأصل، أو أنّها قد تلاشت واندثرت.

٣. الاستنتاج الخاطئ أو سوء النيّة من جهة الإنسان يجعله يرى كتاب السماء المنزل من قبل الله تعالى باعتباره سبب ضلال لمن نزل عليهم ولغيرهم بدلاً من أن يتّخذوا منه سبب هداية، كما سقط الخوارج في هذا المطلب حين تمرّدوا على أمر أمير المؤمنين (ع)..

٤. الذين لا يبطلون الحقيقة؛ وينظرون إلى جميع الأمور بعين العصبيّة والنفاق والسوداوية.. كما أنّهم لا يتخلّصون من الضلال، فهم يجرّون الآخرين إلى الضياع: رغم أنّهم يتعاملون بكتاب الله في الظاهر ويدّعون الخبرة والتجربة والعلم بالأمور الدينيّة.

الآية ٤٥

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. هذا العالم مرآة ذات وجهين، فالذين يتقمّصون رداء الصديق قد يكونون أعدى الأعداء، والله هو العالم بحقيقتهم: ﴿ وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ﴾

٢. أعدى الأعداء هم الذين ينطقون تارةً بلسان الخير، ولكنّهم يعمدون إلى لسان السوء فيستعملونه ليصدوا غيرهم عن سبيل الله والهداية والسعادة، وهم يتلوّنون في كلّ حين ليحققوا أغراضهم المقيتة.

٣. لا تخشوا ـ أيّها المؤمنون ـ عداوة أعدائكم.. فأنتم لستم بمفردكم.. ويكفيكم أنّ الله تعالى وليّكم وناصركم.. ﴿ وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا ﴾.

٤. لو أنّكم ـ أيّها المؤمنون ـ تجاهلتم أقوال ومدّعيات أعدائكم؛ لن يبقى مجال للقلق والخوف، ذلك أنّهم عاجزون عن فعل شيءٍ مهمّ.

الآية ٤٦

مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. تبعاً للآيات السابقة، تتناول هذه الآية صفات جمع من أعداء الإسلام وتشير إلى جانب من ممارساتهم.

٢. طبقاً لهذه الآية؛ فإنّ جماعة من اليهود كانوا يحرّفون الخطاب الإلهي، ومن الممكن أن يكون لهذا التحريف بعداً لفظيّاً أو معنويّاً وعمليّاً.

٣. المراد من التحريف في هذه الآية؛ التحريف اللفظي والتغيير في العبارات، وذلك لأنّها قالت تبعاً لهذه الجملة: ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ بدلاً من أن يقولوا: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أي أنّهم يقولون مستهزئين: منك الخطاب ومنّا تجاهله!!

٤. بناءً على هذه الآية؛ فإنّ جملة ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ تبيّن قضيّة أنّ اليهود في فترة ظهور الإسلام في المدينة، وفضلاً عن تحريف الحقائق وباستعمال الخطاب العدائي الممزوج بالجرأة وسوء الأدب والخيانة في إبلاغ الكتب السماويّة التي كان العمل بها منهجاً للنجاة والانتصار على الظلمة من أمثال فرعون، ولحفظ وصون المجموعة الجاهلة... راحوا يشهرون حربة الاستهزاء والأنانيّة والغرور والعناد.. وفضلاً عن كلّ ذلك؛ تراهم تارة يستعملون عبارات

كان المسلمون يخاطبون بها النبيّ الأكرم(ص) على سبيل الاستجابة والاحترام، إلّا أنّ اليهود كانوا يبطنون النوايا السّيئة من وراء استعمالها.. مواصلةً لاستهزائهم..

٥. كلمات من قبيل ﴿ رَاعِنَا ﴾ بمعنى (أمهلنا) هي من جملة العبارات التي كان المسلمون المخلصون يوجهونها للنبي الأكرم صلوات الله عليه وآله على سبيل طلب الفرصة وإتاحة المجال لمزيد من الفهم والتدبر فيما يخاطبهم به.. إلّا أنّ مجموعة اليهود كانوا يكرّرون أمثال هذه الكلمة ومرادهم المعنى العبري لها المؤدّي إلى ظنّهم بأنّ نبيّ الاسلام كان عاجزاً عن السمع والتحاور، أو بمعناها العربي الآخر الذي يعني إنّك تستحمقنا وتراوغنا وتحملنا على الغفلة. والعياذ بالله. وواضح هدفهم من كلّ ذلك، وهو محاولة طمس الحقائق النبويّة وحرفها عن محورها الأصلي ومن ثمّ الطعن في نبوّة النبي وصدق رسالته..

٦. ﴿ لَيًّا ﴾ واللّيّ على وزن حيّ، بمعنى طيّ الحبل وغيره، كما وردت بمعنى التغيير والتحريف.. ﴿ لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾.

٧. لو أنّ اليهود اختاروا المسير في طريق الحقّ؛ عوضاً عن كلّ ذلك العناد والعداوة وسوء الأدب، ولو كانوا يقولون: قد سمعنا كلام الله ودخلنا من باب طاعته فأمهلنا حتّى نستزيد فهماً للحقّ والحقائق، لانتهوا إلى النفع، ولا نطبق كلامهم على العدل والمنطق والأدب التام: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾.

٨. لو أنّ اليهود وبداعي كفرهم وتمرّدهم وطغيانهم قد ابتعدوا عن رحمة الله فماتت قلوبهم؛ فلا تحيى بالحقّ إلّا جماعة قليلة منهم كان أفرادها على استعداد لقبول الحقّ الاستماع إلى ندائه والإيمان به: ﴿ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾.

٩. فهم بعض المفسرين العبارة أعلاه بأنّها من جملة الإخبارات القرآنيّة بالغيب، فكما أخبر القرآن في هذه العبارة، فإنّ عدداً قليلاً من اليهود آمنوا بالإسلام وأبصروا نور الهدى، فيما الأغلب منهم آثروا العمى وحياكة المؤامرات وشن الحروب على الدين المحمدي..

الآية ٤٧

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. مواصلة لبحث الآيات السابقة التي تناولت أهل الكتاب، وردت الإشارة هنا إلى العلاقات المذكورة في كتبهم للنبيّ الأكرم صلوات الله عليه وآله والتي تطابقت وما تذكره آيات القرآن عنه(ص). ولا ريب في أنّ كلّ هذه العلامات في كتبهم تحمّلهم مسؤوليّة الإيمان بالقرآن والرسول، ومالم يصدّقوا بها ولم يسلّموا بها، سيكونون عرضة للعقوبة الإلهيّة الشديدة:

العقوبة الأولى: أن تطمس وجوههم تماماً وتتلاشى أعضاؤهم التي يسمعون ويدركون بها.. ومن ذلك أنّ وجوههم تجعل في خلفيّة رؤوسهم...

العقوبة الثانية: إبعادهم عن رحمة الله تعالى، كما أبعد أصحاب السبت ولعنوا ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾

٢. لعلّ المقصود بالعقوبة الأولى: تعطّل العقل وقوّة الإدراك والبصر والسمع.. فيسقطون في حضيض الحماقة والجهل المركّب.. فيخيّل لهم انحرافهم عن الحقّ هداية.. كما ورد ذلك في رواية عن مولانا الإمام الباقر(ع)..[١]

١- راجع: التبيان، ج٣، ص٢١٥

٣. حينما أصرّ أهل الكتاب، وفي مقدّمتهم اليهود، على انحرافهم ومعاصيهم وعنادهم للحقّ حتّى صار مسلكهم المشين هذا إلى طبع في نفوسهم رغم كلّ الدلائل والشواهد الجليّة على حقّانيّة الإسلام.. مسخ الله عقولهم وأعمى عيونهم وأصمّ آذانهم.. فاضطرّوا إلى التراجع بدلاً من التقدّم حتّى صاروا عناصر مخرّبة للحركة البشرية والتاريخيّة.. وهذا الواقع المرير شبيه بما تناولته الآية السادسة من سورة البقرة..

٤. المراد من الطمس والمحو والإعادة إلى الوراء المذكور في هذه الآية هو المحو الفكري والمعنوي والحمل على الحالة الرجعيّة.

٥. سؤال:

لماذا ورد هذان التهديدان بحرف ﴿ أَوْ ﴾ وعطف أحدهما على الآخر؟ ولم يعطفا بحرف الواو؟ وهل السبب في ذلك هو التفاوت في معنييهما؟

الإجابة هي أنّ رأي المفسّرين لهذه الآية على مسارين:

الف: يذهب بعض المفسّرين إلى أنّ التهديد الأوّل له بعد معنويّ، فيما التهديد الثاني له بعد ظاهري وكون المسخ والتغيير جسمانياً، ومؤيّداً بقرينة إشارة الآية وتذكيرها بما حلّ بأصحاب السبت الذين طردوا من الرحمة الإلهيّة ومسخوا قردةً.

ب: وقال آخرون أنّ هذا اللّعن والطرد من الرحمة الإلهيّة له بعد معنوي، مع التفاوت في أنّ التهديد الأوّل إشارة إلى الانحراف والضياع، فيما التهديد الثاني أريد به الدمار والهلاك (لأنّ الهلاك أحد معاني ونتائج اللّعن) وهكذا يكون أهل الكتاب. بعنادهم ومخالفتهم للحق. قد سقطوا في غياهب الضياع والدمار.

٦. سؤال: ترى هل تحقّق هذا التهديد أساساً؟!

لا شكّ في أنّ التهديد الأوّل قد تحقّق في كثير منهم، بينما التهديد الثاني قد طال بعضهم.. وقد هلك الكثير منهم في الحروب الإسلاميّة حتّى تلاشت جموعهم وقواهم.. وطبقاً

لشهادة التاريخ؛ فإنّهم بعد ذلك قد مزّقوا كلّ ممزّق وتناثروا في بلدان شتّى طيلة قرون من الزمن وفقدوا الكثير من أعدائهم، ولا زالت مجاميعهم تعيش على حافات الخطر.

٧. قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾ في خاتمة الآية ثَمّ دليل على تأكيد تحقّق التهديدات، إذ لا مانع ولا قوّة تمنع تفعيل الأمر الإلهيّ.. بل إنّ إرادته سبحانه عبارة عن فعلٍ مباشر..[1]

١- وقد أشارت الروايات المعصوميّة إلى أنّ تأويل هذه الآية يعود إلى جيش السفياني ـــ المعاهد للغرب واليهود ـــ حيث سيباد قرب المدينة عند ظهور الإمام الحجّة سلام الله عليه.. إذ من أفراد هذا الجيش سيحمل خبر الخسف والإبادة إلى مقرّ قيادته وقد طمست وجوههم وردّت على أدبارهم ـ تأكيداً لصدق تلك الواقعة الرهيبة ـ (راجع: تفسير العياشي، ج١، ص٢٤٤) فلعلّ المراد بذلك تهديد اليهود وغيرهم بلزوم الإيمان بالإمام الحجّة سلام الله عليه الذي هو الخليفة الحقّ لنبي الإسلامﷺ قبل تجلّي علامات الظهور، ومنها الخسف بأعداء الإمام.. لأنّ الإيمان بعد الظهور لن ينفع صاحبها الذي لم يكن قد آمن من قبل.. [المترجم].

الآية ٤٨ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾

النقاط المستفادة من الآية

مقدّمة: بناءً على المنقول من بعض المفسّرين وبعض الروايات الواردة في ذيل هذه الآية، هناك من الجناة؛ مثل وحشي قاتل الحمزة بن عبدالمطلب(ع)، قد أسلموا بعد نزول هذه الآية..[1]

١. ليس من ذنب يقوى ـ بمفرده ـ على إزالة الإيمان، كما أنّ ما من عمل صالح يمكنه النجاة بالإنسان المشرك: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾.

٢. لأنّ اليهود والنصارى كانوا مشركين نوعاً ما، فقد حذّرتهم هذه الآية من البقاء على عقائدهم الشركيّة؛ باعتبار الشرك ذنباً لا يغتفر، وأنّ من يتّخذ مع الله شريكاً قد ارتكب الخطيئة الكبرى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾.

٣. طبقاً للرواية التي نقلها الشيخ الصدوق في (التوحيد) عن مولانا أميرالمؤمنين(ع) حيث قال فيها: «ما في القرآن آية أحبّ إلي من هذه الآية»[2] نظراً لأنّه سبحانه وتعالى يتلطّف ويترحّم بالموحّدين ويغفر لهم ذنوبهم دون المشركين الذين لا تعرف المغفرة طريقاً إلى ذنوبهم وخطاياهم.

٤. هذه الآية تبيّن قاعدة تربويّة لجميع المذنبين وضرورة عدم اليأس من رحمة الله، نظراً لأنّ اليأس من الرحمة الإلهيّة نوع كفر بالله تعالى، كما تأمرهم بالتوقّف عند النقطة التي وصلوا إليها في حياتهم، وأن لا يوغلوا في مزيد من الذنوب ليتسنّى لهم العودة عن طريق الغيّ.. ولكنّ

١- سعد السعود، ص٢١١

٢- التوحيد، الشيخ الصدوق، ص٤٠٩

اليائسين من الرحمة يدفعهم بأسهم إلى ارتكاب ذنوب فوق ذنوبهم، إلّا أنّ الأمل بالمغفرة يعدّ وسيلة مؤثّرة ورادعاً عن ارتكاب الذنب..

٥. من الممكن أن تخطر في أذهاننا فكرة بليدة مفادها أنّ هذه الآية تحرّض على ارتكاب الذنوب. لأنها تعد بالرحمة والعفو عن كلّ الذنوب إلّا الشرك.. ولكن لا شكّ في أنّ المراد بالوعد بالمغفرة، ليس ذلك الوعد المجرّد عن القيود والشروط، وإنّما هو يشمل أفراداً يثبتون جدارتهم بنحو من الأنحاء، وكما أشرنا آنفاً، فإنّ مشيئة الله وإرادته التي ذكرت في هذه الآية وأمثالها من الآيات؛ وردت وهي تعني الحكمة الإلهيّة، لأن إرادته لا تنفكّ أبداً عن حكمته سبحانه، والمسلّم به هو أنّ حكمته لا تقتضي العفو عن غير الجديرين بالعفو، وعليه؛ فإنّ حيثيّة تربويّة هذه الآية أسمى بما لا يُتصوّر من الأفكار البليدة وسوء الفهم المتقدّم..

٦. هذه الآية تبيّن واقع المشمولين بالعفو الإلهي، أو مَن يمكن أن يشملوا به قياساً بغير الموفّقين والمرشّحين لنيل المغفرة والعفو، أي قبل أن يندموا على سوء ما فعلوا، أو بعد ندمهم وقبل جبرانهم أعمالهم السيّئة قد فارقوا الحياة الدنيا، ولم يتعلّقوا بمسألة التوبة، لأنّ التوبة والعود عن الخطيئة يطهّر من جميع الذنوب بما فيها الشرك..

٧. يفهم من آيات قرآنيّة كثيرة أنّ وسائل المغفرة وعفو الذنب كثيرة متعدّدة، ولعلها تختصر في أربعة مواضيع:

الأوّل: التوبة والعودة إلى الله تعالى.

الثاني: أن تقرن التوبة بالندم على الذنوب.

الثالث: العزم على اجتناب الذنب في المستقبل.

الرابع: جبر ما فات من سيّئات بأعمال صالحات ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾.[1]

١- سورة هود / ١١٤.

الآية ٤٩

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. يثني الإنسان على نفسه ويمدحها بصورتين:

ألف: إمّا المدح والثناء بواسطة عمل الفرد، وهو أمر ممدوح ومحطّ تأكيد، كما ورد في الآية الشريفة: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾

ب: وإمّا بلسانه يمدح نفسه، وهذا المنحى مذموم عقلاً وممنوع وقبيح شرعاً ﴿ لَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾.

٢. رغم وقوع هذه الآية بين الآيات المتعلّقة بالكفّار، وتمسّ أهل الكتاب، وهي ظاهرة في أنّ هؤلاء كما هم أهل الكتاب أو بعضهم، وحيث أنّهم لم يوصفوا أو لم يدرجوا تحت مسمّى أهل الكتاب، ولم يقل القرآن بأنّ أهل الكتاب يزكّون أنفسهم، فلأنّ مصطلح (أهل الكتاب) بمعنى العارفين بالله وآياته.. وواضح أن من يبلغ هذا المقام بعيد عن أمثال هذه الرذيلة.. وإذا رأينا علماء اليهود والنصارى قد تعرّضوا للعاقبة السوء، فذلك لأنّهم أداروا ظهورهم ـ في الحقيقة ـ لربّهم وكتاب ربّهم وعلم ربّهم.

٣. ينبغي القول بأنّ هذا الآية تذمّ اليهود كنايةً وتلميحاً، وهي ـ في الحقيقة ـ شاهد ودليل على المطالب التي بيّنتها الآيات السابقة.. وهي التي تحدّثت عن استكبار اليهود ورفضهم الخضوع والتسليم للحقّ وعدم إيمانهم بالآيات والدلائل والبراهين الإلهيّة، ومن ثمّ استحقاقهم للّعنة الإلهيّة.. وفي القرآن المجيد ما يؤيّد ثناء اليهود على أنفسهم حيث قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاء

اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ أو قولهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً ﴾ أو ادّعاؤهم الولاية لأنفسهم، وقول القرآن فيهم بهذا الصدد: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ ﴾ وهذا كلّه بمثابة الكناية عن ذمّهم وسخط الله تعالى عليهم، وكأن القرآن يريد إحصاء مساوئهم الناتجة عن ثنائهم ورضاهم عن أنفسهم..

٤. حرف ﴿ بَلِ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء ﴾ يبيّن الردّ والإعراض عن المطلب السالف، وهذه العبارة توصل المعنى المؤدّي إلى لزوم الإعراض عن تزكية اليهود أنفسهم.. فهو يهدف إلى ردّ هذه التزكية اليهودية، مؤكّداً أن الثناء والحمد يجب أن يكون لله تعالى وحده . على سبيل الاستقلال . وأنّ الإنسان مهما تعاظم ونال درجات الفضل والكمال واكتسب أشكال الشرف والتسامي الروحي.. فإنّه لدى اتّكاله على تلكم الفضائل والشرف، فإنّه يبتلى بالشعور بالاستقلال والاستغناء عن الله عزّوجلّ.. وهذا الشعور موازٍ لادّعاء الألوهيّة وشراكة ربّ العالمين! فيما الإنسان المحتاج أبداً أين منه والاستقلال عن الحاجة المطلقة لله تعالى؟.. مع أنّ الإنسان وما يتعلّق به وبروحه، وما يناله من خارج دائرته ويظن أنّه مالك لها ومالك مايصله من خير.. إلّا أنّ حقيقتها تصدر عن الله المالك لها أصلاً، وما هي إلّا أمانة وهدية من الربّ إلى المربوب.. ولهذا تنفي أنواع إدعاءات الشراكة مع الله المالك الأصل، وعليه؛ ماذا يبقى للإنسان؟!

٥. تزكية الإنسان لنفسه ناشئة من عُجبه وغروره؛ وهذا من أصول الرذائل.. إذ الحمد والثناء خاصٌّ بالله سبحانه. والغرور والرضا عن الذات هو الذي يدفع ابن آدم إلى مدح نفسه..

٦. الغرور والعجب من أُصول وجذور الرذائل والمفاسد الأخلاقيّة، ولما كان الإنسان غير منقطع عن الآخرين، فإنّ هذه الرذيلة الفاسدة تدفعه بالتدريج إلى الإصابة بمشكلة ورذيلة أخرى؛ تدعى التكبّر، وهو بحكم الرضا عن النفس يريد بهذا أن يتمظهر بمظهر الفوقيّة على غيره، ويذهب إلى أنّ عباد الله مجرّد عبيد له.. وهنا يتجرّأ ويقدم على كلّ ظلم وجور وهتك

كلّ حرمة من المحارم الإلهيّة ويجيز لنفسه انتهاك الأعراض والاستيلاء على أموال وحقوق الآخرين..

٧. أزمة الغرور والعجب إمّا هي فرديّة، وذلك حيث يبتلى الفرد بهذا الداء النفسي، وهو العجب والتكبّر.. ولكنّ الأزمة الكبرى أن يكون الغرور والتكبّر داءً اجتماعيّاً ويتحوّل إلى سلوك اجتماعيّ عام.. فإذا تجاوز هذا الداء حدَّ الفرد؛ فإنّ المجتمع سيتعرّض للهلاك وفساد الأرض الحتميّ.. وهذا ما حكاه الله تعالى عن اليهود الذين قالوا بغرورهم وتكبّرهم: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾.

٨. ليس لإنسان ـ مهما كان ـ وبهدف مدح نفسه أن يذكر لنفسه فضيلة، سواء كان لدى ذلك صادقاً أو كاذباً، وذلك لأنّه غير مالكٍ لتلك الفضيلة.. بل الله تبارك وتعالى هو الذي وهبه الفضيلة، وهو الذي يُنعم على من يشاء، وهو الذي بعطائه الفضل وبإفاضته بنعمه على من يريد يزكّيه عملياً أو أن يذكره بذلك لفظيّاً ويشرّفه بصفات الكمال.. كما في قوله عن آدم ونوح(ع): ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا[1] ﴾ وعن إخلاص ونبوة إبراهيم وإدريس(ع): ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا[2] ﴾ وعن علم يعقوب(ع): ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ[3] ﴾ وعن عبوديّة وإخلاص يوسف(ع): ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ[4] ﴾ وقال سبحانه في موسى(ع) وكونه مخلصاً نبيّاً: ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا[5] ﴾ وفي عيسى(ع) وكرامته في الدنيا والآخرة وكونه من المقرّبين قال عزّ من قائل: ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ[6] ﴾ وفي مدح سليمان

١- سورة آل عمران / ٣٣.
٢- سورة مريم / ٤١ و٥٦.
٣- سورة يوسف / ١٨.
٤- سورة يوسف / ٢٤.
٥- سورة مريم / ٥١.
٦- سورة آل عمران / ٤٥.

←

وأيوب(ع): ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ[١] ﴾ وعن مولانا خاتم النّبيّين صلوات الله عليه وآله وحبّه ومحبوبيّته:

﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ[٢] ﴾ وكذلك قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ[٣] ﴾ وكذلك قال عن عدّة من الأنبياء وذكرهم في سورة (الأنبياء) و (الأنعام) و(الصافّات)..

٩. التزكية والثناء شأن وحقّ خاصٌّ بالله تعالى ولا شريك له في ذلك، لأنّ التزكية الصادرة عن غيره بمثابة الظلم (لأنّ توجيه الثناء لشيء لم يثنِ عليه الله، استقلال عن الله.. كما أنّ المبالغة في الثناء أو التقصير والقصور في هذا الثناء - تبعاً لعدم الوقوف على مقدار الاستحقاق للثناء) يعد مخالفة لله الذي إذا أثنى على شيءٍ؛ كان هو الحقّ والعدل دون إفراط أو تفريط.. لذلك ورد في آخر الآية: ﴿ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء ﴾ بالاقتران إلى القول الشريف: ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ تعليل وكامل..

١٠. واضح أنّ تزكية الله تعالى وردت في هذه الآية مطلقة وكلّيّة؛ تشمل التزكية العمليّة والتزكية القوليّة والكلاميّة. ولكنّها بحسب موردها منطبقة على التزكية القوليّة والكلاميّة.

١١. كلمة ﴿ فَتِيلاً ﴾ صفة مشبّهة من مادة (فتل) والصفة المشبّهة ترد بمعنى اسم الفعل تارة، وأخرى ترد بمعنى اسم المفعول، وهنا وردت باسم المفعول، ومعنى (ف - ت - ل) لفّ، فالفتيل هو الملفوف. إلّا أنّ البعض قال: فتيل بمعنى الخيط الدقيق الموجود في شقّ نواة التمر. وقال آخرون: هو الخيط الرفيع الكائن في داخل نواة التمر.. وورد في بعض الروايات عليهم السلام أنّ الفتيل بمعنى ما في بطن النواة. وكلمة (نقير) بمعنى ما على ظهر النواة، وكلمة (قطمير)

١- سورة ص / ٣٠ و٤٤.
٢- سورة الأعراف / ١٩٦.
٣- سورة القلم / ٤.

←

بمعنى قشر النواة.[١]

وقال آخرون: إنّ كلمة (فتيل) بمعنى الفتيلة التي تتكون من فرك أصبعين أو فرك البدن..

١٢. قوله سبحانه: ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ يبين أنّه تعالى لا يظلم مخلوقه ولو بمقدار الشقّ الجزئي الكائن في نواة التمر.. وعلى أيّ حال؛ فإنّ التعبير كناية عن الصغر المتناهي بحيث لا يحسب له حساب، ولكنّ الله يحسب لكل شيء حسابه ولو بهذا المقدار الضئيل..

١٣. من ظاهر عبارة ﴿ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي... ﴾ يفهم أنّ الله تعالى هو الوحيد الذي يزكي من يشاء.. فيما الآخرون ليس لهم أن يزكّوا بداعي هذه الفضيلة، إلّا أن تكون الفضيلة مستندة إلى إرادته سبحانه، وأن يزكوا بنفس المقدار، لا أكثر ولا أقلّ..

١٤. ليس لأيّ فرد صاحب فضيلة الحقّ في الغرور والعجب لتمتّعه بتلك الفضيلة فيفرح بها و يزكّي نفسه لأجلها، إلّا أن تكون تزكيته تستلزم تزكية الله، لأنّ التزكية مخصوصة به سبحانه..

١٥. الفضائل من جهة الله تعالى هي ـ أوّلاً ـ تلك الكمالات التي يرضاها الله ويثني عليها، أمّا الأمور التي لا يقرّها دين الله ولا يعدّها فضيلة فهي ليست فضيلة.. وثانياً: لازم هذا القول ليس أنّ الناس يساوون بين العلم والجهل وبين الفضيلة والرذيلة بين والصالح والطالح، وبين الحقّ والباطل، أو أن لا يقرّوا الصاحب الفضيلة بفضله أو لا يجلّون قدره ومنزلته.. ذلك لانّ تبجيل الفضيلة والرغبة فيها إحدى شعائر الله تعالى وهو القائل: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ وعلى هذا؛ فإنّ الفرد الجاهل مكلّف بتكليف الشرع بالخضوع للعالم والإقرار بمكانته.. وهذا من اتّباع الحقّ، مضافاً إلى أنّ القرآن المجيد قد أقرّ بالتفاوت بين العالم والجاهل وقال: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾؟

١- مجمع البيان، ج٣، ص٩١

١٦. من المعلوم أن لزوم احترام الناس للعالم لا يعني أن يتكبّر هذا العالم على من يحترمه ويجلّه، فيفخر على من لا يعرف، أو على من يفوقهم ببضع كلمات، ثمّ يتوقّع احترام الناس وقيامهم له.. وهذا التفاوت غير منحصر بمسألة العلم، وإنّما يشمل جميع الفضائل الحقيقيّة والإنسانيّة ليكون صاحب الفضيلة مكلّفاً كما هم الناس مكلّفين باحراز هذا التفاوت.

١٧. لما كانت الفضيلة ـ من وجهة النظر الإسلاميّة ـ ما يعدّه الله تعالى فضيلة، كان الاعتماد على الذات في مقابل الاعتماد على الله والتشرّف بعبوديّته أمراً مردوداً مرفوضاً، ولهذا؛ فإنّ كلّ ما عدّه الله في قرآنه الكريم فضيلة هو الاعتماد عليه والتشرف والافتخار بعبادته... ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ[١] ﴾ وكذلك قال: ﴿ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً[٢] ﴾ وكذلك قال: ﴿ أَنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً[٣] ﴾

أمّا أن اعتمد على نفسي في تحديد مصيري ويكون كلّ اعتمادي على نفسي، فهذا نوع شركٍ بالله، ولم يعدّ الإسلام هذا المنحى فضيلة، بل عدّ الفضل والفضيلة أن يكون إيماني بالله المتعال من العمق بحيث لا يبقى في قلبي مقدار ذرّة من القلق على مصيري.. هذا هو التوكّل على الله.. كما أنّ غنى الطبع في الإسلام فضيلة.. وإذا كان المقصود من تعريفنا للاعتماد على النفس هو أنّ الإنسان في مقام العبوديّة لله تعالى يجب أن يكرّس غنى النفس والاستغناء عن الناس في عمق أعماقه، وأن يتمتّع باستغناء النفس عن الآخرين بحيث لا يشعر إلّا بحاجته إلى الله وافتقاره إلى نعمه، وأن لا يتصاغر في مقابل الخلق، وأن يتحمّل عواقب استغنائه عن الناس.. إنّ هذا التعريف للاعتماد على النفس هو المراد باستغناء الطبع الذي أوصى به الإسلام وعدّه دين الله تعالى فضيلة...

١- سورة آل عمران / ١٧٣.

٢- سورة البقرة / ١٦٥.

٣- سورة النساء / ١٣٩.

الآية ٥٠

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٠﴾

شأن نزول الآية

نقلت العديد من التفاسير في ذيل هذه الآية أنّ اليهود والنصارى ادّعوا لأنفسهم ميزات وخصائص: كما ذكرت الآيات القرآنيّة ادّعاءاتهم بكونهم أبناء الله وأنّ الجنّة خاصّة بهم وأنّ غيرهم لا نصيب لهم فيها (الآية ١٨ من سورة المائدة والآية ١١١ من سورة البقرة) فنزلت هذه الآية وأبطلت أكاذيبهم.[١]

النقاط المستفادة من الآية

١. عدّ القرآن الأوهام العنصريّة افتراءً وكذباً على الله تعالى وعرّفه على أنّه ذنب عظيم، فقال مندّداً أشدّ التنديد بذلك: ﴿ انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

٢. قد تورّط اليهود والنصارى بهكذا أوهام ممّا جعل تسليمهم بالحقائق أمراً بالغ الصعوبة والتعقيد.

٣. في العصر الراهن: كانت العنصريّة النازيّة والصهيونيّة سبباً لاندلاع الحروب العالمية والإقليميّة.

٤. من المؤسف أن أسلوب التفكير العنصري قد تكرّس في كثير من الأقوام والأمم والأفراد، ممّا يعدّ سبباً مباشراً للاضطرابات الاجتماعية والحروب الاستعماريّة.. والتاريخ يشير إلى أنّ بعض الأمم ونتيجة للإحساس والتفكير الباطل راحت تتصرّف بفوقيّة على الأمم الأخرى، حتّى أنّها صارت تعطي لنفسها الحقّ باستعباد غيرها.

١- مجمع البيان، ج٣، ص٩١

٥. ينبغي للإنسان المتّقي أن يرى ـ على الدوام ـ نفسه أقلّ من غيره، كما وصف مولانا أميرالمؤمنين(ع) المتّقين في خطبته الشهيرة حيث قال:

«لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متّهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا زُكّي أحد منهم خاف ممّا يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري وربّي أعلم بي من نفسي.. اللّهمّ لا تؤاخذني بما يقولون واجعلني أفضل ممّا يظنّون واغفر لي ما لا يعلمون...».[1]

١- نهج البلاغة، ص٣٠٤ و٣٠٥

الآية ٥١

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾

شأن نزول الآية

وردت في سبب نزول هذه الآية روايات عديدة ووجوه مختلفة، ولكنّها تبقى مشتركة في جهة واحدة.. فأصل القصّة هو أنّ بعض اليهود انتهوا في حكمهم على ما إذا كان شرك قريش أفضل أم دين رسول الله(ص) .. فانتهوا إلى أن شرك المشركين هو الأفضل... وجاء في (الدرّ المنثور) في ذيل هذه الآية أنّ البيهقي في (الدلائل) وابن عساكر في (تاريخه) رويا عن جابر الأنصاري أنّه قال: حين بلغ شأن رسول الله(ص) ما بلغ خرج كعب بن أشرف من المدينة واتخذ في مكّة منزلاً وراح يقول للناس: لست على استعداد لمساعدة أحمد ضدّ محمد(ص)، ولا أخوض معه حرباً.. فسئل عن أيّ دين أفضل: دين مكّة أم دين محمد وأصحابه؟ فأجاب قائلاً: دينكم أفضل وأقدم، ولكنّ دين محمد حديث الظهور.. وهنا نزلت الآية أعلاه...[١]

النقاط المستفادة من الآية

١.مفردة ﴿ الْجِبْتِ ﴾ استخدمت في هذه الآية القرآنيّة فقط، وهي مفردة جامدة لا مشتقّات لها، وقيل إنّها من لغة الأحباش بمعنى السحر أو الساحر أو الشيطان، ثمّ إنّها دخلت في لغة

١- الدر المنثور، ج٢، ص١٧٢

العرب، ولذلك تستعمل بهذه المعاني أو بمعنى الصنم وكلّ معبود غير الله تعالى.. وقيل إنّها في الأصل (جبس) ثمّ بدّل سينها تاءً فصارت جبتاً..

٢. مفردة (الطاغوت) استعملت في القرآن ثمان مرّات وكما ورد في تفسيرنا (ج١ ذيل الآية ٢٥٦ من سورة البقرة) فهي صيغة مبالغة من مادّة الطغيان بمعنى التعدّي والتجاوز عن الحدّ، وتقال لكل ما يوجب تجاوز الحدّ، وهو من جملة أشكال الجبت، ولهذا سمّي الشيطان والصنم والحاكم الجبّار والمتكبر وكلّ ما يعبد من دون الله سبحانه وكلّ طريق ينتهي لغير الحقّ طاغوتاً..

٣. بخصوص المراد من هاتين الكلمتين الواردتين في الآية: اختلف المفسّرون.. فقال بعضهم: هما اسمان لصنمين كان اليهود قد سجدوا لهما ـ في تفاصيل القصة أعلاه ـ وقال مفسّرون آخرون: الجبت هنا بمعنى الصنم والطاغوت بمعنى عبّاد الأصنام أو حماة الصنم باعتبارهم ناطقين عن الأصنام حيث ينقلون للناس مقولات ـ زوراً وكذباً وشعوذة ـ عن الأصنام وينسبونها إليها ليخدعوا الناس.. وهذا المعنى يناسب ما ورد في شأن وتفسير الآية، لأنّ اليهود سجدوا للأصنام، وسلّموا للوثنيين...

٤. كلمة (الجبت) وكذلك كلمة (جبس) يعنيان كلّ شيء لا يتضمّن خيراً، إلّا أنّ البعض قالوا: إنّهما بمعنى كلّ شيء يعبد من دون الله سبحانه وتعالى.

٥. كلمة (الطاغوت) مصدر مثل كلمة (الطغيان) ولكنّها كثيراً ما ترد بمعنى الفاعل.. إلّا أنّ هناك من قال: الطاغوت بمعنى كلّ معبود غير الله جلّ جلاله. وهذا ما يؤيّد الروايات الواردة في شأن نزول الآية، حيث طلب ـ كما قيل ـ مشركو مكّة من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) أن يحكموا بينهم وبين المؤمنين ليصرّحوا بأفضليّة أحدهما.. فحكموا بأنّ دين المشركين خير

من دين المؤمنين!!![1]

وهذه الآية تنبئ بوقوع حادثة، وفيها أنّ بعضاً من أهل الكتاب حكموا لصالح المشركين وقالوا: المشركون أهدى سبيلاً ومسلكاً من المؤمنين، مع أنّ دين المؤمنين لم ينزل بغير التوحيد، ورغم أنّ القرآن قد صدّق كتب السماء السابقة، فيما المشركون ليس لهم غير الايمان بالجبت والطاغوت.. وهما اللّذان نسبهما الله تعالى إليهم، ثمّ لعنهم بهذه الخطيئة العظمى وقال: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ... ﴾

٦. عبّرت الآية عن اليهود والنصارى بأهل الكتاب أنهم قد نالوا حظّاً ونصيباً من الكتاب لتكون مذمّتهم وتقريبهم أنسب، لأنّ إيمان علماء أهل الكتاب بالجبت والطاغوت يحمل فضيحة كبرى مع علمهم بكتاب الله عزّوجلّ وهي أعظم وأدهى من عبادة الطاغوت من قبل جاهل من جهال اليهود والنصارى بكتاب الله تعالى..

١- مجمع البيان، ج٣، ص٩٢

الآية ٥٢

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. القضاء بخلاف الحقّ يوجب الابتعاد عن الرحمة بعد التعرّض للّعن..

٢. من يتعرّض للطرد واللّعن الإلهي يحرم من العون واللّطف الإلهي.

٣. لأنّ كلمة ﴿ لَن ﴾ في قوله تعالى: ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ تدلّ على النفي المؤبّد، فهي تؤدّي إلى المعنى القائل بأنّ لا يتوقّع هذا الفرد وأقرانه رحمةً ودعماً إلهيّاً في الدنيا وفي الآخرة...

الآية ٥٣

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. بخصوص معنى حرف ﴿ أَمْ ﴾ وضع المفسّرون احتمالين:

الأوّل: أنّه حرف منقطع عن البحث والجملة السابقين، وهو بمعنى (بل) وفي هذه الصورة يجب تفسير العبارة بهيئة سؤال واستفهام استنكاري: بل لهم نصيب من الملك...

الثاني: أنّه حرف متّصل وعائد إلى العبارة السابقة. وهو في هذه الآية بمعنى (لو) وقال هؤلاء المحتملون: تقدير الآية هو: أهم أولى بالنبوّة أم لهم نصيب من الملك.. يعني: هل هؤلاء أحقّ بالنبوّة أو لهم نصيب وحظّ من الملك؟ ولكنّ هذا الاحتمال خاطئ حسب بعض المفسّرين، لأنّ حذف همزة الاستفهام إنّما يكون في حال الضرورة الشعريّة، والشاعر يحذفها إذا أراد لوزن شعره أن يستقيم.. وليس في القرآن مثل هذه الضرورة، مع أنّ رأي العلّامة الطباطبائي في (الميزان) مخالف لهم إذ قال إنّ ظاهر الآية اتّصال حرف ﴿ أَمْ ﴾ وقد حذف متعلّقه، لأنّ الآية السابقة تنبئ وتفهم ما هو ذلك المتعلّق، وأن تقدير الكلام يكون بالشكل التالي: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب... لهم كلّ ما حكموا به من حكم، أم لهم نصيب من الملك. أم يحسدون الناس؟) بمعنى: ألا ترى هؤلاء أهل الكتاب الذين لهم حظٌّ من الكتاب ويتصرّفون بما يحلو لهم ويحكمون.. هل لهم الحقّ في أن يقضوا بكل رأي ارتأوه.. أم أنّ لهم منفعة من الملك الذي عندهم.. أم أنّ حسدهم لا يسمح لهم أن يروا الله يؤتي الناس من فضله؟ وعلى هذا؛ فإنّ متعلّقي الاستفهام وما بعدهما منظّمان مرتّبان وسياقهما محفوظ..[1]

١- الميزان، ج٤، ص٣٧٥

٢. اليهود من حيث المكانة الاجتماعيّة ليس لهم تلك القيمة التي تؤهلهم للحكم والقضاء بين الأفراد أو أن يحكموا، كما أنّ الناس لم يحكّموهم أبداً فيما بينهم ليتمكّنوا من ممارسة ذلك: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ ﴾.

٣. كلمة ﴿ نَقِيرًا ﴾ صفة مشبّهة.. وهنا وردت بمعنى اسم مفعول؛ أي: منقور ومنقار، والعبارة تحكي عمّا هو حقير وصغير، مثل الذي يأخذه الطير بمنقاره من الأرض..

٤. لم يكن لليهود في وقت من الأوقات صلاحية الحكومة على الناس، سواء في بُعدها المادي أو المعنوي لاستيلاء روح العنصريّة على ثقافتهم وسلوكهم، ولو أنّهم ظفروا بفرصة الحكم على الغير، فإنّهم سيحجمون عن إعطاء أحدٍ حقّه أبداً، بل وسيحرصون على احتكار كلّ الفرص والميزات والإمكانات لأنفسهم فحسب: ﴿ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا. ﴾

٥. لا يلزم المسلمين أن يقلقوا أو ينزعجوا لحكم اليهود وقضائهم على أنفسهم، لأنّ القضاء المحترم هو القضاء المحايد.. والواضح للجميع أن عقد اليهود وعنصريتهم المقيتة توجب عليهم أن يروا الحقّ إلى جانبهم دوماً أو أنّهم يعطونه لمن يضمن لهم مصلحتهم ومنفعتهم.

٦. كلمة ﴿ الْمُلْكِ ﴾ في هذه الآية الشريفة تشمل السلطة على الأمور المادّيّة والمعنويّة، وبالنتيجة يكون معناها: الملك والسلطة وقدرة التصرّف في النبوّة والولاية والهداية، وكذلك تشمل المالكيّة على الناس والثروة، لأنّ ظاهر الآية (٥١) إشارة إلى ادّعاء أهل الكتاب بأنّهم يملكون صلاحية القضاء وسوق الحكم على المؤمنين، وأنّهم لهم هذا الحقّ.. ومعلوم أن القاضي يجب أن يتّصف بالفضائل المعنويّة. لأنّ عمليّة القضاء متجانسة مع الفضائل المعنويّة.. هذا في حين أنّ الآية تقول: ﴿ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ وهذا ما يدلّ على المالكيّة على الشؤون المادّيّة أو كون هذه الأخيرة مشمولة بها، وعليه؛ يكون المراد من قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ ﴾ أعمّ من ملك المادّيّات والمعنويّات.. وبالنتيجة يكون معنى الآية نظير قولنا: هل لأهل الكتاب نصيب من الملك؟ هذا الملك الذي آتاه الله تعالى لنبيّه بصورة

نبوّة وولاية وهداية وأمثال ذلك؟ ولو أنّهم كان لهم مثل هذا الملك؛ فإنّهم لا يعطون الناس ولو جزءاً صغيراً منه لبخلهم وسوء طينتهم وباطنهم... وهكذا يكون مضمون الآية قريباً من مضمون قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ ﴾!!

الآية ٥٤

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. الحسد هو تمنّي زوال النعمة عن الآخرين، سواء صارت النعمة إلى الحاسد أو لم تصر، وعليه؛ فإنّ فعل الحسود يتمحور حول دمار وتمني دمار الآخرين، وليس في أن تنتقل إلى الحاسد حتماً...

٢. وجهة خطاب الآية كما الآيات السابقة نحو اليهود وردّ حكمهم الباطل ضدّ المؤمنين ودينهم حيث قالوا إنّ دين المشركين أفضل من الدين المحمديّ ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ﴾.

٣. إذا كنّا وظاهر مطلع الآية، فينبغي لنا أن نقول بأنّ المراد من كلمة ﴿ النَّاسَ ﴾ هم المؤمنون، وأنّ المقصود بقوله سبحانه: ﴿ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ هو النبوّة والكتاب والمعارف الدينيّة التي أعطاها الله تعالى بفضله وكرمه.. ولكن بالالتفات والدقّة في آخر الآية حيث قال: ﴿ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ يفهم منه أنّ ﴿ النَّاسَ ﴾ ليسوا عموم المؤمنين، وإنّما المراد هو شخص رسول الله (ص) الذي هو من آل إبراهيم (ع)، لأنّ الآخرين إذا انتفعوا من هذا الفضل الإلهي؛ فمن طريق شخص النبيّ وبركاته السامية.. وكما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ... ﴾ حيث علم أن مقصود القرآن من آل إبراهيم هو رسول الله وأهل بيته المعصومين صلوات الله عليه وآله أجمعين.. هذا بالإضافة إلى أن جميع المسلمين الذين آمنوا ليسوا من آل إبراهيم وذريّته الطاهرة.. ثمّ إنّ أهل الرسول لم يكونوا أولئك الأفراد العاديّين المميّزين بفضيلة على الآخرين حتّى تشملهم الآية، أو تكون

ضرورة ليثنى عليهم باعتبارهم من أولاد إبراهيم.. وإن ذهب البعض إلى جرّ الآية القائلة ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ ﴾[1] لتكون قرينة في أنّ المؤمنين عموماً هم من آل إبراهيم.. ولكنّ هذه التسمية غير ممكنة لأنّ صرف الأولويّة والاقتراب من آل ابراهيم لا يجعل أحداً من آل إبراهيم.. وشهادة الآيات والروايات وتاريخ المسلمين تذهب إلى أنّ المؤمنين برسول الله لم يكونوا من آل إبراهيم عليه السلام.. فالمراد إذن؛ من آل إبراهيم هم رسول الله صلوات الله عليه وآله والمعصومين من أهل بيته المنتمين إلى جدّهم اسماعيل(ع)..

٤. يمكن أن يطرح سؤال في المقام يقول: كيف يمكن للقرآن أن يطلق كلمة ﴿ النَّاسِ ﴾ على شخص واحد؟

نقول لدى الإجابة: رغم أنّ كلمة الناس تعني جموع الأفراد، وأنّه من غير الصحيح إطلاقها على شخص واحد (باستثناء شخص النبيّ) مادام عديم القرينة هو المشهود.. أمّا ورود كلمة آل ابراهيم في آخر الآية قرينة تشير إلى أنّ المراد بالناس هو رسول الله وآله عليهم الصلاة والسلام، لأنّ قرينة المقابلة توحي بأنّنا إذا جعلنا لبني هاشم هذه المنزلة، فليس ذلك من العجب، إذ أنّ آل إبراهيم وبداعي جدارتهم لهم تلك المنزلة والمقام.. وثانياً: أنّ كلمة (الناس) في الحوار البسيط يمكن أن تطلق على شخص واحد على سبيل الكناية، وأنّه لا عيب في ذلك.. كأن يقول الشخص لآخر كان يؤذيه: مالك والآخرين أو لا تؤذي الناس، وهو لم يؤذِ غير شخص واحد.

٥. في روايات جمّة أوردها الشيعة والمخالفون تصرّح بأنّ المراد من (الناس) هم أهل بيت الرسول الأكرم(ص)[2]، وقد روي عن مولانا الإمام الباقر(ع) في ذيل هذه الآية:

١- سورة آل عمران / ٦٨.

٢- تفسير القمي، ج١، ص١٤٠

←

إنّ الله سبحانه قد جعل في آل إبراهيم أنبياءً وأوصياء فكيف يقرّون به في آل إبراهيم وينكرونه في آل محمد(ص)؟![1]

ونقرأ في رواية أخرى عن مولانا الإمام الصادق(ع) في ذيل هذه الآية أنه قال: «نحن المحسودون».[2]

وروى في تفسير(الدر المنثور) عن ابن المنذر، والطبراني عن ابن عبّاس في هذه الآية أنّ المراد من الناس في هذه الآية هم نحن دون غيرنا...[3]

ثمّ إنّ القرآن يقول في بعد هذه الآية: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ وكذلك سيتعرّض الذين كفروا بالقرآن المُنزل من السماوات على النبيّ المصطفى صلوات الله عليه وآله لذات المصير الجهنّمي..

٦. بالنظر إلى معنى (الناس) و شرحه، وإلى الروايات المذكورة، فإنّ الواضح والبيّن أنّ المراد من آل إبراهيم إمّا هو رسول الله وآل بيته صلوات الله عليهم أجمعين. وهم من أحفاد النبيّ إسماعيل عليه وعليهم السلام، أو مطلق آل إبراهيم؛ سواء كانوا أحفاد اسماعيل(ع) أو أحفاد إسحق (ع)، والأمر يشمل رسول الله وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام.. وقد صاروا عرضة مباشرة للحسد الحقيقي، في أعلى صوره من قبل اليهود[4]، ولا يمكن أن يكون المراد من (آل إبراهيم) بني إسرائيل باعتبارهم ذرّيّة إبراهيم، لأنّهم إن كانوا المقصودين بذلك.. فسد المعنى، مضافاً إلى أن اليهود كانوا يحسدون المؤمنين لأجل رسول الله صلوات الله عليه وآله، فلا معنى في الثناء على اليهود مع وجود كلّ هذا الحسد، أو أن يقال فيهم أنّهم قد أوتوا الكتاب

١- دعائم الإسلام، ج١، ص٢٢

٢- الكافي، ج١، ص١٨٦

٣- الدر المنثور، ج٢، ص١٧٣

٤- وسائر أعدائهم من المنافقين في العصر النبوي وما تلاه. [المترجم]

والحكمة.

٧. قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ يوضح النقطة المهمّة أدناه: أنّ أهل الكتاب بحسدهم للنبيّ قد يأسوا ولم يبق بين أيديهم سوى أن تقطع نعمة النبوّة عن آل إبراهيم، ولكنّ الله تبارك وتعالى أكّد أن فضله هذا لن يقطع، وأنّ الحاسدين سيموتون غيظاً، لأنّ حسدهم هذا لن ينفعهم في شيء.

٨. لعلّ السبب في أنّ الله تعالى عدّ ملك إبراهيم في هذه الآية الشريفة ملكاً عظيماً، هو أنّ الدنيا هيّنة عليه تعالى، إلّا أن يكون مُلكها بيد صاحب فضائل معنويّة ومناقب دينيّة، ولهذا؛ فإنّ هذا الملك العظيم يجب أن يتصوّر وأن يكون بمعنىً أشمل من ملكٍ دنيويٍّ، فيضمّ الملك الدنيويّ والسلطنة المعنويّة.. وما يؤيّد قولنا هذا أنّه تعالى قد وصف فضائل آل إبراهيم عليهم السلام بأنّها كتاب وحكمة؛ ولكنّه لم يعدّها من النبوّة والولاية المطلقة.. وهكذا يكون هذا المنحى صحيحاً وقويّاً جدّاً.

٩. لماذا تستوحشون وتعجبون من إعطاء هكذا مقام ومنصب للنبيّ وآله عليهم الصلاة والسلام؛ فتحسدونهم في حين أنّه تعالى قد أعطاكم وآل إبراهيم كتاباً سماوياً وحكمة ومعرفة وحكومة شاملة وواسعة (كما هي حكومة موسى وداود وسليمان عليهم السلام) ولكنّ المؤسف أنكم أيّها الناس لم تكونوا نعم الخلف وفرّطتم بهذه الثروة المعنوية والمادّيّة القيّمة بسبب سيّئاتكم وقسوة قلوبكم ﴿ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾

١٠. بالنظر إلى أنّ أحد مواضيع هذه الآية؛ هو الإشارة إلى صفة الحسد؛ كونه مصدر للكثير من الاضطرابات الاجتماعيّة ذات التأثير السلبي (المعنوي والمادّي والفردي والاجتماعي) الكبير، وكما قصّ القرآن الكريم واقعة القتل الأولى في الأرض بداعي الحسد.. وبهذا الصدد ورغم أضرار الحسد على مختلف الأصعدة المادّيّة والمعنويّة، إلّا أنّنا نتناول فهرساً عريضاً من آفات وأضرار الحسد:

الضرر الأوّل:

أنّ الحسود؛ وبدلاً من أن يستنفد كلّ قابليّاته وطاقاته البدنيّة والفكريّة لإحرازه التقدّم وتحقيق الأهداف الاجتماعيّة الفذّة إلّا أنّه يصرفها في مسار الدمار لنعمة وجوده وسائر نعمه الأخرى.

الضرر الثاني:

أنّ الحسد دافع ومحرّض للكثير من الجرائم، ولو أنّنا بحثنا العوامل والعلل الأساسيّة للقتل والسرقة والاعتداء وأمثال ذلك، لرأينا أن شطراً كبيراً منها راجع إلى الحسد، ومن هنا شُبّه الحسد بشرارة من نار تعرّض وجود الحاسد أو المجتمع الذي يعيش فيه إلى خطر ماحق...

الضرر الثالث:

يقول أحد العلماء: إن الحسد أحد أخطر الصفات، ولابدّ من اعتباره أخطر الأعداء على السعادة.. ولابد من مواجهته والحاق الهزيمة به.

الضرر الرابع:

المجتمعات التي تتشكّل من أفراد حاسدين هي مجتمعات متأخّرة، وذلك ـ كما قلنا ـ إنّ الحاسد يسعى دوماً إلى جرّ الآخرين إلى الوراء، وهذا ما يتناقض وروح التكامل والرقي تماماً.

الضرر الخامس:

فضلاً عن كلّ ذلك، فإن للحسد آثاراً سلبيه على جسم وسلامة الإنسان، والحاسد عادة ما يكون فرداً مضطرباً ضعيف الأعصاب مريضاً في الغالب، وقد أضحت هذه الحقيقة ثابتة في أنّ الأمراض الجسديّة لها أسباب نفسيّة، وهناك بحوث طبيّة مفصّلة تدرج تحت عنوان الأمراض النفسيّة ـ الجسديّة تختصّ بهذه الأمراض والحالات.

الضرر السادس:

من الناحية المعنوية يعتبر الحسد علامة على نقص الشخصيّة والجهل وضيق التفكير

وضعف الإيمان ونقصه، لأن الحسود في واقعه يرى نفسه أعجز من أن يرتقي إلى مقام المحسود أو أعلى منه، ولذا؛ فهو يجهد في إسقاط المحسود، وفضلاً عن كلّ هذا، فالحاسد معترض بصورة عمليّة على حكمة الله المتفضل المنعم الأصليّ ويشكل على تلقّي النعم من قبل الله تعالى...

١١. جملة روايات عن الحسد:

قال مولانا أميرالمؤمنين(ع): «صحّة الجسد من قلّة الحسد».[١]

وقال(ع) في موضع آخر: «العجب لغفلة الحسّاد عن سلامة الأجساد».[٢]

بل ونقرأ في حديث أنّ الحسد قبل أن يلحق أذىً بالمحسود، يلحق الضرر بصاحبه..[٣]

وقال مولانا الإمام الصادق(ع): «الحسد أصله من عمى القلب والجحود لفضل الله تعالى، وهما جناحان للكفر، فالحسد يوقع ابن آدم في الحسرة للأبد، وهلك مهلكاً لا ينجو منه أبداً».[٤]

وروي عن مولانا أميرالمؤمنين(ع) في (نهج البلاغة) أنّه قال: «إنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»[٥] وذلك لأنّ الشخص الحسود يسقط تدريجيّاً في مستنقع سوء الظنّ بالله وحكمته وعدله، وسوء الظنّ هذا هو الذي يخرجه من جنّة الإيمان...[(٦)]

١- نهج البلاغة، ص٥١٣

٢- نفس المصدر، ص٥٠٨

٣- مصباح الشريعة، ص١٠٤

٤- نفس المصدر

٥- نهج البلاغة، ص١١٨

٦- ويمكن القول إنّ ما يستوحى من الآية ـــ فضلاً عما تقدم ـــ أنّ الله تعالى يريد بيان شطر ممّا تعرّض ويتعرّض له أهل البيت عليهم السلام ودينهم من ظلم سافر من جهة أعدائهم، الظلم الذي يعود أصله إلى رذيلة الحسد، الرذيلة التي أدّت بأبينا آدم عليه السلام إلى الإخراج من الجنّة بعد أن أثار الحسد حفيظة الشيطان الذي لم يرق له أن يكون آدم خليفة لله في الأرض... وهكذا هم أعداء أهل البيت عليهم السلام فعلوا ويفعلون ما فعله الشيطان، فأرادوا ويريدون دفع أنوار الله في الوجود عن مراتبهم التي رتّبهم الله فيها، تقليداً وتشبّهاً وتفاعلاً مع اليهود الذين حسدوا النبيّ المصطفى في عصره و ماتلاه. [المترجم].

الآية ٥٥

فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. كلمة ﴿ صَدَّ ﴾ تعني الإرجاع والصرف والمنع فقط، وربّما تستعمل هذه الكلمة لتعبير عن الإعراض والإبعاد، وفي هذه الصورة يكون معناها التقابل والمواجهة أيضاً، وعلى هذا المعنى لا تبقى ثمّ حاجة إلى التبرير للطرف المقابل (المسلم) بل ويدفع إلى الصراع والمواجهة معه.

٢. قُسم الناس في هذه الآية قسمين: قسم آمن، وقسم جاحد، فإذا صار الجحد في مقابل الإيمان ومواجهته، فالجحد هو ليس لأنّ اليهود لم يؤمنوا فحسب، وإنّما راحوا يجهدون في منع الناس وصدّهم عن أن يؤمنوا بالكتاب الذي أنزله الله تعالى.. ولا ريب أنّ اعتبار كلمة ﴿ صَدَّ ﴾ بمعنى الإعراض، وفي هذه الحالة تكون المواجهة مباشرة، ولا حاجة إلى التبرير والبحث عن السبب في المواجهة ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾.

٣. عبارة ﴿ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ تكشف عن التهديد للذين يصدّون الناس عن الايمان ويثيرون الفتن بوجه الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله والمؤمنين.

الآية ٥٦

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. جاء في (تفسير القمّي) في ذيل هذه الآية أنّ المراد بالآيات هنا أميرالمؤمنين والأئمّة المعصومين.[١]

٢. سؤال: يمكن أن يشكل البعض على القول بتبديل الجلود الناضجة بالنار، والحال أنّ الجلود الجديدة غير مذنبة كما هي الجلود الأصليّة، وهذا ما يتنافى مع أصل العدالة..

الجواب: ذات السؤال هذا طرحه ابن أبي العوجاء ـ الكافر الملحد ـ على مولانا الإمام الصادق (ع) إذ قال: ما ذنب الغير، فأجابه الإمام إجابة مقتضبة قائلاً: «هي هي؛ وهي غيرها»..[٢] أي أنّ الجلود الجديدة هي ذاتها الجلود السابقة؛ وهي غيرها في ذات الوقت.. وخلاصة الجواب هي أنّه حينما تكون للمادّة عدة صور، فإنّه يمكن القول بأنّ المادّة الموجودة حين تتصوّر بعدّة حالات وصور.. وبدن الإنسان واحد مادام الإنسان هو نفس الإنسان مع كلّ التغييرات الطارئة عليه.. ولمّا كان ابن أبي العوجاء يعرف ما يتخلّل عبارة الإمام من شرّ ومعنىً قال: مثّل لي في ذلك مثلاً من أمر الدنيا.. فقال (ع): «أرأيت لو أنّ رجلاً أخذ لبنةً فكسرها ثمّ

١- تفسير القمي، ج١، ص١٤١

٢- الأمالي، الشيخ الطوسي، ص٥٨١

←

ردّها في ملبنها؛ فهي هي؛ وهي غيرها»[١] فهي جديدة قديمة في آن واحد (إذ المادّة الأولى محفوظة، ولكنّها تهيّأت بصورة جديدة).. وقد نقل هذا الحديث صاحب (الاحتجاج) عن حفص بن غياث عن الإمام الصادق(ع)،[٢] فيما رواه عليّ بن إبراهيم القمّي رضوان الله عليه في (تفسيره) مرسلاً..[٣] لهذا أمكن الفهم من هذا النصّ الشريف بأنّ الجلود الجديدة قد تشكّلت من ذات المادّة الجلدية القديمة.

٣. الثواب والعقاب مرتبطان ـ في الحقيقة ـ بروح وقوّة إدراك الإنسان، وما الجسم إلّا وسيلة لسراية الثواب أو العقاب إلى روح الإنسان...

١- نفس المصدر.

٢- الإحتجاج، ج٢، ص٣٥٤

٣- تفسير القمي، ج١، ص١٤١

الآية ٥٧

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. هذه الآية وردت بعد آيتين تناولتا كفاية جهنّم عقاباً للكافرين، وهي تؤكّد مدى الفرق والمنزلة بين فريقي المؤمنين والكافرين في الرحمة والعذاب الناتجين عن دين الفريقين وأعمالهما.. ليتّضح للناس ويعلم أنّ هذين الفريقين كانا متضادّين في الدين والعمل والسلوك في دار الدنيا، كذلك هما سيختلفان في دار الآخرة ومصيرهما الأبديّ حيث سيعيشان السعادة والشقاء.. في جنّات مظلّلة بأروع الظلّ أو يعانون حريق النيران والعياذ بالله..

٢. واضح أنّ علّة عذاب فريق الكافرين هي أنّهم وفضلاً عن كفرهم بالآيات الإلهيّة، فهم كانوا يصدّون الآخرين عن الإيمان ويدفعونهم إلى الكفر، ولهذا أشار سبحانه إلى أنّهم بسبب سلوكهم المشين هذا سيدخلون جهنّم سراعاً، وهنالك ستبدّل جلودهم . كلّما نضجت . بجلود جديدة ليذوقوا العذاب بصورة متواصلة...

ولكنّ الله تعالى في هذه الآية ولدى بيانه منزلة أهل الجنّة في الآخرة يقول: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ... ﴾ سرعان ما يدخلون الجنة وفيها أنهار جارية من تحتها وهم فيها خالدون خلوداً أبديّاً لهم فيها أزواج مطهّرة ينعمون معاً في الظلال الظليلة الدائمة.

٣. كما يذكر في الأدب العربي من أنّ كلمة (سوف) يراد بها التنبيه إلى المستقبل البعيد،

وأنّ حرف (س) يستعمل لمستقبل القريب، ومع علمنا بأنّ الآيتين عائدتان إلى عالم القيامة والآخرة.. وأنّ عقاب الطالحين وثواب الصالحين في ذلك العالم بالنسبة لنا سواء من حيث الفاصلة الزمنيّة، ولكن بمقايسة هاتين الآيتين يفهم أنّ رحمة الله قد سبقت غضبه، وأنّ رحمته أوسع من غضبه، لأنّ الآية الأولى (٥٦) ذكرت الوعيد بالعقاب بكلمة (سوف) (سوف نصليهم) في حين أنّ هذه الآية (٥٧) ذكرت الوعد بالثواب للمؤمنين العاملين الصالحات بحرف (س) ﴿ سَنُدْخِلُهُمْ ﴾..

٤. واضح أن التفاوت في التعبيرواستخدام حرفي (سوف) و(س) في الآيتين (٥٦.٥٧) من أجل الإشارة إلى سرعة وسبق ووسعة رحمة الله تبارك وتعالى.. وبطء إنزال العقاب والعذاب وإرسال المجرمين إلى جهنّم ومحدوديّة غضب الربّ المتعال.. وهذا نظيرما نقرأ من الدعاء القائل: يا من سبقت رحمته غضبه...

الآية ٥٨

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ ﴾

شأن نزول الآية

جاء في تفسير (مجمع البيان) وبعض التفاسير الأخرى أنّ هذه الآية الشريفة نزلت حين دخل رسول الله(ص) مكّة منتصراً انتصاراً مطلقاً، فاستدعى عثمان بن طلحة وكان حامل مفاتيح الكعبة وأخذها منه ليطهر جوفها من الأصنام التي كانت فيها.. وبعد إنجاز هذه المهمّة طلب العبّاس عم النبي أن يعطيه هذه المفاتيح وأن تكون السدانة من نصيبه، وقد كانت سدانة الكعبة وحمل مفاتحها مقاماً شامخاً عند العرب، (وكأنّ العباس كان يرغب في استثمارها للرسول من نفوذ اجتماعي وسياسي لصالحه...) ولكنّ النبيّ(ص)؛ وخلافاً لطلب العبّاس، أعاد المفاتيح إلى عثمان بن طلحة بعد تطهير الكعبة من لوث الأصنام وغلق بابها، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا... ﴾.[١]

النقاط المستفادة من الآية

١. هذه الآية تبيّن قانونين إسلاميين مهمّين وحكماً عاماً: الحكم والأمر الأوّل: إعادة الأمانات إلى أصحابها ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا... ﴾.

الحكم والأمر الثاني: إذا قضيتم وحكمتم بين الناس، فلابد من أن يكون على أساس

١- مجمع البيان، ج٣، ص٩٩ والدر المنثور، ج٢، ص١٧٤ و١٧٥

العدل.. والقانون الثاني متعلّق بالآيات السابقة، لأنّها كانت قد تناولت حكم اليهود لصالح المشركين وضدّ المؤمنين، ولهذا خاطبت هذه الآية جميع الناس وأمرتهم أن يحكموا بالعدل بين المختلفين ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ﴾.

٢. واضح أنّ كلمة (الأمانة) لها معنىً واسعاً يشمل كلّ أشكال الثروة المادّيّة والمعنويّة.

٣. طبقاً لحكم الآية الصريح، فإنّ كلّ مسلم مكلّف بأن لا يخون أي شكل من أشكال الأمانة .مادّيّة ومعنويّة (مثل مفاتح الكعبة التي كانت شأن نزول الآية) أو أي شخص كان بلا استثناء.. والجميع في ذلك متساوون، سواء كان صاحب الأمانة مسلماً أو غير مسلم، كما كان في شأن النزول حيث أدّى النبيّ أمانة المفاتيح لحاملها المشرك..

٤. قانون إرجاع الأمانة لأصحابها والقضاء العادل بين الناس؛ قانون كلّيّ عام يشمل جميع أنواع القضاء والحكومة، سواء ما كان منها عظيماً أو بسيطاً: ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾.

٥. هذان القانونان الإسلاميّان المهمّان (حفظ الأمانة والحكم بالعدل) يضمن سلامة البنية التحتية للمجتمع الإنساني، ومن دونهما لن يستقر هذا المجتمع، سواء كان مجتمعاً مادّيّاً أو إلهيّاً، بل إنّه لن يكون مجتمعاً إلهياً عالم يضمن تنفيذ هذين القانونين..

٦. الأموال والثروات والمناصب والتراث الإنساني والتاريخي؛ كلّها أمانات إلهيّة قد أودعت عند أفراد المجتمع، والجميع موظّفون بحفظ هذه الأمانات ثمّ تسليمها إلى أهلها، وأن لا يخونوها أبداً.

٧. في جميع الصراعات والاختلافات وأشكال التضادّ منافع؛ وينبغي أن تحلّ وتفصل بأحكام عادلة لتحاشي التمييز والظلم والجور من أن يقع في المجتمع.

٨. معلوم أنّ الأمانة غير منحصرة في الأموال التي يودعها الناس عند بعضهم، ومن هنا يجب أن نقول بأنّ الأنبياء والأئمّة المعصومين كانوا خير أمناء على الإطلاق حيث نقلوها وبلّغوها للناس.. كما أنّ على العلماء أن يصونوا أماناتهم؛ فلا يكتموا الحقائق.. ومن ذلك يعدّ

أولاد الإنسان أمانة إلهية في عنقه، ويفترض أن ينالوا ما يستحقّون من تربية وتعليم.. بل إنّ وجود الإنسان نفسه وجميع الإمكانات والطاقات التي وهبها الله تعالى له؛ أمانة في عنقه ويفترض به أداؤها بالصورة الأحسن؛ فلا يقصّر في سلامة بدنه وروحه وفي طاقة شبابه وفكره.. ولذا؛ حرّم الانتحار أو إلحاق الضرر بنفسه بما يخالف الشرع..

٩. يمكن أن تكون العلّة في تقديم مسألة أداء الأمانة على مسألة الحكم بالعدل؛ أنّ صون الأمانة من أهمّ الأصول الأخلاقيّة لجميع الشرائح الاجتماعيّة التي ينبغي أن تحرص على الأمانة وأدائها.. أمّا إذا انحرف فرد أو أفراد عن هذا الأصل الأصيل.. جاء دور العدالة لتعرّف الفرد والأفراد على وظيفتهم الإنسانيّة في عدم الخيانة..

١٠. إشارة إلى بعض الروايات والأحاديث الواردة في لزوم أداء الأمانة وتطبيق العدالة:

ولطالما أكّدت النصوص الدينية هذه المسألة كما لم تؤكد على غيرها من المسائل، والنصوص أدناه من جملة ما يوضح هذه الحقيقة:

الف: روي عن مولانا الإمام الصادق(ع) أنّه قال:

«لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإن ذلك شيءٌ اعتاده، فلو تركه استوحش، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته».[1]

ب: ذات مرّة تبارى طفلان بحسن الخطّ، فجاء الامام الحسن المجتبى(ع) ليحكم بينهما، فقال له أميرالمؤمنين(ع) الذي كان ناظراً لمشهد المسابقة والتحكيم:

«يا بني! أنظر كيف تحكم؛ فإنّ هذا حكم؛ والله سائلك عنه يوم القيامة».[2]

ج: وفي رواية عن مولانا الإمام الصادق(ع) قوله: إنّما كان لعلي(ع) ما كان عند رسول

١- الكافي، ج٢، ص١٠٥

٢- مجمع البيان، ج٣، ص٩٩

←

الله(ص) من المنزلة؛ لصدقه في الحديث وأدائه الأمانة...[١]

د: وعنه سلام الله عليه أنّه قال لرفيق له:«إنّ ضارب عليّ بالسيف وقاتله؛ لو ائتمنني على سيف أو استشارني ثم قبلت ذلك منه؛ لأدّيت إليه الأمانة».[٢]

هـ: وفي حديث نبويّ تناقلته الشيعة والمخالفون:«آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».[٣]

و: قال المصطفى(ص) لوصيّه المرتضى(ع):

«سوِّ بين الخصمين؛ في لحظك ولفظك».[٤] (٥)

١- الكافي، ج٢، ص١٠٤

٢- تهذيب الأحكام، ج٦، ص٣٥١

٣- قرب الإسناد، ص٢٨

٤- مجمع البيان، ج٣، ص٩٩

٥- جدير ذكره، أنّ الأمانة المرادة أداؤها في هذه الآية وفي عموم نصوص ثقافة القرآن والعترة؛ هي ولاية أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، حيث صيّرها الله فرضاً محتوماً على كلّ إنسان، وهي ذاتها الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها.. ولكنّ الإنسان أقرّ بها وتقبّل تحمّلها، لكنّه عاد و تخلّى عنها حين نقض عهده و تخلّى عن ميثاقه للذي أُخذ عليه في عالم الذرّ.. ثمّ إنّ الحديث والقول الذي يفترض بالإنسان أن يكون صادقاً فيه هو العقيدة.. فتكون سليمة مأخوذة عن أقرب الخلق إلى الله تعالى.. ومنشأ هذا من قوله تعالى في الثناء على المؤمنين المرضيّين عند بارئهم: ﴿ الَّذِينَ **يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** ﴾ والاستماع هو مقدّمة الاتّباع، والاتّباع هو تديّن؛ قولاً وفعلاً، وليس أحسن للقول ـــ الديانة ـــ من ولاية أهل البيت عليهم السلام الضامنة لسعادة الدارين [المترجم].

الآية ٥٩

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. هذه الآية وعدّة آيات ستليها تعالج واحدة من أهم المسائل الدينية، وهي مسألة القيادة ومرجعيّة المسلمين في المسائل الدينية والاجتماعية وغيرها.

٢. لا شكّ أنّ جميع الطاعات التي يبديها الفرد المؤمن يجب أن تنتهي عند إطاعة الربّ المتعال، وأنّ كلّ قيادة ينبغي أن تصدر أو تتلقّى شرعيتها من الله العظيم وطبقاً لأوامره وتعاليمه، لأنّه هو الحاكم ومالك التكوين في عالم الوجود: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ... ﴾.

٣. الله جلّ جلاله قد أصدر الأمر بإطاعة النبيّ(ص) باعتباره متّصفاً بالعصمة، وهي إحدى فضائله وميزاته...، ولم يكن هذا الأمر الإلهي عبثاً أو لهواً باطلاً.. فالنبيّ خليفة الله بين الناس؛ وكلامه كلام الله، وقد أعطاه الله تبارك وتعالى هذا المنصب، وعليه؛ تكون الطاعة لله من مقتضيات خالقيّته وحاكميّة ذاته المقدّسة.

٤. بناءً على هذه الآية الشريفة، فإنّ أصل الإطاعة ذاتيٌّ في الله سبحانه (واجب الإطاعة بالذات) ولزوم الطاعة للنبيّ(ص) يتمّ بوجود أمر الربّ المتعال (واجب الإطاعة للغير) فإطاعته من إطاعة الله، لأنّ طاعة النبي قد شرعت بأمره تعالى.

٥. يمكن أن يكون تكرار مفردة ﴿ أَطِيعُواْ ﴾ في الآية إشارة إلى التفاوت بين الطاعتين؛ طاعة الله وطاعة الرسول.. وفي المرحلة الثالثة ورد الأمر بطاعة الأمر الذين هم كيان بشريّ أيضاً

يحفظون دين الناس ودنياهم..

٦. عمّا هو المراد من أولي الأمر، وضع مفسر والمخالفين ستّة احتمالات وتفاسير، وهي:

الأوّل: ذهب جمع من مفسّري السنّة إلى أنّ المراد من أولي الأمر هم الحكام والمتصدّون للأمور؛ في كلّ زمان ومكان، وليس بينهم مَن يستثنى من ذلك.. وبالتالي يُكلّف المسلمون باتّباع أي حكومة وبأي شكل كانت، ولو حكومة المغول..

ولا ريب أن هذا الاحتمال لا يتناسب ومفهوم الآية وروح التعاليم الإسلاميّة، ولا يمكن اتّباع أي حكومة كانت من دون شرط وقيد؛ وجعلها في مصاف الله والرسول، وبناءً على هذا؛ فقد نفى كبار مفسّري المخالفين؛ ناهيك عن مفسّري الشيعة هذا الاحتمال.

الثاني: بعض آخر من مفسّري السنّه، مثل مؤلف تفسير (المنار) ومؤلّف تفسير (في ظلال القرآن) وآخرين، ذهبوا إلى أنّ المراد بأولي الأمر، ممثلو عموم الطبقات، مثل الحكّام والعلماء وأصحاب المناصب في جميع شؤون الناس الحياتيّة؛[1] ولكن ليس على سبيل الإطلاق ومن دون قيد وشرط، وإنّما إطاعتهم مشروطة بأن تكون موافقة لأحكام الاسلام وقراراته.

ولكنّ هذا الاحتمال والتفسير مردود أيضاً، لأنّ الآية الشريفة ذكرت الطاعة لأولي الأمر بشكل مطلق ولم تقيّدها بشرط لازم وواجب؛ في حين أنّ هذا الاحتمال مقيّد ومشروط بأن لا تكون الأحكام على خلاف المقرّرات الإسلاميّة.

الثالث: أنّ المراد بأولي الأمر هم القادة المعنيّون والمفكّرون، أي: العلماء والفقهاء العدول العارفون بمحتويات الكتاب والسنّة.

وهذا الاحتمال أيضاً؛ لا يتناسب وإطلاق الآية، وذلك لأنّ إطاعة العلماء ذات شروط، منها: أن لا تكون أقوالهم مخالفة للكتاب والسنّة. وعليه؛ فهم إذا ما ارتكبوا خطأً ما (باعتبارهم غير

١- تفسير المنار، ج٥، ص١٨٨ وفى ظلال القرآن، ج٢، ص٦٩١

معصومين ومعرّضين للخطأ باستمرار) أو لأي سبب آخر حرفهم عن الحقّ والصواب، لم تلزم طاعتهم، في حين أنّ الآية عدّت إطاعة أولي الأمر بشكل مطلق، كما هي إطاعة الله وإطاعة الرسول إطاعة لازمة، هذا فضلاً عن أنّ إطاعة العلماء والفقهاء في إطار الأحكام المستنبطة من الكتاب والسنّة، وعليه لا تبقى ثمَّ طاعة غير طاعة الله ورسوله، فلا حاجة لذكر الطاعة لأولي الأمر..

الرابع: عدّ البعض المقصود من (أولي الأمر) أنّهم ما يعرف بين المخالفين بالخلفاء الأربعة ولا يشمل غيرهم. ولكنّ الأعصار التي تلتهم خليّة عنهم.. وهذا التفسير والاحتمال الرابع أيضاً لا مصداق له فيما تلاهم من الزمن وحتّى الآن وإلى يوم القيامة، ناهيك عن أنّه لا دليل على تخصيص اللّفظ بأشخاص أربعة فقط.

الخامس: أنّ (أولي الأمر) هم أصحاب النبي(ص).

ولكنّ اختصاص اللّفظ بالصحابة أو قادة الجيش يلحقه الإشكال الوارد على رابع الاحتمالات أيضاً، كما أنّه لا دليل عليه أبداً.

السادس: أنّ المراد بهم هم قادة جيوش المسلمين..

ومعلوم أنّ هذا الاحتمال باطل أيضاً، حيث لا دليل في البين على التخصيص..

٧. اتّفق جميع مفسّري الشيعة في هذا الإطار على أن المراد من (أولي الأمر) هم الأئمة المعصومون (صلوات الله عليهم)، وهم الذين نصبهم الله تعالى وأوكل إليهم قيادة الناس والمسلمين على كافّة الأصعدة وفي جميع شؤون الحياة.. ولا يشمل غيرهم، اللّهمّ إلا الذين يوكل إليهم هؤلاء الأئمة المعصومون منصباً أو دوراً في المجتمع المسلم، فتكون طاعتهم مشروطة بشرط لازم ومحدّد؛ وليس لكونهم أولي الأمر، بل باعتبارهم وكلاء عن أولي الأمر..

٨. شايع وقبل جمع من مفسّري المخالفين. مثل محمد عبده العالم المصري المعروف. بعض كلمات المفسر المخالف الفخر الرازي الاحتمال الثاني (أنّ أولي الأمر هم وكلاء وممثلو

جميع الطبقات في المجتمع المسلم، مثل العلماء والحكّام وغيرهم) مع فرض بعض الشروط، من جملتها: أن يكون وليّ الأمر مسلماً (كما يفهم من لفظ (منكم) في الآية) وأن لا يكون حكمه مخالفاً لكتاب أو سنّة. وأن يحكم مختاراً لا مجبراً. وأن يحكم بما يوافق مصلحة المسلمين..

وأن تكون أحكامه من ضمن صلاحياته دون غيرها (وليس مثل العبادات التي هي قرارات ثابته ومعيّنة بنصّ الشرع) وأن لا يحكم بما هو وارد فيه نصّ من الشرع، وفضلاً عن ذلك كلّه أن يكون حكم أولي الأمر ما هو متّفق عليه.. وحيث أنّهم ـ أصحاب النقطة الثامنة في البحث ـ يذهبون إلى أنّ مجموع الأمة أو مجموع وكلائها وممثليها لا يقعون في الخطأ.. وبعبارة أخرى: إنّ مجموع الأمة معصوم، وبالتالي فثمرة هذه القيود أنّ إطاعة هكذا حكم وبشكل مطلق كإطاعة النبي صلوات الله عليه وآله لازمة (ونتيجة هذا الخطاب: حجيّة الإجماع) ولكن يجب أن يلتفت إلى أن ثمّ إشكالات ترد على هذا الاحتمال والتفسير:

أوّلاً: أنّه قَلّ أن يحصل الاتّفاق في وعلى المسائل الاجتماعيّة، وعليه؛ سيستولي الاضطراب والفراغ بشكل دائم في أغلب شؤون المسلمين، ولو أنّهم اختاروا نظريّة الأكثريّة، فإنّ هذا الإشكال يبقى حاكماً، لأنّ الأكثريّة غير معصومة، وعليه: تكون الإطاعة لا تلزم أحد بشكل مطلق..

ثانياً: قد ثبت في علم الأصول أنّه لا دليل أبداً على معصوميّة المجموع باستثناء وجود الإمام المعصوم..

ثالثاً: أحد الشروط التي ذكرها مؤيد و هذا التفسير: أن لا يكون حكم وليّ الأمر مخالفاً للكتاب والسنة، وهنا لابدّ من تحديد الجهة التي تميّز ما إذا كان الحكم الصادر موافقاً أو مخالفاً للكتاب والسنّة؛ ولا ريب أنّها ستتمثل في العلماء والفقهاء العارفين بالكتاب والسنّة، ونتيجة هذا الحديث أن تكون الطاعة لأولي الأمر غير جائزة بلا إذن من العلماء والفقهاء، بل

إنّ طاعتهم ستكون أسمى من طاعة أولي الأمر، وهذا ما لا يتناسب ولا ينسجم وظاهر الآية الشريفة..

رابعاً: صحيح أنّهم قد عدّوا العلماء جزءاً من أولي الأمر، ولكنّ الحقيقة تطابق القول بأنّ العلماء هم المرجعيّة الأعلى من سائر وكلاء الشرائح والطبقات؛ وليست مرجعيّة مرادفة، ذلك لأنّ العلماء يجب أن تكون لهم الرقابة على الآخرين فيما إذا كانوا موافقين أو مخالفين للكتاب والسنّة، وهكذا سيكون العلماء هم المرجعيّة العليا، وهذا ما لا ينسجم والتفسير المذكور، وعليه؛ يبقى هذا التفسير معرّضاً، بل ومتضمّناً للإشكالات العديدة.

٩. التفسير الوحيد الذي يبقى محصّناً دون الإشكالات السالفة الذكر، هو التفسير السابع القائل بأنّ ﴿ الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ هم الأئمة المعصومون، لأنّ هذا التفسير يناسب إطلاق وجوب الطاعة الذي يفهم من الآية أعلاه، لأنّ مقام عصمة الإمام يحفظه من أي وقوع في الخطأ أو الذنب، وبهذا يكون حكمه وأمره كحكم وأمر النبي الأكرم(ص)؛ وهو واجب الطاعة دون قيد أو شرط، وحريٌّ به أن يكون في مرتبة طاعته حتّى من دون تكرار كلمة ﴿ أَطِيعُواْ ﴾ ليتمّ العطف على إطاعة الرسول..

١٠. حيث أنّه سبحانه لم يقيّد الأمر بطاعة أولي الأمر بقيد، ولأن أولي الأمر إذ لم يكونوا معصومين عن الخطأ، فإنّ الأمر بطاعتهم يجانب الصواب.. ومن هذه المقدّمة نفهم أنّ أولي الأمر الذين أشير إليهم في هذه الآية لابدّ أن يكونوا معصومين، ولهذا وجدنا بعض علماء المخالفين المشهورين يقرون بذلك، مثل الفخر الرازي الذي أقر بالحقيقة في مطلع بحثه الخاص بهذه الآية.. حيث يقول: إنّ الذي أمر الله بطاعته بلا قيد لابدّ أن يكون معصوماً، لأنّه إن لم يكن معصوماً عن الخطأ، فإنّه يبقى مأموراً بطاعته حين وقوعه في الخطأ، فيما اتّباعه أثناء خطئه يلزم الوقوع في الخطأ، وهذا نوع تضادّ يقع في الأمر والحكم الإلهي، لأنّه ـ من جهة ـ يعدّ العمل به ممنوعاً، ومن جهة أخرى يعدّ اتّباع أولي الأمر أمراً لازماً، وهذا ما يوجب اجتماع الأمر

والنهي... رغم أنّه في خاتمة كلامه قال بأنّ المعصوم إمّا أن يكون مجموع الأمّة أو بعضاً من الأمّة.. والاحتمال الثاني غير مقبول، للزوم أن نعرف ونحدّد هذا البعض ونصل إليه.. والأمر ليس كذلك، وحيث سقط هذا الاحتمال؛ يبقى الاحتمال الأوّل وهو أنّ المعصوم هو مجموع الأمة، وهذا يعتبر بحد ذاته دليلاً على أنّ إجماع واتّفاق الأمّة حجّة مقبولة ويعدّ من جملة الأدلّة.

١١. مع أنّ الفخر الرازي المعروف بكثرة الاستشكال في مختلف المسائل العلميّة، ولكنّه أقرّ بلزوم أن يكون أولو الأمر جملة أفراد معصومين، غير أنّه لما كان جاهلاً بمدرسة أهل البيت عليهم السلام وأئمّة وقادة هذه المدرسة؛ تجاهل القول باحتمال أن يكون أولو الأمر أشخاصاً معيّنين

من الأمة.. فاضطرّ إلى القول بأنّ أولي الأمر مجموع الأمّة واتّفاقها (أو وكلاء شرائح المسلمين وطبقاتهم) في وقت لا يمكن فيه قبول هذا الاحتمال، لأنّ أولي الأمر يجب أن يكونوا قادة المجتمع المسلم؛ فتحلّ مشاكل المسلمين على أيديهم وتدار حكومتهم من قبلهم.. ونحن نعلم أن حكومة جمع من العموم أو وكلائهم بصورة اتّفاق الآراء أمر غير ممكن، كما هو إحراز الاتفاق في آراء الجميع أو ممثّليهم في مختلف المسائل الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة والأخلاقيّة والاقتصاديّة التي يواجهها المسلمون أمر غير ممكن... وكذلك هو اتّباع الأكثريّة لا يعدّ اتّباعاً لأولي الأمر.. وعليه؛ يكون لازم رأي الفخر الرازي ومن تبعه من العلماء المعاصرين؛ أن تعطّل طاعة أولي الأمر، أو تكون في موضوع نادر واستثنائي.. ولهذا؛ نستنتج ممّا تقدّم أنّ الآية الشريفة لا تثبت غير قيادة وإمامة الأئمّة المعصومين الذين يشكلّون عدداً محدّداً من الأمّة...

١٢. أجوبة على أسئلة وإشكالات يمكن احتمالها في تفسير الشيعة لهذه الآية الكريمة:

السؤال الأوّل:

إذا كان المراد من ﴿ أُوْلِي الأَمْرِ﴾ الأئمّة المعصومين، فالتجانس غير وارد، نظراً لأنّ كلمة (أولي) صيغة جمع، بينما الإمام المعصوم واحد في كلّ فترة وزمن وليس أكثر..

للإجابة على هذا السؤال ينبغي القول: وإن كان الإمام المعصوم واحداً في كلّ زمان وليس أكثر، ولكن مجموع الأزمنة يتطلب مجموعة أئمة، ونعلم أنّ لا تحدّد وظيفة الناس في زمن معيّن..

السؤال الثاني: لم يكن ثم وجود لأولي الأمر بهذا المعنى في زمن النبيّ(ص)، فكيف يطاع أمرهم في هذه الحالة؟

الجواب على هذا السؤال يتّضح مما تقدّم أعلاه.. إذ من المعلوم أنّ آيات القرآن غير منحصرة في زمن معيّن، ووظيفة المسلمين في جميع الأعصار تتجلّى من ذلك، مضافاً إلى أنّ أولي الأمر كانوا يتجسّدون في العصر النبويّ في شخص النبيّ(ص)، وهو الذي كان يحمل على عاتقه مسؤوليّتين من جهة الله تعالى، إحداهما: الرسالة الإلهيّة، وقد ذكر في هذه الآية بعنوان: ﴿ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ ﴾..والأخرى: مسؤوليّة قيادة وإمامة الأمة، وقد ذكر ذلك تحت مسمّى ﴿ أُوْلِي الأَمْرِ﴾ وعلى هذا؛ يكون الإمام والقائد المعصوم في الزمن النبوي هو النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله بذاته الذي كان ـ فضلاً عن منصب الرسالة وإبلاغ أحكام الاسلام ـ له منصب الإمام وولي الأمر أيضاً... ولعل عدم تكرار ﴿ أَطِيعُواْ ﴾ بين ﴿ الرَّسُولَ ﴾ وبين ﴿ أُوْلِي الأَمْرِ﴾ لا يخلو من الإشارة إلى هذا المعنى.. وبعبارة أخرى: إن منصب الرسالة ومنصب ولاية الأمر منصبان مختلفان، ولكنّهما جمعا في شخص النبي الأكرم(ص)، ولكنهما منفصلان في شخص الإمام الذي كان له منصب الإمامة دون منصب النبوة... «أنت مني ـ يا علي ـ بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيَّ بعدي»...[1]

١- الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٩٦

السؤال الثالث: إذا كان المقصود من ﴿ أُوْلِي الأَمْرِ ﴾ الأئمة المعصومين، فلماذا ـ إذاً ـ ورد في ذيل الآية مسألة وقوع التنازع والاختلاف بين المسلمين، حيث قالت: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ فهنا ـ كما نلاحظ عدم ورود ذكر لأولي الأمر ليكونوا المرجع في حل الاختلاف، وإنّما أكّدت الآية ـ بظاهرها ـ أن المرجع في ذلك هو الله (الكتاب) والرسول (السنّة النبويّة) فقط؟

ينبغي القول في ردّ هذا الإشكال بما يلي:

أوّلاً: هذا الإشكال لا يرد على تفسير الشيعة فحسب، بل هو وارد على جميع التفاسير عند إعمال قليل من الملاحظة والدقّة..

ثانياً: لا شكّ أنّ المراد بالاختلاف والتنازع في العبارة القرآنيّة أعلاه؛ الاختلاف والتنازع في الأحكام دون المسائل المتعلّقة بجزئيّات الحكم وقيادة المسلمين، إذ في مسألة حكومة المسلمين وقيادتهم لابدّ من إطاعة ﴿ أُوْلِي الأَمْرِ ﴾ ـ كما جرى التصريح في المقطع الأوّل من الآية ـ وعليه؛ فإنّ المراد من ذلك الاختلاف؛ الاختلاف في الأحكام والقوانين الإسلاميّة العامّة، إذ التقنين فعل إلهي ونبويّ.. وواضح أنّ الإمام (كاشف) ومنفّذ للأحكام، فالإمام ليس مقنّناً لقانون الله ولا هو ناسخ أو مبطل للقانون الإلهي، وإنّما هو حريص كلّ الحرص على تطبيق وإعمال أحكام الله وسنّة رسوله (ص).. ولذا؛ ترانا نقرأ في أحاديث أهل البيت عليهم السلام ما مؤدّاه: لا تقبلوا ما ينسب إلينا ممّا يخالف كتاب الله وسنّة رسوله.. ومحال أن نقول ما يخالف كتاب الله وسنّة النبيّ (ص).. وعلى هذا؛ فإنّ المرجع الأعلى في حل اختلاف الناس في الأحكام وقوانين الإسلام هو الله والرسول الذي يوحى إليه، وإن كان المعصومون عليهم السلام يبيّنون الأحكام؛ فذلك ممّا ليس من عندهم، بل هو من كتاب الله أو ممّا ورثوه عن إمامهم الأعلى رسول الله (ص).. وهكذا يتّضح السبب في عدم ذكر ﴿ أُوْلِي الأَمْرِ ﴾ في المقطع الثاني من الآية في إطار تحديد المرجع الأعلى في حلّ الاختلاف الواقع في الأحكام..

١٣. وردت جملة أحاديث في المصادر الإسلاميّة تؤيّد وتكشف أنّ أئمّة أهل البيت هم (أولي الأمر) الحقيقيون، ومنها:

الحديث الأول: نقل فقيه السنّة أبوبكر بن مؤمن الشيرازي في كتابه (رسالة الاعتقاد) طبقاً لنقل (مناقب الكاشي) عن ابن عبّاس أنّ الآية أعلاه قد نزلت في عليٍّ(ع) وذلك حين خلّفه النبيّ(ص) ـ في غزوة تبوك ـ على المدينة، فقال علي(ع): يا رسول الله! أتخلّفني على النساء والصغار في المدينة؟ فقال النبيّ(ص): «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى حين قال: أخلفني في قومي وأصلح.. فقال عزّوجلّ: وأولي الأمر منكم».[1]

الحديث الثاني: روى الشيخ سليمان الحنفي القندوزي ـ وهو من العلماء المرموقين عند أهل السنّة في كتابه (ينابيع المودّة) عن كتاب (المناقب) عن سُليم بن قيس الهلالي أنّ رجلاً جاء أميرالمؤمنين(ع) وسأله قائلاً: ما أقلّ شيءٍ يكون معه الرجل في عداد الكافرين؟ فقال(ع): أمّا الشيء الذي يجعل أقله الإنسان في زمرة الضالين، أن لا يعرف حجّة الله وخليفته فلا يعرف ولايته ولا يرى لزوم طاعته.. فقال الرجل: يا أميرالمؤمنين! صفه لي: فقال عليٌّ(ع) : أولئك الذين قرنهم إلى اسمه ونبيّه حيث قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ فقال الرجل: نفسي لك الفداء! صفهم لي. فقال عليّ(ع): هم الذين طالما ذكرهم رسول الله في شتّى المواقع وفي خطبة الوداع حيث قال: «إنّي تركت فيكم أمرين لن تضلّوا بعدي إن تمسّكتم بهما؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي».[2]

الحديث الثالث: كتب الشيخ سليمان الحنفي القندوزي في كتابه (ينابيع المودّة) أنّ صاحب كتاب (المناقب) نقل عن (تفسير مجاهد) أنّ هذه الآية نزلت في عليٍّ(ع).[3]

١- تفسير الامثل، ج٣، ص٤٤٣، نقلا عن إحقاق الحق، ج٣، ص٤٢٥

٢- نفس المصدر، ص٤٤٣ و٤٤٤، نقلا عن ينابيع المودة، طبع اسلامبول، ص١١٦

٣- نفس المصدر، ص٤٤٤، نقلا عن ينابيع المودة، طبع اسلامبول، ص١١٤

←

١٤. نقلت روايات كثيرة في المصادر الشيعيّة، مثل (الكافي) للكليني و(تفسيرالعياشي) وكتب الشيخ الصدوق وغيرها؛ وكلها تشير وتؤكّد أنّ ﴿ أُوْلِي الأَمْرِ﴾ هم أهل البيت، حتّى أنّ بعضاً منها صرّح بأسمائهم فرداً فرداً...[١]

١- الكافي، ج١، ص٢٧٦ و٢٨٦ و٢٨٧ وتفسير العياشي، ج١، ص٢٤٩ إلى ٢٥٤ و الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٥٣١ وكمال الدين، ج١، ص٢٢٢ و٢٥٣ و الخصال، ج٢، ص٤٧٩

الآية ٦٠

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾

شأن نزول الآية

وقع اختلاف بين أحد يهود المدينة ومنافق من المسلمين.. فقرّرا أن يجعلا حكماً بينهما.. ولمّا كان اليهوديّ يعلم بعدالة النبيّ الأكرم صلوات الله عليه وآله ويثق به قال: أرضى بقضاء نبيّكم، ولكنّ المنافق اختار أحد شخصيّات اليهود ويدعى كعب بن أشرف حكماً؛ لعلمه بأنّه قادر على حمله على أن يحكم لصالحه إذا أعطاه هدية (رشوة) وهكذا عارض أن يكون النبيّ هو الحكم، فنزلت هذه الآية ووبّخته أشدّ التوبيخ. وروى بعض المفسّرين شأناً آخر لنزول الآية رووه في ذيلها.. ممّا يشير إلى أنّ بعض حديثي الإسلام كانوا. كما هي عادتهم في الجاهليّة يحكّمون علماء اليهود وشخصيّاتهم. أو يرضون ببعض الكهنة حكّاماً.. فنزلت الآية ونهتهم عن ذلك نهياً قاطعاً..[1]

النقاط المستفادة من الآية

١. هذه الآية مكمّلة للآية التي سبقتها، لأنّ الآية السابقة كانت دعت المؤمنين إلى إطاعة

١- مجمع البيان، ج٣، ص١٠٢

الله والرسول وأولي الأمر وإلى تحكيم الكتاب والسنّة، وهذه الآية نهت الناس عن إطاعة الطاغوت والتحاكم إليهم.

٢. مفردة (الطاغوت) مأخوذة من مادّة الطغيان، وهي بجميع مشتقّاتها ومرادفاتها تعني التمرّد وتجاوز الحدود والقيود، أو كلّ شيء يكون وسيلة للطغيان والتمرّد.

٣. من يقضي ويحكم بالباطل طاغوت، لأنّه يتجاوز حدود الله والحقّ والعدالة ولا يحكم بما يرضي الله تعالى. وقد روي عن مولانا الإمام الصادق (ع) قوله: «الطاغوت كلّ من يُتاحكم إليه ممن يحكم بغير الحقّ».[1]

٤. لا ريب في أنّ هذه الآية كما هي سائر الآيات القرآنيّة تبيّن حكماً كليّاً ودائماً يشمل جميع المسلمين في مختلف العصور، وتحذّرهم من أنّ التحاكم إلى حكّام الباطل من الطواغيت والظلمة لا يتناسب والإيمان بالله وكتب الأنبياء.. بالإضافة إلى أنّ هذا العمل (التحاكم للطاغوت) يخرج بالفرد عن مسار الحقّ ويرمي به إلى الضياع الرهيب.. ولا تخفى مفاسد تحكيم الطاغوت على صعيد صناعة الخلل والاضطراب الاجتماعي، وهو من أهم أسباب تخاذل المجتمع وتراجعه...

١- نفس المصدر

الآية ٦١

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. هكذا مسلمون هم في ظاهرهم فحسب ليس أنّهم يتحاكمون إلى الطاغوت فحسب، بل إنّهم يمتنعون عن التوجّه إلى حكم الله تعالى وتحكيم الرسول ويعرضون عن الدعوة النبويّة ويصرّون على طغيانهم..

٢. إنّ الرجوع إلى الطاغوت ذنب عظيم وليس مجرّد خطأ عابر، ولا يُتلافى بتنبيه بسيط، بل إنّ عناد المتحاكم للطاغوت وإصراره مؤشّر خطير على روح النفاق وضعف الإيمان لديه، وإلّا لاستجاب للدعوة النبويّة؛ ولاعترف بخطئه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾. والصدّ ـ كما تقدم ـ هو الامتناع ومنع الآخرين عن الإقبال على مبدأ الحقّ وأهله...

الآية ٦٢

فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. الحقيقة التي يجب أن تعرف هي أنّ هؤلاء الأفراد المنافقين حينما تحلّ بهم مصيبة كنتيجة لأعمالهم ويواجهون طريقاً مسدوداً، كانوا يأتون النبي(ع) على سبيل الاجبار: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ... ﴾

٢. هنالك يقسمون على أنّ غايتهم من اتخاذ الحكم وتحكيمه عند المختلفين معه؛ لم تكن سوى تحصيل الوفاق بين طرفي الدعوى والاختلاف: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾.

٣. يمكن أن يكون مراد الآية من المصيبة الّلاحقة بالمنافقين: الفوضى والشقاء والمشاكل والأزمات التي تلحق بهم جرّاء التحاكم إلى الطاغوت، إذ لا شكّ أنّهم إذا حصلوا على منفعة ظاهريّة ـ بتحكيمهم الحكم غير الصالح لأحد طرفي الدعوى.. ولكنّه لا يمرّ بهم وقت طويل حتّى ينتشر فيهم وبينهم الفساد والظلم والفوضى والتحلّل الاجتماعي.. ولهذا، فإنّ أمثال أولئك الأفراد يحصدون ما زرعوا ويواجهون ما اقترفته أيديهم حتى يندموا على ما فعلوا.. رغم أنّ بعض المفسّرين احتملوا أن يكون المراد من المصيبة؛ الفضيحة التي تلحق بالمنافقين بين الناس، أو المصيبة التي تلحق بهم بأمر الله تعالى (كالبلاء والهزيمة غير المتوقّعة).

٤. سؤال: ترى هل أنّ مقصود المنافقين من كلمة (الإحسان) هو الإحسان لطرفي الدعوى، أم هو الاحسان للنبي(ص)؟

يمكن أن يكون مرادهم الأمرين معاً؛ فهم يضعون تبريرات مضحكة للتحاكم عند الغرباء، من ذلك أنّهم قالوا بأنّ تحكيم الرسول لا يناسب شأنه صلوات الله عليه وآله، نظراً لتعالي أصوات المترافعين عند الحكم؛ وهذا ما لا يتناسب والشأن النبوي!! بالإضافة إلى أنّ القضاء غالبا ما ينتهي عند مصلحة أحد طرفي الدعوى، ممّا يسبّب كراهة القاضي واتّخاذ موقف العداوة منه... وكأنّهم بهذه التبريرات المخجلة المضحكة يريدون التنصّل وتبرئة أنفسهم والقول بأنّهم يحسنون للنبيّ وطرفي الدعوى.. أو الادّعاء بأنّهم بفعلهم هذا لم يريدوا التحاكم، وإنّما كان لمجرد الرغبة في الإصلاح بين الجانبين وإحراز التوافق وإنهاء النزاع!!!

الآية ٦٣

أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. ربّ العالمين عالم بأسرار المنافقين وبواطنهم، وخبير بأنّ مبرّراتهم كاذبة وغير واقعية وبعيدة عن الحقيقة ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

٢. مع صدور هذه الذنوب منهم، إلا أنّ رحمة الله تعالى شملتهم، حتّى أنّه سبحانه أمر رسوله الكريم بغضّ الطرف عن معاقبتهم ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ولهذا؛ كان رسول الله(ص) يعاملهم بالمداراة لإظهارهم الإسلام ما أمكنه، لأنّه كان مأموراً بالتعامل مع الناس على حدّ ظواهرهم، اللّهم إلّا في حالات استثنائيّة تستوجب معاقبتهم.. وذلك لتحاشي الظنّ بأنّ الإعراض عنهم أو عقوبتهم نوع تصفية للحساب...

٣. طبقاً لهذه الآية كان النبيّ(ص) مكلّفاً من قبل الله تعالى أن يعظ المنافقين بأبلغ وأشدّ العبارات وقعاً في نفوسهم وأن يحذّرهم من سوء نتائج أفعالهم.. ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾.

الآية ٦٤

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤

النقاط المستفادة من الآية

١. في هذه الآية وضمن التأكيد على الممنوعيّة والتنديد الشديد بالرجوع إلى حكّام الجور والطغيان، جرى الحديث عن أنّ الله قد أرسل الأنبياء ليطيعهم الناس بإذن الله، وأن لا يخالفوهم قيد أنملة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾.

٢. العلّة في إطاعة الأنبياء هي كونهم مبعوثين من قبل الله تعالى، وكونهم زعماء الرسالة الإلهيّة، وعليه؛ فالناس مكلّفون باتّباعهم من حيث بيانهم لأحكام الله وكذلك كيفيّة تطبيق تلكم الأحكام، ولا يكفي مجرّد ادّعاء الإيمان..

٣. الهدف من بعثة الأنبياء إطاعة الناس جميعاً والانقياد لهم.. ولكن فيما لو أساء بعض الناس استغلال حرّيّتهم ولم يطيعوهم، فهذا البعض هو المقصّر دون الأنبياء.. وهكذا تعتبر هذه الآية الشريفة دليلاً على ردّ المؤمنين بعقيدة الجبر، حيث يذهبون إلى أنّ من الناس من هم مجبرون على الإطاعة، وآخرون منهم محكومون بارتكاب المعاصي والخلاف!!

٤. من قوله تعالى: ﴿ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ يفهم أنّ جميع ما لدى الأنبياء هو من عند الله، وبعبارة أخرى: أنّ وجوب إطاعتهم ليس لذاتهم، وإنّما لفرض إلهي..

٥. هذه الآية الشريفة تفتح الطريق للمذنبين ومن تحاكم للطاغوت لكي يتوبوا ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

٦. لا شكّ في أنّه كما تعود الفائدة من إطاعة أمر الله والرسول على الإنسان نفسه، فإنّ ضرر التمرّد والعصيان الصادر عن مذنب ما أو متحاكم إلى طاغوت وظالم؛ يعودان على الإنسان أيضاً، لأنّه بذلك قد دمّر حياته المادّيّة، مضافاً إلى أنّه سيرى حياته في بعدها المعنويّ قد رجعت القهقرى، وهكذا يصف القرآن الكريم في هذه الآية هكذا مسائل بكونها ظلماً يقترفه الفرد بحقّ نفسه: ﴿ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾.

٧. حيث أنّ هذه الآية قد صرّحت بجدوى وفائدة مجيء الإنسان المذنب إلى رسول الله(ص) وزيارته واتّخاذه شفيعاً ووسيطاً ووسيلة للاستغفار، وهذا المجيء والزيارة. كما وردا على هيئة الإطلاق في حياة الرسول أو بعد استشهاده. يوجبان قبول التوبة واستحقاق الرحمة الإلهيّة.. ولهذا؛ كان للآية الشريفة أن تمثّل إجابة شافية وردّاً صاعقاً على مفتريات القائلين بأنّ التوسّل بالرسول أو مَن كان من الرسول وكان الرسول منه. وهم آل البيت عليهم السلام بمثابة الشرك بالله.. إذ كيف يكون الدعاء والاستغفار والتشفع بالرسول وإعلان التوبة في ساحته شركاً فيما القرآن المجيد قد أمر المذنبين بذلك؟!!

٨. الأمر المؤكّد؛ أنّ على المذنب المريد للتوبة أن يندم على ماضيه.. وأن يدفع بنفسه إلى السير في طريق التوبة عن الخطأ.. ولكي تقبل توبته؛ عليه الانتفاع من استغفار الرسول الرحيم.. وإلّا فإنّ الزيارة وطلب الشفاعة بلا إحراز مقدّماتها أمر غير ذي فائدة...

٩. بديهيٌّ أنّ شخص الرسول صلوات الله عليه وآله ليس غافراً للذنوب. وإنّما هو يطلب من الله التوبة على التائبين، وهذه الآية تردّ ردّاً قاطعاً على منكري هذا الشكل من التوسّط والشفاعة.. كما أنّ الآية لا تقول: استغفر لهم يا رسول الله! بل قالت: ﴿ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾ وهذا التعبير الصريح يشير إلى صلاحية الرسول في الاستفادة من مقامه ومنزلته عند الله تبارك

وتعالى، فيستغفر للمذنبين والخطّائين من أتباعه...[١]

١٠. بمراجعة الآيات وتدبّر عبائرها، ندرك أنّ آيات كثيرة تحكي أنّ للأنبياء أو الملائكة أو المؤمنين الصادقين أن يستغفروا للمذنبين، وأن لاستغفارهم تأثيراً عند الله تعالى، مثل الآية (١٩) من سورة محمّد، والآية (٥) من سورة المنافقون، والآية (١٤) من سورة التوبة بخصوص استغفار ابراهيم (ع) لأبيه (عمّه)، وهذا بحدّ ذاته يجسّد أحد معاني شفاعة الأنبياء أو الملائكة أو المؤمنين الصادقين للمذنبين، ولكن كما ذكرنا أنّ مثل هذه الشفاعة بحاجة إلى توفّر مقدّمة وأرضيّة وجدارة واستعداد في المذنبين أنفسهم، كما نهت آيات أخرى عن الاستغفار للمشركين، ومفهوم تلك الآيات عدم المنع من الاستغفار للمؤمنين، كما يستفاد من آيات أخرى أنّ الملائكة تستغفر للمؤمنين المخطئين عند الله تعالى (سورة غافر / ١٧) و(سورة الشورى / ٥).

١١. ممّا يبعث على التعجّب أنّ بعض المفسّرين أرادوا حرف معنى الاستغفار النبويّ المذكور في هذه الآية الشريفة وربطه بالظلم والتعدّي على الحقوق الشخصيّة للنبيّ الأكرم صلوات الله عليه وآله.. فقالوا: حيث عمد البعض إلى إلحاق الأذى والظلم بشخص النبي، لزمهم أن يسترضوه ليصفح الله عنهم!

ولكنّ الواضح في الأمر أنّ التحاكم لغير الرسول ليس ظلماً بحقّه صلوات الله عليه وآله، بل هو مخالفة لمنصبه ومقامه الخاصّ، وبعبارة أخرى: هو معارضة لأمره سبحانه وتعالى.. ولو افترض أنه ظلم بشخص الرسول؛ فإنّ القرآن لم يعوّل عليه كثيراً، بل إنّ اعتماده انصبّ على

١- فهو صلوات الله عليه وآله كاشف عن غفران الله لتائب من التائبين ـــ في مقام آخر من مقاماته ـــ إذ أنّ رضا الله من رضا الرسول الأكرم عند الله، فهو إذن معيار مقدّس و مقياس زكيّ وكلمة الله المعبّرة والناطقة عنه سبحانه وتعالى باعتباره المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى بحالٍ من الأحوال.. و ما قولنا هذا إلّا بناءً على إيماننا بعصمته المطلقة في كلّ الأحوال، بالضدّ لقول من جزّأها بلا دليل و حطّ من مقامات النبوّة وكراماتها و... [المترجم].

القول بأنّ ما فعلوه مخالفة لأمر الله تعالى، مضافاً إلى أنّنا لو ظلمنا شخصاً، فإنّ إحراز رضاه كافٍ ولا حاجة إلى الاستغفار عند الله.. ولو أنّنا أعرضنا عن كلّ هذه الإشكالات، وافترضنا هذا التفسير للآية أعلاه، فما هو قولنا عن الآيات الأخرى التي تتحدّث عن استغفار الأنبياء والملائكة والمؤمنين للمذنبين؟ فهل لنا أن نقيّد الأمر بالحقوق الشخصيّة أيضاً؟!

الآية ٦٥

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

شأن نزول الآية

وقع اختلاف وتنازع بين الزبير بن العوّام، وكان من المهاجرين، مع أحد الأنصار بخصوص سقي نخيلهما التي كانت محاذية إلى بعضها، فجاءا رسول الله(ص) ليفصل بينهما.. ولمّا كان نخيل الزبير في الضفّة الأعلى من النهر ونخيل الانصاري في الجهة السفلى، فقد أمر النبي صلوات الله عليه وآله أن يسقي الزبير نخيله أوّلاً، ثمّ يليه الأنصاري في السقي (وهذا ما كان مطابقاً للتقليد المعمول به في البساتين المجاورة) ولكنّ الرجل الأنصاري المتظاهر بالاسلام انزعج من الحكم العادل لرسول الله(ص) وقال: هل كان هذا الحكم لكون الزبير ابن عمتك؟ فانزعج النبي لقول الأنصاري أيّما انزعاج حتى تغيّر لون وجهه الشريف.. فنزلت الآية أعلاه وهي تحذّر المسلمين من سوء الأدب هذا...[1]

النقاط المستفادة من الآية

١. رغم رواية شأن نزول خاصٍ بالآية أعلاه، إلّا أنّه ـ وكما ذكرنا مراراً ـ فإنّ شؤون النزول الخاصّة لا تتنافى أبداً مع مفهوم الآية، وبهذا يمكن أن تكون الآية مكمّلة لبحوث الآيات السالفة.

١- التبيان، ج٣، ص٢٤٥ ومجمع البيان، ج٣، ص١٠٦

٢. القَسَم في اللّغة العربيّة عبارة عن إقرار واعتراف يبرمه الفرد على عرضه وناموسه ويتّخذ من الله أو شيء عظيم في نظره شاهداً على ما يقول ويقرّ.. والقسم واليمين غير مختصّ بقوم أو لغة خاصّة، وهو على مرّ العصور بمثابة تقليد وعرف بين مختلف الأقوام والملل. وفي القرآن؛ ومن ضمن (١٠٤) آيات ورد القسم (١١٨) مرّة، منها (٩٥) قسماً بالله تعالى..

٣. هناك (٢٣) قسماً ذكرها القرآن ونقلها عن آخرين، وهم:

أوّلاً: موردان عن لسان رسول الله (ص) في إثبات وقوع يوم القيامة والمحاسبة على الأعمال وجزائها..

ثانياً: أربعة موارد للقسم عن إخوة النبيّ يوسف (ع).

ثالثاً: قسم واحد أورده السحرة لفرعون حيث أكّدوا به على إيمانهم للنبيّ موسى (ع).

رابعاً: قسم واحد أولى به الشيطان في تأكيده إغواء بني آدم (ع) غير المخلَصين.

خامساً: خمسة عشر قسماً عائداً إلى المشركين والمنافقين منكري القيامة.[1]

٤. التفاوت بين القسم بالله وبين الأقسام والأيمان المتعارفة والدارجة بين الناس تفاوت مهمّ:

أ. أن الهدف الأساس من أيمان الناس لإثبات مطلب ما، وهذا يتمّ حينما يحتاج المتكلّم لتوضيح وإثبات قصده وهدفه أن يصدّقه المخاطَب، وحين يحتمل المتكلّم عدم تصديق المخاطَب إيّاه، تراه يلجأ إلى إبرام القسم ليحمله على تصديقه.. أمّا الله تعالى؛ فهو غنيّ عن تصديق مخاطَبه وعبده، وإنّما العبد المخاطَب بحاجة إلى الإيمان والقبول والعمل بالقوانين الإلهيّة، وفائدة كلّ ذلك تعود عليه؛ دون الله تعالى..

ب: عادة ما يقسم الناس بالموجودات المقدّسة والعزيزة وبالغة الأهميّة عندها، أمّا الله

١- شناخت سورههای قرآن (فارسي)، هاشمزاده هريسي، ص ٢٣ و ٢٤.

تعالى؛ فيقسم في القرآن بموجودات لا يرى الناس في بعضها قدسيّة وعزّة..

٥. إنّ الله هو أصدق الصادقين. ولكن بداعي حِكمٍ وأهداف سامية؛ يستخدم القسم في خطابه.. ونشير هنا إلى ثمانية موارد في فلسفة وأسرار أيمان الربّ المتعال:

الفلسفة الأولى: بيان عظمة مورد القسم: إذ دائماً ما يتمّ القسم بالأمور القيّمة والمهمّة جدّاً، وعليه؛ فإنّ أيمان القرآن الكريم دليل على عظمة وأهمّيّة الأمور التي يقسم بها[١] مثل: ﴿ يس* وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ وهذا الأمر يفترض أن يكون المقسَم به محطّ تأمّل واهتمام القارئ للقرآن، لتتفتّح ذهنيّته على الحقائق الجديدة والعميقة وليتّخذ منها طريقاً قيّماً يقرّ به إلى الله تعالى.[٢]

الفلسفة الثانية: التأكيد: إنّ اليمين تأكيد وبيان لدرجة الأهمّيّة، ودليل أيضاً على أمور مناسبة في أهمّيتها لأهمّية اليمين، وأنّ الله قاطع بخصوص تلك الأمور[٣] فالله سبحانه يقسم على حتميّة معاقبة الكافرين ويقول: ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾[٤] وذلك لورود الحديث في الآيات السابقة لهذه الآية عن حتميّة وقوع القيامة ومسألة حقانيّة القرآن والرسالة وحتميّة الثواب والعقاب.. فكان التأكيد هنا على هذه الحقائق القرآنيّة قريناً بالقسم، لأنّ عرف العرب كان قائماً عند إرادة تأكيد الوقائع والمسموعات من الأحداث باليمين، ولطالما دعا الله نبيّه إلى هذا الأسلوب.

الفلسفة الثالثة: التأثير في المخاطب: متى ما أوضح المتكلّم خطابه بصورة قاطعة، فإنّ ذلك ممّا يترك الأثر الكبير في قلب المستمع من الناحية الروحيّة والنفسيّة، ويقوّي المؤمنين

١- تفسير الامثل، ج ١٨، ص٣١٦.

٢- نفس المصدر، ج٢٧، ص٣٩.

٣- نفس المصدر، ج ١٨، ص ٣١٦.

٤- سورة يونس / ٥٣.

←

ويليّن المنكرين.[١]

الفلسفة الرابعة: الاستدلال: بملاحظة بعض أيمان القرآن يمكن إدراك أنّ هذه الأيمان تمثل صوراً من الاستدلال، نظير أن يقول الكاتب المؤلف: قسماً بكتابي هذا؛ إنّي لكاتب مؤلّف: ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ولمّا كان القرآن أسمى المعاجز النبوية وخير دليل لنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين.. تراه أصبح في هذه الآية مقسَماً به، وهذا القسم في الحقيقة استدلال على النبوّة وصدقها.

الفلسفة الخامسة: تأكيد لإتمام الحجّة: كان الهدف الإلهي من القسم في بعض الآيات؛ التأكيد لإتمام الحجّة على الأفراد، كما قال سبحانه: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ أو قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ ﴾.[٢]

الفلسفة السادسة: إثبات المقسَم عليه: وإلفات النظر إلى واقعيّة وحقيقة مورد القسم، لاسيّما إذا كان موضع إنكار أو شكٍّ أو توهّم، مثل: الملائكة والقيامة والنفس ووجدان الإنسان (النفس الناطقة واللوّامة) وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ.. ﴾.[٣]

الفلسفة السابعة: إلفات نظر الناس إلى منافع وفوائد الأمور والأشياء التي تمّ القسم بها، مثل الشمس والقمر والنجوم واللّيل والنهار وحتّى التين والزيتون..

الفلسفة الثامنة: ردّ الخرافات والمعتقدات الجاهلة التي كان الناس القدماء، وحتّى الناس المعاصرون يؤمنون بها، كما كان عرب الجاهليّة يعدّون العمل في المساء شؤماً، الأمر

١- تفسير الامثل، ج ١٩، ص ٧.

٢- سورة الحجر / ٩٢.

٣- سورة الصافّات / ١ ـ ٥.

الذي كان يحمّلهم الكثير من الخسائر والأضرار الاقتصادية والاجتماعيّة والأخلاقيّة الكثيرة والكبيرة.. كذلك هم المعاصرون مثل أجيال كلّ عصر يشكون زمنهم ومرحلتهم ويعدّون الإتيان بعمل الخير أمراً صعباً أو غير ممكن، بينما الله تعالى يردّ هذه الخرافة حيث يقسم بالعصر (سورة العصر) بمعنى فترة ما بعد الظهر أو بمعنى الحقبة الزمنيّة..

٦. يقسم الله تعالى في هذه الآية بأنّ المؤمنين الحقيقيين هم المسلّمون لقضاء النبيّ (ص) حين وقوع الاختلاف والنزاع بينهم ولا يتحاكمون إلى الغرباء والطواغيت ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ فهم لا يتحاكمون إليه صلوات الله عليه فحسب ويحترمون قضاءه، بل إنّهم يسلمون لقضائه مطلق التسليم، سواء كان ما قضى في صالحهم أو ضررهم ﴿ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾

٧. رغم أنّ الانزعاج الباطني تجاه الأحكام التي تكون بضرر الإنسان غير اختياريّ، ولكنّه بالتربية القويمة وتنمية روح التسليم مقابل الحقّ والعدل وإجلال المقام السامي للنبيّ الأكرم (ص) يزرع شعوراً في الإنسان بحيث لا يجد حرجاً وانزعاجاً من قضاء الرسول أو أوصيائه.. وعلى أيّ حال؛ فالمسلمون الصادقون موظفون بتنميّة روح التسليم في أنفسهم في مقابل الحقّ..

٨. في الآية أعلاه وردت الإشارة إلى أمارات الإيمان الراسخ والواقعي في ثلاث مراحل:

الأولى: التحاكم في جميع موارد النزاع؛ صغيرها وكبيرها إلى قضاء الرسول صلوات الله عليه وآله الذي هو قضاء الله تعالى، دون التحاكم إلى الطاغوت وحكّام الباطل وعلماء السوء...

الثانية: عدم الانزعاج أبداً من قضاء النبي (ص) وأوامره التي هي أوامر الله تعالى، وعدم إساءة الظنّ بقضائه وتعاليمه..

الثالثة: تنفيذ أحكامه بحذافيرها والتسليم له تمام التسليم.

٩. واضح أنّ قبول مدرسة وتعاليمها في الأمور التي تكون من مصلحة الفرد، لا يدلّ ـ حتماً

وحقّاً. على الإيمان بهذه المدرسة.. وإنّما يتـأكّد الإيمان حينما تكون بضرره في الظاهر، دون الواقع المطابق للحق والعدل، فإذا ما قبلها؛ كان قبوله علامة الإيمان..

١٠. نقرأ في حديث عن مولانا الإمام الصادق(ع) رواه الكليني في (الكافي) الشريف في تفسير هذه الآية: لو أنّ جماعة من الناس عبدت الله وأدّت الصلاة والزكاة وصامت شهر رمضان وأقامت الحجّ، ولكنّها أساءت الظن بما قام به رسول الله(ص)، أو قالت: لو لم يفعل النبيّ فعل كذا لكان خيراً.. ما كانت هذه الجماعة مؤمنة حقّاً، ثمّ إنّه(ع) قرأ الآية محطّ التفسير وقال: عليكم بالتسليم.[1]

١١. هذه الآية من دلائل عصمة النبيّ الأعظم صلوات الله عليه وآله، ذلك لأنّ الأمر بالتسليم المطلق، قولاً وعملاً إزاء جميع أوامره وتعاليمه، بل حتّى التسليم القلبي إزاءه يعدّ أمارة واضحة على أنّه صلوات الله عليه وآله لا يشوبه خطأ في أحكامه وأوامره وقضائه على سبيل السهو أو العمدة.

١٢. نفت هذه الآية الشريفة كلّ اجتهاد في مقابل النصّ النبويّ كما لا يصحّ إبداء الرأي في موارد الحكم الصريح الوارد عن الله تعالى أو عن النبيّ(ص)، وعلى هذا؛ فإن وجدنا في التواريخ حوادث قال فيها البعض نقيض ما هو ثابت عن الله أو الرسول(ص)، أو أبدوا اجتهاداً ورأياً، كقول أحدهم: كان الرسول يقول كذا وأنا أقول كذا.. فلابدّ أن نقول بأنّ موقفه هذا مخالفة صريحة للآية أعلاه وتؤدّي إلى تكذيب الله والرسول...

١- الكافي، ج١، ص٣٩٠

الآية ٦٦

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. الذين يستاؤون من القضاء العادل للرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله؛ عليهم أن يعلموا أنّ الله تعالى يمتحن جميع الناس في الدنيا بأمور مختلفة، وأحد هذه الأمور؛ امتحانهم في كيفيّة التسليم لأوامره ولرسله وأوصيائهم..

٢. هذه الآية وضمن الإشارة إلى بعض التكاليف الصعبة التي ألقيت على كاهل الأمم السابقة تريد القول بأنّ مشكلتهم الرئيسيّة كانت عدم تسليمهم لقضاء الرسول في قضيّة عادية دون أن توصف بالتكليف الشاق.. أمّا إن وُضعوا فيما وضعت فيه الأمم الماضية، مثل اليهود الذين أمروا ـ بعد عبادتهم العجل ـ أن يكفّروا عن وثنيّتهم هذه فيقتلوا أنفسهم، أو أن يخرجوا من ديارهم وأوطانهم، فكيف سيكون موقفهم تجاه مثل هذه التكاليف الشاقّة.. فهم ـ مسلمو المدينة ـ لم يسلموا إزاء حكم في سقي بضع نخيلات، فكيف سينجحون في امتحانات أصعب؟ ولا ريب أنّهم إذا ما وُجهوا بأمر؛ مثل قتل النفس أو النزوح عن الأوطان، فإنّه لن يبقى منهم على إيمانهم وتسليمهم إلّا كهمل النعم: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾.

٣. هذه الآية تبين شيئاً من مظلوميّة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في تحمّل تيّار النفاق وتصرّفات المنافقين وعدم تسليمهم للقضاء النبوي العادل وأذاهم وإساءاتهم.. لاسيّما وأنّ اليهود ورغم

جميع الأعذار التي كانوا يتذرّعون بها حين يؤمرون بأمر أو يمتحنون بامتحان بعد عبادتهم العجل لإثبات مستوى تسليمهم لله تعالى وطاعتهم لرسوله موسى(ع).. فكان موقفهم من الأمر الإلهي بقتل أنفسهم وبالنزوح من ديارهم.. وبعد جملة من الأعذار الواهية.. سلّموا لأمر الله.. ولكنّ بعضاً من المنافقين المرائين في ادّعائهم الإسلام وصحبة الرسول(ص)، كيف سيقبلون حكمه وقضاءه وسيمتثلون لأوامره ووصاياه في عظائم الأمور التي لا يرون في امتثالهم لها نفعاً يعود عليهم.. وهكذا اتّهمه بعضهم -للتنصّل عن الامتثال- بالهجر والهذيان مع أنّه صلوات الله عليه وآله أشرف الأنبياء وأعظم من خلق الله تعالى..

٤. طبقاً لإيضاحات بعض المفسّرين؛ فإنّ مسألة التسليم للأمر بالقتل أو النزوح عن الأوطان متشابهتان من جهات.. ذلك لأنّ البدن بمثابة الوطن لروح الإنسان، كما أنّ الوطن بمثابة الجسم للإنسان، كذلك هو النزوح عن وطن الجسم.. هو أمر صعب وترك للوطن و مسقط الرأس.

٥. يمكن أن يكون السبب في أنّ الآية الشريفة تعبّر عن الأمر الإلهي بالموعظة والنصيحة، لغرض الإشارة إلى أنّ منفعة الامتثال لهذه الأحكام تعود على الناس أنفسهم دون الآمر (الله المتعال)، ولهذا وجدنا القول المباشر أنّ ذلك من صالحكم ويرفد إيمانكم ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾.

٦. بمقدار ما يحظو الإنسان في طريق طاعة وامتثال أمر الله تعالى، يكون ثباته واستقامته أكثر، وفي الواقع؛ إنّ الامتثال للأمر الإلهي نوع رياضة روحيّة، ومواصلة هذا الامتثال بمثابة الرياضة البدنيّة اليوميّة المفيدة في دعم القوّة والقدرة والاستحكام، حتّى يصل الإنسان -بالتدريج- إلى حدٍّ لا تستطيع قوة أن تتغلّب على قوة إيمانه وثباته ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾.

الآية ٦٧

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. نتيجة التسليم والطاعة لله تعالى؛ استحقاق الأجر العظيم من جهته عزّوجلّ ﴿وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيمًا﴾.

٢. يمكن أن يقال ما الفرق بين الأجر الكبير والعظيم والكريم المذكور في القرآن المجيد؟

إنّ صفات (الكبير) و(العظيم) و(الكريم) يمكن أن تكون لها حيثيّة كمّيّة.. مثل مقايسة الكبير بالصغير، أي أنّ هناك أجراً أكبر من أجر. أمّا صفة (العظيم) و(الكريم) فلهما حيثيّة وكيفيّة، فالأجر العظيم له سموّ وعظمة قياساً بما هو أقل سموّاً من الأجر. و(الأجر الكريم) له حيثيّة كيفيّة أيضاً، وله كرامته وقيمته الذاتيّة.. فالله تبارك وتعالى يعطي الصالحين أجراً كريماً، أي أنّه سبحانه كريم بذاته بحيث يعطي بلا منّة ولا يريد جزاءً على ما يعطي بحيث يحقّر عبده، بل يعامله بكرامة ذاته، وهذا ما يوحي بالكيفيّة دون الكمّيّة.

٣. يعد الله عباده بالنظر لحاجتهم مع ملاحظة الزمان والمكان.. والسبب في إعطائه وعوده أنّ من صفة الإنسان قيامه بعمل ما لدى رغبته به.. ممّا يعني أن وعد الله يخلق في الإنسان الباعث والرغبة في القيام بالصالحات..

الآية ٦٨

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. تشير هذه الآية إلى أربع نتائج للتسليم لأحكام الله وأوامره وقضاء رسوله صلوات الله عليه وآله.. ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

٢. واضح أنّ المراد بالهداية ليس مجرد الهداية إلى أصل الدين فحسب، بل إنّ ثَمّ ألطافاً جديدة تصل من جهة الله تعالى تحت مسمّى الهداية الثانويّة والأجر لهكذا أفراد جديرين.. وهي كما أشارت إليه الآية (١٧) من سورة محمد(ص): ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾.

٣. روي أنّه حين نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ قال أحد المؤمنين: والله! لو نزل علينا من الله مثل هذا الأمر الثقيل، لامتثلنا، ولكن نحمد الله أنّه عفانا من ذلك، فبلغ الرسول قول الرجل، فقال: «إنّ من أمّتي لرجالاً؛ الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي».[1]

١- مجمع البيان، ج٣، ص١٠٨ و١٠٩

الآية ٦٩

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾

شأن نزول الآية

جاء صحابي يدعى ثوبان.. وكان عظيم الحبّ والتعلّق بالنبيّ(ص)، وقد استولى عليه القلق، فسأله عن سبب قلقه، فقال: حين ابتعد عنك يصيبني الضيق في نَفسي.. وقد نظرت اليوم أنني لو رزقت الجنّة.. فلا ريب في أنني لن أكون في منزلتك ومقامك من الجنّة، ولن أراك فيها.. أمّا لو حُشرت إلى النار فالأمر أدهى وأمرّ، وهكذا أحرم من جوارك في الحالتين، فكيف لا اضطرب لذلك؟ فنزلت الآية أعلاه وبشّرته وأمثاله بأن الصالحين من المؤمنين؛ المسلّمين لله ورسوله سيكونون إلى جوار النبيّ والمصطفين الأخيار في الجنّة، ثمّ إنّه صلوات الله عليه وآله قال: والله! لا يكمل إيمان امرئ حتّى يحبّني أكثر من حبّه لأبيه وأمّه وذوي قرابته ويسلّم لقولي...[١]

النقاط المستفادة من الآية

١. ضمن الإشارة إلى شرف آخر للمطيعين لأوامر الله والرسول وكذلك إلى الميزات الأربع المذكورة في الآيات السابقة، فإنّ هذه الآية تبشّرهم سيكون في الجنّة مع الذين أنعم الله عليهم: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم... ﴾.

١- نفس المصدر، ص١١٠

٢. كما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ ﴾ في سورة الفاتحة المباركة، فإنّ إتمام النعمة على الصالحين المطيعين أن يحشروا مع الذين أنعم الله عليهم، وهم النبيّون والصدّيقون والصالحون، وهذا ما يستلزم أن يكون المشمولين بهذه النعمة و(المعيّة) سائرين ضمن الصراط المستقيم؛ بعيدين عن أيّ انحراف وتمرّد على إرادة الله والرسول..

٣. هذه الآية الكريمة تبيّن طبيعة الذين أتمّ الله تعالى نعمته عليهم، وتشير إلى أربعة فرق وأركان هذا الموضوع:

الفريق الأوّل: الأنبياء والرسل الذين أوكل الله إليهم مهمّة هداية وقيادة الناس ودعوتهم إلى الصراط المستقيم ﴿ مِّنَ النَّبِيِّينَ ﴾.

الفريق الثاني: الصدّيقون، وهم الصادقون في أقوالهم ويصدّقونها بأفعالهم، ويثبتون بذلك أنّهم ليسوا مدّعين لإيمان فحسب، بل ومطيعون للأوامر الإلهيّة ﴿ وَالصِّدِّيقِينَ ﴾.

الفريق الثالث: الشهداء والقتلى في سبيل الله.. أو الأفراد المميّزون في يوم القيامة ولهم مقام الشهادة على أعمال العباد ﴿ وَالشُّهَدَاء ﴾.

الفريق الرابع: الصالحون الذين لا ينفكّون عن ممارسة الأعمال الصالحة والإيجابيّة المفيدة لهم ولغيرهم، وذلك باتّباعهم الأنبياء والأوصياء ﴿ وَالصَّالِحِينَ ﴾.

٤. بيان وذكر هذه الفرق الأربعة يمكن أن يكون للإشارة إلى ما يوصف بأنّه خريطة لبناء المجتمع الإنساني النزيه والجدير بالحياة الطيّبة.. وقد بدأت الآية بذكر القادة الإلهيّين الذين يخوضون ساحة الصراع ضدّ الشيطان وجنوده، ثمّ يتبع الأنبياء الدعاة الصادقون في القول والعمل ليحققوا أهداف الأنبياء.. وبعد هذه المرحلة، هناك مرحلة الذين يضحّون بأنفسهم ويهدفون إزاحة الموانع الشيطانيّة والجاهلية التي يضعها أعداء الله بحقدهم وحسدهم لتلويث المجتمع.. وبعد ذلك تكون مرحلة (الصالحين) الذين يشكلون ـ أو هكذا ينبغي ـ بنية الكيان الإنساني الذي يريده الله تعالى.. وواضح أنّ الصالحين ـ وللإبقاء على شعلة الحقّ

موقدة منيرة للأجيال اللّاحقة. . مكلّفون بأداء الوظائف المذكورة أعلاه، وهي: القيادة والتبليغ والتضحية.. و(الصدّيق) صيغة مبالغة وهو الذي امتلأ بالصدق والحقّ.

٥. يفهم من كلمة ومصطلح ﴿ وَالصِّدِّيقِينَ ﴾ أن لا مقام أعلى من مقامهم بعد مقام النبوّة.. فهل لا يصدقون في أقوالهم فحسب، وإنّما الصدق؛ كلّ الصدق قد تشبعت به أفعالهم وأمانتهم وإخلاصهم.. ذلك لأنّ الأمانة هي الصدق في العمل، كما أنّ الصدق ينبغي أن يكون في الأمانة.. كما أنّ الصدّيق لا يمكن أن تتغلغل إليه الصفات الرذيلة بعد الكفر، مثل الكذب والنفاق والخيانة قولاً وعملاً..

٦. أكّدت الروايات المعصومة على أنّ الصدّيق (الأكبر) هو أميرالمؤمنين عليه الصلاة والسلام..[1] وهذا التأويل الحقّ. بعد تفسير (الصراط المستقيم) بعليّ وأهل البيت عليهم السلام..[2] مصداق واضح وسامي للآيات؛ بل هو المصداق الأوّل لذلك.. ولعلّ المعنى لا ينحصر بذلك.. وإنّما العظمة الخاصّة بأهل البيت تغطّي كلّ عظمة ومقام.. مع أنّ بعض النصوص قد أشارت إلى أن (الصالحين) هم الأصحاب المخلصين لأهل البيت عليهم السلام.. وهذا ما يرد في (الصدّيقين) أيضاً.

٧. من هذه الآية والآيات السالفة تفهم الحقيقة الواضحة المؤدّية إلى أن معاشرة الصالحين على قدر عظيم من الأهميّة التي تتجلّى في دار الآخرة لإكمال النعمة العظمى في الجنّة للمطيعين.. حيث سيكون لهم المقام الأسمى من كل مقام، وهو مقام مجاورة أهل البيت والأنبياء والشهداء والصالحين سلام الله عليهم أجمعين..

٨. معاشرة ومجاورة المطيعين للفرق الأربعة لا تعني تساويهم في المقام والمرتبة، بل إنّهم مع المجاورة والمعاشرة يكون لكلٍّ منهم درجته وسهمه الخاصّين، كما إن افترضنا بستاناً فيه

١- بصائر الدرجات، ج١، ص٥٣

٢- تفسير القمي، ج١، ص٢٨ وج٢، ص٦٦

الورود والأشجا روالنباتات بأنواعها وأشكالها.. فهي وإن كانت تستوعب نوراً واحداً ومن شمس واحدة؛ إلّا أنّ لكلٍّ منها جمالها ومحبوبيّتها وفائدتها وقيمتها الخاصّة بها..

الآية ٧٠

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. حيث تبيّن هذه الآية المباركة أهمّيّة وعظمة ميزة (مجاورة العظماء) فهي تؤكّد أنّ مصد ر هذه الهبة هو الله تعالى، وهو العليم والعارف بأحوال العباد ونيّاتهم وعقائدهم وجدارتهم واستحقاقهم ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا ﴾

٢. لأنّ شرف المجاورة مع الذين اصطفاهم الربّ الجليل أمر في غاية الأهمّيّة، نرى الآية الكريمة تستعمل كلمة ﴿ ذَلِكَ ﴾ بدلاً من كلمة (هذا) في إشارة إلى عظمة الفضل الإلهي الذي لا ينال ببساطة؛ وإلى سمو المقام الرفيع الذي استحقّه من استحقّه بكرم من الله العليم.

الآية ٧١

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. الحذر على وزن خضر، بمعنى اليقظة والاستعداد والمراقبة إزاء الحظر المحتمل والجدّيّ، وتارة يستعمل الحذر ليكون وسيلة مساعدة لمواجهة الخطر.

٢. الثبات جمع ثبة على وزن هبة، ومعناها الباقة المتفرّقة المتناثرة، وفي الأصل مأخوذة من (الثبي) بمعنى الجمع..

٣. يخاطب القرآن المجيد في هذه الآية عامّة المسلمين لحماية وجودهم واجتماعهم ومجتمعهم، ويأمرهم بذلك بأمرين:

الأمر الأوّل: أيّها المؤمنون في جميع الأمصار والأعصار! خذوا حذركم وانتبهوا على الدوام؛ حفظاً لأمنكم ودفاعاً عن كيانكم وحدودكم، ولتكونوا مستعدّين مادّيّاً ومعنوياً ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾

الأمر الثاني: لمواجهة عدوّكم اتخذوا أساليب واستعملوا خططاً مختلفة وادفعوا عدوكم ضمن فِرق متعدّدة أو في تكتّل واحد ﴿ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا ﴾ أي: لتكن خططكم خططاً ترسمها الحاجة لدى الدفاع أو الهجوم، سواء في ثبات وفرق، أو في جيش وجماعة واحدة..

٤. رغم أنّ بعض المفسّرين فهموا (الحذر) في هذه الآية بكونه السلاح.. إلّا أنّنا نذهب إلى القول بتعدّد معانيه وأنّه غير مخصوص بالسلاح، هذا فضلاً عن أنّ الآية (١٠٢) من هذه السورة

الجليلة دليل واضح على أنّ الحذر يتفاوت عن السلاح، حيث قالت: ﴿ أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ فلا مانع حين الضرورة أن يضع المقاتل سلاحه أرضاً ويقيم الصلاة، ولكن الحذر يعني الحراسة والاستعداد والمراقبة على الدوام..

٥. إنّ معنى الحذر له من الشمول بحيث يتضمّن كلّ وسيلة مادّيّة ومعنويّة، ومن جملة ذلك أنّ على المسلمين أن يكونوا على علم ـ في كلّ وقت ـ بموقع العدو ونوع سلاحه وأساليبه الحربيّة ومدى استعداده وعدد ونوع سلاحه (مضافاً إلى حرصهم الشديد على إخفاء كلّ ذلك ممّا لديهم عن العدوّ) لأنّ جميع هذه الأمور مؤثّرة في الوقاية من خطر العدو وإحراز وتحقيق مفهوم الحذر، بالإضافة إلى أن الدفاع عن النفس يستلزم كلّ أشكال الاستعداد النفسيّ والمعنويّ، والاستفادة من التعبئة الاقتصاديّة والإنسانيّة والثقافيّة واستعمال أفضل وأمضى الأسلحة بالأساليب المتاحة.

٦. لا ريب في أنّ المسلمين لو حكّموا هذه الآية لوحدها في حياتهم، لما تعرّضوا لخسارة وفشل أبداً.

٧. كما تشير هذه الآية إلى عدم صحّة الاكتفاء بأسلوب واحد وخطّة واحدة في الحرب، وإنّما لابدّ من ملاحظة مقتضيات الزمان والمكان وطبيعة موقع العدو، فإذا استلزم حال العدو مواجهته بمجاميع متعدّدة؛ أو بكتلة واحدة، كان على المؤمنين أن يراعوا الضرورة في ذلك.

٨. واضح بيّن أنّ إصرار البعض على أن يواجه المسلمون أعداءهم بأسلوب واحد، دون تنويع للخطط والمواقف، أنّهم لا يتّفقون وروح التعاليم الإسلاميّة، فضلاً عن كونهم مفتقرين للتجربة والمنطق السليم.

٩. يمكن أن تشير هذه الآية إلى أنّ القضيّة المهمّة هي تحقيق الأهداف الواقعيّة المشروعة، سواء استدعت هذه الأهداف استخدام أسلوب واحد أو أساليب متعدّدة مختلفة.

١٠. يفهم من كلمة ﴿ جَمِيعًا ﴾ أنّ مواجهة العدو تستلزم مشاركة جميع المسلمين، ولا

خصوصيّة لجماعة معيّنة في هذا الحكم.

١١. طبقاً للتجربة وحكم التاريخ؛ ولأنّ العدوّ لا يواجه المسلمين من الجهة العسكرية فحسب، لابدّ للمسلمين من أخذ جانب الحيطة والحذر، دون الاكتفاء بالاستعداد العسكري، وعليهم ـ لدى ذلك ـ بالاستعداد العام وعلى الأصعدة الثقافيّة والإعلاميّة والسياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة لضمان أكبر معدل ونسبة من النجاح والانتصار...

الآية ٧٢

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. تتمّة للأمر بالنفير العام للجهاد والاستعداد للعدو والذي أوردته الآية السالفة، تتطرّق هذه الآية إلى حال جمع من المنافقين وتشير إلى ازدواجيّتهم الشخصيّة والسلوكيّة وامتناعهم عن القتال إلى صفِّ المؤمنين ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾

٢. إشارة إلى خطر المنافقين في هذه الآية.. فبعد الدعوة إلى واجب الاستعداد في مقابل العدوّ الكافر، تبيّن الآية حقيقة أنّ المسلمين لا ينبغي لهم الاكتفاء بالاصطفاف ومواجهة الأعداء الخارجيّين، بل عليهم أن يعلموا أنّ النجاح في مقابل جبهة الكفر يستدعي الحذر من الأعداء المنافقين الداخليّين..

٣. لأنّ مهمّة المنافقين خلق الشكوك ونشر التخاذل بين المؤمنين فهم يصوّرون عدم المشاركة في الجهاد والقتل في سبيل الله نعمةً ﴿ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾!! ولكنّ المنافق هذا إن علم بانتصار المسلمين ونيلهم الغنائم؛ قال متحسّراً وكأنّه لا علاقة له بالمؤمنين المنتصرين: ليتني التحقت بصفوف المجاهدين لأنال نصيباً ممّا كسبوا...

الآية ٧٣

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. رغم عدم التطرّق للغنيمة في الآية الماضية، ولكنّ الواضح في الأمر أنّ الذي يعدّ عدم الجهاد والاستشهاد في سبيل الله نعمةً، وأنّ القتل في هذا المضمار نوع مصيبة وبلاء.

٢. لهذا الفرد ومن هم على شاكلته من المنافقين ذوي الشخصيّة الإزدواجيّة، موجودون في كلّ مجتمع - ومع الأسف - فهم يتلوّنون مع كلّ انتصار أو هزيمة تلحق بالمؤمنين الحقيقيّين، فلا يتحسسون آلامهم ولا يشتركون فيما يصيبهم، ولكنهم يتوقّعون أن يكون لهم سهمهم عند الانتصار...

الآية ٧٤

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ
يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. حيث أنّ هذه الآيات القرآنيّة نزلت في وقت كان الأعداء بمختلف مشاربهم يهدّدون الإسلام، فإنّ أهمّيّتها الفائقة ـ الآيات ـ في تربية الروح الجهاديّة في المسلمين أكثر فأكثر.

٢. الوحيدون القادرون على أن يكونوا مجاهدين بحقٍّ ويقين في سبيل الله ليستبدلوا هذه الدنيا الدنيئة بحياة سعيدة أبديّة: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ﴾.

٣. حياة المادّة تتّضح دناءتها من كلمة (الدنيا) بمعنى التسافل والحقارة حيث لا أهمّيّة لها بالقياس إلى الحياة الأخرويّة الخالدة، وعليه؛ فإنّ الذين يظنون الأصالة والقيمة في الدنيا ويضعونها أعلى من الأهداف الإلهيّة المقدّسة والأغراض الإنسانيّة النبيلة؛ لن يكونوا في وقت من الأوقات مجاهدين ممتازين.

٤. مصير المجاهدين العارفين بغدر هذه الدنيا، والذين عافوها صادقين في ميادين الجهاد ومواجهة الكفر وأعداء الله والإنسانيّة.. مصير واضح متوقّع، وذلك أنّهم لا يخرجون عن حالتين: إمّا أن يقتلوا في سبيل الله، وإمّا أن يدحروا العدوّ الغاشم وينتصروا عليه، وفي كلتا الحالتين يكون لهم الأجر العظيم.. ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَويَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ولا ريب أنّ هكذا جنود لا يعرفون للهزيمة معنىً، وهم منتصرون في جميع الأحوال..

ومثل هذه المعنويّة الفذّة تكفي بتوفير وسائل النصر على العدوّ، والتاريخ يشهد أنّ أحد عوامل النصر المباغت للمسلمين هو تفوّقهم بمعنويّاتهم العالية التي لا يعرف قاموسهم بها معنى للهزيمة.. ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا. ﴾

حتّى أنّ العلماء والمؤرّخين الذين نقّبوا في طبيعة الإسلام والانتصارات الإسلاميّة الفذّة في العصر النبويّ أكّدوا هذا المنطق وعدّوه أحد العوامل المؤثّرة في تقدّم المسلمين وانتصاراتهم.

وقد كتب أحد المؤرّخين العرب المعروفين في كتابه: كان المسلمون وببركة دينهم الجديد والجزاء الأوفى الذي وعدهم الله إيّاه في الآخرة، كانوا لا يخشون الموت أبداً، ولا يعيرون للحياة الدنيا أهمّيّة، فكانوا يغضون الطرف عنها... جدير ذكره؛ أنّ الآية أعلاه ـ كما هي الآيات القرآنيّة الأخرى ـ قد عدّت القتال في سبيل الله شأناً مقدّساً، لتضمّنه المبادئ الفذّة القائلة بنجاة عباد الله تعالى وتحكيم أصول الحقّ والعدالة والتقوى، دون أن يكون قتال المؤمنين من أجل التوسّع والعنصريّة والتوحّش واستثمار واستعمار الشعوب الأخرى...

الآية ٧٥

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. هذه الآية وبإثارتها العواطف الإنسانيّة لدى المؤمنين، وبدعوتهم للجهاد وتذكيرهم بمآسي المؤمنين المستضعفين في مكّة ودعائهم بالنجاة من ظلم قريش الظالمة، تقول لهم: لمَ لا تجاهدون في سبيل الله لإنقاذ الرجال والنساء والأطفال الأبرياء والمظلومين الرازحين تحت نير الظالمين؟.. وهل أنّ عواطفكم الإنسانيّة تسمح لكم بالصمت ومشاهدة كل تلك المظالم؟ ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ ﴾؟

٢. حين المصائب والعسر؛ يكون اللجوء إلى الله تعالى أول وأفضل وسيلة للخلاص: ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾.

٣. العبارة الأخيرة: ﴿ وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ تبيّن حقيقة أنّ الله المتعال قد استجاب دعوات المسلمين التابعين تحت مظلّة الظلم والجور، ولكنّه جعل تفعيل وتحقيق هذه الدعوة ـ كرسالة إنسانية نبيلة ـ على عاتق المؤمنين المجاهدين، وقال لهم: أنتم الأولياء والناصرون لدعم وإنقاذ أولئك المؤمنين المظلومين، وعليه؛ فلا تفرّطوا بهذه الفرصة العظيمة ببساطة..

٤. الإسلام يرى أنّ البيئة المناسبة للعيش، هي التي يمكن أن تمارس فيها حرّيّة العقيدة الصحيحة واتخاذ المواقف والقرارات طبقاً لها.. وإلّا؛ فإنّ مكّة المكرّمة وهي الحرم الإلهي الآمن والأرض التي وردت فيها الروايات القائلة بأنّ «النائم في مكّة كالمتهجّد في البلدان»[1] ولكن حيث لا تتوفّر فيها الفرصة لعبادة الله جلّ وعلا بحرّيّة لأهلها، بل حيث لا يجرؤ فيها الإنسان على إعلان إسلامه.. فإنّ هذه الأرض المقدّسة لا تكون قابلة بالعيش.. حتّى أن أهلها أضحوا يتمنّون الخروج والنزوح عن بيئتها الظالمة وتحمّل آلام الهجرة وعسرها، لأنّ هذه البيئة أصبحت مركزاً لممارسات الظالمين.

٥. واضح أنّه وطبقاً لهذه الآية، صار الجهاد في الإسلام ضامناً لتحقيق الأهداف الإلهيّة والإنسانية العليا، وهي الأهداف التي لا تنفكّ عن بعضها وتنتهي إلى حقيقة واحدة.. ولكنّها ليست لمصادرة أموال الآخرين أو لإحراز المناصب والثروات الطبيعيّة والمواد الخام للبلدان الأخرى، أو للاستيلاء على الأسواق وفتحها، أو فرض العقائد والسياسات، بل هي من أجل نشر الأصول والفضائل والإيمان والدفاع عن المظلومين من الرجال والنساء والأطفال المظلومين..

٦. نقرأ في ذيل الآية أعلاه أنّ المسلمين التابعين تحت براثن الأعداء قد طلبوا الولي الناصر من جهة الله تعالى لينصرهم وينقذهم من سطوة الظالمين.. فكان طلبهم بدءاً وجود القائد والناصر والحريص على إنقاذهم ثم الأفراد والمجاميع الناصرة، وعليه؛ فإنّ وجود الناصر؛ وإن كان كثيراً متعدّداً، فإنّه لن يؤتي أكله ما لم يتوفّر القائد المؤمن الفذّ..

٧. المؤمنون يطلبون من الله تعالى كلّ شيء، ولا يمدّون أكفّهم لغيره، وحتّى إن طلبوا الولي والناصر، فهم يطلبون منه وحده سبحانه وتعالى..

١- من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٢٢٨

الآية ٧٦

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. أمام الإنسان في مسار دنياه طريقان وليس أكثر، إمّا الإيمان بالله وطاعته، وإمّا الكفر بالله وطاعة الشيطان: «في سبيل الله، في سبيل الطاغوت».

٢. روعة الجهاد فيما إذا كان فيه رضا لله تعالى، ورضا الله يكون حينما يصطبغ الجهاد الإلهي وفي سبيل الله؛ لا في سبيل الطاغوت.

٣. الجهاد الإسلامي شُرع لحفظ دين الله، وليس لفتح البلدان أو للانتقام ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾

٤. وإن كان للأعداء خطط، أمّا الطاغوت والقوى الطاغوتيّة والظالمة؛ فهي مهما تظاهرت بالعظمة والقوّة، إلّا أنّها خاوية ضعيفة من الداخل، فلا تخشوا ظاهرهم وقوّتهم، لأنّهم فارغون من ذواتهم.. وتلك خططهم ضعيفة كما هي قدراتهم؛ لأنّهم لا يعتمدون على القوّة الإلهيّة الأزليّة، وإنّما هم يتكؤون على القوى الشيطانيّة، وعاقبة الطاغوت وطريق الشيطان الفشل ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾.

٥. لأنّ فعل ﴿ كَانَ ﴾ في هذه الآية يدلّ على الاستمرار، فعليه؛ ينبغي القول إنّ كيد الشيطان ومكره ضعيف أبداً في مقابل الله جلّ جلاله، وهذا ما لا يختصّ بزمن معيّن، وقد كان الشيطان ضعيفاً إزاء العقل والوحي الإلهي، ومن هنا؛ إن خسر أحدهم في مواجهة الشيطان، عليه أن

يعلم بأنّه قد هُزم من عدوٍّ ضعيف، ولا بدّ من كونه ضعيف النفس ليهزمه عدوٌّ ضعيف.

٦. لا شكّ أنّ دليل ضعف الشيطان وعجزه في مقابل أولياء الله، أنّ المؤمنين يخطون في مسار أهدافٍ وحقائق متطابقة وقانون الخلقة.. فهم ـ مثلاً ـ يسعون حثيثاً في طريق تحرير الإنسان وإزاحة مظاهر الظلم والجور. بينما الذين يسيرون في إطار الاستعمار واستغلال البشر والشهوات العابرة إنّما هم حزب الشيطان، وليس لهذه المصاديق سوى التأثير المباشر وغير المباشر في تدمير المجتمع والسير فيما يناقض قانون الخلقة.. أمّا المؤمنون؛ فباعتمادهم على القوى المعنويّة لهم ثقتهم واطمئنانهم الذي يضمن فوزهم ويرفدهم بالقوّة، دون غيرهم من حزب الشيطان الذين لا متّكأ لهم يعتمدونه ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

٧. في هذه الآية وقع بيان العلاقة التامّة بين الطاغوت والشيطان، وكيف أنّ الطاغوت يستمدّ من القوى الشيطانيّة المختلفة إلى الحدّ الذي قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾.[1]

٨. ينبغي أن نعلم أن اعتبار الشيطان ضعيفاً لدى العلاقة بين الله وأوليائه، وليس بالقياس إلى أتباعه الضالين المستسلمين لوساوسه...

١- سورة الأعراف / ٢٧.

الآية ٧٧

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ
كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا
قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

شأن نزول الآية

نقل جمع من المفسّرين مثل الشيخ الطوسي مؤلّف تفسير (التبيان) ومؤلّفي (تفسير القرطبي) و(المنار) عن ابن عبّاس أن جمعاً من المسلمين كانوا في مكّة يتعرّضون لأنواع الأذى من المشركين، فجاؤوا الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله وقالوا: كنّا قبل الإسلام أعزّاء مهابين، ولكنّ حالنا تبدّلت بعد الإسلام، فذهب منا احترامنا ولا نزال نؤذى من أعدائنا، فإن أذنت لنا في حربهم لنعيد عزّتنا، فقال(ص) حينها: لم يؤذن لي بالحرب... ولكن حين وقعت الهجرة إلى المدينة وتهيّأت دوافع الحرب ونزل الأمر من الله تعالى بالجهاد، راح بعض من الأفراد الذين كانوا متحمّسين حتّى الأمس القريب يتنصّلون من الجهاد، حيث لم تعد فيهم تلك الحماسة.. فنزلت الآية أعلاه وهي تشجع المسلمين على الجهاد من جهة، وتلوم قوماً منهم على انطفاء جذوة الصدق في مقارعة العدوّ من جهة أخرى...[١]

١- التبيان، ج٣، ص٢٦١ وتفسير القرطبي ، ج٥، ص٢٨١ وتفسير المنار، ج٥، ص٢٦٢

النقاط المستفادة من الآية

١. بناء الذات مقدّم على بناء المجتمع: ﴿ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ﴾.

٣. صعوبة الجهاد بالمال والنفس؛ على خلاف الطبع الإنساني في كلّ حال، والخوف هو أحد الخصوصيّات الذاتيّة للناس، ولهذا؛ يمكن للإنسان المسلم وطبعاً لمشاعره؛ يميل إلى الجهاد في ظاهر الأمر، أمّا حين العمل وحيث لم يتكرّس الإيمان في أعماقه، تراه يتحجّج ويعتذر عن خوض الجهاد ويتهرّب من التكليف.

٤. سؤال: ترى ما العلّة في ذكر الصلاة والزكاة من بين جميع التعاليم الإسلاميّة، والحال أنّ هذه التعاليم غير منحصرة بهذين الأمرين؟

الإجابة على هذا السؤال هي أنّ الصلاة رمز للعلاقة مع الله تعالى، فيما الزكاة رمز للعلاقة مع خلق الله تعالى، وعلى هذا؛ يكون المراد من تكليف المسلمين بتحكيم العلاقة بالله وبعباده، تهيئة جسم الإنسان وروحه ومجتمعه للجهاد وبناء الذات، ولا ريب أنّ كلّ جهاد يخلو من الاستعداد الروحي والجسمي، ومن العلاقات الاجتماعيّة الرصينة؛ محكوم بالفشل والهزيمة سلفاً.. ولا ريب أنّ المسلم وتحت مظلّة الصلاة والمناجاة مع الله تعالى يقوّي نفسه وروحه ويربّيها ويكرّس استعداده لأشكال التضحية والفداء، من خلال الزكاة يسد ما حدث للمجتمع من ثلمات، ومن حيث إعداد الأفراد المجرّبين والأدوات الحربيّة؛ تعدّ الزكاة من الدعامات الاقتصاديّة لأعدائهم، وسيكونون حين صدور أمر الجهاد على أتمّ الاستعداد لمقارعة الأعداء.

٥. نعلم أنّ قانون الزكاة قد فرض في المدينة، ولم يجب حين كان المسلمون في مكّة، وبهذا؛ كيف يمكن للآية أعلاه أن تكون إشارة لأوضاع المسلمين في مكّة؟ ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾.

لدى الإجابة على هذا السؤال يكتفى بقول المرحوم الشيخ الطوسي في تفسيره (التبيان): المراد من الزكاة في هذه الآية هو الزكاة المستحبّة حيث كان المسلمون في مكّة، أي أنّ القرآن

كان يشجّع المسلمين (حتّى في مكّة) على مساعدة الفقراء والعمل على تحسين أوضاع حديثي الإسلام.

٦. هذه الآية تبيّن حقيقة مهمّة في الرسالة المحمّديّة، وهي أنّ مسلمي مكّة كان لهم منهجهم الذي يتفاوت مع منهجهم في المدينة.. ففترة الثلاثة عشر سنة في مكّة كانت فترة بناء الشخصيّة الإنسانيّة المسلمة، ولطالما سعى النبيّ الأكرم(ص) وبتعليماته المتواصلة في اللّيل والنهار إلى بناء أفراد. بعد هجرهم للأصنام وخرافات الجاهليّة. تتوفّر فيهم القدرة على الصمود بوجه حوادث الحياة، واستعدادهم للتضحية والفداء.. ولولا الفترة المكّيّة؛ ما حقّق المسلمون انتصاراتهم الباهرة والمستمرة في الفترة المدنيّة.[1]

٧. فترة ومرحلة مكّة بالنسبة للمسلمين كانت فترة ومرحلة تعليم وإعداد، ولهذا نرى أنّ حوالي تسعين سورة قرآنيّة من أصل مئة وأربع عشرة سورة قد نزلت في مكّة، وكانت لغتها الغالبة لغة عقائديّة، فيما الفترة المدنيّة كانت فترة تأسيس الحكومة الإسلاميّة وتشييد المجتمع السالم، ومن هنا؛ لم يكن جهاد القتال واجباً في مكة ولا الزكاة، لأنّ الجهاد من وظائف الحكومة الإسلاميّة، كما هو شأن تأسيس بيت المال.

٨. القرآن المجيد خاطب المرعوبين من لمعان سيوف الكافرين والخائفين من تأدية فريضة جهاد المعتدين على حرمة الاسلام والمعتذرين عن الفداء والتضحية.. خاطبهم بالقول: لعلّكم بترككم فريضة الجهاد تنعمون بالعيش أياماً معدودات.. ولكن عليكم أن تعلموا أن معيشتكم وحياتكم، بل وكلّ أيّام الدنيا؛ فانية زائلة ولا قيمة لها، إلّا أن يؤمر فيها بمعروف وينهى عن منكر.. ولكنّ الحياة الأبديّة للمتقين هي الحياة القيّمة، وهنالك ينال المتقي أجره

١- ولابدّ من الإشارة هنا إلى الدور الأكثر روعة لأميرالمؤمنين عليه السلام في تحقيق تلكم الانتصارات، وهو الذي كان غنيّاً عن تلك الفترة المكّيّة، خصوصاً وأن الكثير من المسلمين كانوا يتقمّصون دور النظّارة تجاه المخاصمات المريرة التي يتعرّض لها الإسلام [المترجم].

كاملاً ولا يظلم شيئاً: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾.

الآية ٧٨

أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. بالالتفات إلى الآيات السابقة واللّاحقة يفهم أنّ هذه الآية والآية التي تليها متعلّقة بجمع من المنافقين الذين كانوا يعيشون بين المسلمين، ويخشون المشاركة في ميادين القتال، وينزعجون لدى صدور الأمر بالجهاد.. فيما القرآن هنا يردّ على طبيعة تفكيرهم بإجابتين:

الأولى: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾.

والثانية: نقرأها في هذه الآية، وهي: ما هي الفائدة التي يجنيها المنافق من محاولته الفرار من الموت، في حين أنّ الموت يلاحقه أينما حلّ وارتحل، إذ لابدّ أن يلاقيه الإنسان ولو كان في بروج مشيّدة.. وعليه؛ فإنّ من الأجدى أن يكون الموت المحتوم وغير القابل للاجتناب ضمن المسار الصحيح والبنّاء؛ مثل الجهاد في سبيل الله، وليس في طريق العبث والنفاق والازدواجيّة ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾.

٣. قد عبّر الله تعالى في آيات عديدة، مثل الآية (٩٩) من سورة الحجر والآية (٤٨) من سورة المدّثّر؛ عبّر عن الموت باليقين، ومعنى هذا أنّ أيّ إنسان يمكنه أن يجحد الله جلّ جلاله أو أن ينكر بعثة الأنبياء والأئمّة عليهم أو ينكر أيّ شيء آخر، ما خلا الموت وحتميّته وواقعيته، إذ أنّه يرى الموت ويلمسه في كلّ آن.

٤. تحذّر الآيات القرآنيّة ـ فيما يتعلّق بالموت ـ الأفراد المتشبّثين بالحياة الدنيا ويساوون بين الموت وبين الفناء والعدم المطلق ويحاولون التهرّب من اسم الموت ومظاهره، تحذرهم من أنّ الموت يلاقيهم لا محالة وذات يوم بشكل مباشر كما هي الآية الثامنة من سورة الجمعة المباركة: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾.

٥. جدير بالالتفات إلى أنّ كلمة ﴿ يُدْرِككُّمُ ﴾ بمعنى أن شخصاً يهرب من شيء يتبعه، والقرآن بهذه الكلمة يريد تذكير الناس بأن لا جدوى من محاولات الفرار من الموت، باعتباره من الأمور القطعيّة في عالم الوجود: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾.

٦. لعلّ القلاع والأبنية العتيدة والعظيمة يمكن أن تمنع أو تؤخّر بعض حالات الموت غير الطبيعية، ولكنّها ـ على سبيل القطع ـ لا تستطيع إزاحة الموت على الدوام، لأنّ الميتة غير الطبيعية تباغت الإنسان من الخارج، أمّا الموت الطبيعي والعادي؛ وخلافاً لتصوّر الإنسان لا يأتيه من جهة الخارج، وإنّما ينبع من داخله، نظراً لأنّ أعضاء البدن الإنساني محدودة على كلّ حال؛ ولا بد أن تستنفد طاقتها ذات لحظة، ولذا؛ فإنّ البروج العتيدة المشيّدة لا أثر ولا دور لها في درء الموت عمّن استنفد لحظات عمره المحدود..

٧. ترى هل أنّ عقل الإنسان ومنطقه يحكمان ـ بوجود واقعيّة الموت وعلى فرض إمكانيّة استمراره في الحياة بضعة أيّام أكثر وبرفض التوجّه إلى ساحة الجهاد والقتال والقتل في سبيل الله تعالى ـ باختيار ميتة الفراش والحرمان من ثواب المجاهدين في الله تبارك وتعالى؟!

٨. اليهود والمنافقون المعادون للإسلام، وبغرض إيذاء الرسول(ص)، وبتصوير أنفسهم أصدقاء للدين لإبقاء بعض البسطاء في جهلهم وغفلتهم، وبهدف الفصل بين الله وبين الرسول، تراهم ينسبون النصر إلى الله تعالى، وينسبون الهزيمة إلى الرسول(ص) وإلى تدبيره: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾

٩. آيات عديدة مثل الآيتين (٣ و٤) من سورة النجم تبيّن حقيقة وأصل أنّ ما تصدر عن

النبيّ من قول وفعل وتقرير إنّما هو من عند الله سبحانه.[1]

١٠. حسب رؤيّة الموحّد الواعي؛ فإنّ جميع الحوادث والانتصارات والهزائم تصدر عن الله سبحانه طبقاً لجدارة الناس: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللهِ ﴾.

١١. قوله تعالى: ﴿ لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ هو نوع اعتراض وتعريض بعدم التفكير الواعي والإدراك العميق لموضوعات حياة هؤلاء المنافقين واليهود غير المستعدين لدرك الحقائق وتقبّل الحقائق...

١- ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾.

الآية ٧٩

مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. جميع النجاحات والانتصارات والحسنات التي تكون من نصيبك هي من قبل الله تعالى، أمّا السّيئات والهزائم والآلام؛ فمن نفسك أيّها الإنسان.. وذلك لأنّ الله مصدر كل خير، بينما الإنسان ـ الظلوم الجهول ـ يتسبب بالانكسار لنفسه.

٢. الذين ينسبون الهزيمة والفشل الذي يصيبهم لرسول الله(ص)، عليهم أن يعلموا بأنّ الله هو الذي أرسله للناس. والله هو الشاهد على هذا المطلب.. وشهادته كافية، فهل من الممكن أن يكون مبعوث الربّ سبباً في الهزيمة والفشل والسوء الذي يلحق بالناس ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ﴾.

٣. بملاحظة هاتين الآيتين اللّتين وردتا في القرآن متتاليتين، ثم سؤال يطرح نفسه، وهو: كيف يمكن لهاتين الآيتين المتتاليتين أن تتضمّنا هذا الاختلاف؟ ولماذا نسبت الآية الماضية صدور جميع التوفيق والحسنات والسيئات عن الله تعالى.. وفي هذه الآية نسب النجاح إلى الله والفشل إلى الناس؟

بالقراءة الدقيقة في مضمون الآيتين نلاحظ نقاطاً عدّة، يمكن لكلّ واحدة منها أن تكون إجابة منفصلة على السؤال المتقدم..

النقطة الأولى: لا ريب في أنّ كلّ عمل سيء له بعدان؛ إيجابيّ وسلبيّ... فالبعد السلبيّ هو الذي يضفي بالمظهر السيء عليه ويصور على هيئة خسارة نسبيّة.. مثل إنسان يقتل بريئاً بسلاح بارد، وهو بذلك يكون قد ارتكب فعلاً سيّئاً مشيناً.. وبالتحقيق في أصل وجذر هذا

الفعل السيء. سيلاحظ أنّه يتضمّن أموراً إيجابيّة، مثل استعمال القوّة الإنسانيّة والتفكير الإنساني والانتفاع من الفرصة المناسبة، والاستهداف الدقيق.. وهذا وغيره بمثابة وجوه المسألة الإيجابيّة، لأنّها جميعاً إذا ما تمّت في موضعها المناسب أمكن لها أن تكون مفيدة نافعة ولها أن تساهم في حلّ كثير من المشكلات الكبيرة.. أمّا البعد السلبي في القضية؛ فهو أنّ جميع ذلك قد تمّ في غير موضعه المناسب.. فبدلاً من استخدام القوّة والدقّة في دفع خطر حيوان شرس، أو في التخلّص من قاتل خطير. نراه قد استخدم في القضاء على إنسان بريء واغتياله.. وهذا البعد السلبيّ الأخير قد أضفى على فعل القتل صبغة وحقيقة سيّئتين.. وإلّا فإنّ قابلية التهديف وكذلك أصل القوّة أو مضيّ السلاح؛ لها ولأقرانها وجوه استفادة عديدة.. ومن هنا؛ إذا كانت جميع الحسنات والسيّئات قد نسبت في الآية الأولى إلى الله تعالى، فذلك بداعي أن كلّ جذور وأصول القوة والقابليّة، بما فيها القابليّات التي يمكن استعمالها في البعد القبيح، هي من الله تعالى، كما أنّه مصدر البعد الإيجابي لكلّ قوّة وقابليّة.. أمّا الآية الثانية التي نسبت السيّئات إلى الناس؛ فهي قد أشارت إلى هذا البعد السلبيّ وإساءة استخدام المواهب والقدرات التي جعلها الله ووضعها في الأشياء.. وهذا مثل أبٍ يهب ولده مالاً ليبني لنفسه بيتاً، ولكنّ هذا الولد ينفق المال في المفاسد أو تأسيس مركز للفساد.. ولا شكّ في هذه الحالة أنّ أصل المال والعطاء عائدان إلى الأب، ولكنّ إساءة التصرّف مردودة على الولد..

النقطة الثانية: يمكن أن تشير الآية إلى مسألة (الأمر بين أمرين) التي تبحث في العادة في عقيدة الجبر أو التفويض، وخلاصتها أنّ جميع الأحداث الواقعة في العالم، بما فيها أعمالنا وما يصدر عنّا من حسنات أو سيّئات.. مرتبطة بالله تعالى من زاوية من الزوايا، لأنّه هو الذي وهبنا القدرة وحرّيّة الإرادة، وعليه؛ فإنّ ما نختاره ليس مخالفاً لإرادته سبحانه، ولكنّ أعمالنا في الوقت نفسه تنسب لنا وتصدر عنّا، لأنّ العامل المصيري في العمل هو إرادتنا واختيارنا، ولهذا السبب نكون مسؤولين عن تصرفاتنا وأفعالنا، ونسبة أفعالنا الى الله ـ من حيثيّة أخرى ـ لا

تسلب عنا مسؤوليّتنا ولا توجب القول بعقيدة الجبر..

النقطة الثالثة: القول بأنّ الحسنات والسيئات من الله عزّوجلّ إشارة إلى فاعلية الربّ المقتدر تجاه كلّ شيء وفي كلّ أمر.. والقول بأنّ: السيّئات منكم، إشارة إلى دورنا وفاعليّتنا وإلى مسألة إرادتنا واختيارنا.. وفي الحقيقة، إنّ مجموع الآيتين تثبت القول بأنّ الأمر بين أمرين..

النقطة الرابعة: أنّ ثم تفسيراً آخر لهاتين الآيتين، وقد أشير إليه في روايات أهل البيت(ع)، وهو: أنّ المراد بالسيّئات؛ الجزاء على الأعمال والعقوبات على المعاصي.. ولا ريب في أنّ الجزاء والعقوبة من الله تعالى، ولكن لكونها نتيجة لأفعال العباد؛ تراها تنسب تارة إليهم وفي أخرى إلى الله عزّوجلّ، والنسبتان صحيحتان؛ كلّاً من حيثيتها، كالقول مثلاً: إنّ القاضي قطع يد السارق... أو: إنّ السارق قطع، أو: تسبّب في قطع يد نفسه...

الآية ٨٠

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. طبقاً لهذه الآية، كان من البديهيّ أنّ سنة الرسول(ص) وحي إلهي، لأنّ قوله وفعله ناشئان من الأمر الإلهي، وهو لا يخطو خطوة خلافاً لذلك، وعليه؛ كانت إطاعة الله من إطاعة النبي(ص) ولا يمكن تصور الفصل بينهما ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾

٢. (الحفيظ) صفة مشبّهة، وتعني الحارس المراقب لشيءٍ على الدوام، وتعطي معنى الثبات والمداومة، وتتفاوت في المعنى مع الحافظ الذي هو اسم فاعل.

٣. مسؤوليّة النبيّ(ص) مسؤوليّة قيادية وهادية وداعية إلى الحقّ ومواجهة الفساد بكلّ أشكاله وأقسامه. وإذا ما أصرّ الناس على المسير في جادة الباطل والانحراف، فإنّ النبيّ لا مسؤوليّة عليه في إطار انحرافهم ولا هو مكلّف باستعمال القوّة ضدّهم، ولهذا إذا عمد الإنسان إلى عصيان الرسول ثمّ أصابه الفشل والهزيمة، فهو المسؤول عن ذلك ﴿ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾

٤. لا شكّ في أنّ مفاد هذه الآية أحد أوضح دروس الآيات القرآنيّة الدالّة على حجيّة السنّة النبويّة والالتزام بما جاء فيها، وعليه؛ فإنّ أحداً لا يستطيع القول بأنّه يقبل القرآن ويرفض المأثور النبويّ، لأنّ هذه الآية تصرّح بأنّ إطاعة الحديث النبويّ إطاعة لأمر الله تعالى وإرادته..

٥. يجب الالتفات إلى أنّه وطبقاً لحديث الثقلين المروي في مصادر المسلمين عامّة، وحينما يضع النبيّ(ص) أحاديث أهل البيت عليهم الصلاة والسلام إلى جانب القرآن، يكون

قد جعلهما الحجّة القاطعة على العباد؛ فلا يجوز تجاهل واحدٍ منهما.. ويفهم من خلال ضمّ هذه الآية إلى حديث الثقلين أنّ إطاعة تعاليم وأوامر ومناهي أهل البيت عليهم السلام إطاعة مباشرة لله جلّ وعلا، ولا يقبل من أحد أن يدّعي قبوله للقرآن ورفضه أحاديث العترة النبويّة المطهّرة، لأنّ هذا الادّعاء مناقض لهذه الآية وشبيهاتها..

٦. بناءً على عديد من الروايات الواردة في تفسير (البرهان) في ذيل هذه الآية،[١] نصل إلى الحقيقة الناصعة أدناه:

حيث أعطى الله ـ طبقاً لهذه الآية ـ حقّ الأمر والنهي لرسوله الكريم (ص)، ثمّ أعطى النبيّ هذا الحقّ عليّاً وآل عليٍّ عليهم السلام (وحصره فيهم)؛ فصار الناس إلى يوم القيامة ملزمين بطاعتهم طاعة مطلقة دائمة، لأنّ أمرهم ونهيهم ملزمان وصادران عن الله تعالى، ولا يمكن تصوّر الفصل بين إرادتهم وارادته سبحانه، بل لا مناص من القول إنّ إرادتهم في كلّ شيء وفي كل حين هي تعبير وتجلٍّ تام لإرادته عزّ اسمه...

١-البرهان، ج٢، ص١٣٣

الآية ٨١

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. كلمة ﴿ طَاعَةٌ ﴾ في هذا السياق بمنزلة خبر لمبتدأ محذوف، وتقدير الكلام: (يقولون أمرنا طاعة) أي: شأننا أن نطيع الله ونطيع الرسول.

٢. كلمة ﴿ بَرَزُواْ ﴾ فعل ماضي ومصدرها (بروز) بمعنى الظهور والخروج. وكلمة ﴿ بَيَّتَ ﴾ فعل ماضي من التبييت ومادّته: بيتوتة، بمعنى ضبط الأمر وتدبيره في اللّيل..

٣. هذه الآية لا تدلّ على أنّ هؤلاء الأفراد المعنيين كانوا منافقين، ولكن بملاحظة العلاقة بينها وبين الآيات السابقة، يلزمنا القول بأنّها بصدد توجيه اللّوم للمسلمين ضعيفي الإيمان والنصح بنصائح تمنحهم البصيرة.. طبعاً إذا أرادوا التدبّر والتبصّر.

٤. لا ينبغي التحمّس لمجرد إظهار الوفاء والطاعة والإيمان، ذلك لأن المنافقين لسنين عديدة مجرّد (يقولون ـ مجرّد قول ـ طاعة).

٥. يصرّ الأعداء على استثمار النقاط العمياء، فلا ينبغي الغفلة أبداً عن تصرّفاتهم ﴿ بَيَّتَ ﴾ أي: أضمر وتآمر وتحيّن الفرص..

٦. القرآن المجيد لا ينتقد الجميع بالتساوي ﴿ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ فحسب.

٧. سيحاسب الله جلّ وعلا المنافقين على مؤامراتهم وشيطنتهم ﴿ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾.

٨. لابدّ من التوكّل على الله دون غيره لمواجهة وإفشال مؤامرات المنافقين السرّيّة، إذ التوكّل

عليه سبحانه عامل أوّل في إحراز النصر عليهم ﴿ تَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾.

٩. الله القدير حامي الرسول (ص) وحامي المسلمين، فهو الذي يفضح مؤامرات المنافقين ويميط اللّثام عن نواياهم الشرّيرة، ثمّ هو الناصر للمؤمنين بالمدد الغيبيّ ﴿ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾.

الآية ٨٢

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. التدبّر في الأصل من مادّة دُبر بمعنى النظر إلى الوراء وعاقبة الأمر، وعليه؛ فالتدبّر يعني التحقيق في النتائج والعواقب، والفرق بين التدبّر والتفكّر أنّ هذا الأخير متعلّق بمراجعة العلل وخصوصيّات موجود ما، أمّا التدبّر؛ فراجع إلى التحقيق ومطالعة العواقب والنتائج..

٢. هذه الآية تدعو الناس إلى التدبّر والتفكّر، وتبيّن الأمور أدناه:

الأوّل: أنّ التقليد في أصل الدين غير مقبول، والناس مكلّفون بالتحقيق في ضرورات الدين؛ مثل ادّعاء النبوة والرسالة المحمّديّة وحقّانيّة القرآن، وأن لا يعمدوا إلى التقليد الأعمى. فالقرآن بصراحة بالغة يدعو الناس إلى التفكّر والتدبّر، وهذا ما يخالف ما يتبادر إلى الأذهان البسيطة، فهو كتاب قابل للفهم والتحقيق، ولو لم يكن كذلك؛ ما كان ليأمر بالتدبّر..

الثاني: هذه الآية تبيّن الحقيقة القائلة بإمكانيّة المراجعة الواعية والمنصفة في القرآن، فيُستلهم المفهوم والمحتوى ثم يُعمل به.. وبطبيعة الحال؛ إنّ الرأي القائل بعدم فهم القرآن أمر لا يتاح من دون حضور النبيّ وتفسيره رأي لا أساس له، وذلك لأنّ القرآن قد دعا الناس إلى التفكّر والتدبّر في آياته..

الثالث: أنّ النظم الموجود في آيات القرآن ومفاهيمها وطبيعة مصطلحاتها وكلماتها من البداية وحتّى النهاية، وعدم وجود التضاد والتناقض والاختلاف أكبر وأوضح دليل على سماويّة القرآن، لأنّه لو كان من غير الله؛ ما أمكن التخلّص من حصول التناقض والتضاد

والخطأ.

الرابع: والقرآن آية إلهيّة عظيمة تؤكّد أنّ التناقض في الأقوال ليس من شأن الله عزّوجلّ المنزّه عن كلّ عجز واضطراب وضعف وعيب..

٣. أنواع التناقض في الخطاب؛ وهي ثلاثة مشارب:

أ. الاختلاف والتناقض في الخطاب والمعنى.

ب. الاختلاف والتفاوت في المصطلحات والمفاهيم.

ج. الاختلاف في التلاوة.

وواضح أن لا وجود ـ من البداية إلى النهاية ـ للاختلاف في القرآن بالمفهوم الأوّل والثاني، ذلك لأنّ كلّ خطيب مفوّه قدير يحسب لخطابه فيضبطه ويحكمه ويسعى كلّ جهده للابتعاد عن العيوب والتناقض.. ناهيك عن الخالق القدير العليم المنزّه المقدّس عن كلّ عيب ونقص وضعف وخطأ.

أمّا الاختلاف في التلاوة والقراءة؛ مثل الاختلاف في وجوه القرآن أو أرقام الآيات والسور، أو الاختلاف في الأحكام والمقرّرات من حيث الناسخ والمنسوخ، فهي متوفّرة في الكتاب الشريف، وهذا لا يُعدّ عيباً ونقصاً، بل إنّه كلّه حقٌّ وصواب وقائم على أساس الحكمة في كلّ حال..

٤. معلوم أنّنا حين نذهب إلى أنّ عدم التناقض في القرآن من دلائل الإعجاز القرآني، لابدّ أن نتيقّن بأنّ القرآن خطاب الله وأنّ الذي جاء به صادق أمين، إذ لعل منكراً لله والقرآن والنبوّة يقول في ردّه القول بعدم وجود التناقض بين آيات القرآن ومفاهيمه: ما المانع في توفّر خطيب عبقري أن يضبط أقواله ضمن قوالب ومفاهيم راقية ودقيقة تصونه عن التناقض والتضادّ..

٥. روحيّة الإنسان ـ كلّ إنسان ـ في تغيير متواصل، وهي تتبدّل بمرور الأيّام والشهور والسنين قولاً وفكراً وخطاباً، ولهذا؛ لا تكون كلمات مؤلّف ما على منحىً واحد، بل هي ـ كلماته ـ محكومة

بحصول التفاوت بدءاً وإنجازاً، لا سيّما إذا كان هذا المؤلّف ورد في خضمّ الحوادث المهمّة والخطيرة.. الحوادث التي أسست لثورة فكريّة واجتماعيّة وعقائديّة شاملة.. فهو. كبشر. مهما أراد ضبط كلماته وجعلها متّسقة وعطف سابقها على لاحقها؛ يبقى عاجزاً عن إنجاز تحريره بالتمام والكمال، لاسيّما إذا كان معروفاً عنه أنّه لم يدرس في مدرسة ولم يتتلمذ على يد أستاذ، وكان يعيش في بيئة متأخّرة جاهلة.. أمّا القرآن؛ فهو الكتاب الذي أنزل طيلة (٢٣) سنة طبقاً للحاجات التربويّة للناس وضمن ظروف وفترات متفاوتة.. وكان يتناول مختلف الموضوعات بدقائقها..

٦. كما يقول الدكتور غوستاف لوبين: القرآن كتاب المسلمين السماوي غير المنحصر بالتعاليم الدينيّة، وإنّما تتأصّل فيه التعاليم السياسيّة والاجتماعيّة للمسلمين، وهكذا كتاب ليس كالكتب العاديّة المنحصر بحثها في مسألة اجتماعيّة أو سياسيّة أو فلسفيّة أو حقوقيّة أو تاريخيّة التي لا تخلو. في الأغلب. من التضادّ والتناقض والاضطراب في العبارات... وحين نلمس النظم والتناغم المطلق في آيات القرآن نعي جيّداً أنّ هذا الكتاب ليس وليد أفكار البشر، بل هو صادر عن الله تعالى، كما أوضحت الآية هذه الحقيقة الحقّة..

الآية ٨٣

وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

النقاط المستفادة من الآية

١.﴿ يَسْتَنبِطُونَهُ ﴾ لغةً من مادة (نبط) على وزن فقط، و(الاستنباط) يعني إخراج القول عن حالة الإبهام والبلوغ به إلى مرحلة التمييزوالمعرفة، وأصله من (نبط) وهوأوّل الماء المستخرج من البئر.. ومن هنا؛ كان فهم كلّ حقيقة من دلائلها وشواهدها المختلفة واستخراجها من وثائقها المتوفّرة، سواء في المسائل الفقهيّة أو الفلسفية أو السياسية أو العلميّة ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾.

٢.مَن له القدرة على الاستنباط الصحيح للمطالب؟

المراد من ﴿ أُوْلِي الأَمْرِ ﴾ هنا من لهم القدرة على التمييز والإحاطة الكافية بمختلف المسائل، ويتمكّنون من تحديد الحقائق وعزلها عن الشائعات الكاذبة وتنوير الناس.. وهم بالدرجة الأولى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطيّبين الطاهرين، وهم أوصياؤه الشرعيّون، ثم الفقهاء العدول المرضيّون عندهم..

٣. الاستنباط غير محصور في المسائل الفقهيّة.. ﴿ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ... يَسْتَنبِطُونَهُ ﴾.

٤. ﴿ أُوْلِي الأَمْرِ ﴾ ينبغي أن يكونوا أهل الاستنباط ﴿ أُوْلِي الأَمْرِ... يَسْتَنبِطُونَهُ ﴾.

٥. بثّ الأخبار السرّيّة عادة ما يكون عن السذاجة أو الانتقام أو إلحاق الضرر أو العمالة أو الطمع الماديّ أو التظاهر.. والإسلام بداعي جامعيّته قد تناول هذه المسألة وعالجها، وفي هذه الآية؛ حذّر القرآن من إفشاء الأسرار العسكريّة، وعدّ نقل أخبار الانتصار أو الهزيمة قبل عرضها على القادة عامل غرور أو هلع من العدوّ..

٦. يمكن أن يسأل بالقول: إنّ الآية تنزل في فترة كان رسول الله (ص) يعيش بين المسلمين، ولكنّ أهل بيته عليهم السلام ولا سيّما العديد من الأئمّة منهم لم يكن لهم وجود، فكيف يطلق على أئمّة الشيعة عنوان (أولي الأمر)؟

الردّ على هذا السؤال الإشكال أمر واضح، ذلك لأنّ الآية غير مختصّة بالزمن النبويّ، وإنّما هي تعبّر عن قانون كلّي يجب أن يسري في جميع العصور.

٧. إنّ أضرار صناعة ونشر الشائعات من أكبر أنواع البلاء الذي يلحق بمختلف المجتمعات وتدمّر روح التفاهم والتعاون في أفرادها، وتوجب إندثار الثقة وتقعد الناس عن القيام بمسؤوليّاتهم.. وأحداث معركة أحد والصلح المفروض على الإمام المجتبى (ع)، مقتل واستشهاد مولانا مسلم بن عقيل (ع) ومقتل المختار الثقفي وأمثاله نماذج حيّة وناطقة في التاريخ، حيث حقّق أعداء الله أهدافهم المشؤومة من خلال صناعة الشائعات المغرضة ونشرها بين المؤمنين..

٨. رغم أنّ من المجتمعات القابعة تحت الضغط ترى في الشائعات صناعةً ونشراً أحياناً نوع مواجهة أو انتقام، ولكنّ ذلك بالنسبة للمجتمعات السليمة، تعدّ صناعة الشاعة وبثّها أضراراً عظيمة، ولو أنّ هذه الشائعات لحقت بأفراد مميّزين ومفيدين، لأقعدتهم عن أداء أدوارهم الاجتماعيّة النافعة، بل ولعلّها تقضي على مكانتهم بالمرّة، ويحرم المجتمع من نتاجاتهم المفيدة، ولهذا السبب حرص الإسلام على مواجهة الشائعات ووأدها في بدايتها

ومنع من الكذب والتزوير، والآية أعلاه نموذج لرأي الإسلام وموقفه من الشائعات.

٩. لولا فضل الله ورحمته بواسطة تعاليمه الفذّة التي تشمل حال الأغلبية، لتعرّضت هذه الأغلبية إلى الحرمان من القيادة الحقّة وسقطت ضحيّة للعواقب الأليمة للشائعات المغرضة، ولعجزت عن التخلّص من براثن هذه الشائعات وعواقبها الوخيمة.. والنبيّ وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام هم الفقهاء المرضيون عندهم من أهل البصائر.. وهم الجهة المؤهّلة لإنقاذ المؤمنين من وساوس الشائعات وصانعيها.. ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾.

الآية ٨٤

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

شأن نزول الآية

جاء في تفسير (مجمع البيان) و(القرطبي) و(روح المعاني) عن شأن نزول هذه الآية الشريفة أنّ أباسفيان وجيش قريش عادوا من أحد بغرور انتصارهم؛ فاتّفق مع النبيّ(ص) أن يتواجها في موسم بدر الصغرى (حيث يقام سوق التجارة في شهر ذي القعدة في أرض بدر) مرّة أخرى، وحيث حان موعد المواجهة دعا النبيّ الأكرم(ص) المسلمين إلى الانطلاق للموضع المذكور، إلّا أن غالبيتهم عصوه ولم يتحرّكوا إلى المواجهة لما كان عالقاً في أذهانهم من ذكرى مريرة لواقعة أحد.. فنزلت هذه الآية، وقام النبيّ(ص) بدعوة المسلمين مرّة أخرى للانطلاق، فلم يستجب له سوى سبعين رجلاً وحضروا بدراً الصغرى، لكنّ أباسفيان امتنع عن الحضور لما دخل قلبه من الرعب إزاء مواجهة النبيّ وأتباعه القلائل.. فعاد الرسول الأعظم ومن معه إلى المدينة..[1]

النقاط المستفادة من الآية

١. الرسول والمبعوث الإلهي حين الجهاد مع العدو ومكلّف بمواجهة العدو ولو بمفرده إن لم يرافقه أحد، لأنّه المسؤول الوحيد عن وظيفته، وليس عليه من تكليف الناس سوى دعوتهم

١- مجمع البيان، ج٣، ص١٢٨ وتفسير القرطبي، ج٥، ص٢٩٣ وروح المعاني، ج٣، ص٩٣

وتشجيعهم لمواجهة أعداء الله ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ ﴾.

٢. أهمّ وظيفة للقائد الربّانيّ هي أن يكون على قدر من الثبات والقاطعيّة بحيث إن لم يستجب لدعوته أحد من الناس، لا يكفّ عن السعي إلى تحقيق هدفه المقدّس ورسالته السماويّة، وهو لدى دعوته الآخرين لأداء تكاليفهم، عليه أن لا يربط بين تحقيق مهمّته بمدى استجابة الناس له، والقائد بطبيعة مقامه؛ يكون مستعدّاً كلّ الاستعداد لأداء مسؤولياته معتمداً مطلق الاعتماد على ربّه المتعال.. الربّ الذي هو مصدر جميع القدرات ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

٣. المبعوث الإلهي يجب أن لا يكفّ عن أداء وظيفته الإلهيّة وإن وجد نفسه وحيداً، وأن يعلّق أمله بالمدد الإلهي حتّى لدى الغربة والوحدة فيأمل نصره على الأعداء، ذلك لأنّ قدرته تفوق كلّ القدرات وعقوبته فوق العقوبات... ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴾.

٤. حيث أنّ كلمة ﴿ عَسَى ﴾ لغةً بمعنى الرجاء مع الترديد، وكلمة (لعلّ) بمعنى الأمل والانتصار وتوقّع أمور لا يطمأن لوقوعها ويكفي احتمال حصولها، ولهذا؛ يمكن أن يطرح سؤال عن استعمال هكذا كلمات بين طوايا حديث الإنسان باعتباره أسلوباً طبيعيّاً، لأنّ الإنسان غير مطّلع على جميع الأمور بالكامل، فضلاً عن قابليّته المحدودة وعجزه عن فعل كلّ ما يريد ويتمنّى.. غير أنّ الله الخبير والمطّلع على الماضي والحاضر والمستقبل، وله القدرة على فعل ما يريد، فإنّ استعمال مثل هذه الكلمات الدالّة على شيء من الجهل والعجز، كيف يمكن أن يتصوّر بالنسبة إليه سبحانه وتعالى..

لدى الإجابة على هذا السؤال؛ يجب أن يقال: رغم أنّ كثيراً من العلماء يذهبون إلى أنّ هكذا كلمات حين تستعمل في كلام الله تعالى، تفقد معناها الأصلي وتجد لنفسها معانٍ جديدة.. فكلمة ﴿ عَسَى ﴾ مثلاً تعني الرجاء، وكلمة (لعلّ) تشير إلى الطلب، وكأنّ الصواب

هو أنّ هاتين الكلمتين حينما تندرج ضمن كلام الله عزّوجلّ يكون لهما معناهما الأصلي ولا تستلزم الجهل وعدم القدرة، بل هما تستعملان عادةً لبلوغ الهدف وتكون الحاجة إلى مقدّمات عديدة ولازمة.. وحين تتحقق بعض أقسام هذه المقدّمات فحسب، فإنّه لا يمكن القول بقاطعيّة إنّ الهدف قد تحقّق، وإنّما ينبغي البناء على هيئة الاحتمال، كقول القرآن المجيد: ﴿ وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.[1] ومعلوم أنّ بالاستماع وحده لا يمكن ضمان استحقاق الرحمة الإلهيّة، وإنّما يعدّ هذا إحدى المقدّمات، إذ ثم مقدمات أخرى لهذا الغرض، مثل التدبّر ودرك معاني الآيات، ثمّ تطبيق التعاليم القرآنيّة الواردة فيها... ولذا لا يمكن - في هكذا موارد - إصدار الحكم القاطع بحصول النتيجة لمجرّد إحراز مقدّمة واحدة.. واللّازم هو القول باحتمال التحقق..

٥.استعمال كلمة عسى في الآية يبيّن أنّ اضمحلال قدرة الكافرين لا يكون بدعاء المؤمنين وتشجيعهم على القتال والجهاد، وإنّما ينبغي ضمّ الجهاد إلى تطبيق المنهج وإيجاد المقدّمات الأخرى للجهاد حتّى يتحقق الهدف النهائي، وعليه؛ لا حاجة ولا إلزام لدى استعمال هذه الكلمة ونظائرها ضمن الخطاب الإلهي أن تصرف عن معناها الحقيقي..

١- سورة الأعراف / ٢٠٤.

الآية ٨٥

مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. كلمة ﴿ شَفَاعَةً ﴾ لغةً من مادّة (شفع) على وزن نفع، بمعنى الزوجين، وعليه؛ يطلق على ضمّ الشيئين إلى بعضهما شفاعةً.

٢. تكون الشفاعة تارة قبل إنجاز المهمّة والعمل، وهي إذ ذاك بمعنى الهداية وتعليم الطرف المقابل.. وتارة تكون بعد القيام بالعمل؛ وهي إذ ذاك بمعنى التخلّص من عواقب العمل، والاثنتان معاً مصداق لانضمام شيءٍ إلى شيءٍ.

٣. هذه الآية ورغم كونها تحمل مفهوماً كلّيّاً وتشمل كلّ دعوة لعمل الخير والشرّ، لأنّها وردت في سياق آيات الجهاد.. فتكون الشفاعة الحسنة إشارة إلى تشجيع النبيّ(ص) إلى الجهاد، فيما الشفاعة السيّئة إشارة إلى تشجيع المنافقين ودفعهم إلى عدم الجهاد، ولكلّ سهمه في عاقبة هذا العمل...

٤. يمكن أن يكون التعبير بكلمة الشفاعة في هذه الآية خطاباً قياديّاً، (قيادة إلى الصالحات أو الطالحات) وإشارة إلى مسألة أنّ خطاب قادة الخير و قادة الشرّ يكون مؤثّراً في نفوس الآخرين حيث لا يرون لأنفسهم أرجحيّة على غيرهم، ويعدّونها مرادفة ومرافقة لهم، وهذه المسألة مؤثّرة إلى حدٍّ كبير في تحقيق الأهداف الاجتماعيّة.. ونحن إذ نرى نماذج عديدة من الآيات القرآنيّة في سورة الشعراء والأعراف وهود والنمل والعنكبوت حين التعبير عن الأنبياء

والمرسلين الذين بعثوا إلى هداية وقيادة الأمم، حيث ترد كلمة ﴿ أخوهم ﴾ أو ﴿ أخاهم ﴾ فهي إشارة إلى هذه المسألة بالذات.

٥. كلمة ﴿ نَصِيبٌ ﴾ في اللغة تعني الفائدة الجمّة من الأمور النافعة والرابحة.. وكلمة ﴿ كفل ﴾ وسهم يصل إلى المشجّع على عمل السوء..

٦. هذه الآية تبيّن منطقاً إسلاميّاً أصيلاً في المسائل الاجتماعيّة، وتصرّح أنّ الناس شركاء في مصائر أعمالهم على حدٍّ سواء؛ وذلك من طريق الشفاعة والتشجيع والتعليم، وعلى هذا؛ فإنّ كلّ كلمة أو خطاب أو عمل أو حتّى السكوت والتقرير المؤدّي إلى تشجيع جماعة إلى عمل الخير؛ فإنّ للمشجّع لهم سهماً معلوماً من نتائج هذا العمل دون أن ينقص من سهم الفاعل شيء.. وقد ورد في الحديث النبويّ الشريف أنّ: «من أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو دلّ على خيرٍ أو أشار به؛ فهو شريك، ومن أمر بسوء أو دلّ عليه أو أشار به؛ فهو شريك»[1] أو قوله(ص): «من سنّ سنّة حسنة؛ فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ سنّة سيّئة؛ فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».[2]

٧. من الطبيعي أنّ كلّ علاقة ومدخليّة وتشجيع على فعل الخير أو الشرّ له ثلاثة مراحل:

الأولى: مرحلة الأمر، وهي مرحلة قويّة فاعلة.

الثانية: مرحلة الدلالة، وهي مرحلة متوسّطة.

الثالثة: مرحلة الإشارة، وهي مرحلة ضعيفة.

وهكذا؛ فإنّ كلّ مدخليّة ودفع إلى عمل صالح أو طالح يكون سبباً نسبياً ويكون له سهمه بالنسبة أيضاً.. وطبقاً لهذا المنطق والأصل الإسلامي، فإنّ المباشر لعمل السوء والخطيئة ليس هو الفاعل الوحيد، بل إنّ جميع الذين يسخّرون الوسائل الإسلاميّة ويهيّئون الأرضية، وحتّى

١- الخصال، ج١، ص١٣٨

٢- الفصول المختارة، ص١٣٦

التفوّه ولو بكلمة واحدة مشجعة ودافعة لمن يعمل السيئات شركاء فيها ولهم سهمهم منها.. وكذلك الأمر بالنسبة لمن يدفعون إلى فعل الخيرات، لهم سهمهم منها بمقدار ما عملوا وشجعوا ورغّبوا.

٨. يفهم من بعض الروايات الواردة في تفسير هذه الآية أنّ أحد معاني الشفاعة الحسنة والشفاعة السيّئة، هو دعاء الخير ودعاء السوء بحقّ شخص آخر، وهو نوع شفاعة عند الله تعالى، وقد روي عن مولانا الإمام الصادق (ع) أنّه قال: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب؛ استجيب له؛ وقال له الملك: فلك مثلاه.. فذلك النصيب».[١] والمقصود من كلمة ﴿ نَصِيبٌ ﴾ الوارد ذكرها في هذه الآية وهذا التفسير لا يتنافى والتفسير السالف، بل هو توسيع في معنى الشفاعة، أي أنّ كلّ مسلم يعين أخاه المسلم بأيّ شكل من أشكال الإعانة؛ وسواء بالدعوة والتشجيع إلى الخير أو بواسطة الدعاء عند الله تعالى يُعدّ شريكاً في الفعل والأجر.

٩. هذه الآية تبيّن منهجاً إسلامياً مهمّاً من شأنه إحياء الروح الاجتماعيّة وعدم الجمود على المرحلة والحالة الفرديّة في المسلمين، وهذه الحقيقة تثبت أنّ الإنسان وباهتمامه بالآخرين والسعي في تحقيق منافعهم؛ لا يتراجع أبداً ولا تتعرض مصالحه الفرديّة للخطر، بل إنّه سيشترك في النتائج الإيجابية التي سيحظون بها.

١٠. الآراء الواردة في مفهوم هذا المصطلح:

أ. يرى البعض أنّ هذا المصطلح ورد بمفهوم الاقتدار.

ب. ويرى آخرون أنّه بمفهوم الشخص الذي يحسب لكلِّ شيءٍ حسابه.

ج. رآه جماعة بمفهوم الشاهد.

د. وظنّه البعض بمعنى الحسيب والمحاسب.

١- تفسير الصافي، ج١، ص٤٧٦

هـ. ويقول الجبائي: مفردة ﴿ مُّقِيتًا ﴾ بمعنى المحاسب والمجازي، لأنّ الله تعالى سيجزى على كلّ عمل صالح وطالح.. ويمكن أن ترد جميع هذه المعاني في الآية لهذه المفردة، وعليه؛ تكون خلاصة معنى الآية في عبارتها الأخيرة: ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾

١١. أورد المفسّرون في تفسير عبارة ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾ أحد ثلاثة آراء:

الأوّل: يرى البعض أنّ المراد أنّه تعالى رقيب على كلّ شيءٍ.

الثاني: وقال آخرون: أنّه تعالى كافٍ في كلّ شيء.

الثالث: وقال بعضهم: أنّه تعالى هو المجزي على كلّ عمل.

الآية ٨٦

وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ
بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. التحيّة لغةً من مادّة الحياة وبمعنى الدعاء للآخر بالحياة، سواء كان هذا الدعاء يرد بصورة (سلام عليك) أو (حيّاك الله) أو أمثال ذلك، ولكنّ المعروف أن هذه الكلمة تعني كلّ شكل في إثبات المحبّة التي يبديها الناس في كلامهم إزاء الآخرين، وأبرز وأوضح مصداق لذلك، مفردة (السلام).

٢. يذهب بعض المفسّرين إلى أنّ علاقة هذه الآية بالآية السابقة تنتهي إلى أنّ المراد من التحيّة والسلام إعلان عن العيش المشترك والحياة السلميّة والابتعاد عن الصراع والحرب، وحيث تناولت الآية السالفة الأمر بمواجهة المشركين، فقد أمرت ـ بعد ذلك ـ بالاتّجاه للسلام والصلح إذا ما طلبه الطرف المقابل وإبداء الاحترام له.

٣. هذه الآية توضح حكماً كلّيّاً عاماً في مجال تحيّات المودّة التي يبديها مختلف الأفراد: ﴿ وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾

٤. يفهم من بعض الروايات وكذلك بعض التفاسير أنّه فضلاً عن إظهار المحبّة اللّفظيّة، فإنّ إظهار السلام والمحبّة العمليّة يدخل في مفهوم التحيّة.. كما روي في (مجمع البيان) عن الإمام الباقر والإمام الصادق(ع): «المراد بالتحيّة في الآية؛ السلام وغيره من البرّ»[1] وفي رواية أخرى وردت في كتاب (المناقب) مفادها أنّ جارية قدّمت لمولانا الإمام الحسن(ع) وردةً

١- مجمع البيان، ج٣، ص١٣١

←

فقابلها الإمام بتحرير رقبتها، وحينما سئل عن ذلك قال: قد أدّبنا الله سبحانه حيث يقول: ﴿ وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ﴾ ثمّ أضاف: والتحية الأفضل هو العتق للجارية...[١] وهكذا تعدّ الآية حكماً كلّيّاً في ردّ كلّ شكل من أشكال إظهار المحبّة؛ اللفظية منها والعمليّة.

٥. تتضمّن الآية الأمور التالية:

الف: عمّقوا علاقاتكم وعواطفكم فيما بينكم ﴿ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ ﴾.

ب: ردّ إحسان الناس بالإحسان إليهم: ﴿ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ﴾.

ج: لا ينبغي التأخير في ردّ أفضال وهدايا الآخرين، وآية ذلك، حرف الباء في فعل: ﴿ فَحَيُّواْ ﴾.

د: استحباب الردّ الأفضل: ﴿ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ﴾

هـ: لدى ردّ إحسان الآخرين؛ يجب البحث عن الإجابة الأحسن، وإلّا تكون الإجابة بالمثل: ﴿ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾

و: إذا ما اقترح العدوّ في الحرب صلحاً، فاستجيبوا له أو قابلوه بالمثل: ﴿ حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾.

ز: لا تبتئسوا أو تقلقوا للتحيّات التي لا تردّ، حيث لا يحسن الناس الإجابة، إذ الله تعالى هو المحاسب والمستجيب للعواطف النبيلة: ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾.

٦. جميع الملل إذا ما التقى أفرادها، تبادلوا التحيّة؛ إعلاناً للمحبّة؛ سواءً اللّفظيّة منها أو العلميّة في بعض الأحيان.. وكذلك الأمر بالنسبة للإسلام جعل شرع (السلام) باعتباره أجلى وأسمى صور التحيّة، وفي هذه الآية كما تمّت الإشارة إليه، فإنّ التحيّة وإن تضمّنت معان واسعة، إلّا أنّ (السلام) هو مصداقها الواضح، وعليه؛ وطبقاً لهذه الآية، صار المسلمون جميعاً

١- مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، ج٤، ص١٨

مكلّفين أنّ يردّوا السلام بشكل أرقى أو مماثل..

٧. أكّدت الروايات الإسلاميّة أهمّيّة السلام؛ وهنا نشير إلى بعضها:

الأولى: في الحديث النبويّ: «من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه»[١]

الثانية: روي عن مولانا الإمام الصادق(ع): «إنّ الله عز وجل قال: البخيل من يبخل بالسلام».[٢]

الثالثة: عن مولانا الإمام الباقر(ع): «إنّ الله عزّوجلّ يحبّ إفشاء السلام».[٣]

الرابعة سئل النبيّ(ص) عن: أيّ الإسلام خير؟ فقال: «أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».[٤]

وورد في بعض الأحاديث تفاصيل آداب التحية، منها أن يسلّم الراكب على الراجل،[٥] ومن كان مركبه ثميناً يسلم على بسيط المركب.. وكأنّ هذا الأمر نوع مواجهة للتكبّر الناشئ عن الثروة والمقام الماديّ المميّز. وهذا ما يقابل ما هو مشهود في هذه الأيّام حيث يعدّ البعض السلام تكليف الأفراد الأدنى مرتبة، حيث يصنّم الأشخاص المرموقون.. ولذا؛ ورد في بعض حالات الرسول الأكرم(ص) أنه كان يبادر إلى تحيّة جميع الأشخاص؛ بمن فيهم الأطفال..[٦] وبطبيعة الحال؛ فإنّ هذه التوجيهات لا تتنافى والتعاليم الواردة في بعض الروايات القائلة بضرورة تحيّة الصغار للكبار، لأنّ هذا نوع أدب وتواضع إنساني، ولا علاقة له بمسألة الاختلاف الطبقي والتفاوت الماديّ.

١- الكافي، ج٢، ص٦٤٤

٢- نفس المصدر، ص٦٤٥

٣- نفس المصدر

٤- معالم التنزيل، ج١، ص٦٧٠

٥- الكافي، ج٢، ص٦٤٧

٦- الخصال، ج١، ص٢٧١ ومكارم الأخلاق، ص١٦

←

الخامسة: نقرأ في تفسير (مجمع البيان) أنّ شخصاً قال للنبيّ(ص): السلام عليك. فقال: «السلام عليك ورحمة الله» فقال آخر: السلام عليك ورحمة الله. فقال(ص): «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته» فقال رجل آخر: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال النبيّ: «وعليك» وحين سئل عن اختصاره للسلام الأخير، قال صلوات الله عليه وآله: «يقول القرآن: ﴿ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ﴾ ولكنّك لم تبقِ شيئاً»!![1] وقد ردّ النبيّ(ص) تحيّة الرجل الأوّل والثاني بالنحو الأحسن، أمّا فيما يتعلّق بالرجل الثالث فقد ردّ بالمثل والاختصار وكان المعنى أنّ كلّ ما قال للنبيّ يستحقّه أيضاً.

٨. ورد الأمر في بعض الروايات أن لا نسلّم على الأفراد المرابين والفاسقين والمنحرفين وأمثالهم،[2] وهذا ـ بحدّ ذاته ـ مواجهة للفساد ـ اللّهمّ إلّا أن يكون السلام عليهم وسيلةً ـ مضمونة ـ لهدايتهم ودعوتهم إلى ترك الكفر والفسوق، كما ينبغي الالتفات إلى أنّ المراد بالتحيّة الأحسن هو السلام بعبارات أخرى، مثل: ورحمة الله، ومثل: ورحمة الله وبركاته.

١- مجمع البيان، ج٣، ص١٣١

٢- راجع: الخصال، ج٢، ص٤٨٤

الآية ٨٧

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. استعمال جملة ﴿ ليجمعنكم ﴾ إشارة إلى أنّ القيامة ستجمع كلّ البشر في يوم واحد كما ورد في الآيات الأخيرة من سورة مريم التصريح بهذه الحقيقة، وهي أنّ جميع العباد الساكنين في الأرض وغيرها سيجمعون بعد أن يبعثوا في يوم واحد..

٢. جملة ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ في أنّ يوم القيامة المشار إليه في هذه الآية وعدّة آيات أُخرى مماثلة توضيح للدلائل القطعيّة بحصول ذلك اليوم، كما هو قانون التكامل وحكمة وفلسفة الخلقة وقانون عدالة رب العالمين في حصول المعاد الأخروي.

٣. لا شكّ أنّ كلّ وعد إلهي بخصوص يوم القيامة أو غيره قطعيّ التحقق، ذلك لأنّ الكذب إمّا أن يصدر عن جهل أو ضعف أو حاجة، فيما الله تعالى الأكثر إطّلاعاً من كلّ أحد، والغنيّ عن كلّ أحد، والأصدق من كلّ أحد، بل إنّه لا مفهوم للكذب فيه سبحانه وتعالى ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا ﴾.

الآية ۸۸

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾

شأن نزول هذه الآية

طبقاً لنقل جمع من المفسّرين عن ابن عبّاس أنّ عدّة من أهل مكّة الذين أسلموا في الظاهر، كانوا في الواقع في صفّ المنافقين، ولهذا؛ لم يكونوا على استعداد للهجرة إلى المدينة، فكانوا في واقعهم يوالون المشركين.. ولكنّهم أجبروا في نهاية المطاف على مغادرة مكّة وأن يقتربوا من المدينة للتجسّس على المسلمين، وقد أمنوا على أنفسهم إذ أنّ المسلمين كانوا يعدّونهم منهم وأن دخولهم المدينة لن تصاحبه مشكلة ما.. أمّا المسلمون فقد اطّلعوا على الأمر، ولكنّهم اختلفوا في الموقف تجاه هؤلاء القادمين، فرأى بعضهم أن يطردوا لأنّهم يهوون أعداء الإسلام، إلّا أن بعض المسلمين البسطاء خالفوا الرأي الأوّل وقالوا: كيف نقاتل فئة تشهد بالتوحيد والنبوّة ونهدر دماءهم، وليس لهم من ذنب سوى أنّهم هاجروا؟ فنزلت الآية أعلاه ووجهت اللّوم إلى الجماعة الثانية على خطئهم.. ثمّ توجهت لهم بالإرشاد والهداية..[١]

النقاط المستفادة من الآية

١. هذه الآية وضمن توبيخها الاختلاف والازدواجية في التفكير والموقف تجاه مواجهة النفاق والمنافقين، وهي تبيّن أنّ موقف الإسلام من مواجهة النفاق واضح وغير قابل للشكّ

١- التبيان، ج٣، ص٢٨١ و٢٨٢

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾.

٢. المنافقون المتظاهرون بالإسلام، قد كشفوا عن حقيقة نفاقهم برفضهم الهجرة؛ وبتعاملهم مع المشركين، وبعدم مشاركتهم في الجهاد مع المسلمين.. فلا ينبغي الشكّ في مصيرهم المشؤوم.. فهم من منافقي الدرجة الأولى، وسلوكهم شاهد على عدم إيمانهم.. فلماذا يُخدع البعض بإظهارهم التوحيد والإيمان؟ فيعمدون إلى الشفاعة فيهم، مع أنّ الآيات السالفة قد صرّحت بالقول: ﴿ مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾ وهكذا يجعلون أنفسهم في معرض المصير المشؤوم وشركاء فيه.

٣. المنافقون وبسبب أعمالهم القبيحة والمخزية، قد سلبهم الله التوفيق للهدى وأعرض بوجهه الكريم عنهم حتى امتلؤوا ضلالاً، وصار حالهم حال من يقف على رأسه بدلاً من قدميه ﴿ وَاللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ ﴾.

٤. لا ريب أنّ انحراف الإنسان عن جادّة الهدى والسعادة والخلاص معلول أعماله، ولو نسب هذا الفعل إلى الله تعالى، فلأنّ الله حكيم ويعاقب كلّ شخص طبقاً لجريرته، ويثيبه وفقاً لمدى جدارته ﴿ وَاللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ ﴾.

٥. كيف تتوقّعون أن يشمل أفراداً ملوّثي التفكير ومملوءة قلوبهم بالنفاق ويحرصون كلّ الحرص على حماية ودعم أعداء الله سبحانه، وقد حرمهم الله بهذا ـ من هدايته.. أن يشملوا بالتوفيق والوعي.. فهذا توقّع غير منطقي ومناقض للسنّة الإلهيّة.. حيث أنّ نتيجة أفعال الانسان لا يمكن أن تفصل عنه.. ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾.

الآية ٨٩

وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. ظلمة المنافقين الباطنيّة التي حملت بعض بسطائكم على حمايتهم ودعمهم والشفاعة فيهم هي على قدر كبير من الخطورة بحيث أنّهم كانوا يرغبون في الردّة بكم إلى الكفر؛ فضلاً عن كفرهم هم.. ولهذا فهم ليسوا كما الكفّار العاديّين، لأنّ بسطاء الكفّار لا يهاجمون عقائد الآخرين ويغيرون عليها.. ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء ﴾ فهم لا يكلّون عن سلوكهم المتواصل في تخريب إيمان المسلمين..

٢. لا تختاروا أصدقاءكم من بين المنافقين الذين يأملون في تحييدكم عن دينكم، إلّا أن يكفّوا عن نفاقهم ورغبتهم في تخريب عقائد المسلمين ويخرجون عن مركز النفاق إلى مركز الإسلام (من مكّة إلى المدينة) ويهاجروا: ﴿ فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ﴾

٣. المنافقون بعدم هجرتهم؛ بصدد الإصرار على كفرهم ونفاقهم وتظاهرهم بالإسلام.. ولا ينفكّون عن إلحاق الضرر بحركة الإسلام وتقدّمه كيفما استطاعوا.. وواجب المسلمين أن يأسروهم أو يقتلوهم أينما وجدوهم ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ ﴾.

٤. التأكيد المكرّر في هذه الآية على عدم اختيار الوليّ والصديق الحميم والناصر من زمرة

المنافقين والتشدّد تجاه هكذا منافقين، يبيّن حقيقة أنّ المجتمع الحيّ إذا أراد أن يحفظ نفسه ويصونها في طريق الثورة الإصلاحيّة، وأن يخلّص نفسه من براثن الأعداء والجواسيس الخطرين ليس له إلّا هذا العلاج: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

٥. واضح أنّ الإسلام الذي يحمي غير المسلمين؛ مثل اليهود والنصارى، ولا يسمح بإيذائهم أبداً، فإنّ تشدّده تجاه المنافقين المتظاهرين بالإسلام ويأمر بأسرهم بل وبإعدامهم حين اللّزوم.. بداعي أنّ هكذا أفراد يستطيعون توجيه ضربات مؤلمة تحت غطاء الإسلام والمسلمين، بحيث يعجز كلّ عدوٍّ آخر عن توجيهها.

٦. سؤال: يمكن أن يقال: طبقاً لحكم التاريخ؛ فإنّ سيرة وسلوك النبيّ الأكرم(ص) تجاه المنافقين كانت تختلف عن أمر هذه الآية، ولهذا فهو لم يصدر أمراً أبداً بقتلهم لئلّا يتّهمه الناس بقتل أصحابه، أو أن يسيء البعض الاستفادة من قتلهم، أو أن يعمد بعض المسلمين إلى تصفية حساباتهم مع أشخاص آخرين تحت طائلة وتهمة النفاق..

الجواب: ينبغي الالتفات إلى أنّ السيرة النبويّة كانت تفضي إلى التعامل مع المنافقين وأمثالهم بظاهر الإسلام حيث لا يواجهون الدين وأهله بصراحة، أمّا الأفراد من قبيل منافقي مكّة المتعاضدين مع أعداء الإسلام فلم يكونوا مشمولين بهذا الحكم القرآني...

الآية ٩٠

إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾

شأن نزول الآية

يعلم من مختلف الروايات الواردة في شأن نزول هذه الآية ومن تفاسير المفسّرين المختلفين، أنّ قبيلتين من قبائل العرب، وهما بنو ضمره وأشجع، كانت الأولى منهما متعاهدة مع المسلمين على عدم التعرّض أو مهاجمة بعض.. فيما كانت متعاهدة من جهة أخرى مع قبيلة أشجع. وقد خشي بعض المسلمين قوة بني ضمرة ونقضهم عهدهم معهم.. ولذا؛ فقد اقترحوا على النبيّ الأكرم(ص) أن يباغتوا هذه القبيلة قبل أن تهاجمهم وتغد ربهم، إلّا أنّه ردّهم بالقول: «كلّا! فإنّهم أبرّ العرب بالوالدين وأوصلهم للرحم وأوفاهم بالعهد» ثمّ إنّ المسلمين علموا بعد فترة أنّ طائفة أشجع وبقيادة مسعود بن رجيله، وكانت متكوّنة من سبع مئة رجل قد اقتربت من المدينة، فبعث النبيّ(ص) إليهم رسولاً ليطّلع على غايتهم من سفرهم واقترابهم من المدينة.. فقالوا للرسول إنّهم جاؤوا لترك النزاع مع محمّد(ص).. وحين رأى النبيّ ذلك، أمر بإعطائهم وإهدائهم مقادير من التمر، ثم تواصل معهم، فأكدوا لهم عجزهم عن مناجزة أعداء المسلمين منفردين، لقلّة عددهم وعدم ميلهم إلى حرب المسلمين؛ لتقارب سكنى الطرفين.. ولذا؛ جاؤوا للتعاهد على ترك التعرّض للمسلمين.. فنزلت الآية أعلاه وأمرت

المسلمين ببعض الأمور الخاصّة بهذه المسألة..[١]

النقاط المستفادة من الآية

١. تبعاً للأمر بالتشدّد تجاه المنافقين المتعاملين مع أعداء الإسلام العلنيّين، ذكرت هذه الآية بأنّ مجموعتين استثنيتا من هذا الأمر والقانون:

الأولى: المرتبطة بأحد المتعاهدين مع المسلمين، فهي مستثناة من هذا الأمر تبعاً لاحترامهم معاهديهم: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾.

الثانية: الذين لا يرون في أنفسهم القدرة والقابليّة على مواجهتكم، ولا قدرة فيهم على التعاون معكم ومحاربة طائفتهم، وهذه المجموعة وإن لم تكن معذورة؛ وكان عليها الالتحاق بقافلة الحقّ بعد اتضاحه لها، إلّا أنّ إعلانها الحياد، يجعل التعرّض لها خلافاً لأصول العدالة والمروءة ﴿ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ ﴾

٢. عبارة ﴿ وَلَوْ شَاء اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ﴾ تبيّن قبح الغرور بالنسبة للمسلمين الذين حقّقوا الانتصارات الباهرة، فلا يصحّ لهم أن يجعلوا من هاتين المجموعتين أسيرة للقوّة العسكرية، إذ أن ما نال المسلمين من النجاح إنّما كان ببركة الله تعالى وعنايته ومدده الغيبي، ولو أراد سبحانه أن يسلّطهما على المسلمين ويدفعهما للحرب ضدّهم لفعل، ولهذا؛ كان لزاماً على المسلمين أن يذكروا الله لدى كلّ نجاح وانتصار وأن لا يغتروا بقوّتهم، وأن لا يعدّوا الصفح عن الضعفاء خسارةً..

٣. على المسلمين أن يضغطوا على الكفّ التي تُمدّ لهم بالسلم والصلح.. والله تعالى لم يجز لهم التعرّض إلى من حادَ بنفسه عنهم أو اقترح عليهم الصلح ﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾.

١- تفسير القمي، ج١، ص١٤٥

٤. يمكن أن يكون القرآن الكريم في هذه الآية وآيات أخرى قد عبّر عن مقترح الصلح بإلقاء السلام، وهذا إشارة إلى المعروف في طرفي النزاع وقبيل الصلح أن يعمدا إلى الانفصال عن بعضهما ليقترحوا الصلح ضمن ضوابط الحذر والاحتياط.. فيتراجعا في موقفهما ثمّ يرميا باقتراح الصلح على بعضهما...

الآية ٩١

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

شأن نزول الآية

روي لهذه الآية شؤون نزول مختلفة، وأشهرها أن جمعاً من أهل مكّة جاؤوا رسول الله(ص) وأظهروا الإسلام عن نفاق وخديعة، حيث أنهم كانوا إذا وقفوا عند قريش سجدوا للأصنام، وكأنّهم بسلوكهم القبيح هذا يريدون لأنفسهم الأمان من جهة المسلمين والقرشيّين، لينتفعوا من الجانبين دون ضرر.. وحسب الاصطلاح: كانوا يلعبون على الحبلين.. فنزلت الآية الشريفة وأمرت المسلمين بالتشدد تجاههم..[1]

النقاط المستفادة من الآية

١. هناك جماعة منافقة مرائيّة، ولكي تحقق لنفسها حرّيّة التصرّف وتحفظ مصالحها لدى المسلمين والمشركين ولضمان مسلكها هذا، تعمد إلى المؤامرة والخديعة، فتتعامل مع الطرفين وتتناغم معهما وعقائدهما في الظاهر﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ ﴾.

١- مجمع البيان، ج٣، ص١٣٦

٢. ظهور خيانة هذه الجماعة يكون في ساحة الفتنة وعبادة الأصنام، وهنالك يفتضح مسلكها وتتورط وتسقط إلى الهاوية ﴿ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ﴾

٣. هذه الجماعة المرائية المنافقة المتظاهرة بالحياد هي على العكس من الفرقتين السابقتين لثلاثة أدلّة:

الأوّل: أنّها تجهد في الابتعاد عن التنازع مع المسلمين، ولكن إيقاع هؤلاء يوحي بنزاعها مع الدين الجديد...

الثاني: هي تقترح الصلح مع المسلمين في الوقت الذي يتنازع هؤلاء معهم.

الثالث: هي كانت تمتنع عن إلحاق الأذى بالمسلمين، ولكنّ هؤلاء لا يمتنعون عن ذلك!

٤. إحساس الخطر من قبل هذه الجماعة الخطيرة يؤدّي إلى اعتبارها غير ذانك القسمين، ولو أنّها لم تعتزل النزاع مع المسلمين ولم تقترح الصلح معهم ولم تكفّ عنهم، ذلك لأنّه قد تمّت الحجّة عليها.. فأسروهم أينما وجدتموهم أو اقتلوهم: ﴿ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ ﴾

٥. قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ يبيّن أن تسلّط المسلمين ـ من جهة الله ـ على الكافرين تسلّط منطقي من جهة البرهان والعقل، وليس تسلّطاً عسكرياً وظاهرياً، ذلك لأنّ منطق المسلمين فائق منتصر على المشركين تماماً.. وذلك لأنّ هذه الآيات نزلت حين تقوّى المسلمين بالقدر الكافي..

٦. يمكن أن تكون جملة ﴿ ثِقِفْتُمُوهُمْ ﴾ تبيّن حقيقة أن كلمة (ثقف) من مادّة ثقافة بمعنى نيل شيءٍ بدقّة ومهارة، وهي متفاوتة عن كلمة ﴿ وَجدتموهم ﴾ المشتقّة عن مادّة وجدان، وبمعنى مطلق الحيازة والعثور.. ولأنّ التعرف والإيقاع بهذه الجماعة من المنافقين؛ وهي الأخطر بين أقسام المنافقين؛ ليس بالأمر الهيّن، واللّحاق بهم بحاجة إلى مزيد من الدقّة والملاحظة، ولهذا؛ إن أمسكتم وأوقعتم بهم؛ فلابدّ من تنفيذ حكم الله بهم..

الآية ٩٢

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ
مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ
إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

شأن نزول الآية

قام أحد الوثنيّين المكّيّين ويدعى الحارث بن يزيد بمعيّة أبي جهل بتعذيب رجل يدعى عيّاش ابن أبي ربيعه بتهمة الإسلام، وبعد هجرة المسلمين إلى المدينة، هاجر عياش أيضاً وانضمّ إلى المسلمين.. وذات يوم التقى عياش الحارث الذي كان يعذّبه، وذلك في إحدى المناطق المحاذية للمدينة، فاستغل عيّاش الفرصة وقتل الحارث ظنّاً منه أنّه يقتل عدوّاً، ولم يكن يعلم بأنّ الحارث قد تاب وأسلم.. فذهب إلى النبيّ(ص) وأخبره بما صنع، فنزلت الآية

أعلاه وبيّنت حكم القتل الخطأ..[١]

النقاط المستفادة من الآية

مقدّمة: حيث الآيات الماضية قد أتاحت للمسلمين القضاء على المنافقين والأعداء الخطرين في داخل المدينة.. ولئلّا تساء الاستفادة من هذه الحالة، فيصفّي البعض منهم حساباتهم وثاراتهم مع أعدائهم تحت مسمّى النفاق، أو أن يهرق دم بريء من الأبرياء بداعي الّلامبالاة.. فقد وردت أحكام القتل الخطأ في هذه الآية والآيات التي بعدها.. ليتّضح الموقف الإسلامي الصارم من إراقة الدماء، ولتوجب على المسلمين مراعاة جميع الجهات في هذه المسألة المهمّة والخطيرة..

١. أساساً؛ لا يسمح المؤمن لنفسه أن يلوّث يده بدم إنسان بريء، لأنّ جميع الأفراد متساوون في حرمة وحريم الإيمان وهم كأعضاء جسم واحد، فهل يمكن لعضو واحد أن يقضي على عضو آخر أو أن يؤذيه إلّا أن يكون خطأً.. ولهذا؛ فإنّ من يقترف جريمة القتل عامداً يكون جاهلاً بحقيقة الإسلام والايمان: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا ﴾.

٢. جملة ﴿ إِلاَّ خَطأً ﴾ لا تعني أنّ المسلمين مجازون بالقتل الخطأ، لأنّ الخطأ غير متوقّع، والإنسان لا يلتفت إلى الخطأ حين يقوم به، والمراد أنّ المؤمنين لا يتلوّثون بهذه الجريمة إلّا خطأً..

٣. بناءً على هذه الآية؛ فإنّ كفّارة قتل الخطأ قد تحدّدت في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: أن يقتل فرد بريء من المسلمين عن خطأ، وفي هذه الحالة؛ ينبغي للقائل أن يقوم بأمرين: أن يعتق رقبةً مسلمة، والآخر أن يسلّم ديته إلى ذويه، إلّا أن يعفوا عنه ويتنازلوا عن ديته ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ... ﴾.

١- نفس المصدر، ص١٣٨

المرحلة الثانية: أن يكون المقتول مرتبطاً بطائفة لهم مع المسلمين خصومة وعداء، وفي هذه الصورة؛ تكون كفّارة القتل الخطأ تحرير رقبة ولا ضرورة في دفع الدية لجماعة يتقوّون بالمال ويشكّلون خطراً على المسلمين.. إضافة إلى أنّ الإسلام قد قطع علاقة هذا الفرد بعائلته المعادية للإسلام، وعليه؛ لا مجال لجبر الخسارة ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾.

المرحلة الثالثة: أن يكون أهل المقتول من الكفّار المعاهدين للمسلمين، وفي هذه الحالة، وحفظاً للعهد؛ ينبغي؛ فضلاً عن تحرير الرقبة المسلمة أن تعطى الدية لأهله.. ﴿ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً ﴾.

٤. سؤال: ترى هل يكون المقتول ـ في المرحلة الثالثة ـ كما في المرحلة الأولى والثانية أن يكون مؤمناً؟ أم هو يشمل المؤمن والكافر الذمّي؟

الإجابة على هذا السؤال: أنّ المفسّرين اختلفوا في ذلك، ولكنّ الظاهر من الآية والروايات الواردة في تفسيرها، يُعلِم أنّ المقصود من أداء الدية هو كما في الصورتين السابقتين في مورد المقتول المؤمن..[1]

٥. سؤال: هل يمكن في حال عدم وراثة الكافر من المسلم أن يعطى الكافر دية قريبه المقتول المسلم؟

يفهم ذلك من ظاهر الآية، أي: أن تعطى الدية المذكورة إلى الورثة وإن كانوا كفّاراً، وذلك للعهد الذي يربطهم بالمسلمين.. رغم ما ذهب إليه المفسّرون حيث قالوا: لأنّ الكافر لا يرث من المسلم أبداً، فينبغي أن تؤدّى الدية للورثة المسلمين فحسب.. وفي بعض الروايات وردت الإشارة إلى هذا الموضوع، ولكنّ ظاهر العبارة القرآنيّة: ﴿ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ ﴾ أنّ ورثة

١- راجع: تفسير العياشي، ج١، ص٢٦٣

المقتول ليسوا جزءاً من المسلمين، ذلك لأنّ المسلمين ليس بينهم معاهدة خاصّة، ولهذا؛ يمكن أعطاء الورثة غير المسلمين أيضاً.

٦. لا شكّ في أنّ تغيير عتق الرقبة إلى صيام شهرين تابع للفقر المالي الذي لا يسع المصاب به أن يعتق رقبة، أو في حال عدم توفّر الرقبة لتعتق.. فالتغيير نوع تخفيف وتوبة رحمانيّة، رغم لزوم الالتفات إلى أن عتق الرقبة نوع عبادة أيضاً، وعليه؛ سيتوفّر الأثر المعنوي في روح العاتق للرقبة: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾.

٧. لجبر القتل الخطأ، أوضحت الآية ثلاثة سبل، وكلٌّ منها شرع لجبر نوع من الخسارة:

الأوّل: تحرير الرقبة، وهو نوع جبران للخسارة الاجتماعيّة لقتل فرد مؤمن.

الثاني: تسليم الدية هو نوع جبران خسارة اقتصاديّة ترد على عائلة القتيل وإلّا فقد ذكرنا أنّ الدية لا يمكن أن تساوي القيمة الواقعيّة لدم الإنسان، لأنّ دم البريء أسمى وأكبر من كلّ ثمن، بل هي نوع جبران للخسارة الاقتصادية.

الثالث: صيام شهرين متتابعين بمثابة جبران الخسارة الأخلاقيّة والمعنويّة التي يجب أن يعوّضها قاتل الخطأ.

٨. جدير بالالتفات أنّ جميع ما ذكر من الكفّارة وغرامة قتل الخطأ في الآية لإحراز التوبة الإلهيّة، وأنّ الله تعالى مطّلع عليه بكلّ شيء، وأنّ كلّ أوامره قد نزلت طبقاً للحكمة ﴿ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

٩. واضح أنّ ذوي المقتول إن كانوا مسملين، فقد ذكرت فيهم عبارة ﴿ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ ﴾ ولكنّهم إن لم يكونوا مسلمين؛ فلم تذكر فيهم هذه العبارة، بداعي أنّ ذوي المقتول المسلمين وبالنظر إلى الأخوّة الإسلاميّة؛ فإنّ ثَمّ أرضيّة مهيّأة للهبة والصدقة والتنازل عن الدية، لاسيّما إن كانوا أثرياء، أمّا في الحالة الثانية، حيث لا يكون ذوو المقتول من المسلمين؛ فلا أرضيّة في ذلك، فضلاً عن أنّ المسلمين لا ينبغي أن يرزحوا تحت منّة غير المسلمين بما أمكن، وقد

أشير في الحالة الأولى إلى تحرير الرقبة ثم إلى تقديم الدية، في حين أنّ الحالة الثالثة حيث لا يكونون مسلمين؛ فقد أشير إلى تقديم الدية أوّلاً، ولعلّ هذا التفاوت يشار به إلى أن تأخير الدية يتسبّب في ردّ فعل غير مناسب، أمّا بخصوص غير المسلمين فيجب تقديم الدية أوّلاً لإطفاء نائرة النزاع وعدم حمل الأعداء على نقض العهد..

١٠. لم ترد الإشارة في هذه الآية إلى مقدار الدية، وقد أوكل ذلك إلى السنّة التي حكمت بكونها ألف مثقال من الذهب أو مئة بعير أو مئتي بقرة، وفي حال التوافق تكون الدية بقيمة هذه الحيوانات (وطبعاً، فإنّ تحديد الذهب أو بعض الحيوانات كدية مطابقة لتقليد إسلامي، حيث تكون معاييرها من الأمور الطبيعيّة دون الزائفة والعقدية للتغيّر بتغيّر الزمان).

١١. يمكن أن يشكل ويقال بأن لا عقوبة على الخطأ وعدم التعمّد، فلماذا كرّس الإسلام كلّ هذه الأهمّيّة لهذا الموضوع، والحال أن مرتكب المقتل الخطأ لم يجترح ذنباً؟!

واضح هو ردّ هذا الإشكال، لأنّ مسألة الدم ليست مسألة هيّنة، وقد أراد الإسلام بهذا الاهتمام وهذا الحكم أن يعمد الناس إلى إعمال منتهى الدقّة والحزم لئلّا تقترف أيديهم هذا الخطأ، لأنّ كثيراً من الأخطاء جديرة بالوقاية، فضلاً عن أنّ الناس لا يستطيعون تبرئة أنفسهم بمجرد ادّعاء الخطأ في القتل.. والجملة الأخيرة من الآية ﴿ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ... ﴾ يمكن أن تكون إشارة إلى هذا الموضوع وإلى أنّ الأخطاء تقع بسبب عدم الدقّة في الغالب، ولهذا؛ لزم في المسائل المهمّة؛ مثل قتل النفس، أن تجبر بصورة تشمل التوبة الإلهيّة مرتكبيها، بالإضافة إلى أنّ مرتكب قتل الخطأ وإن كان غير مذنب، إلّا أنّ ذوي المقتول يمكن أن يكونوا فقراء ومحتاجين إلى من يعولهم، ويمكن للدية أن تحلّ بعض مصائبهم، وفي مقدّمتها؛ مصيبة الحاجة المادّيّة..

الآية ٩٣

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

شأن نزول الآية

المقيس بن صبابة الكناني؛ وكان من مسلمي المدينة؛ عثر على جثة أخيه القتيل هشام في محلّة بني النجار، فشكا أمره إلى رسول الله(ص)، فبعثه مع قيس بن هلال الفهري إلى شيوخ بني النجار وأمرهم أن يسلّماهما قاتل هشام، وإن لم يكونوا يعرفونه، دفعوا لمقيس ديته، ولمّا كان بنو النجار يجهلون شخصيّة القاتل؛ دفعوا دية المقتول، فتسلّمها مقيس وانطلق مع قيس إلى المدينة راجعين، ولكنّ مقيساً أثارته تقاليد الجاهلية القديمة فقال في نفسه: إنّ قبول الدية موجبة للذلّة والانكسار، فعمد إلى قتل رفيق سفره الذي كان من طائفة بني النجّار؛ انتقاماً لدم أخيه.. ثمّ إنّه لاذ بالفرار وتوجّه إلى مكّة وارتدّ عن دينه.. فما كان من النبيّ الأعظم(ص) إلّا أن أهدر دمه في مقابل هذا الغدر وهذه الردّة عن الدين، وقد نزلت هذه الآية بهذا الخصوص حيث بيّنت العقوبة على قتل العمد..[1]

النقاط المستفادة من الآية

١. حيث أنّ قتل الإنسان أحد أفظع الجرائم والذنوب، ولو لم تتمّ مواجهته وردعه، فإنّ أهم شروط المجتمع السالم ستتلاشى تماماً.

١- مجمع البيان، ج٣، ص١٤١

٢. جعلت هذه الآية لمن يقتل مؤمناً متعمّداً أربعة أشكال من العقوبة الأخرويّة، فضلاً عن القصاص والعقاب الدنيوي:

العقوبة الأولى: الخلود في النار: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾.

العقوبة الثانية: الغضب الإلهيّ: ﴿ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ ﴾.

العقوبة الثالثة: الطرد من الرحمة الإلهيّة: ﴿ وَلَعَنَهُ ﴾.

العقوبة الرابعة: تحضير العذاب العظيم، وهو نوع عذاب أخروي فيه أعلى درجات الشدّة لقتل المؤمن عمداً، بحيث لم يرد له مثيل من العقوبات المذكورة في القرآن المجيد.

أمّا العقوبة الدنيويّة؛ فهي القصاص الذي تطرّقت إليه الآية (١٧٩) من سورة البقرة ﴿ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾.

٣.ثم سؤال يطرح هنا بخصوص الخلود، أي العقوبة والعذاب الإلهي، وهذه العقوبة الخالدة خاصّة بمن يخرج من الدنيا مجرّداً عن الإيمان، في حين أن قاتل العمد يمكن أن يكون ممكناً أو نادماً أو تائباً من ذنبه الكبير توبة نصوحاً بما أمكنه من التوبة.

هناك ثلاثة احتمالات يمكن أن تكون جواباً للسؤال أعلاه:

الاحتمال الأوّل: أنّ المراد من القتل العمد هذا؛ أنّ الإنسان يقتل إنساناً آخر لإيمانه، أو يعدّ قتله مباحاً.. وواضح أن هذا القتل علامة الكفر، ويستلزم الخلود في العذاب.. وقد ورد عن مولانا الإمام الصادق(ع) حديث بهذا المضمون.[1]

الاحتمال الثاني: كذلك يحتمل لقتل المؤمن أن يخرج القاتل عن الدنيا بلا إيمان دون أن يوفق للتوبة، ولذلك تراه يعرّض للعذاب الخالد.

الاحتمال الثالث: لعلّ المراد من الخلود في هذه الآية العذاب المديد جدّاً وليس الخالد

١- الكافي، ج٧، ص٢٧٥

الأبديّ.

٤. هل لقتل العمد توبة؟

الواقع هو أنّه لا ذنب أعظم من الكفر.. ونحن نعلم أنّ هذا الذنب يغفر بالتوبة وقبول الإسلام، فكيف يمكن قبول القول بعدم حصول التوبة الحقيقيّة عن القتل العمد؟!

طبقاً لهذه الآية، وبناءً على بعض الروايات الواردة في ذيل هذه الآية، مثل: «لا توبة له»[1] فقد صرّح بعض المفسّرين بأنّ قتل النفس المحترمة المؤمنة ـ أصلاً ـ غير قابل للتوبة، ولكنّ ما يعلم من التعاليم الإسلاميّة وروايات المعصومين ومن فلسفة التوبة التي هي بمثابة قاعدة للتربية والتحصّن من الذنب على صعيد المستقبل... يفهم أنّه لا وجود لذنب غير قابل للتوبة، لاسيّما وأنّه لا ذنب أكبر من الشرك، ونعلم أنّ هذا الذنب قابل للتوبة بعد قبول الإسلام؛ مع أنّ التوبة عن بعض الذنوب صعبة للغاية وشروطها ثقيلة جدّاً. يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾[2] وحيث أنّ هذه الآية بصدد غفران الذنوب بواسطة الشفاعة وأمثالها، تشير إلى أنّه لا شفاعة لمشرك في يوم القيامة.. ولهذا فإنّ ذنب الكفر يغفر بالعودة إلى الإسلام والتوحيد.. كما كان المسلمون في صدر الإسلام مشركين أصلاً ثمّ تابوا فغفر الله ذنوبهم.. وعليه؛ فإنّ الشرك هو الذنب الوحيد الذي لا يغفر بلا توبة عنه.. أمّا في حال التوبة، فالغفران يشمل جميع الذنوب بما فيها الشرك كما في الآيتين (٥٣-٥٤) من سورة الزمر حيث قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾.

٥. يمكن أن يشكل ـ كما قال بعض المفسّرين ـ بأنّ آيات مثل آيتي سورة الزمر المذكورتين، متعلّقة بغفران جميع الذنوب في ظلال التوبة الصادقة وبصورة عامّة، إلّا أن لكلّ عامّ خاصّ

١- تفسير الطبري، ج٥، ص١٣٧

٢- سورة النساء / ١١٥.

وتخصيص، مثل الشرك وقتل النفس حيث يستثنيان من العموم.

وردّ هذا الإشكال في القول بأنّ الاستدلال بتخصيص عموم الآيات الخاصّة بقبول التوبة أمر غير صحيح، لأنّ لسان وبيان هذه الآيات في مقام المنّة على المذنبين، وبالتأكيدات المختلفة التي اقترنت بآيات الرحمة الإلهيّة والروايات المتعدّدة المتواترة غير قابلة للتخصيص، إضافة إلى أن بقاء المرتكب لقتل العمد في العذاب الأبدي حتّى بعد التوبة المؤكّدة وجبر الجريمة المنكرة بالصالحات من الأعمال ويأس التائب من الرحمة والمغفرة الإلهيّة؛ لايتناسب وروح تعليمات الأنبياء الواردة في إطار تربية البشر. وبأيّ أمل يمكن أن يقضي الفرد المحكوم بالعذاب الإلهي باقي عمره.. يطيع الله ويكفّ عن السيّئات بما فيها قتل النفس المحرمة، مضافاً إلى أنّ هذا النوع من الفهم يعارض السيرة النبويّة تجاه المذنبين الخطيرين، كما في حال الوحشي قاتل الحمزة بن عبدالمطلب عليه السلام، حيث صفح عنه.. ولا يمكن القول هنا أن قتل النفس في حال الشرك يتفاوت جزاؤه بالاستناد إلى قاعدة (الجَبّ) «الإسلام يجبّ عمّا قبله» حيث يغفر للقاتل المشرك عمداً بعد إسلامه.. دون الحال الأخرى (قتل النفس من قبل المسلم) حيث لا تغفر جريمته حتّى بالتوبة الحقيقيّة والجامع لكلّ الصفات...

٦. لا يُتصوّر أبداً أنّ قتل العمد فعل بسيط وقليل الأهمّيّة، حيث يتسنّى للقاتل أن يتوب بيسر وينجو من العقاب.. وإنّما التوبة الحقيقيّة من هذا الذنب العظيم أمر عسير وبحاجة إلى جبر غير يسير.. رغم أنّ طريق التوبة غير مسدود ـ على سبيل القطع ـ بوجه القاتل.

وقد قسّم الفقهاء القتل في باب القصاص والديات وبالاستلهام من الآيات والروايات إلى ثلاثة أقسام: قتل العمد، قتل شبه العمد، القتل الخطأ..

الف: قتل العمد الذي يكون بنيّة مسبقة وباستعمال وسيلة قتل معروفة (كأن يضرب رجل رجلاً بآلة قاتلة عرفاً)

ب: شبه العمد، وهو القتل الذي لم تسبقه نيّة القتل، ولكنّ فعله ينجر إلى القتل، كما يضرب رجل رجلاً بيده عمداً لمجرّد إيذائه دون قتله، فيجرّ الضرب إلى القتل.

ج: قتل الخطأ: وهو أن يُقتل فردٌ من دون نيّة مسبقة ومن دون مباشرة في قتله، كأن يعمد (القاتل) إلى صيد حيوان، فيخطئ السهم ويصيب إنساناً فيقتله.. ولكلّ شكل من أشكال وأقسام القتل المذكورة أحكام مفصّلة وردت في الكتب الفقهيّة..

الآية ٩٤

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾

شأن نزول الآية

وردت عدّة شؤون نزول لهذه الآية في الروايات والتفاسير، وهي تتشابه فيما بينها إلى حدٍّ ما، منها: أنّ رسول الله(ص) وبعد عودته من خيبر، بعث أسامة بن زيد مع عدّة من المسلمين إلى اليهود القاطنين في إحدى قرى فدك ليدعوهم إلى اعتناق الإسلام أو قبول شروط الذمّة.. فقام أحد اليهود ويدعى مرداس ـ بعد أن علم بقدوم أسامة ومن كان معه ـ بالاختباء مع أسرته عند جبل حاملاً معه أمواله، ثمّ إنّه أقبل على المسلمين وهو يتشهد بشهادة الإسلام.. فهاجمه أسامة وقتله؛ ظنّاً منه أنّ اليهودي قد عمد إلى التشهد بالشهادتين نفاقاً وخوفاً على نفسه وأمواله وغنم مواشيه. وحينما علم النبيّ(ص) بالخبر تأثّر كثيراً وقال لأسامة: قد قتلت مسلماً، فانزعج أسامة وقال: قد أسلم هذا اليهوديّ خوفاً على نفسه وأمواله، فقال النبيّ(ص): ولكنك لم تعلم من باطنه شيئاً، فلعله صار مسلماً حقّاً.. وفي هذه الأثناء نزلت هذه الآية وحذّرت

المسلمين من رفض إسلام أحد الأفراد طمعاً في المغنم.. وأكّدت عليهم قبول إسلام من يعلن إسلامه..[١]

النقاط المستفادة من الآية

١. حفظ أرواح الأبرياء ولزوم إجتناب سفك الدماء في جميع المعارك محطّ تأكيد الرسول الأعظم(ص) ووصيّه أميرالمؤمنين(ع)، وعلى هذا الأساس، أمر باستقبال من يظهر الإسلام برحابة صدر، وباجتناب إساءة الظن تجاه إظهاره الإيمان..

٢. واضح أنّ الهدف من القتال والجهاد ليس التوسّع أو تحصيل الغنائم، وإنّما هو تحرير الناس من قيود عبادة العبيد والآلهة المزيّفة والدينار والدرهم، وعليه؛ ليس من مسلم حقيقي يخطو إلى سوح الجهاد لتحقيق أهداف مادّيّة، ولذا كان عليه أن يستجيب لمقترح السلام وقبول إظهار الايمان من الطرف المقابل، رغم أنّ ذلك المقترح أو إظهار الإيمان يستلزم الحرمان من الغنائم المادّيّة الكثيرة.

٣. لا ينبغي اتّهام الناس واعتبارهم أعداءً من أجل الحصول على نعم زائلة في هذه الدار الفانية، فيعمد إلى قتل من يظهر الاسلام واغتنام أموالهم، في حين أن الغنيمة العظيمة والأبدية هي عند الله تعالى: ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾.

٤. رغم أنّ دوافع حروبكم في الجاهليّة كانت الإغارة على الأعداء، فكنتم تنالون مبتاغكم المالي والمادي بإراقة الدماء البريئة.. أمّا اليوم؛ فقد تغيّر أو هكذا ينبغي الواقعي كلّيّاً.. فضلاً عن أنّكم حين دخلتم الإسلام لم تفعلوا غير إظهار الإسلام، فلماذا تبخلون على غيركم بالقانون الذي انتفعتم أنتم منه من قبل ﴿ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ. ﴾

٥. الآن حيث ترفلون تحت مظلّة الإسلام التي تفضّل الله بها عليكم وقد تخلّصتم من الكفر

١- تفسير القمي، ج١، ص١٤٨ و١٤٩

والضلال والعداوة والإغارة، عليكم أن تتبيّنوا ومن موافقكم تجاه الناس؛ شكراً على النعم الكثيرة التي بين أيديكم ﴿ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ ﴾.

٦. لا يصحّ لكم أن تمنّوا على الله بإسلامكم، وإنّما الله هو الذي يمنّ عليكم أن بعث الأنبياء لكم فاهتديتم بهم..

٧. كلّ فرد مسلم عليه أن يعلم بأنّ الله تعالى عليكم بنواياكم؛ ناهيك عن علمه بأقوالكم وأفعالكم ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

٨. سؤال: يمكن بالالتفات إلى مضمون الآية ومفادها أن يقال: إنّ الإسلام بقبوله الادعاء الظاهري للناس بخصوص الانتماء للدين.. يعدّ الأرضية لزرع النفاق في البيئة الإسلاميّة، مما يؤدّي بالكثيرين إلى إساءة الاستفادة والتستّر بالإسلام للقيام بمهام جاسوسيّة ضد الدين وأهله..

الجواب:

أوّلاً: ليس من قانون في الدنيا لا يمكن استغلاله.. وإنّ المهمّ في الأمر أن يكون القانون ناظراً لمصالح الناس بشكل عام.

ثانياً: إذا كان متاحاً أن يرفض إعلان أحدهم إسلامه بحجة عدم الاطّلاع والتأكّد من حقيقة نواياه، فإنّ مفاسد كثيرة جداً وأضراراً كبيرة ستلحق بالمجتمع المسلم وسيجري القضاء على العواطف الإنسانية لدى ذلك... لأنّ كلّ فرد له عداء وخصومة مع أحدهم سيتجرّأ على اتّهامه بمجرّد التظاهر بالإسلام.. وهكذا ستسفك دماء بريئة غزيرة.

ثالثاً: من الطبيعي أنه لدى الانتماء البدائي لأيّ دين؛ سيكون هناك الكثير من الأشخاص ممن يكون انتماؤهم بسيطاً ظاهريّاً بصورة عامّة.. ثمّ بمرور الوقت ومداومة الاتصال بذلك الدين؛ يتكرّس ذلك الانتماء ويتجذّر.. وهذه الجماعات من الأفراد لا يمكن طردهم بادي ذي بدء.

٩. يمكن تقسيم الأصول الإنسانيّة والأخلاقيّة للحرب في الإسلام إلى ثلاث مراحل:

أ. ما قبل الحرب. ب. وحين الحرب. ج. وما بعد الحرب.

في المرحلة الأولى يكون الالتزام بالأصول أدناه واجباً على المسلمين:

الأصل الأوّل: توعية الأعداء لفهم الحقيقة وطريق الهداية؛ وأن هدف الإسلام ليس محق الأعداء، وإنّما غايته إرشاد جميع الناس باتّجاه الهدى والفلاح.

الأصل الثاني: قبول السلام؛ وفي الوقت الذي يحثّ فيه الإسلام أتباعه على إعداد العدّة والاستعداد لمواجهة الأعداء، فإنّه كثيراً ما يوصي بقبول مقترح السلام الذي يتقدم به الأعداء.. (الأنفال /٦١)

الأصل الثالث: الوفاء بالمعاهدات المبرمة مع الأعداء؛ فالإسلام يوصي المسلمين باحترام العهود والمواثيق التي تربطهم بأعدائهم، وأن لا ينقضوا العهد أبداً (التوبة / ٤).

الأصل الرابع: أن لا تكون أهداف حروب المسلمين أهدافاً مادّيّة، لأنّ الإسلام يرفض للحرب أن تكون لرغبة من الغنائم وتحقيق الأهداف المادّيّة الزائلة، وهو يحثّ أتباعه على إيقاف الحرب بمجرّد استسلام العدو، وإن أدّى وقف القتال إلى الحرمان من الغنائم مهما كانت كثيرة وقيّمة. (النساء / ٩٤).

في المرحلة الثانية: أي حين الحرب والالتحام بقوّات العدوّ، ينبغي للمسلمين الالتزام بما يلي من الأمور:

الأمر الأوّل: عدم الاعتداء وتجاوز الحدود؛ فالإسلام يوصي أتباعه باحترام حدود وقوانين الحرب حين القتال.. (البقرة/١٩٠).

الأمر الثاني: المقابلة بالمثل؛ وتأكيد الإسلام أن يعاقب المسلمون - إذا ما تمّ الاعتداء عليهم - بمثل ما عوقبوا به، دون تجاوز ذلك، مع حثّهم على الصفح والعفو، نظراً لأنّ العفو عند

المقدرة من أسمى سجايا الرجولة (النحل/١٢٦).

الأمر الثالث: إفساح المجال للأعداء للاستماع والاطّلاع على رسالة الإسلام؛ فهو يوصي بإجارة المستجيرين من الأعداء بالمسلمين. ولو في حال القتال. (التوبة / ٦).

وفي المرحلة الثالثة: وحين تضع الحرب أوزارها، يوصي الإسلام الإحسان بأسرى الأعداء ودعوتهم إلى نور الإيمان، ليكون ذلك بمثابة الأرضية لقبول الهدى، ثمّ تحريرهم بلا فدية يدفعونها..

الآية ٩٥

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١.فيما يتعلّق بأهمّيّة وفضل الحرب والجهاد في الإسلام يكفي أنّ القرآن المجيد جعل أحد معايير الفضل والكرامة الجهاد في سبيل الله.

٢. الجهاد قانون عام في عالم الخليقة، والكائنات الحيّة بما فيها النباتات، ترفع الموانع عن طريقها لتصل إلى كمالها المطلوب بواسطة الجهاد.. مثال ذلك: أن جذور الشجرة تتحرّك باستمرار لتحصيل غذائها، ولو أنّها لم تتحرك لفقدت حياتها، ولذلك؛ فهي في خضّم تحركها في عمق الأرض تحاول تجاوز ما يصادفها، سواء كان الشيء الذي يقف في طريقها صلداً أو سهلاً.. ولعلّها تنحرف في مسارها إن هي عجزت عن ثقب ما يصادفها.. أمّا ما يتعلق بأجسامنا؛ فإنّ ثَمّ صراعاً مريراً يحصل فيها ولو كنّا نياماً أو غافلين، حيث الصراع المتواصل ليل نهار بين كريات دمنا البيضاء والجراثيم التي تحاول غزو الجسم وإفشاء المرض فيه.. ولو أنّ جهاد الكريات البيضاء توقف ساعة فإنّ الجراثيم ستبسط سيطرتها وتهدد سلامة أجسامنا بالخطر الماحق... ومثل هذا الصراع والجهاد يقع بين المجتمعات الإنسانية وبين الدول والبلدان حيث يحاول أحدها غزو الآخر، ومنها ما يدافع ومنها ما يهاجم.. ومنها ما ينتصر

ومنها ما ينهزم ضمن عملية التدافع وإثبات الوجود ومواصلة الحياة..

٣. ورد اسم المجاهدين في الآية أعلاه ثلاث مرات.. إذ ذكرت المجاهدين بدءاً مع هدف الجهاد ووسيلته ﴿ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ... ﴾ وفي المرّة الثانية ذكر المجاهدون مع الجهاد فحسب.. ﴿ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ وفي المرّة الثالثة ذكر عنوان المجاهدين فقط ﴿ الْمُجَاهِدِينَ... ﴾ وهذا ما يعتبر أحد النقاط البارزة في البلاغة في الكلام؛ حيث يتعرّف السامع إلى الموضوع شيئاً فشيئاً.. حيث تحذف القيود والعلائم، حتى يكون التعرّف بمجرّد إشارة إلى الموضوع ليعلم كلّ شيءٍ بخصوصه..

٤. في مطلع الآية ذكرت أفضليّة المجاهدين على القاعدين بصورة المفرد ﴿ دَرَجَةً ﴾ في حين أن الآية الأخرى ورد الوصف بكلمة ﴿ درجات ﴾ ومعلوم أنّه لا منافاة بين الكلمتين، لأنّ الأُولى قصد بها أصل أفضلية المجاهدين على غيرهم، ولكنّ الكلمة الثانية شرحت هذه الأفضليّة؛ ولذا؛ فقد قرنت بالمغفرة والرحمة.. وبعبارة أخرى؛ كان التفاوت بينهما تفاوت الإجمال والتفصيل.

٥. وردت الإشارة في هذه الآية إلى مجموعة نقاط تتعلّق بالجهاد..

* الفصل بين صف المجاهدين وصفوف القاعدين ﴿ لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ... وَالْمُجَاهِدُونَ ﴾

* الوعد بالأجر الطيب للمجاهدين من جهة الله.

* الأجر العظيم.

* الدرجات والمقامات العالية.

* المغفرة والرحمة.

٦.الجهاد عبارة عن قانون وكلّي في عالم الخليقة؛ للدفاع عن الدين والناموس والإنسانيّة.. فضلاً عن الإسلام، وقد وجدنا سائر الأديان تقرّ الجهاد، وبغضّ النظر عن الأديان السماويّة أيضاً،

فإنّ العقل يقرّ منطق الجهاد كذلك، إذ أنّ كلّ إنسان ومجتمع لها حقّ الدفاع عن كيانهما. وأكثر من ذلك، يمكن القول بأنّ هذا قانون كلّي وعام يشمل جميع الموجوات الحيّة؛ النباتات منها والحيوانات، حيث تدافع ـ بمقتضى غريزتها ـ عن كيانها واستمرارها في الحياة.

٧. شرع الاسلام هذا القانون وقاعدته العامّة للدفاع عن حدوده وعن المجتمع الإسلامي وأرواح المسلمين وأعراضهم وإنسانيّة الإنسان أيضاً.

٨. بيّن الإسلام أنواعاً وأقساماً للجهاد، وهي كالتالي:

الف: الجهاد الدفاعي، وفلسفته التشريعيّة تكمن في الدفاع عن الشريعة والملّة والمال والعرض الخاص بالمسلمين..

ب: الجهاد ضدّ أهل البغي، وفلسفته حفظ النظام والجبهة الداخلية للبلاد.

ج: الجهاد الابتدائي، وعلّته الدفاع عن الحقوق الفطريّة للإنسان، بمعنى إيصال رسالة التوحيد إلى من لم تصلهم من قبل. وواضح أنّ الجهاد الابتدائي أيضاً لم يشرع احتلال أراضي الشعوب الأخرى أو السيطرة عليها، وإنّما شرع من أجل تحرير البشر من قيود الوثنيّة والشرك والإلحاد، وحقيقته الدفاع عن حدود وحرمة الإنسانيّة وحقوق البشر الفطرية، أي: التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له...

٩. معلوم أنّ الجهاد الابتدائي يكون لازماً بعد دعوة الكافرين ومخالفي الدين الإسلامي إلى دين الله.. وما لم تلق الحجّة عليهم لن يكون ثَمّ إذن بالحرب.. وكذلك كانت سيرة النبيّ الأكرم(ص).. وقد بيّن القرآن الكريم فلسفة الجهاد بقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾.[1]

١٠. إنّ أساس تشريع الجهاد في الاسلام هو الدفاع.. وقد يكون هذا الدفاع عن الدين تارةً، أو

١- سورة البقرة / ٢٥١.

عن المسلمين، أو لحفظ النظام الاجتماعي والسياسي الشرعي، أو لحفظ الحقوق الفطريّة وإنسانيّة الإنسان.. وكذلك الردّ على الإشكال المعروف على الجهاد الابتدائي والقائل بأنّ الإسلام دين السيف ومخالف للحرّيّات.. يتّضح في أنّ دين الإسلام ليس كذلك، ويقرّ حرّيّة المعتقد، وإنّما الجهاد الابتدائي كان لإيصال رسالة التوحيد وهدم قواعد الكفر والوثنيّة؛ وليس لفتح البلدان أو فرض العقيدة.. وشاهد هذا المطلب عدّة أمور:

١١. طبقاً لشهادة التاريخ؛ فإنّ البلدان التي دخلها الإسلام، لم يفرض على من يعتنق الاسلام (اليهود والنصارى) دين السماء الجديد، بل إن هؤلاء كان ينعمون بحرّيّة المعتقد بشكل تام ولم يجبروا على إعتناق الاسلام أبداً، وقد بقيت أموالهم محفوظة، وأعراضهم مصانه في ظل الإسلام، بل إنّهم كانوا يمارسون طقوسهم الدينيّة وحتّى القوميّة بحرّيّة تامّة.. كما كتب المفكر المسيحيّ الشهير غوستاف لوبون في كتابه (مدنيّة الإسلام والغرب) حيث جاء فيه: كان سلوك المسلمين تجاه الشعوب على قدر كبير من الحرّيّة بحيث كان زعماء الأديان يعقدون اجتماعاتهم ومجالسهم الدينيّة بحرّيّة مقبولة.

١٢.إنّ من فلسفة تشريع الجهاد في الإسلام الدفاع عن الإسلام بحدّ ذاته وما يتعلّق به ويتفرّع عنه.. وما كان حكم الجهاد خاصاً بالدين الإسلامي.. فقد تسنّى للأنبياء الماضين إمكان الجهاد الابتدائي أيضاً، وقاموا به، لأنّ الدفاع من الحقوق الفطرية للبشر، وكانوا يعدّونه من وظائفهم.. أوَليس النبيّ إبراهيم(ع) حطّم الأصنام وواجه الوثنيّين.. أو النبيّ موسى(ع) في محاربته العمالقة؟! والقرآن المجيد يصرّح بصورة عامّة: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ ﴾.[1]

١٣.أسلوب ومنطق الإسلام في الحرب والجهاد:

١- سورة آل عمران/ ١٤٦.

طالما حثّ الإسلام المجاهدين في حالة الحرب على التزام جملة تعاليم:

الف: أنّ هدف القتال ضدّ الأعداء هو التقرّب وامتثال أوامر الله تعالى وليس إراقة الدماء وإحراز المناصب والرئاسة وفتح البلدان وكسب المغانم (النساء / ٩٤) والجهاد من وجهة النظر الإسلاميّة؛ إنّما يكون صحيحاً إذا اصطبغ بصبغة الله العظيم وكان في سبيله سبحانه ونشر تعاليم السماء.. قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴾.[١] وعبارة ﴿ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ شاهد على المطلب المذكور.

ب: سعى الإسلام دوماً إلى أن لا يبدأ المسلمون قتالاً، فلا يجوز لجيش الإسلام أن يبادر إلى القتال قبل أن يقابله العد و ويقاتله.. قال مولانا أميرالمؤمنين(ع): «لا تقاتلوهم حتّى يبدؤوكم، فإنّكم بحمد الله على حجّة، وترككم إيّاهم حجّة أخرى لكم».[٢]

ج: رعاية وحفظ الاعتدال والأخلاق الإسلاميّة في القتال:

خلافاً للمدارس الأخرى؛ راح الإسلام يحثّ على رعاية قواعد الأخلاق في مناسبات عديدة، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴾.[٣]

ولهذا؛ فإنّ الأفراد الذين يلقون أسلحتهم إلى الأرض، العاجزين عن خوض الحرب، لا ينبغي الاعتداء عليهم، وكذلك لا يجوز الإتيان على الحدائق والنخيل والأشجا ر. كما لا يجوز استعمال السموم وإلقائها في الماء أ واستعمال الأسلحة الكيميائيّة والجرثوميّة ضد الأعداء..

قال مولانا أميرالمؤمنين(ع):«فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً ولا تصيبوا معوراً.

١- سورة البقرة / ١٩٠.

٢- نهج البلاغة، ص٣٧٣

٣- سورة البقرة / ١٩٠.

←

عاجزاً. ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيّجوا النساء بأذىً وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم».(١)

٤١٤. جرت الإشارة في الروايات والأحاديث إلى موارد متعدّدة في فضيلة الجهاد وأهمّيّته:

قال الرسول الأعظم(ص): «فمن ترك الجهاد؛ ألبسه ذلاًّ وفقراً في معيشته، ومحقاً في دينه، إنّ الله أعزّ أمّتي بسنابك خيلها ومراكز رماحها».(٢)

وقال(ص) في موضع آخر: «اغزوا؛ تورثوا أبناءكم مجداً».(٣)

وروي عن إميرالمؤمنين(ع):

«... فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة؛ فتحه الله لخاصّة أوليائه، وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنّته الوثيقة، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذلّ وشمله البلاء ودُيّث بالصغا ر والقماء».(٤)

١٥. واضح أنّ المراد من ﴿ الْقَاعِدُونَ ﴾ هنا؛ الأفراد الذين لم يشتركوا في الجهاد مع كونهم مؤمنين بأصول الإسلام بداعي قلّة همّتهم، والحال أنّ الجهاد لم يكن واجباً عينيّاً، ولو كان ذلك لما خاطبهم القرآن بهذه العبارة اللّيّنة ولم يعدهم بأجر في آخر الآية، وعليه؛ وإن كان وجوب الجهاد غير عينيّ؛ فإنّ أفضليّة المجاهدين على القاعدين غير قابلة للإنكا ر، والذين يمتنعون عن المشاركة في الجهاد ـ نفاقاً وعداءً ـ غير مشمولين بهذه القضيّة ﴿ لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾.

١٦. لعبارة: ﴿ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ ﴾ مفهوم واسع؛ ويشمل جميع العاجزين عن الجهاد لعلّة ما؛ كنقص عضوٍ أو مرض عضال أو ضعف كبير وأمثال ذلك، في الوقت الذي يرغبون بالاشتراك

١- نهج البلاغة، ص٣٧٣
٢- تهذيب الأحكام، ج٦، ص١٢٣
٣- الكافي، ج٥، ص٨
٤- نفس المصدر، ص٤

←

بالجهاد.. فهؤلاء مستثنون من الواجب الكفائي والعيني مع أنّهم يحرمون من أجر المشاركة في الجهاد كما ورد في الحديث النبويّ القائل:

«لقد خلّفتم في المدينة أقواماً ما سرتُم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلّا كانوا معكم، وهم الذين صحّت نيّاتهم ونصحت جيوبهم وهوت أفئدتهم، وقد منعهم عن المسير ضرر أو غيره».[1]

١٧. حيث أنّ أهميّة الجهاد في المنطق الإسلامي أمر فائق للغاية، فقد ذكرت هذه الآية أفضليّة المجاهدين بصورة أكثر صراحة وأشدّ وضوحاً، فقالت: ﴿ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾

١٨. بديهي أنّ الأفراد المعذورين عن الجهاد لعلّة مرض أو عجز أو غير ذلك مع عدم وجوب الجهاد العيني عليهم، ولكي لا يحرموا من الأجر على نواياهم السليمة وإيمانهم وأعمالهم الصالحة، فقد صد ر الوعد للشريحتين (المجاهدون وغيرهم) بالوعد الطيّب، ولكن تبقى الشقّة بعيدة بين وعدهما.. والواقع هو أنّ هدف القرآن مما ذكر من أحكام وتفاصيل أنّ سهم كلّ حالة صالحة تبقى محفوظة ولا تنسى، لاسيّما حين يكون الحديث عن القاعدين الراغبين في المشاركة في الجهاد.. وهي الرغبة الطيّبة والسامية، ولكنّ عدم الوجوب العيني يمنع من تحقيق هذا الهدف السامي.. فهم لهم أجرهم بما بيّتوا من النيّة الطيّبة وبما منعهم من المانع ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى... ﴾

١- الكشاف، ج١، ص٥٥٤

الآية ٩٦

﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٩٦﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. الأجر العظيم الوارد ذكره في الآية السابقة؛ فُسّر في هذه الآية أنّه درجات مهمّة من قبل الله تعالى، وهي المغفرة والرحمة..

٢. يمكن أن يفهم من التعبير بـ ﴿ دَرَجَاتٍ ﴾ أنّ جميع المجاهدين ليسوا في حدٍّ ومستوىً واحد، إذ تختلف درجاتهم وفقاً لاختلاف درجة الإخلاص والتضحية وتحمّل الأذى، ذلك لأنّ المسلّم به أنّ جميع المجاهدين الذين يواجهون الأعداء؛ لا يجاهدون بكيفيّة أو كمّيّة واحدة، وليس لهم الإخلاص بدرجة واحدة، وعليه؛ يعطى كلّ واحد منهم أجره المناسب..

٣. إذا كان بين المجاهدين أفراد زلت أنفسهم حين أدائهم لتكليفهم، أو أصابهم الندم على فعالهم، فإنّ الله تعالى وعده أيضاً بالمغفرة والرحمة.. وقد قالت خاتمة الآية: ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

الآية ٩٧

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

شأن نزول الآية

قبل اندلاع معركة بدر أعلن كبار قريش النفير العام في مكّة ليشترك رجالها جميعاً في الحرب ضدّ المسلمين.. وهدّدوا المخالفين بمصادرة أموالهم وتخريب بيوتهم.. وتبعاً لهذا التهديد، فقد انطلق مع كفار قريش عدّة ممن كانوا أسلموا في الظاهر؛ خوفاً على أموالهم وبيوتهم، وممّن لم يهاجروا مع المسلمين.. حتّى أنّهم اصطفوا في صفوف المشركين في المعركة.. ثمّ إنّ منهم من قُتل.. فنزلت الآية أعلاه وأعلنت عن مصيرهم المشؤوم..[1]

النقاط المستفادة من الآية

١. تتمّة للبحوث الخاصّة بموضوع الجهاد.. جرت الإشارة في هذه الآية إلى المصير المشؤوم الذي نال وينال الجماعة المدّعية للاسلام ولكنّها لم تلتزم بأوامر الإسلام وتعاليمه فيما يتعلّق بالهجرة حتّى سقطت إلى وادٍ سحيق خطير وقتل أفرادها وهم يحاربون إلى جانب المشركين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ﴾.

١- تفسير الطبري، ج٥، ص١٥٠

←

٢. المهاجرة من مادّة (هجر) بمعنى الترك والانفصال، والمهاجرة في الأصل بمعنى القطع والفصل عن الطرف الآخر، وقد يكون ذلك بالبدن.[١]

٣. مسألة الهجرة إحدى أهم المسائل التي كانت مطروحة في صدر الإسلام، وكان لها الدور الأكبر في انتصار الحكومة الإسلاميّة، وهي ذات أهمّيّة مميّزة في جميع العصور؛ حيث تمنع المؤمنين عن الاستسلام لضغوط الأعداء والظروف، كما تعتبر عاملاً مهمّاً في نشر وانتشار الإسلام في مختلف بقاع العالم.[٢]

٤. أقسام الهجرة:

الف: الهجرة المكانيّة والظاهريّة:

﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾.[٣]

حديث النبيّ إبراهيم(ع) إذ قال: ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي... ﴾[٤] ناظر إلى هذا الشكل من الهجرة، حيث الابتعاد عن الوطن والتوجّه إلى أرض الغربة لئلّا يُمنع إبراهيم(ع) عن التوحيد..[٥]

ب: الهجرة الباطنيّة والمعنويّة:

الهجرة من الظلام إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الذنب والمعصية إلى الخشوع والطاعة.. جملة مصاديق لهذا الشكل من الهجرة، وهي النداء الأصيل والشامل للأنبياء وكتب

١- مفردات ألفاظ القرآن، ص٨٣٣

٢- تفسير الامثل، ج ١٩، ص ٤٠٢.

٣- سورة التوبة / ٢٠.

٤- سورة العنكبوت / ٢٦.

٥- الميزان، ج١٦، ص١٢٢

←

السماء.[١] ولعلّنا نقرأ في الأحاديث أنّ المهاجرين الذين تهاجر أجسامهم دون أرواحهم ليسوا مهاجرين حقّاً وصدقاً.

ج: قال مولانا أميرالمؤمنين(ع):

«يقول الرجل: هاجرت؛ ولم يهاجر، إنّما المهاجرون الذين يهجرون السيّئات ولم يأتوا بها».[٢]

كذلك قوله تعالى:

﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾[٣]

آثار الهجرة في سبيل الله تعالى:

الف: إحراز الحرّيّة والاطمئنان:

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾.[٤]

فطبقاً لهذه الآية الشريفة، نرى الإسلام يصرّح بضرورة الهجرة للإنسان المؤمن ليتسنّى له تحقيق مسؤولياته بعد أن عسرت عليه حياته في وطنه.[٥]

ب: غفران الذنوب:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.[٦]

وبناءً على قاعدة هذه الآية؛ فإنّ المجاهدين يأملون رحمة الله، ولا ريب في أنّ المراد هم

١- التسنيم، ج١١، ص٤١.

٢- الغارات، ج٢، ص٣٤٣

٣- سورة المدّثّر / ٥.

٤- سورة النساء / ١٠٠.

٥- تفسير الامثل، ج ٤، ص ٩٠.

٦- سورة البقرة / ٢١٨.

←

المؤمنون المهاجرون المجاهدون في سبيل الله، وهم بالدرجة الأسمى من الرجاء والتوكّل والرحمة الخاصّة..

ج: الانعتاق من بيئة الشرك

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾.[1]

أجر المهاجرين:

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾.[2]

بالالتفات إلى الآية؛ نعي أن ثَمّ أجرين للمهاجرين:

الأجر الأوّل: الأجر الدنيويّ، وهو خير من الأجر الدنيويّ؛ لو علم الناس (المهاجرون) ماذا أعدّ لهم الله من نعم في الآخرة...

أجر الموت عند الهجرة:

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.[3]

فالهجرة إلى الله تعالى وإلى الرسول(ص) كناية عن الهجرة إلى أرض الإسلام.. الأرض التي يتسنّى للإنسان أن يتعرّف على كتاب الله وسنّة رسوله ثمّ يعمل بهما.. فإن أدرك الموت مثل هذا الإنسان في هذه الهجرة وهذا الخروج يكون أجره مضموناً على الله الغفور الرحيم..

وقد وعد الله تبارك وتعالى ـ في آية أخرى ـ المهاجرين الذين يقتلون في سبيل الله فيما

١- سورة الكهف / ١٠.

٢- سورة النحل / ٤١.

٣- سورة النساء / ١٠٠

←

بعد أو من يموتون ميتة طبيعيّة بالرزق الحسن.. ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾.[١]

والرزق الحسن هو نعم الجنان، لأنّ ما بعد الموت ليس إلّا الآخرة التي يرزق فيها المرء الرزق الحسن.

عواقب ترك الهجرة:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ... فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا ﴾.

٥. فالمراد من (الظلم) هنا، وبملاحظة سياق الآيات، هو الظلم بالنفس، وهذا النوع من الظلم يحصل لدى استدبار دين الله وترك العمل بالشعائر الإلهيّة، وهذا يحصل أيضاً في اختيار العيش في أرض الكفر والكافرين، إذ لا يسع المرء في خضم هذه العيشة أن يتعلّم من معالم دينه..

٦. لا شكّ في أنّ استضعاف هذا النوع من الأفراد لا يمثّل حالة مطلقة، وإنّما هو استضعاف حملوه على عواتقهم بداعي الاستخفاف وعدم وعي مستوى الخطر المحدق بهم، وكانوا يستطيعون التخلّص منه بالهجرة.

٧. استعمال كلمة ﴿ توفّاهم ﴾ في الآية الشريفة بدلاً من كلمة (الموت) هو إشارة إلى مسألة أنّ الموت لا يعني العدم والفناء، وإنّما هو نوع استيفاء من جانب الملائكة لروح الإنسان، أي أنّهم يأخذون ويستوفون الروح التي هي أهم قسم في الوجود الإنساني ثمّ ينقلونه إلى عالم آخر.. ومثل هذا الاستعمال أو التعبير كثيراً ما يتكرّر في القرآن الكريم، وهو من أجلى الإشارات القرآنيّة إلى مسألة واقعيّة هي وجود الروح وبقائها بعد موت الجسد، وهو ردٌّ قاطع على القائلين بأنّ القرآن لم يشر إلى مسألة الروح..

١- سورة الحج / ٥٨.

٨. بمطالعة موارد متعدّدة في القرآن المجيد (١٢ مورداً) بخصوص الوفاة والموت.. يعلم أن استيفاء الروح لا يتمّ من قبل ملك معيّن، وإنّما ثمّ ملائكة مكلّفون بهذا الأمر ومأمورون بنقل الروح الإنسانيّة من هذا العالم إلى عالم آخر، ومن شواهد هذا الأمر الآية أعلاه؛ حيث ورد استيفاء الروح من قبل جماعة من الملائكة.. كما نقرأ في الآية الحادية والستّين من سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾.. وإذا ما رأينا في مواضع قرآنيّة أخرى أنّ مسألة استيفاء الروح تتم بواسطة ملك الموت؛ فهو من باب كونه من أعظم الملائكة، وكونه المأمور بقبض الأرواح، وهو نفسه المسمّى في الأحاديث بـ (عزرائيل) وعليه؛ يتضح الردّ والجواب على من يتساءل عن كيفيّة قدرة الملك الواحد على قبض أرواح الكثير من أفراد الناس في لحظة واحدة؛ مثلاً.. وفضلاً عمّا تقدم، وعلى افتراض عدم وجود ملائكة متعدّدين في قبض الأرواح، فإنّ تجرّد عزرائيل الوجودي يوجب أن تكون دائرة عمله دائرة استثنائية في السعة والقدرة، ذلك لأنّ وجوده المجرّد عن المادّة يجعل إحاطته واسعة للغاية بالنسبة إلى عالم المادّة.. كما روي عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام بخصوص ملك الموت إذ نقل سؤال النبيّ الأكرم (ع) ملك الموت وطبيعة إحاطته بعالم الدنيا، فقال (عزرائيل): «ما الدنيا كلّها عندي فيما سخّرها الله ومكّنني عليها إلّا كدرهم في كفّ الرجل يقلّبه كيف يشاء».[1]

٩. واضح أنّ بعض الآيات القرآنيّة التي تنسب قبض الروح إلى الله تعالى؛ مثل: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [2] لا تتنافى مع الآيات السالفة، ذلك لأنّ الاستيفاء بوسائط؛ فينسب الفعل تارة إلى الوسائط، وتارة إلى مسبّب الأسباب والوسائط، والحالتان صحيحتان..

١٠. قد ورد في القرآن المجيد ذكر الكثير من وقائع الدنيا إلى الملائكة؛ فهم عمال الله وجنوده في عالم الوجود، ومعلوم أن للملك معنىً واسعاً، بدءاً من الموجودات المجرّدة العاقلة

١- تفسير القمي، ج٢، ص٦

٢- سورة الزمر / ٤٢.

إلى الطاقات والقوى الطبيعيّة؛ المعروفة منها وغير المعروفة..

١١. هناك من الأفراد من يمتنع عن الهجرة بالأعذار الواهية والمصلحيّة الذاتية، ويرجّح عليها العيش في البيئة القذرة والاضطراب الفكري والديني.. وليس لهم من موضع في دار الآخرة في العذاب والجحيم.. ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا ﴾.

الآية ٩٨

إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. جرى الاستثناء في هذه الآية الشريفة للمستضعفين والعجزة الحقيقيين (دون المستضعفين المزيّفين) حيث وصفتهم بالرجال والنساء والأطفال الذين لا يجدون حيلة ولا طريقاً إلى الخلاص من المحيط الملوّث؛ لأنّهم معذورون حقّاً، والله تعالى لا يكلّف نفساً إلّا وسعها ﴿ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ... وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾

٢. من هو المستضعف؟

بالتحقيق في الآيات القرآنية الكريمة والروايات الشريفة يعلم أنّ أفراداً ضعفاء جدّاً من الناحية الفكرية أو البدنية أو الاقتصاديّة إلى الحدّ الذي يعجزون فيه عن التمييز بين الحقّ والباطل، مضافاً إلى عجزهم عن تحديد وظائفهم ومسؤولياتهم أو العمل بها تبعاً لعجزهم الجسمي أو المالي أو لكونهم رازحين في بيئة ضاغطة.. وبالتالي هم عاجزون عن الهجرة لكونهم مشمولين بعنوان الاستضعاف..

٣. إشارة إلى روايتين في تعريف المستضعف:

* عن أميرالمؤمنين(ع) قال: «ولا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجّة فسمعتها أذنه ووعاها قلبه».[١]

* وعن الإمام موسى الكاظم(ع) أنّه سئل عمّن هم المستضعفون، فقال: «الضعيف

١- نهج البلاغة، ص٢٨٠

←

من لم ترفع له حجّة، ولم يعرف الاختلاف، فإذا عرف الاختلاف؛ فليس بضعيف».[١]

استنتاج:

معلوم أنّ المستضعف في الروايتين أعلاه؛ هو المستضعف الفكري، ولكن ما ورد في الآية محطّ التفسير والآية (٧٥) من هذه السورة، يكون المراد من المستضعف هو المستضعف العملي، أي: من يشخّص الحقّ، ولكنّ البيئة المضطربة لا تسمح له بالعمل وفق معرفته وتشخيصه..

١- الكافي، ج٢، ص٤٠٦

الآية ٩٩

﴿فَأُولَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. سؤال: إذا كان هؤلاء الأفراد معذورين حقاً، فلم لم تقل الآية بعذرهم على سبيل العفو، واستعملت كلمة ﴿ عَسَى ﴾؟

كما أوردنا في شرح الآية (٨٤) من سورة النساء المباركة، فإنّ المراد من استعمال هكذا عبائر يتضمّن الإشارة إلى أنّ الحكم المذكور مشروط بشروط ينبغي إحرازها، بمعنى أنّ هكذا أفراد مشمولون بالعفو الإلهي فيما لو لم يقصّروا في شيء من مقدّمات هذه المهمّة ـ الهجرة ـ وفيما إذا كانوا على أهبة الاستعداد لدى توفّر أدنى وأبسط فرصة للهجرة..

٢. العفو لغةً بمعنى: (صرف النظر) وهو صفة أخلاقيّة فذّة، وطبقاً لقول أميرالمؤمنين(ع) فإنّ «العفو تاج المكارم»[١] ناهيك عن أنّ كل سورة قرآنيّة تبدأ بقوله تعالى: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ كما أن كتاب البارئ سبحانه وتعالى كثيراً ما يستعمل الكلمات المترادفة مع العفو والصفح، مثل الغفور والحليم والرحمن والرحيم والكريم والتوّاب، وهي صفات سامية للذات الإلهيّة المقدّسة.

٣. استعمال كلمة ﴿ غَفُورًا ﴾ بعد كلمة ﴿ عَفُوًّا ﴾ تـأكيد على شمول الرحمة الإلهية هؤلاء الأفراد المستضعفين..

١- غرر الحكم، ص٣٦

الآية ١٠٠

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. هذه الآية الشريفة وبتشجيعها المسلمين على الهجرة؛ تشير إلى أمرين بهذا الصدد:

أوّلاً: إلى آثار وبركات الهجرة في حياة الإنسان في هذا العالم.. إذ ثَمّ تأكيد على أنّ من يهاجر إلى الله وفي سبيل الله يجد مناطق واسعة وآمنة يمكنه تطبيق الحقّ فيها ويرغم أنوف أعداء الدين عليها ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾.

ثانياً: مع الإشارة إلى الناحية المعنويّة والأخرويّة تقول الآية: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

٢. المراغم من مادّة رغام على وزن (كلام) بمعنى التراب، والإرغام بمعنى الإذلال وسحق الأنف بالتراب. والمراغم أيضاً صيغة اسم مفعول واسم مكان.. وقد وردت الكلمة هذه في القرآن بمعنى اسم المكان، أي: هناك أماكن يمكن تطبيق الحقّ فيها.. ومن يخالف الحقّ عناداً وتكبّراً يدان ويرغم أنفه في التراب.

٣. قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللهِ ﴾ يبين إنّ المهاجرين؛ سواء حقّقوا مقصدهم من الهجرة ونالوا حرّيّتهم في أداء مسؤوليّاتهم، أم عجزوا عن ذلك حتّى فقدوا حياتهم في طريق الهجرة؛ فإنّهم في حقيقة الأمر قد أحرزوا نجاحاً فذّاً، ذلك لأن أجرهم قد حقَّ ووقع على الله تعالى.. وهذا لعمري منتهى العظمة في روعة أجر المهاجرين..

٤. طبقاً لهذه الآية وآيات قرآنيّة كثيرة، فإنّ الإسلام يصرّح آمراً بأنّ الحياة المعنويّة والأهداف المقدّسة التي هي أسمى من حياة الإنسان المادّيّة.. إذا ما تعرّضت للخطر، فإنّه لا يمكن الاعتذار والتحجّج بأنّ مسقط الرأس - الوطن - جدير بأن يتحمل في سبيله أنواع وأشكال الذلّ والاحتقار والحرمان وسلب الحرّيّة والتفريط بالأهداف المقدّسة السامية... فإن حصل العجز عن أداء المسؤوليّة في بيئة ما؛ لزمت الهجرة والانتقال إلى بيئة وموضع تتوفّر فيه عوامل النمّو والتطوّر المادي والمعنوي.. وذلك لأنّ الإسلام لا يتأطّر بإطار معين وبيئة محدودة.. وإنّ التعلّق الشديد بالبيئة التي ولد فيها الإنسان - مع ما تحمل من ضغط روحي وذكريات وسائر العلائق الأخرى - لا يمكن أن تكون مانعاً دون هجرة المسلمين.. ولهذا؛ رأينا أنّ جميع العلائق قد قطعت - في صدر الإسلام - حفظاً للدين وضماناً لنشره.. علماً أنّ الهجرة ليست فعلاً قد أسّس له في زمن ومبدأ الإسلام، وإنّما التأريخ البشري طالما تحدّث عن وقوع هجرات بشرية عتيدة قد وقعت في مراحل تاريخيّة كثيرة؛ تبعاً للتغيرات الجغرافيّة والبيئيّة والاقتصاديّة الكثيرة؛ حيث كان الناس يضطرون إلى ترك مساقط رؤوسهم والتأسيس لحياة جديدة في بقاع أخرى.

٥. أنّ الهجرة فعل غير مختص ببني البشر، بل إنّ جميع الموجودات الحيّة تجد في الهجرة خلاصاً وملاذاً لدى شعورها بأنّ ثَمّ ما يهدد استمرارها في الحياة، ولهذا؛ هناك من بين الكائنات الحيّة أنواع كثيرة معروفه بكونها مهاجرة، مثل الطيور التي تنتقل من موضع إلى آخر لإدامة حياتها، بل إنّ بعضاً منها تقطع المسافة ما بين القطبين الشمالي والجنوبي.. كما أنّ من الطيور من تقطع مسافة تقدّر بـ(١٨) الف كيلومتر طيراناً... وهذا ما يشير إلى أنّ الهجرة أحد القوانين الأبديّة في المعيشة والحياة..

٦. لأنّ لكلّ ملّة مبدأً تاريخيّاً معيّناً، كما النصارى الذين يبدؤون تاريخهم بولادة النبيّ عيسى(ع).. وحيث أنّ في الإسلام حوادث تاريخيّة مهمّة عديدة، مثل ولادة الرسول الأعظم(ص) والبعثة النبويّة الشريفة وفتح مكّة وشهادة النبيّ(ص). ولكن لأنّ حادثة الهجرة

من مكّة إلى المدينة كانت من أهمّ الوقائع التاريخيّة في الإسلام، وبمثابة صفحة جديدة في تاريخه؛ فقد اتخذها المسلمون ـ بعد انتشار الإسلام ـ وفي زمن الحاكم الثاني، وبعد جدل عريض طويل، رجح قول أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب(ع) باتخاذ تاريخ الهجرة مبدأً للتاريخ والتقويم الإسلامي.[1]

٧. لاريب في أنّ هجرة الرسول الأكرم(ص) كانت القاعدة لجميع الوقائع السياسيّة والإعلاميّة والاجتماعيّة في الإسلام، لأنّ المسلمين ما داموا يطوون في مكّة مرحلة تربويّة، كانوا ـ كما في الظاهر ـ ضعفاء من الناحية الاجتماعيّة والسياسيّة، ولكنّهم بعد الهجرة تأسست دولتهم الإسلاميّة مباشرة.. فحققوا خطوات عريضة من التقدّم.. ولو أنّ المسلمين لم يطيعوا الأمر النبوي في الهجرة، لاحتمل تعرّضهم للفناء؛ ناهيك عن عدم تحقيقهم الانتشار الّلازم.

٨. واضح أنّ الهجرة لم تمثّل حكماً خاصاً بالعصر النبويّ، بل هي تسري في كل حقبة تتحقق فيها الشروط والأرضية الّلازمة.. فيكلّف المسلمون ـ إذ ذاك ـ بالهجرة عن أوطانهم؛ حفظاً لدينهم ـ ولطالما عدّ القرآن الكريم الهجرة أساساً لتحقيق الحرّيّة والاستقرار؛ كما ورد ذلك بصريح هذه الآية المباركة وفي الآية (٤١) من سورة النحل أيضاً: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾.

٩. إنّ الهجرة ـ بنظر الإسلام ـ ليست الهجرة المكانيّة فحسب، وإنّما الهجرة يجب أن تبدأ من الباطن والذات أوّلاً، وهي هجرة وابتعاد عن أشياء تتنافى وأصالة الإنسان وكرامته؛ ليتحقّق الاستعداد للهجرة المكانيّة.. فإن كان ثَمّ حاجة إلى الهجرة المكانيّة.. عُمد إليها تحت مظلّة الهجرة الذاتية وضمن المهاجرين إلى الله تعالى..

١٠. إنّ روح الهجرة ـ أساساً ـ هي الهروب من الظلمة إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن

١- إقبال الأعمال، ج٢، ص٥٤٢

العصيان والتمرّد إلى الطاعة والخشوع.. ولذا؛ ترانا نقرأ في الروايات أن من لم يهجر بروحه ليس بمهاجر وإن هاجر ببدنه، وعلى عكسه الذي لم يكن بحاجة إلى الهجرة المكانيّة، ولكنّه هاجر بروحه وذاته، فذلك الذي يعدّ من زمرة المهاجرين..

١١. روايات في الهجرة:

الف: قول الرسول الأكرم (ص):

«مَن فرّ بدينه من أرض إلى أرض. وإن كان شبراً من الأرض. استوجب الجنّة، وكان رفيق محمد وإبراهيم عليهما السلام».[١]

وذلك لأنّ هذين النبيّين العظيمين هما قدوة المهاجرين عبر التاريخ.

ب: قول أميرالمؤمنين (ع):

«.. ويقول الرجل: هاجرت، ولم يهاجر، إنّما المهاجرون الذين يهجرون السيّئات ولم يأتوا بها»[٢]

١- مجمع البيان، ج٣، ص١٥٣
٢- الغارات، ج٢، ص٣٤٣

الآية ١٠١

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. في هذه الآية جرى التعبير عن السفر بالضرب في الارض، ذلك أنّ المسافر حين السفر يضرب الأرض بقدمه ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾.

٢. سؤال: في هذه الآية طرحت مسألة صلاة القصر واشترطت بالخوف من خطر العدوّ، والحال أنّ عديد الروايات الواردة من طرق الشيعة والمخالفين واستدلالات الفقهاء في بحوثهم؛ طرحت صلاة القصر كحكم عام؛ ولم يرد فيها التفاوت بين السفر المخوف والسفر الآمن؟

للإجابة ينبغي القول: يمكن تقييد حكم القصر في الصلاة بمسألة الخوف من عدّة جهات:

الف: أنّ هذا القيد ناظر إلى وضع المسلمين وحالتهم في صدر الإسلام، واعتباره حسب الاصطلاح قيداً غالباً، أي أنّ السفر آنذاك كان مقروناً بالخوف في تلك الحقبة، وكما قيل في علم الأصول فإنّ القيود الغالبة لا مفهوم لها كما نقرأ في قوله تعالى: ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم ﴾ حيث نواجه هذه المسألة أيضاً، لأنّ بنات الزوجة جزء من المحارم على الإطلاق، سواء ترعرعن عند إنسان كبير أم لا، ولكن حيث تكون النساء المطلّقات ثم يتزوّجن شابّات ولهنّ أولاد صغار ويترعرون تحت مظلّة الزوج الثاني؛ فقد ذكر القيد ﴿ فِي حُجُورِكُم ﴾ في النصّ

القرآني أعلاه.

ب: ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ صلاة القصر قد شرعت في البداية حين الخوف (طبقاً للآية أعلاه) ثمّ إنّ الحكم توسّع وعمّ جميع موارد السفر.

ج: يمكن أن يكون قيد الخوف له حيثيّة تأكيد، بمعنى أنّ صلاة القصر لازمة للمسافر في كلّ مكان.

وبالنتيجة؛ لا شكّ في أنّه مع ملاحظة تفسير الآية في كثير من الروايات، لا تختص صلاة المسافر بحالة الخوف، وبهذا الدليل؛ كان رسول الله (ص) يصلي قصراً في أسفاره؛ بما في ذلك سفره إلى الحجّ وأداء مناسكه (في منطقة منى)[1]

٣. سؤال: كلمة ﴿ لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ لا يشمّ منها الوجوب؛ إذ لم تقل الآية: عليكم أن تقصروا صلواتكم.. فكيف إذن؛ صَلُح أن يقال بأنّ صلاة القصر واجب عيني وليس واجباً تخييريّاً؟

نقول لدى الإجابة: قد سئل الأئمة عليهم السلام السؤال ذاته، فأشاروا إلى موضوعين في إجابتهم:

الموضوع الأوّل: التعبير بكلمة ﴿ لاَ جُنَاحَ ﴾ استعمل في القرآن المجيد في بعض الموارد بمعنى وجوب الفعل، مثل: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾[2] والحال أننا نعلم بأنّ السعي بين الصفا والمروة واجب في الحج وكذلك في العمرة، وقد كان الرسول الأكرم (ص) والمسلمون يأتون به، وبهذا المضمون وردت الرواية عن مولانا الإمام الباقر (ع).[3] وبعبارة أخرى؟ إنّ التعبير بكلمة ﴿ لاَ جُنَاحَ ﴾ في هذه الآية وفي آية الحجّ تمّ لنفي توهّم التحريم، ذلك لأنّ الأصنام في صدر الإسلام كانت منصوبة على

١- الكافي، ج٤، ص٥١٨ و٥١٩

٢- سورة البقرة / ١٥٨.

٣- تفسير العياشي، ج١، ص٢٧١

جبل الصفا والمروة، وقد ظنّ المسلمون أنّ السعي بين الصفا والمروة من تقاليد عبّاد الأصنام، والحال أنّ الأمر لم يكن كذلك.. ولهذا؛ فقد ورد التعبير بأن لا جناح؛ أي: لا مانع من أن تسعوا بين الصفا والمروة لدحض التوهّم، وكذلك في مورد المسافر.. قد يحصل التوهّم من قبل البعض بأنّ قصر الصلاة في السفر نوع خطيئة، وهكذا جرى التعبير القرآني بكلمة ﴿ لاَ جُنَاحَ ﴾ لنفي التوهّم..

الموضوع الثاني: وردت الإشارة في بعض الروايات إلى أنّ قصر الصلاة في السفر نوع تخفيف إلهي، والأدب يوجب أن لا يردّ الإنسان ما أنعم عليه من التخفيف وأن لا يتّخذ منه موقف المتجاهل. وقد روي من طرق المخالفين عن النبيّ الأكرم(ص) أنّه قال في صلاة القصر: «صدقة تصدّق الله بها عليكم؛ فاقبلوا صدقته»[1] ومثل هذا النصّ ورد في مصادر الشيعة حيث روى مولانا الإمام الصادق(ع) عن النبيّ الأعظم(ص) أنّ الإفطار في السفر وصلاة القصر من هدايا الله، فمن لم يفطر في السفر ويقصر في الصلاة فقد ردّ هديّة الله...[2]

٤. يمكن أن يتصوّر البعض أنّ هذه الآية وبدليل كلمة ﴿ إِنْ خِفْتُمْ ﴾ تبين حكم صلاة الخوف (الصلاة في ساحة الحرب وأمثالها) في حين أنّ الجملة ﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ مفهوماً عامّاً يشمل جميع أشكال السفر العادية أو ما كان منها للجهاد والحرب.. واستعمال كلمة ﴿ إِنْ خِفْتُمْ ﴾ في هذه الآية ـ كما تبيّن ـ نوع قيد غالب، لأنّ الخوف في السفر كان هو الحالة الغالبة في أسفار المسلمين آنذاك، ولهذا؛ فإنّ هذه الآية لا دلالة فيها على صلاة الخوف.. لأنّ:

أوّلاً: الخوف من هجمات العدوّ دائم في سوح القتال، ولا معنى أن يقال هناك: ﴿ إِنْ خِفْتُمْ ﴾ أن يهجم عليكم العدوّ فاقصروا صلواتكم.

١- التفسير الكبير، ج١١، ص٢٠٠
٢- الخصال، ج١، ص١٢

ثانياً: أن حكم صلاة الخوف قد ورد مستقلاً في الآية التالية.

ثالثاً: أنّ شروط وخصوصيات صلاة المسافر كما هي شروط وخصوصيّات جميع أحكام الإسلام لم ترد مفصّلة في القرآن الكريم، وإنّما الذي تكفّل بالإشارة إلى ذلك هي السنّة، مثل إتمام الصلاة في السفر الذي يقلّ عن ثمانية فراسخ، لاسيّما أنّ السفر في تلك الفترة ولمسافة ثمانية فراسخ كان يستغرق يوماً كاملاً.. أو استثناء كثيري السفر ممن يعدّ السفر جزءاً أصيلاً من حياتهم حيث يكون السفر بالنسبة إليهم أمراً طبيعيّاً وليس استثنائيّاً.. أو الذين يسافرون سفر المعصية؛ حيث لا يشملون بهذا القانون؛ ذلك لأنّ هذا الحكم نوع تخفيف إلهي، والذين يطوون المسافات للمعصية ليسوا أهلاً لهذا التخفيف.. وكذلك المسافر الذي لا يبلغ حدّ الترخّص (الموقع الذي لا يسمع فيه صوت أذان المدينة أو لا ترى فيه جدرانها) لا يشمل بصلاة القصر، لأنّه لم يخرج عن حدود المدينة ولا يصدق عليه عنوان المسافر بعد.. وكذلك الأحكام الأخرى الواردة في الكتب الفقهيّة والأحاديث المرتبطة التي ذكرها المحدّثون في كتبهم..

الآية ١٠٢

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ
مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ
مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ
فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ
عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ
أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ
وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

شأن نزول الآية

حينما انطلق الرسول الأكرم(ص) مع جماعة من المسلمين باتجاه مكّة المكرّمة، ووصلوا إلى منطقة الحديبيّة.. فبلغ الخبر قريشاً، فجهزت خالداً بن الوليد بمعيّة مئتي مقاتل لمنع النبي وأصحابه من الاقتراب من مكّة، فاستقر خالد ومقاتلوه عند جبال مكة.. وفي الزوال؛ أذّن بلال وأقام النبيّ والمسلمون صلاة الظهر.. وأثناء ذلك ارتأى خالد وقواته الذين شاهدوا صلاة النبي والمسلمين أن يباغتوهم ويقضوا عليهم حين أدائهم صلاة العصر، لعلمهم بحرص النبي والمسلمين على أدائها.. وأثناء ذلك نزلت الآية أعلاه وأمرت بأداء المسلمين صلاة

الخوف لردع المشركين عن أن يهاجموهم..[١] وهذه المسألة بحد ذاتها من جملة الإعجاز القرآني الذي عطّل مؤامرة العدو.. حتّى قيل إن خالداً أظهر إسلامه حين شاهد هذه الواقعة!!![٢]

النقاط المستفادة من الآية

١. تتمّة للآيات المتعلّقة بالجهاد؛ تعلّم هذه الآية المسلمين كيفيّة صلاة الخوف أثناء الحرب.. والآية الشريفة تخاطب النبيّ(ص) قائلة: حينما تكون في صفوف المسلمين وقمت للصلاة فيهم، فينبغي أن ينقسم المسلمون إلى قسمين؛ قسم يصلون معك حاملي أسلحتهم، فإذا سجدوا (وانتهت ركعتهم الأولى، فعليك أن تقف في مكانك ليتمّوا ركعتهم الثانية بسرعة ثمّ يعودوا إلى ساحة الحرب ليجابهوا العدوّ) ثمّ يتوجّه القسم الثاني منهم. ليحلّوا محلّ القسم الأوّل ويصلّوا خلفك، مضافاً إلى أنّ القسم الثاني عليهم أن لا يتركوا أسلحتهم أو يضعوها أرضاً ﴿ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾

٢. لم تتضمّن هذه الآية مزيداً من التفصيل في كيفيّة صلاة الخوف؛ وهذا هو أسلوب القرآن في تطرّقه إلى الكلّيّات وإيكال أمر التفاصيل إلى السنّة النبويّة الشريفة.

٣. شرعت صلاة الخوف باعتبار أنّ العدوّ دائم الكمين للمسلمين، وهو حريص كلّ الحرص على اقتناص الفرصة للإيقاع بهم ومهاجمتهم إذا ما شاهدهم في حال الصلاة.. ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾.

٤. حيث أنّ من الممكن أن ترد ضرورات؛ كحمل السلاح ووسائل الدفاع مع أداء الصلاة؛ ويكون الأمر مشكلاً؛ ولعلّ من المسلمين من يصاب بمرض أو جراح حين الحرب، يكون من الصعب عليهم حمل السلاح ووسائل الدفاع. وفي ختام الآية ورد الأمر بأنّه لا جناح على

١- تفسير القمي، ج١، ص١٥٠

٢- التبيان، ج٣، ص٣١١

المجاهدين أن يضعوا أسلحتهم إذا تأذوا من مطر أو مرض، ولكن من الضروري أن لا يغفلوا عن وسائل دفاعهم (مثل الدرع وغيره) وإن كانوا يعانون مرضاً لردع أو صد هجوم الأعداء ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾.

٥. واضح أنّ المراد من وجود الرسول الأعظم (ع) بين صفوف المسلمين لأداء صلاة الخوف ليس محصوراً في وجود شخصه صلوات الله عليه وآله، وإنّما هو إشارة إلى وجود الإمام في إقامة الصلاة جماعةً، ولذا؛ فقد أقام أميرالمؤمنين (ع) والإمام الحسين (ع) صلاة الخوف.[١] كما فعل ذلك جملة من قادة الجيوش المسلمة مثل حذيفة بن اليمان..[٢]

٦. يمكن أن يكون سبب حصول التفاوت في لحن الآية الشريفة تجاه القسمين، حيث أمرت القسم الأول بحمل أسلحتهم أثناء صلاة الخوف، وأمرت القسم الثاني بعدم الغفلة عن وسائل دفاعهم (مثل الدروع)... هو أنّ إقامة القسم الأوّل صلاة الخوف يصاحبه عدم معرفة العدوّ وإطّلاعه على واقع المسلمين، ولذا؛ كان احتمال هجوم العدوّ ضعيفاً، ولكن فيما يخص القسم الثاني؛ فإنّ احتمال الهجوم أكبر لالتفات العدو إلى إقامة المسلمين صلاة الخوف..

٧. المراد من حفظ الأمتعة أنّه فضلاً عن حفظ النفس، وجوب حفظ وسائل الدفاع الأخرى ووسائل السفر والطعام والدواب والأنعام ﴿ وَأَمْتِعَتِكُمْ ﴾.

٨. نعلم أنّ صلاة الجماعة في الإسلام غير واجبة؛ ولكنّها مستحبّة مؤكّدة، والآية أعلاه إحدى الدلائل الحيّة على هذه المنهجيّة الإسلاميّة حتّى في ساحة الحرب وأثناء القتال؛ حيث يستفاد ذلك من تشريع صلاة الخوف، وهذا الأمر يشير إلى الأهمّيّة القصوى لأصل وأهمّيّة الجماعة، كما أنّ لها التأثير النفسيّ البالغ في معنويّات المجاهدين من حيث

١- وسائل الشيعة، ج٨، ص٤٤٥ والإرشاد، ج٢، ص١٠٥

٢- الدر المنثور، ج٢، ص٢١٢

التنظيم والتنسيق لتحقيق الهدف، كما لها وقع كبير على نفوس الأعداء حيث يشاهدون اهتمام المسلمين بأداء تكاليفهم ومسؤوليّاتهم حتّى في سوح القتال.

٩. كيفيّة أداء صلاة الخوف تعلم من السنّة النبويّة الشريفة حيث تبدّل الصلوات ذات الركعات الأربع إلى ركعتين.. فيصلّي القسم الأوّل ركعة مع الإمام، ثمّ يتوقّف الإمام بعد الانتهاء من الركعة الأولى؛ ويصلّي هذا القسم صلاته لوحده ويعود إلى ساحة القتال.. ثمّ يحلّ القسم الثاني محلّ القسم الأوّل ويصلّي مع الإمام ركعة ثم يتمّ هذا القسم ركعته الثانية فرادى (وهناك آراء أخرى في كيفيّة صلاة الخوف.. ولكنّ ما ذكرناه هو الأشهر بين الآراء).[١]

١- راجع: كنز العرفان، ج١، ص١٨٨ إلى ١٩١

الآية ١٠٣

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. بعد الأمر بأداء صلاة الخوف الوارد في الآية السالفة ولزوم إقامة الصلاة حتّى في حال الحرب.. أمرت هذه الآية بعدم الغفلة عن ذكر الله تعالى في جميع الحالات؛ قياماً وقعوداً وعلى الجنوب؛ طلباً للمدد والعون منه سبحانه ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُواْ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ﴾.

٢. يمكن أن يكون المراد من ذكر الله في الحالات البدنية المشار إليها؛ وهي حالات الاستراحة والفواصل التي تلي القتال، كما أنّ من الممكن أن يشار بها إلى مختلف حالات الحرب التي يتقلّب بينها الفرد المقاتل والفترات التي ينتقل فيها أو جلسته واستلقائه ضمن أساليب القتال كرمي السهام واتخاذ الكمين للأعداء.

٣. هذه الآية ـ في الحقيقة إشارة إلى أمر ديني مهم، وهو ضرورة انضباط الفرد المؤمن، إذ أن أداء الصلاة أمر تنظيميّ انضباطي تحيى به روح التوجه إلى الله تعالى، فيذكر عند فواصل الصلاة سواء في ميادين الحرب أو غيرها..

٤. العلّة في أنّ الكثير من الروايات وبالاستناد إلى هذه الآية قد فسّرت كيفيّة الصلاة بأنّها عائدة إلى المرضى الذين لهم أن يصلّوا من قيام فإن لم يستطيعوا صلوا من جلوس وإن لم

يستطيعوا؛ فعلى جنوبهم[1] هي أنّ هذا التفسير نوع تعميم وتوسعة في معنى الآية، رغم أن هذه الآية غير مخصوصة بهذا المورد.

٥. لا شكّ أنّ حكم صلاة الخوف حكم استثنائي، فإذا زال الخوف وجبت الصلاة بصورتها الاعتياديّة ﴿ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ ﴾.

٦. الصلاة وظيفة ثابتة في ذمّة المؤمنين ويجب أداؤها في كلّ حال ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾[2]

٧. كلمة ﴿ مَّوْقُوتًا ﴾ مأخوذة من مادة الوقت، وهي تبيّن حرمة عدم أدائها حتّى في ميادين الحرب في أوقاتها المعيّنة، رغم أنّ عديد الروايات قد فسرت توقيت الصلاة بمعنى كونها واجباً ثابتاً،[3] وهو التفسير الذي يتناسب ـ طبعاً ـ مع مفهوم الآية ويتّحد مع معناها الأوّلي..

٨. سؤال: يقول البعض بأنّهم لا ينكرون فلسفة الصلاة وأهمّيّتها وآثارها التربويّة، ولكن ما معنى أن تؤدّى في أوقات محدّدة؟ ألم يكن من الأفضل أن يترك الناس أحراراً ليؤدّوها حتّى ما شعروا في أنفسهم الاستعداد الروحي؟!

الجواب

تؤكّد التجربة أنّ المسائل التربويّة لا تؤتي أكلها ما لم تخضع للانضباط والشروط الخاصّة المحدّدة، كما أنّها قد تذهب في غياهب النسيان وتتزلزل أركانها بشكل عام.. ومثل هذه المسائل لابدّ لها من أن تخضع لتوقيتات معيّنة وضوابط وانضباط دقيقين، لتحاشي قبول أي

---

١ وسائل الشيعة، ج٥، ص٤٨٧ و٤٨٨

٢- وهناك من الروايات ما فسّرت (الصلاة) بصورة أعمق من هذه الصلاة التي يؤدّيها الفرد المسلم في أوقات محدّدة.. إذ قالو المعصومونعليهم السلام بأنّ المراد من الصلاة هنا هي: ولاية أهل البيتعليهم السلام التي تنطوي جميع المعتقدات والأعمال الصالحة؛ بل وكلّ الدين تحت عنوانها ومفهومها وآثارها، نظراً لأنّها المعيار الأوّل والأخير في طبيعة علاقة الإنسان بربّه المتعال، ولأنّ قبول ما يصدر عنه رهين بها. [المترجم].

٣- تفسير العياشي، ج١، ص٢٧٣

عذ روتبرير في تركها؛ لاسيّما وأنّ أداء هذه العبادة قد ورد فيه الحالة الجمعيّة ذات العظمة والهيبة والتأثير في النفوس بما هو غير قابل للإنكار.. بل إنّ الصلاة جماعةً تمثّل مدرسة مهيبةً في صناعة الإنسان...

الآية ١٠٤

وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

شأن نزول الآية

نقل عن ابن عباس وبعض المفسّرين أنّه وبعد الحوادث الأليمة التي رافقت معركة أحد، وقف النبيّ الأكرم(ص) عند جبل أحد وكان أبوسفيان في أسفله إذ راح يصرخ صراخ الفاتح قائلاً: يوم لنا ويوم لكم. فقال النبيّ الأعظم ﷺ للمسلمين: أجيبوه من فوركم (وكأنّه يريد أن يثبت له صمود من معه ممّن لم يفرّوا) فقال بعضهم لأبي سفيان: لسنا وأنتم سواء، وإنّما شهداؤنا في الجنّة وقتلاكم في النار. فصرخ أبوسفيان متفاخراً بكفره: لنا العزّى ولا عزّى لكم.. فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يردّوا عليه ويقولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم»... ولمّا رأى أبوسفيان نفسه عاجزاً عن مواجهة هذا الشعار المحمدي العظيم، تخلّى عن العزّى وتعلّق بهبل، فصرخ قائلاً لجنده: أُعلُ هبل! فأمر النبيّ الأكرم بأن يردّوا هذا الشعار الجاهلي بشعار أقوى وأوعى وينادوا بالقول: «الله أعلى وأجلّ» ولمّا لم يجنِ أبوسفيان من شعاراته الجاهليّة نفعاً قال صارخاً: موعدنا بدر الصغرى... ثمّ إنّ المسلمين غادروا ساحة الحرب وهم يتحاملون على جراحاتهم و قد تألّموا لحوادث المعركة... وهنالك نزلت هذه الآية و حذّرتهم من التقاعس عن ملاحقة الأعداء وأن لا يغتمّوا لحوادث المعركة وما أصيبوا.. فانطلق المسلمون إلى ملاحقة المشركين أعدائهم.. وحينما بلغ المشركين خبر ملاحقة المسلمين لهم بادروا إلى

الهروب والابتعاد عن المدينة ويمّموا شطر مكّة...[1]

النقاط المستفادة من الآية

١. شأن النزول هذا يعلمنا أنّ على المسلمين أن لا يغفلوا عن أساليب وتحرّكات العدو العسكريّة وأن يعدّوا ـ لمقابلة ومواجهة خططه وأساليبه النفسية أو المادّيّة ـ خططاً وأساليب أقوى وأشمل، وأن يواجهوا منطق العدوّ بمنطق أمضى وأقوى، وأن يستخدموا الأسلحة الأعتى من أسلحة الأعداء، بل وأن تكون شعاراتهم أكثر وقعاً وقرعاً من شعارات أعدائهم.. وإلّا كانت الحوادث في مصلحة من يواجههم من المناوئين لهم.. وعلى هذا؛ فإنّ حقبةً مثل حقبتنا تفرض على المسلمين الصادقين أن لا يعمدوا إلى التأسّف على مزعجات الحوادث ومؤلمات الوقائع التي تحيط به من كلّ جانب دون العمل الجادّ في مواجهتها بالوعي واليقظة.. فعليهم ـ لمواجهة إعلام الأعداء الفاسد وكتبهم الضالّة ـ أن يتسخدموا إعلاماً عبقريّاً وكتب هداية وأن يستعملوا في ذلك أرقى وسائل الإعلام وأساليبه.. وفي مواجهة مؤسسات الفساد لابد من تشييد والمؤسسات النزيهة وتسخيرها لتوعية الجيل المسلم الشاب.. ولدى مواجهة الخطط والمشاريع الهدّامة للروح المسلمة، على المسلمين الحريصين على مستقبل دينهم وأجيالهم أن يؤسّسوا أصناف المدارس التوعويّة الرصينة الجامعة وعلى كافة الأصعدة والمستويات.. حفاظاً على موجوديتهم ثمّ الانطلاق بها إلى رحاب العالم.

٢. في هذه الآية ورد الأمر بعدم اتخاذ الموقف الدفاعي تجاه الأعداء المستميتين وضرورة التحلّي بروح الهجوم والمباغتة، إذ من وجهة النظر النفسية يكون لهذا التحلّي أثر عظيم واستثنائي في تحطيم معنويات الأعداء، كما استخدم الرسول الأعظم ﷺ هذا الأسلوب الفذ بعد معركة أحد وما لحق بالمسلمين من هزيمة حيث اضطرّ الأعداء إلى الفرار والعودة إلى

١- مجمع البيان، ج٣، ص١٦٠

مساكنهم ﴿ وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ ﴾ ليفوّتوا على أعدائهم فرصة الانتصار المزعوم أو تقوية معنويّاتهم.

٣. بالاستدلال الحيّ والواضح، أكّدت هذه الآية للمسلمين ضرورة المحافظة على معنويّاتهم وروحهم الهجوميّة، فصوّرت الآية لهم واقع الأعداء الذين تعرضوا للأذى كما تعرّضوا هم، مع الفارق بأنّ المسلم يرجو ويأمل من الله ما لا يرجو الكافر ويأمل..﴿ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ ﴾.

٤٤. لا تنسوا أنّ جميع المزعجات والآلام والجهود والتراخي أحياناً لا تخفى صورها عن الله سبحانه وتعالى، وعليه؛ فإنّه يرى كلّ شيء ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

الآية ١٠٥

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾

شأن نزول الآية

رويت في شأن نزول الآيات أعلاه رواية مفصّلة، خلاصتها أنّ عشيرة بني أبيرق كانت معروفة نوعاً ما، وكان فيها ثلاثة أخوة يدعون بشر وبشير ومبشّر، فسرق بشير بيت أحد المسلمين ويدعى رفاعة، وكان ممّا سرق سيف ودرع ومقدار من الطعام، وكان للمسروق ابن أخ يدعى قتادة، وهو من مجاهدي معركة بدر، فروى ذلك للنبيّ(ص). ثمّ إنّ الإخوة الثلاثة اتّهموا أحد المسلمين ويدعى لبيد وكان يعيش معهم في بيتهم بالسرقة.. فانزعج لبيد لهذا الاتّهام، فجرّد سيفه وجاءهم مغضباً وهو يقول: أتتّهموني بالسرقة؟ وأنتم أحقّ بالسرقة منّي.. وإنّما أنتم من المنافقين الذين هجوا رسول الله(ص) ونسبتم أشعارهجوكم إلى قريش.. فإمّا أن تثبتوا دعواكم باتّهامي أو أضربكم بسيفي هذا.. فراح الإخوة الثلاثة يحاولون مداراته.. وحيث أنّهم سمعوا بأنّ الخبر قد اطّلع عليه النبي(ص) عبر قتادة.. وشاهدوا أحد خطباء عشيرتهم مع جماعة عند الرسول الأعظم(ص) وهم يحاولون تبرئة السارقين الحقيقيّين وقد اتّهموا قتادة بالسرقة، فما كان من النبيّ إلا أن عمل بالظاهر وقبل شهادة تلك الجماعة ووجّه اللّوم إلى قتادة.

أمّا قتادة؛ فقد انزعج أيّما انزعاج لهذه التهمة، وعاد إلى عمّه وأخبره الخبر بأسف بالغ، فواساه عمّه وقال: لا تقلق والله حسبنا.. فنزلت الآيات أعلاه وبرّأت قتادة المظلوم وتوجهت باللّوم والتقريع للخائنين الحقيقيّين..[1]

١- نفس المصدر، ص١٦٠ و١٦١

كما روي شأن نزول آخر لهذه الآية، حيث قيل إنّها نزلت في رجل سرق درعا.. وحينما شعر السارق بالخطر رمى الدرع في بيت يهودي من يهود المدينة وطلب من قوم من المسلمين أن يشهدوا عند رسول الله(ص) بنزاهته، وأن يستدلّوا على براءته بوجود الدرع في بيت اليهودي.. ولمّا رأى رسول الله(ص) الأمر كما يقول، مال إلى قول المسلمين، فنزلت الآية وأظهرت الحقيقة.[1]

النقاط المستفادة من الآية

١. في البدء ذكّر الله تعالى رسوله بأنّ الهدف من إنزال الكتاب السماوي هو تفعيل أصول الحقّ والعدل بين الناس، وحذّر سبحانه من أن يكون القائد ظهيراً لخائن من الخائنين.. ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ... ﴾.

٢. هذه الآية الشريفة توصي رسول الله(ص) وجميع القادة والقضاة أن يلتزموا جانب الحيطة والحذر المطلق، لئلّا ينجح الخائنون والمحتالون وشهود الزور في مصادرة حقوق الآخرين.

٣. رغم أن ظاهر الخطاب موجّه إلى النبيّ الأكرم(ص)، ولكن ليس من شكٍّ في أنّ هذا الحكم حكم كلّيّ موجّه إلى جميع القضاة والحكّام، ومن هنا؛ كان مفهوم هذا الخطاب ونظائره، أنّ من غير الممكن صدور مثل هذا الموقف عن رسول الله(ص) ، إذ الحكم المذكور ناظر إلى جميع الأفراد..

١- أحكام القرآن، الجصاص، ج٣، ص٢٦٤

الآية ١٠٦

﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. ثَمّ احتمالات في صدور الأمر الإلهي للنبي الأكرم(ص) بالاستغفار وطلب العفو:

الاحتمال الأوّل: أنّ الاستغفار عن ترك الأولى حيث التعجّل في القضاء فيما يتعلق بشأن نزول الآية، رغم أنّ مدى الاعتراف وشهادة الطرفين كافٍ للنبي في إصدار حكمه، ولكن ـ كما يدّعي أصحاب هذا الاحتمال ـ كان من الأفضل أن يُعمد إلى مزيد من التحقيق والدقّة.

الاحتمال الثاني: أنّ النبي(ص) فيما يتعلّق بشأن نزول الآية قد حكم طبقاً لقوانين القضاء الإسلامي، وحيث أنّ وثائق (الخائنين) من حيث الظاهر كانت أقوى، فقد أعطاهم الحقّ، وبعد تكشّف الواقع وعودة الحقّ إلى صاحبه طلبت الآية أن يستغفر الله دون أن يترتّب عليه ذنب ـ والعياذ بالله ـ وإنّما بداعي تعرّض حقّ مسلمٍ من المسلمين إلى المصادرة بسبب خيانة ومكر البعض (أي أن الاستغفار يكون من أجل الحكم الواقعي دون الظاهري)

الاحتمال الثالث: أن يكون الاستغفار هنا لطرفي الدعوى الذين لاثوا دعواهم وقضيتهم بشيء من الاختلاف والتضاد..

٢. أنّ رسول الله(ص) موظّف بالقضاء طبقاً للظاهر وطبقاً لأدلة طرفي الدعوى، ولا ريب في أن هكذا قضاء يمنع من بلوغ الحقّ صاحبه في العادة.. ولكن قد يحدث أن لا يتطابق ظاهر الدليل وشهادة الشهود مع الواقع.. وهنا يجب الالتفات إلى أن حكم الحاكم لا يغيّر

من الواقع شيئاً. ولا يكون الحقّ باطلاً ولا الباطل حقّاً، ولهذا؛ ورد في الحديث النبوي الشريف:

«إنّما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم يكون ألحن بحجّته من بعض، فأقضي بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حقّ أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنّما أقطع له قطعةً من النار».[1]

١- نفس المصدر، ج١، ص٣١٣

الآية ١٠٧

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. يمكن أن يرد إشكال في البين، وهو أنّنا نعلم ـ طبقاً لشأن نزول الآية الشريفة ـ بأنّ الخيانة كانت بحقّ الغير، فكيف تقول هذه الآية: ﴿ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي: يخونون أنفسهم؟!

لدى الإجابة على هذا الإشكال والسؤال يجدر القول:

إن عبارة: ﴿ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ يمكن أن تكون بياناً لمعنىً لطيف لطالما ذكّر به القرآن المجيد، وهو أنّ كلّ عمل يصدر عن الإنسان له آثاره وعواقبه الحسنة أو السيّئة، سواء كانت في بعدها المادّي أو المعنوي، حيث تعود تلكم الآثار على نفس الإنسان قبل غيره، كما قال القرآن في موضع آخر: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ ثمّ يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ القرآن يؤيّد كون أفراد البشر كأعضاء الجسد الواحد، فإن مس أحدهم ضرٌ أصاب الآخرين فمن ظلم غيره يكون كمن ظلم نفسه وكمن صفع وجهه بيده..

٢. لا ريب في أنّ الخيانة ذنب عظيم وظلم يرد من ثلاث شعب:

الشعبة الأولى: قد خان الخائن نفسه عبر ذنب الخيانة، فيحرم الرحمة الإلهية في الدنيا والآخرة..

الشعبة الثانية: أن تعود الخيانة على من تعرّض لها.

الشعبة الثالثة: الخيانة بحقّ المجتمع؛ لأنّها تعود عليه وتضرّ به على كلّ حال.

٣. من المسلّم به؛ وبالدلائل والقرائن؛ فإنّ كلمة ﴿ يَخْتَانُونَ ﴾ الواردة بصيغة المضارع الدالّ على الاستمرار، وبقرينة كلمة ﴿ خَوَّانًا ﴾ التي هي صيغة مبالغة بمعنى كثير الخيانة وشديديها، وكلمة ﴿ أَثِيمًا ﴾ التي تعني المذنب المؤكّد للخوّان.. وفي الآية السالفة عبّر عنه بكلمه (خائن) التي هي اسم فاعل وله معنىً وصفي وتشير إلى تكرّر الفعل.. فهذه الآية لا تقصد من يخون مرّة واحدة ثمّ يندم، إذ لا يلام من صدرت عنه الخيانة مرّة واحدة كما يلام كثير الخيانة وشديدها، بل ينبغي أن يرفق به ليعود إلى الصدق.. وإنّما الآية في خطابها توجّهت إلى من الخيانة منهجهم وقاعدتهم في الحياة...

الآية ١٠٨

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. هذا النموذج من الخونة يستحيون من أن تتكشّف بواطن أفعالهم للناس دون الله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ... ﴾.

٢. الله عزّوجلّ الذي هو مع الناس دوماً، هو نفسه يراقب الخائنين الذي يرسمون خطط خياناتهم في جوف الليل ويقولون على الله ما لا يرضي من القول.. فهو سبحانه معهم في كلّ حال وله الإحاطة المطلقة التامّة على أعمالهم وطرق تفكيرهم: ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾.

الآية ١٠٩

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩ ﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. في هذه الآية حيث الخطاب متوجّه إلى ذوي قربى الشخص السارق الذين انبروا للدفاع عنه.. تقول: يمكن أن تدافعوا عنه في هذه الدنيا، ولكنّ دفاعكم هذا لن يكون ذا قيمة وأثر.. لأنّ السارق نفسه سيقف بين يدي الله تعالى في يوم القيامة؛ ولن يكون ـ إذ ذاك ـ له ثَمّ مدافع أو وكيل؛ يمكن أن ينقذاه من عدل الله عزّ اسمه، أو من العقاب الذي ينتظره ﴿ هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾.

٢. الخائنون والمدافعون يجب أن يعلموا بأنّهم سيتعرّضون للعواقب السيّئة لأفعالهم في الدنيا والآخرة..

٣. هذه إحدى أسرار بلاغة القرآن، حيث الآية استثمرت حادثة بسيطة صغيرة في ظاهرها، حيث كان محورها سرقة درع وشيء بسيط من طعام أو تعرّض فرد يهوديّ معادٍ للإسلام إلى تهمة باطلة.. إلّا أنّها ـ الآية ـ عالجت جميع الجوانب وذكّرت وحذّرت القائد والقاضي من أن يغفل فيتعرّض جانبه إلى ذنب لدى إصدار الحكم.. كما حذّرت الذين ينبرون إلى الدفاع عمّن تربطهم رابطة العصبيّة والقلبية أو المصلحة وهو على هذه الحالة من الخيانة..[1]

---

١. ولعلّ أبرز المصاديق لمفهوم ومنطوق هذه الآية متوجّه إلى الحكّام الظلمة من جهة، وإلى المتعصّبين لهم، كعلماء السوء، حيث يبادر هؤلاء الأخيرون إلى الدفاع وتبرئة ساحة الظلمة ـ كالذين اغتصبوا الخلافة وصادروها من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين ←

الآية ١١٠

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١١٠﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. الفرد المذنب والمسيء والظالم لنفسه عليه أنّ يعي بأنّ باب التوبة مفتوح على مصراعيه إن هو ندم حقّاً عن ذنبه وطلب من ربّه الصفح وراح يستغفره جبراً لجريرته، وذلك رحمةً من الله وغفراناً.

٢. بالالتفات إلى عنواني السوء والظلم للنفس في هذه الآية، وبملاحظة قرينة المقابلة، وكذلك بالنظر إلى أنّ جذر كلمة ﴿ سُوءًا ﴾ في اللّغة: الذي يعني إلحاق الضرر بالآخر.. يعلم أن أيّ نوع من الذنب، فضلاً عن إلحاق الضرر بالآخر أو بالنفس.. قابل للعفو والجبر لدى التوبة الحقيقيّة الصادقة: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

٣. يفهم من قوله تعالى: ﴿ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أنّ للتوبة أثراً عظيماً حقيقيّاً في عمق الروح الإنسانيّة.. لإزاحتها الأثر المؤلم والمزعج لارتكاب الذنب بعد الغفران الإلهي من جهة، ومن جهة أخرى؛ يتبدل الانزعاج والابتعاد عن الله إلى اطمئنان وقرب إلى الله ولطفه ورحمته بمقتضى رحيميّته..

ـ و تدبيج التبريرات لهم لإضلال الرأي العام و عبر الأجيال، وهم غافلون عما سيصيبهم في الحياة الدنيا من عقاب، وما سيلحق بهم و بمن دافعوا عنهم من أليم العذاب والفضيحة الكبرى في يوم القيامة؛ وذلك في خضمّ براءة بعضهم من بعض بين يديّ الله تعالى. [المترجم].

الآية ١١١

وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. لكلّ عمل أثره الخاص، والذنب ليس مستثنى من هذه القاعدة.. وبطبيعة الحال؛ فإنّ الله تعالى لا ينقص من عظمته شيء بذنب المذنب، وعلى هذا الأخير أن يعي بأنّ كل ذنب يرتكبه إنّما يضرّ بنفسه، لأنّ أثر الذنب في الدنيا يهوي به إلى مستنقع التمرّد والعصيان، وفضلاً عن العذاب الأخروي فإنّه يبتعد عن الله والمعنويات.. ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾.

٢. الذنوب؛ وإن كانت متفاوتة في ظاهرها، ولعلّ بعضها يؤثّر في الآخرين، أو يلحق ضرره بالمذنب نفسه، ولكن بعد التحليل النهائي؛ فإنّه يعود على الإنسان نفسه، ويترك أثره البالغ في روح الإنسان ويظهر عليه بذاته..

٣. الله سبحانه وتعالى عالم بالعباد وذنوبهم.. وكذلك هو حكيم يجزي كلّاً حسب استحقاقه ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

الآية ١١٢

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ١١٢﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. سمّت هذه الآية الشريفة الذنب الذي يرتكبه صاحبه ثم يرمي به إلى ذمّة غيره خطيئة.

٢. للمفسّرين وأهل اللّغة عبارات متفاوتة في معنى الخطيئة والأثم، وخلاصة أقوالهم أنّ الخطيئة من الخطأ، وبمعنى الزلل والذنب الذي يبدر عن الإنسان بلا قصد لغةً، وقد تتبعها الكفّارة والغرامة، وهي تشمل كلّ ذنب عمديّ كان أو سهويّاً، ذلك لأنّ كلّ ذنب (العمدي والسهوي) لا يتناسب وروح الإنسان السليم، وإن صد رمنه؛ فإنّما هو نوع زلل وخطئ لا يناسب في الحقيقة مقامه.. ولكنّ الإثم هو الذنب العمديّ الاختياريّ، والإثم لغة بمعنى الأمر الذي يعيق الإنسان عن فعل ما، ومن هنا؛ كانت الذنوب تعيق ابن آدم عن الخيرات والصالحات ويقال لها آثام..

٣. استعملت في هذه الآية بخصوص إثم التهمة عبارة لطيفة، وهي أنّ الذنب بمثابة السهم ونسبته إلى شخص آخر كما هو إطلاق سهم باتّجاه هدف، ومن الطبيعي أنّ مفردة السهم إشارة إلى أنّه كما يطلق السهم باتّجاه شخص آخر ويمكن أن يميته، فإن إطلاق التهمة ضدّ شخص لم يرتكب موضوعها، يمكن أن يهرق ماء وجهه الذي هو بمثابة دمه. وبديهي أن وزر هذا الفعل سيبقى على عاتقه أبداً، حيث تلحق به التهمة إلى آخر عمره.. وهذا إشارة إلى ثقل ودوام المسؤوليّة التي ستبقى على عاتقه.

٤. اتّهام البريء من أقبح الأفعال التي أدانها الإسلام أشدّ الإدانة، وقد جاءت الآية أعلاه

وجملة من الروايات الكريمة بخصوص هذا الموضوع وأوضحت رؤية الإسلام بهذا الصدد. وقد روي عن مولانا الإمام الصادق (ع) القول بأنّ: «البهتان على البريء أثقل من جبالٍ راسيات»[١] والتهمة الباطلة لا تتناسب وروح الإيمان كما ورد عن صادق أهل البيت عليهم السلام: «إذا اتّهم المؤمن أخاه؛ إنماث الإيمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء» وفي الحقيقة؛ إنّ البهتان والاتهام أسوأ أنواع الكذب إذ أنّه يشتمل على مفاسد الكذب الكبيرة؛ مضافاً إلى أضرار ومعايب الغيبة، وكذلك يعدّ أسوأ أنواع وصور الظلم والجور، وذلك ورد في الحديث النبويّ الشريف: «من بهت مؤمناً أو مؤمنة أو قال فيهما ما ليس فيه [فيهما] أقامه الله تعالى يوم القيامة على تلٍّ من نار حتى يخرج ممّا قاله».[٢]

٥. حقاً إن رواج فعل التهمة والبهتان الجبان في المحيط الاجتماعي سبب تلاشي النظام والعدالة الاجتماعيّة، وتلوّث الحق بالباطل، وتورّط البريء وتبرئة المذنب وغياب الثقة بين أفراد المجتمع..

١- الخصال، ج٢، ص٣٤٨

٢- عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٣٣

الآية ١١٣

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

شأن نزول الآية

طبقاً لكلام بعض المفسّرين؛ فإنّ هذه الآية تشيرإلى زاوية أخرى من حادثة بني أبيرق التي ورد ذكرها في الآيات القليلة الماضية تحت عنوان شأن النزول..[1] فالآية تقول: لولا الفضل الإلهي والرحمة الربانيّة لَهَمّ بعض المنافقين أن يحرفوك عن مسا ر الحقّ والعدل، ولكن اللّطف الرحماني شملك وحفظك.. إذ أن هؤلاء المنافقين كانوا قد عزموا . باتّهام فردٍ برئ ثُمّ توريط النبيّ ا لأكرم(ص) والعمل على تدمير الشخصيّة الاجتماعيّة والمعنويّة للرسول العظيم صلوات الله عليه وآله؛ مضافاً إلى تفعيل نواياهم وأهدافهم السيّئة القبيحة بخصوص أحد المسلمين الأبرياء.. ولكنّ الله تعالى الحافظ لنبيه أبطل مؤامرتهم الدنيئة..

وذكربعض آخرشأن نزول آخرللآية، وهوأنّ وفداً من بني ثقيف جاء رسول الله(ص) وقالوا له: نبايعك على شرطين: الأوّل: أن لا نحطّم أصناماً بأيدينا. والثاني: أن تمهلنا مدة سنة نعبد

١- مجمع البيان، ج٣، ص١٦٧

←

فيها آلهتنا العزّى. فأمر الله سبحانه نبيّه(ص) أن لا يستجيب ولا يوافق على أيٍّ من شرطيهم..[١] فنزلت هذه الآية وأكّدت للنبيّ صلوات الله عليه وآله أنّ الألطاف الإلهيّة تحفظه من هذه الوساوس.. ثمّ قالت الآية الشريفة: ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾.

النقاط المستفادة من الآية

١. هذه الآية الشريفة من نماذج الآيات التي تشير إلى مسألة مصونيّة وحصانة الرسول الأعظم(ص) من الخطأ والاشتباه والسهو والذنب.. حيث تقول: ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾.

٢. يعلم من ظاهر هذه الآية؛ أنّ السبب والوسيلة التي تتحقّق بها العصمة ويكون المعصوم بها معصوماً.. هو نوع من العلم.. العلم الذي لا يسمح لصاحبه بارتكاب المعصية والخطأ والزلل.. وبعبارة علميّة أخرى: هو ما يمنع من الضلال.. كما (وهو مسلّم في موضعه) أنّ سائر الأخلاق الحميدة مثل الشجاعة والعفّة والسخاء لها صورتها العلميّة الراسخة في نفس صاحبها وتبعث إلى تجلّي آثارها وتمنع دون أن يتّصف بما هو ضدّها، فلا تظهر فيه آثار الجبن والتهوّر والشره والبخل والتبذير..

٣. الله سبحانه وتعالى ولكي يتمكّن صلوات الله عليه وآله من أن يكون قدوة للأمّة ومصداقاً للخير والصلاح، ومن أن يتجنّب العواقب الأليمة للخطأ والزلل التي تعلق بأذيال قائد عظيم، ولكي يحتجّ على الأمة فيما يتعلّق بمسألة الإطاعة للنبيّ الأكرم(ص) وتكون بمأمن من معصيته، ولكي لا تتورّط في التضادّ والتناقض بين الطاعة والتمرّد.. فقد عمد الله تعالى إلى حفظ رسوله من الوقوع في الخطأ والزلل لتحقّق الثقة المطلقة من جهة الأمة بنبيّها.. هذه الثقة التي تعتبر من أوّليات شروط القيادة الإلهيّة...

١- نفس المصدر.

٤. إحدى دلائل العصمة الأساسيّة: أنّه سبحانه وتعالى قد علّم رسوله الكريم صلوات الله عليه وآله علوماً ومعارف تضمن له تحاشي الذنب والخطأ، ذلك لأنّ العلم والمعرفة (في نهاية المطاف) توجب العصمة.. فالطبيب ـ مثلاً ـ الذي وضع كمّيّة ملوّثة من الماء بأنواع الجراثيم، كجراثيم الملاريا وأمثال ذلك من الأمراض والأوبئة الخطيرة القاتلة في قوارير و مجاهر المختبرات ثم طالعها وحلّلها بدقّة بالغة وتـأكّد من آثارها القاتلة تماماً، فإنّه من غير الممكن أن يشرب من هذا الماء، بمعنى أن هذا العلم زوّده بمصونيّة من الإقدام على التناول من الماء الملوّث.. في حين أنّ الجهل بواقع ذلك الماء يوجب ويتيح ارتكاب خطأ التناول منه.. كما أنّ الجهل مصدر الكثير من الأخطاء وهو بمثابة المقدّمة واللازم للوقوع في الخطأ.. وعليه؛ فإنّ من تعلم بتعليم الله وله الاطلاع المطلق على المسائل المختلفة.. لا يزل ولا يسهو ولا يخطئ ولا يضل ولا ينسى...

٥. رغم أنّ الله تعالى قد علّم رسوله صلوات الله عليه وآله العلوم والمعارف وهو ـ في آفاق ذلك ـ لا يذنب ولا يخطئ، إلّا أنّه في الوقت ذاته غير مجبر على العمل بعلمه، بل هو مختار في ذلك.. كشأن ذلك الطبيب الذي له أن يشرب من ماء مختبره الملوّث مع علمه بواقع ذلك الماء..

٦. يمكن أن يستشكل ويقال: لماذا صار النبيّ(ص) لوحده مشمولاً بهذا الفضل الإلهيّ الكبير دون غيره من الناس؟ لدى الجواب ينبغي أن يقال: هذه المشموليّة بداعي المسؤوليّة القياديّة النبويّة الثقيلة التي ألقيت على عاتقه(ص)، وهي غير ملقاة على عواتق الناس، لاسيّما وأنّه سبحانه وتعالى يعطي من القوّة والطاقة بمقدار ما يحمّل من المسؤوليّة والتكليف..

٧. إنّ المراد من الإنزال والتعليم في قوله عزّ من قائل: ﴿ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ نوعان من العلم: أحدهما: العلم بوسيلة الوحي وبنزول جبرئيل

الأمين. والثاني: ما كان بواسطة الإلقاء في القلب والإلهام الإلهيّ الخفيّ ومن دون نزول ملاك الوحي.. وهذان النوعان من تعليم رسول الله صلوات الله عليه وآله يؤيّده الوارد في الروايات الخاصّة بعلم النبيّ(ص)..[١] وعليه؛ فالمراد من عبارة: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ أنّه تعالى قد علمك نوعاً من العلم، ولولا هذا التعليم، لكانت الأسباب العادية المتاحة في تعلّم كلّ إنسان العلوم العادية غير كافية في تعلم ما يستلهم من الله سبحانه..

٨. أنّ موهبة العصمة النبويّة موهبة إلهيّة.. ونحن نعرفها تحت مسمّى قوّة وطاقة العصمة، وهي بحدّ ذاتها نوع من العلم والشعور المغاير لسائر أنواع العلوم.. إذ أنّ هذه الأخيرة ـ كما ذكرنا ـ قد تغلب بسائر القوى الشعوريّة (فتنظوي تحت طائلة الغفلة والنسيان مثلاً) ولكن هذا العلم غالب دوماً على سائر القوى وقاهرها وهي تكون تحت سلطانه.. ولذلك؛ كان صاحبه محفوظاً من جميع الضلالات والأخطاء.

٩. المراد من الحكمة في هذه الآية جميع المعارف الإلهيّة التي تتنزّل بواسطة الوحي، وهي المفيدة النافعة للحياة الإنسانية في الدنيا والآخرة. والمراد من قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ هو غير المعارف الكلّيّة والعامّة التي هي في الكتاب والحكمة.

١٠. طبقاً لبعض المفسّرين، فإنّ المقصود من الكتاب هو القرآن، والمراد من الحكمة؛ الأحكام الواردة في القرآن، ومعنى كلمة ﴿ عَلَّمَكَ ﴾ هو العلم الذي لا يحصل بالتعلّم، وهو العلم بالغيب والعلم بالأحكام..

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ هو المنّة التي جعلت من الله تعالى على رسوله(ص).. وبخصوص هذا الفضل والرحمة ذهب بعضهم إلى أنّ المقصود من ﴿ فَضْلُ اللهِ ﴾ هو الرسالة والنبوّة، فيما الرحمة بالنبيّ صلوات الله عليه وآله هو نصرة الله له.. وذهب

١- راجع: بحار الأنوار، ج١٧، ص١٣٠ إلى ١٥٥

آخرون إلى أنّ المقصود بالفضل الإلهي هو تأييد النبي، والمراد من رحمته هو نعمة الله تعالى عليه(ص).. فيما قال آخرون: إنّ فضل الله هو الرسالة والنبوّة، وإنّ الرحمة هو مقام العصمة التي أعطيت له صلوات الله عليه وآله.

الآية ١١٤

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. لا تعني النجوى مجرّد الهمس في الأذن، بل تتضمّن أيضاً المجالس الخفيّة السرّيّة، ذلك لأن النجوى لغة مجترّة من مادّة (نجوه) على وزن دفعة بمعنى الأرض المرتفعة، ولأنّ الربوة المرتفعة منفصلة عمّا حولها من أطراف، وحيث أن الاجتماع السرّي والهمس في الأذن منفصلان عمّا يحيطان بهما، فقد قيل لها نجوى. ويذهب البعض أن جميع ذلك مشتق من مادة (نجاة) بمعنى الانعتاق، لأنّ البقعة المرتفعة في مأمن من هجوم السبل، والاجتماع السرّي أو الهمس بعيد عن اطّلاع الآخرين.

٢. غالباً ما تكون المجالس السرّيّة للمقصودين بالآية بناءً على خطط ومؤامرات شيطانيّة وهي لا خير فيها: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ﴾

٣. لكي لا يتصوّر بأنّ كلّ نجوى أو همس مذمومة وممنوعة، وثَمّ جملة موارد كمقدّمة لبيان قانون كلّيّ، فيما ذكر استثناء في الآية، وهي أنّ المجلس السرّيّ أو الهمس يتمخّض عن توصية بصدقة ومساعدة للآخرين أو إصلاح بين الناس بشرط ألّا تتضمّن رياءً وتظاهراً، بل لابد أن يراد بها إحراز عفو الله ورضاه سبحانه: ﴿ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾.

٤. يمكن أن تكون النجوى والهمس أحياناً لأجل الرياء وإن كان مقصودها خيراً.. ولكن إذا كان الهدف من الهمس ـ وضمن شروط استثنائية ـ حفظ كرامة الإنسان واكتساب رضا الله تعالى، فإنّه يثيب صاحب هذه النجوى أجراً عظيماً.

٥. عدّ القرآن المجيد النجوى والهمس ضمن عنوانها الأوّلي عملاً شيطانيّاً ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾

٦. النجوى من عمل الشيطان، لأنّها تكون في الغالب للأعمال غير الصالحة، ولأن فعل الخير والمفيد ليس أمراً سرّيّاً وخفيّاً بحيث يريد الناس الهمس به.

٧. إن تمّت النجوى في محضر من الناس أثارت سوء ظنونهم، بل ولعلها تتسبب بذلك وإن شهدها الأصدقاء والأحبّة، ولهذا؛ كان من الأفضل أن لا يعمد إليها إلّا في حالات الضرورة القصوى، وهذه هي فلسفة الحكم المذكور في القرآن.

٨. تارة يستوجب حفظ كرامة الإنسان وماء وجهه استعمال النجوى، ومن جملة ذلك؛ المساعدة الماليّة أو الأمر بالمعروف، ولو أنّ هذين الفعلين ـ كمثال ـ صارا علنيين وفي محضر من الناس، لأعطيا مردوداً عكسياً ولأصرّ المأمور بالمعروف على عدم فعله.. وكذلك الأمر بالنسبة إلى غاية الإصلاح بين الناس حيث يفترض في بعض الأحيان أن يكون على انفراد بين طرفي النزاع نتخذ النجوى الانفرادية صبغة إصلاحيّة حقّاً.. وهكذا تقتضي الضرورة أن تتمّ النجوى بخفاء.

٩. بملاحظة الموارد الثلاثة أعلاه يعلم أنّ جميع الموارد تندرج تحت عنوان الصدقة، لأنّ من يأمر بالمعروف يؤدّي زكاة العلم أو الذي يصلح ذات البين يؤدي زكاة مكانته الاجتماعية بين الناس كما ورد عن مولانا أميرالمؤمنين(ع): «إنّ الله فرض عليكم زكاة جاهكم كما فرض

عليكم زكاة ما ملكت أيديكم».[1]

١٠. جاء في الحديث النبويّ الشريف لأبي أيّوب الأنصاري: «ألا أدلّك على صدقة يحبّها الله ورسوله؟... تصلح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقرّب بينهم إذا تباعدوا».[2]

١- تفسير القمي، ج١، ص١٥٢

٢- كشف الأسرار، ج٩، ص٢٥٨

الآية ١١٥

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾

شأن نزول الآية

قلنا في شأن نزول الآيات السابقة إنّ بشير بن أبيرق؛ وبعد السرقة من أحد المسلمين؛ اتّهم بها بريئاً وبرّأ نفسه في محضر النبيّ(ص)، ولكن بنزول الآيات السابقة افتضح أمره، وبدلاً من أن يتوب ويعود إلى رشده اتخذ طريق الكفر سبيلاً وخرج عن دائرة المسلمين بصورة رسميّة، فنزلت هذه الآية، وضمن إشارتها لهذا الموضوع، فإنّها بيّنت حكماً كلّيّاً وإسلاميّاً.[1]

النقاط المستفادة من الآية

١. حينما يرتكب الإنسان معصية، فإنّه بعد المعرفة بمن وبما عصى يجد نفسه عند مفترق طريقين: إمّا العودة والتوبة، وإمّا الإصرار والعناد الذي ينتهي إلى سوء العاقبة في القيامة ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾.

٢. ﴿يُشَاقِقِ﴾ من مادة شقاق بمعنى العصيان عن علم والمقرون بالعداوة والبغضاء، وعبارة ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ تؤكّد هذا المعنى، وفي الحقيقة إنّ مثل هؤلاء الأفراد لا يسعهم أن يكونوا أفضل من ذلك، وينتظرهم المصير المشؤوم في هذا العالم لأنّهم يغرقون في

١- مجمع البيان، ج٣، ص١٦٩

هذا المستنقع البغيض يوماً بعد يوم، وتزداد زاوية انحرافهم عن جادة الحقّ انفراجاً.. وهذا مصير اختاروه هم لأنفسهم، وعمارة بنوها بأيديهم.. وعلى هذا؛ ليس من ظلم قد توجّه إليهم من غيرهم، وواقعهم صوّره قول العزيز الجليل: ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ﴾ وهو إشارة إلى سلبه التوفيق الروحي وعدم قدرته على تحديد ومعرفة الحقّ والانغماس في الضلالات. مضافاً إلى العاقبة الأليمة والسيئة في يوم القيامة، وجملة: ﴿ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾ تنويه إلى ذلك المصير الأسود والجهنّمي.. وجملة ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ﴾ تبيّن أنّه سبحانه وتعالى يكل مثل هذا الفرد إلى ما تولّى وما عبد باختياره..

٣. بالالتفات إلى أنّ إجماع فتاوى العلماء على مسألة فقهيّة في غيبة إمام الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف أحد الأدلّة الفقهيّة الأربعة في عصر الغيبة الأليم. وقد ذكروا في إثبات حجّيّة الإجماع ضمن أصول الفقه دلائل مختلفة، أحدها: الاستدلال بهذه الآية الشريفة، لأنّها تقول: إنّ من يتّخذ غير طريق المؤمنين؛ ينتظره مصير مشؤوم في الدنيا والآخرة، وعليه؛ فإنّه حين يختار المؤمنون طريقاً في مسألة ما، وجب اتّباعهم.. ولكنّ الحقّ هو أنّ هذه الآية لا علاقة لها ابداً بمسألة حجّيّة الإجماع، لأنّ حجّيّة الإجماع مشروطة بأن يكون الإجماع كاشفاً عن قول المعصوم، أو أن يكون المعصوم بشخصه ـ ولو بشكل غير معروف ـ ضمن أصحاب الإجماع، ودليل حجّيّة هكذا إجماع هي ذاتها حجّيّة السنّة وقول المعصوم؛ دون الآية أعلاه؛ لأنّ العقوبات التي حدّدتها هذه الآية تشمل الذين يخالفون ويعصون رسول الله(ص) عن علم و عناد ويختارون طريقاً غير طريق المؤمنين، ولابد أن تكون المخالفة عن علم واطلاع، وهذا الموضوع لا علاقة له أبداً بمسألة حجّيّة الإجماع؛ والإجماع ليس حجة لوحده..

٤. في الحقيقة إنّ اتّباع غير طريق المؤمنين ليس سوى مخالفة النبيّ(ص) ومعصيته، والاثنان معاً ينتهيان إلى مطلب واحد، ولذا قد روي عن الإمام الباقر عليه السلام أو الإمام الصادق عليه السلام أنّ أميرالمؤمنين(ع) حين كان في الكوفة، جاء جماعة وطلبوا منه أن يعيّن لهم إمام جماعة

ليصلي بهم صلاة التراويح بعد إفطار أيام شهر رمضان، وهي الصلاة التي ابتدعت في عهد عمر.. فامتنع أميرالمؤمنين(ع) ونهى عن هكذا صلاة وهكذا جماعة (إذ لا جماعة في نافلة) أما أفراد تلك الجماعة ومع أنّهم سمعوا الحكم القاطع من إمامهم، إلّا أنّهم عاندوا ولجّوا وأثاروا الفوضى وراحوا يذرفون الدموع على ما سنّه الحاكم الثاني.. فجاء جماعة من شيعة الإمام(ع) إليه وقالوا: قد رفض بعض ما أمرت به، فقال: دعوهم لشأنهم ليختاروا من يشاؤون إمام جماعة لهم ليصلّوا صلاتهم غير المشروعة، ثمّ تلا الآية أعلاه..[1] وهذا النصّ الروائي يؤيّد ما ذكرناه في تفسير الآية.

١- تفسير العياشي، ج١، ص٢٧٥

الآية ١١٦

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ١١٦﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. تتمّة للبحوث ذات العلاقة بالمنافقين والمرتدّين، أي: الذين يعودون إلى الكفر بعد قبولهم الإسلام، وبعد الآية (٤٨) من سورة النساء وبتفاوت بسيط ورد في آخر الآية، وبإشارة مكرّرة إلى خطورة معصية الشرك، تصرح الآية: بأنّ الشرك ذنب لا يغتفر ولا يمكن تصور ذنب أعظم منه..

٢. لا ريب في أنّ التكرار في المسائل التربوية يلزمه البلاغة، ذلك لأنّ القضايا الأساسيّة والمهمّة يجب أن تكرر ضمن فواصل مختلفة لترسخ في النفوس والأذهان، ولعلّ السبب في تكرار هذه الآية في هذه السورة مرّتين هو إرادة اقتلاع آثار الشرك وعبادة الأوثان التي كانت متجذّرة طيلة سنين مديدة في أعماق النفوس، ولتتجلّى فيه ـ بقبول الإسلام ـ الآثار المعنويّة والمادّيّة للتوحيد..

٣. الشرك حالة وشيء يعطّل المركز الحسّاس للروح الآدميّة، وينشر الظلمة فيه.. ولا يبقى ثَمّ أمل لنجاة الإنسان مع وجوده، أمّا إذا أحييت حقيقة التوحيد وعبادة الواحد الأحد، كانت هذه الحقيقة عيناً ومعيناً لأنواع وأشكال الفضائل والحركة والنشاط، وهنالك ينبثق الأمل في غفران سائر الذنوب ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾.

٤. تكرّرت هذه الآية مرّتين في هذه السورة، ولكن ذيلي الآيتين متفاوتان شيئاً ما، ونشير هنا إلى ثلاثة موارد في ذلك:

الف: يقول سبحانه في هذه الآية إنّ من يتّخذ شريكاً مع الله سيتورط في تيه عظيم ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ ولكنّ الآية السابقة تقول: من يتّخذ مع الله شريكاً يكذب ويفتري افتراءً عظيماً، والحقيقة هي أنّ تلك الآية تشير إلى مفسدة الشرك الهائلة من حيث معرفة الله تعالى والحيثيّة الإلهيّة.. وهذه الآية تحدّثت عن أضرار جسيمة يلحقها الشرك بالناس أنفسهم.

ب: في تلك الآية جرى بحث مسألة الناحية العلمية، وفي هذه الآية بحثت الجوانب العمليّة ونتائجها الخارجية.. وواضح أنّ هذين الأمرين بمثابة اللّازم والملزوم ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾.

ج: أشارت تلك الآية إلى مفسدة الشرك العظيمة من الحيثيّة الإلهيّة ومعرفة الله، وهنا جرى التطرّق إلى الأضرار غير القابلة للجبر من ناحية الناس..

الآية ١١٧

إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. معبود المشركين في هذه الآية منحصر بشيئين: الإناث والشيطان المريد.

٢. الإناث؛ جمع أنثى من مادّة (أنث) على وزن (أدب) بمعنى الموجود اللطيف والقابل للّي، ولذا حين يلين الحديد في النار؛ تقول العرب: أنث الحديد، وأن يقال لجنس المرأة أنثى ومؤنث وإناث بداعي لطافة جنسها ولينها..

٣. ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ القرآن أشار إلى أصنام القبائل العربية المعروفة، حيث كانت كلّ واحدة منها قد اختارت صنماً وسمّته باسم مؤنّث، فاللّات بمعنى الآلهة مؤنّث الله، والعزّى مؤنّث أعزّ، وكذلك هي منات وإساف ونائلة وأمثالها. ولكنّ مفسّرين كبار آخرين قالوا: إنّ المقصود بالإناث هنا ليس ما يعرف عن المؤنّث، وإنّما هو جذرها اللّغويّ، أي أنّهم كانوا يعبدون معبودات ضعيفات تصاغ بيد البشر كيف ما يريدون، وبالتالي فإنّ الأصنام كانت عبارة عن موجودات لا إرادة فيها ولا خيرة لها.. فلم تكن مصدراً للضرر والنفع..

٣. كلمة ﴿ مَّرِيدًا ﴾ من حيث الجذر اللّغوي مأخوذة من مادة (مرد) على وزن (طرد) بمعنى تساقط ورق الشجر، ومن هنا؛ قيل للشاب اليافع الذي لم ينبت الشعر في وجهه: أمرد، وعليه؛ فالشيطان المريد يعني: الذي سقطت عنه جميع صفات الفضيلة ولم يبق فيه شيء من صفات القوّة، أو مأخوذة من مادة (مرود) بمعنى الطغيان والتمرّد، فيكون المراد من آلهتهم الشيطانيّة: الشيطان الطاغي المتمرّد.

٤. قد قسم القرآن معبود المشركين قسمين:

* قسم لا تأثير فيه ولا خاصّيّة (الأصنام).

* وقسم طاغ متمرّد، ولا ريب في أن من يعبد هكذا معبود لن يكون نصيبه في الدنيا والآخرة غير الضياع والضلال والخسران المبين.

٥. لقد أورد القرآن الكريم مفردة (الملائكة) (٨٨) مرّة، وأورد مفردة الشيطان (٨٨) مرّة أيضاً، منها (١١) مرّة بمعنى إبليس، والبقية بالمعنى العام للشيطان والجنّ..

الآية ١١٨

﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. في الحقيقة إنّ جذور كلّ الشقاء والتدمير الشيطاني هي الابتعاد عن رحمة الله تعالى الناتج عن الكبر والعصبيّة للذات..

٢. بديهي أنّ الموجود المجرّد عن كلّ خير بدافع الابتعاد عن الرحمة الإلهيّة غير قادر على أن يكون مفيداً في حياة الآخرين.. كما أن الذات المعدومة لا يمكن لها أن توجد شيئاً.. فهو غير مفيد مضافاً إلى كونه. خبيثاً مضرّاً...

٣. الشيطان يعلم جيّداً أنّه غير قادر على إضلال جميع عباد الله تعالى.. فهو المطرود من رحمة الله قادر على إضلال من هم على شاكلته من ضعيفي الإيمان والإرادة والمسلّمين والمتسلمين له ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾.

الآية ١١٩

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. كلمة ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ مأخوذة من مادة (مَنَى) على وزن (مَنَعَ) بمعنى التقدير والحساب، ولكنّها ترد في كثير من الأحيان بمعنى الحساب والإحصاء الخيالي والآمال الوهميّة.. وإذا قيل للنطفة (مني) فلأجل أن التقدير الأوّلي للموجودات الحيّة تبدأ منها..

٢. قوله: ﴿لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ إشارة إلى إحدى الممارسات التي كانت رائجة في الجاهليّة، حيث يقصّون جزءاً من آذان الأنعام أو يقطعوها جميعاً ثمّ يمنعون ركوبها ولا ينتفعون منها في شيء.

٣. قوله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ إشارة إلى أنّه سبحانه وتعالى قد فطر الناس على التوحيد وفضائل الأخلاق، إلّا أن الوساوس الشيطانيّة وهوى النفس الأمّارة بالسوء يحرفانهم عن الجادة الصحيحة حتى يضلّانهم ويضيّعانهم، وشاهد هذا المطلب قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ كما ورد عن الإمام الباقر(ع) أنّ المقصود من التّغيير هو

تغيير فطرة التوحيد[1] وطاعة أوامر الله تعالى، وهو ضرر لا يجبر حيث يعمل الشيطان على تدمير قواعد السعادة الإنسانيّة، بعد أن يقلب الحقائق والواقعيات إلى سلسلة أوهام ووساوس؛ فيبدّل السعادة إلى شقاء.

٤. المنهج الشيطاني لإضلال الناس:

المنهج الأوّل: أن يأخذ من عباد الله نصيباً معيّناً ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا ﴾.

المنهج الثاني: إضلالهم ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾.

المنهج الثالث: انشغالهم بالأماني البعيدة المتنوّعة: ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾.

المنهج الرابع: دعوتهم إلى الخرافات، ومن ذلك أنّه يأمرهم بقصّ أو قطع آذان الأنعام ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ ﴾

المنهج الخامس: دعوتهم إلى تغيير خلق الله تعالى.

٥. واضح أنّ العلّة في قوله تعالى في نهاية الآية وضمن بيان أصل كلّي: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ أنّ الإنسان باتّخاذه الشيطان وليّاً سيفرّط برحمة الله سبحانه، ومن يحرم الرحمة الإلهيّة يتضرّر في الدنيا والآخرة، وهذا من المهالك والمهاوي التي تجرّه إلى وادي جهنم؛ تبعاً للشيطان.

٦. يمكن أن يخطر السؤال أدناه في ذهن أحدهم حيث يقول: وهل نحن أتباع الشيطان وشيعته؟! بل هل يمكن للإنسان أن يتّبع الشيطان؟ وإن صحّ حدوث ذلك فكيف يكون؟ أي: كيف يتسنّى للإنسان أن يتّبع الشيطان؛ وما هي خصائص أتباع الشيطان؟ فيما الطاعة للشيطان تمرّد على أوامر الله سبحانه..

جاء في آيات سورة مريم عن قول إبراهيم مخاطباً أباه (عمه) بهذا الصدد: ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ

١- الكافي، ج٢، ص١٢ و١٣

الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾.

وقد أشير إلى هذا المطلب في الآية (٢١) من سورة النور، والآية (٢٤) من سورة النمل، والآية (٣٨) من سورة العنكبوت، والآية (٢٠) من سورة سبأ، والآية (٦٠) من سورة يس، والآية (٣٧) من سورة الزخرف، والآية (٣) من سورة الحجّ، والآية (٢٥) من سورة محمد(ص)، والآية (١٧) من سورة الحشر، والآية (١٤) من سورة البقرة، والآيات (١٧ و٦١ و٦٥) من سورة الإسراء، والآيتين (٥٠ و٥١) من سورة الكهف. وقد وردت كلمة الشرك بصيغ مختلفة حوالي (١٦٨) مرّة في القرآن الكريم.

إن لمعنى الطاعة والعبوديّة آفاقاً واسعة، بما في ذلك الاستماع لحديث أحدهم (بمعنى توجّه الإنسان وتخصيص الوقت، والصمت و..) بقصد العمل، يعدّ نوعاً من العبودية. وقد ورد في الحديث الشريف: «من استمع إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق ينطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق ينطق عن الشيطان فقد عبد الشيطان».[1]

وعن أميرالمؤمنين(ع) بخصوص إطاعة الشيطان:

«اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، واتّخذهم له أشراكاً، فباض وفرّخ في صدورهم، ودبّ ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، وزين لهم الخطل، فعل من شركه الشيطان في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه».[2]

١- نفس المصدر ، ج٦، ص٤٣٤

٢- نهج البلاغة، ص٥٣

الآية ١٢٠

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. الغرور لغةً بمعنى ظهور أثر الشيء بوضوح، ولكن يقال في الغالب للظواهر الخادعة والبواطن غير المحمودة، ويقال أيضاً لكل شيء فضلاً عن المال والثروة والقدرة والسلطة التي تخدع الإنسان وتحيد به عن طريق الحقّ والصواب.

٢. الوعود الشيطانيّة الكاذبة تنشأ من الوعود النفسانيّة للإنسان المطرود من رحمة الله.. حيث تتعلق تلك الوعود بالآمال الدنيويّة الواهية.

٣. ليس أمام الإنسان في هذه الدنيويّة سوى طريقين؛ إمّا طريق البقاء الحقيقي في ظل العبادة والمعنويّة وعبوديّة الله تعالى.. وإمّا طريق العبوديّة للشيطان التي لاتطفح إلّا بالخواء والفناء والمادّيّات..

٤. اللّهو في مظاهر الدنيا والعيش بآمال خاوية وفانية وبغفلة عن الله تعالى ثمرة إطاعة الشيطان والبعد عن الرب المتعال.

٥. من البعيد جدّاً أنّ الإنسان إذا ما عبد الشيطان سيوفّق إلى النجاة بيسر، ولعل الإنسان المطيع للشيطان في هذه الدنيا أو إلى آخر عمره لن يعي ما جعله أساساً وعنواناً لحياته ليس إلّا خديعة وكذبة كبيرة، وحينما يلتفت إلى خطئه تراه ينادي: ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ ولكنّ الله عزّ اسمه يرفضه بالقول العظيم: ﴿ كَلَّا... وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.. فيسمع المطيع للشيطان هذا القول فيمتلئ يأساً!!

الآية ١٢١

﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ١٢١﴾

النقاط المستفادة من الآية

١.﴿ مَحِيصًا ﴾ من مادّة (حيص) بمعنى العدول وغضّ النظر، وعليه؛ فالمحيص بمعنى وسيلة العدول..

٢. يبعد جدّاً أن يجد المطيع للشيطان توفيقاً للنجاة، ولعلّه لن يعي أنّ هذا المطيع للشيطان في الدنيا وإلى آخر عمره أن ما كان يعده أساساً وقاعدة لحياته ليس مجرّد كذبة كبيرة وخدعة طويلة.. وهو مهما تمنّى في العودة وتصحيح المصير فإنّه لن يجد سوى نداء الرفض له من قبل الله تعالى.

٣.أن عبدة الشيطان يجب أن يعلموا بأنّ نتيجة عبوديّة الشيطان لن تكون النار والجحيم في دار الآخرة، وأنّه لن يكون لهم عنها ملاذ للفرار ﴿ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾.

الآية ١٢٢

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾

التفسير

قرأنا في الآيات السالفة أنّ من يتّخذ الشيطان وليّاً؛ يخسر خسراناً مبيناً، إذ يعده كذباً ويمنّيه بالأماني الباطلة؛ وفي مقابل هذا، تشير هذه الآية إلى مصير الأفراد المؤمنين الذين يعملون الصالحات حيث الدخول والخلود في جنان الله العريضة التي تجري من تحتها الأنهار. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ والجنات مفعمة بالنعيم المغاير للنعم الدنيوية من حيث الكمّ والكيف والخلود والأبد، إذ المؤمنون خالدون فيها أبداً. والوعد بالجنّة ليس كما هو وعد الشيطان الكاذب الخادع، وإنّما هو وعد الحقّ والحقيقة الصادر عن الله تعالى ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾.. وبديهيٌ أن أحداً من الخلق لا يسعه أن يكون أصدق من الخالق؛ وعداً وخطاباً و.. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ لأنّ الخلف في الوعد أو القول؛ إمّا أن يكون بداعي العجز أو الجهل أو الحاجة، والله سبحانه منزّه عن كلّ ذلك..

النقاط المستفادة من الآية

١. الإيمان والعمل الصالح مرتبطان إلى بعضهما، وكما أن العمل الصالح يفقد قيمته إن تجرّد عن الإيمان، كذلك هو الإيمان يفقد مصداقيّته وفائدته إذا لم يقترن بالعمل الصالح.. أمّا إذا اقترنا إلى بعضهما، كان ثمنهما الجنّة الخالدة.

٢. الناس خلال حياتهم الدنيويّة يواجهان نوعين من الوعد؛ الوعد الإلهي والوعد الشيطاني.. ومن الطبيعي أنّ من يعتمد الوعد الشيطاني؛ لا يرى سوى الضرر والخسران، لأنّ وعد الشيطان صادر عن الكذب والخواء.. أمّا الذي يعتمد الوعد الإلهي؛ فإنّ مصيره إلى الفلاح والموفّقيّة؛ لأنّ الوعد الإلهي ينبع عن الحقّ والحقيقة ﴿ وَعْدَ اللهِ حَقًّا ﴾ ولأن الله تعالى - صاحب الوعد - له مقاليد السماوات والأرض - وهو الصادق بل والأصدق في إطلاق الوعد ولا تزيده كثرة العطاء إلّا جوداً وكرماً..

٣. أنّ النعم الإلهية الأخروية ليست كما النعم الدنيوية الزائلة، بل المؤمنون سيتنعّمون في الجنان بالخلود الذي يتفضّل به الله عليهم. ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾.

٤. من الطبيعي أنه لا يوجد أحد أصدق من الله في وعوده وخطابه ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً ﴾.

الآية ١٢٣

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ
وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ
وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

شأن نزول الآية

ورد في تفسير (مجمع البيان) وتفاسير أخرى أنّ المسلمين وأهل الكتاب كانوا يتفاخرون على بعضهم.. فكان أهل الكتاب يقولون أنّ أنبياءهم قد سبقوا نبيّ الإسلام، وأن كتابهم قد سبق القرآن.. فيما المسلمون كانوا يقولون بأن نبيّهم هو خاتم الأنبياء؛ وأنّ كتابهم القرآن هو أكمل الكتب السماوية، وعليه؛ فإنّهم ـ المسلمون ـ يمتازون على غيرهم..

وطبقاً للرواية؛ فإنّ اليهود كانوا يقولون: نحن الأمة المختارة، وأنّ النار ـ لو قدّرت لهم ـ لن تمسّهم إلّا أيّاماً معدودة ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً ﴾ فيما المسلمون كانوا يقولون: نحن خير الأمم لأنّ الله يقول بحقّهم: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ فنزلت الآية أعلاه لتبطل جميع هذه المدّعيات، لتجعل قيمة كلّ أمة وفرد تبعاً لما يعملان.. وليس لما يقولان ويدّعيان..[1]

النقاط المستفادة من الآية

١. أن الفضيلة والأفضلية منوطتان بعمل الناس؛ دون أمانيهم ومدّعياتهم.

٢. في هذه الآية ورد التصريح وببيان بسيط وطبيعي أنّ المدّعيات الخياليّة القائمة على

---

[1] **مجمع البيان، ج٣، ص١٧٥**

القواعد الكاذبة غير مفيدة بالمرة وأنّها لن تغيّر من الحقيقة شيئاً أبداً، وأن أساس الحقّ قائم على الايمان والعمل الصالح.

٣. ورد حديث منقول في مصادر الشيعة وغيرهم ينتهي إلى أنّه بعد نزول هذه الآية اضطرب بعض المسلمين أيّما اضطراب حتّى أنهم بكوا لشدّة هلعهم؛ بأنّ الإنسان خطّاء ولعلّ ذنوباً تصدر عنه، فإن كان لن يعفى عنه أو يغفر له، فإنّه سيتورّط في العذاب الإلهي الشديد على كلّ ما صدر عنه في الدنيا.. فتوجهوا إلى رسول الله (ص) قائلين: إنّ هذه الآية لن تذر منّا شيئاً.. فقال لهم النبيّ(ص): والذي نفسي بيده! إنّما الأمر كما نزلت به الآية، ولكنّني أبشّركم بما يقرّبكم من الله ويدفعكم إلى صالح الأعمال... إن ما يحلّ بكم من المصائب والبلايا في الدنيا كفّارة لذنوبكم، حتّى الشوكة إذا دخلت أقدامكم..[1]

٤. سؤال: لعلّ البعض يستدلّ بقوله تعالى: ﴿ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴾ على انتفاء مسألة الشفاعة عموماً...

جواب: كما أشرنا سلفاً إلى أنّ معنى الشفاعة ليست أن يكون الشفعاء مثل أهل البيت صلوات الله عليهم والأنبياء والأولياء عليهم السلام واقعهم المستقلّ عن الله تعالى، بل إنّ شفاعتهم إنّما تكون بإذنه سبحانه فيمن يشفعون له، ومن الطبيعي أنّ عالم الشفاعة جزءٌ من ولاية الله المطلقة ونصرته عزّ اسمه...

١- نفس المصدر، ص١٧٦ والكشف و البيان، ج٣، ص٣٩١

الآية ١٢٤

وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. المرأة من وجهة النظر الإسلاميّة عضو كامل ومستقل في المجتمع، ومن حيث الكمال الإنساني لا تفترق عن الرجل في شيء، إذ أن معيار السعادة والأفضليّة في التقوى والعلم والعمل الصالح.

٢. المرأة في المجتمع الإسلامي كما الرجل؛ لها أن تطلب العلم، وأن تكون صاحبة مال وثروة، وأن تتصرف في أموالها كيفما تشاء من الطريق المشروع.. وهي حرّة من حيث العلاقات والمعاشرة في الأمور الاجتماعية مع مقرونيّة ذلك بالعفّة والطهر.. وقد رأينا أنّ كثيراً من النساء في حقبة صدر الإسلام كن يشتركن حتّى في ميادين الحرب الى جانب الرجال المقاتلين المجاهدين، فكنّ يتصدّين لأمور التضميد والمداواة للجرحى الحربيّين وغير ذلك من أمور التموين العسكري..

٣. هناك جهات مشتركة ـ على وجه العموم ـ بين المرأة والرجل حيث لا يمكن نفيها، مثل استقلال الشخصيّة وحرية الفكر والإرادة وأصل المالكية والمساواة في مقابل القانون والدفاع عن الحقوق المشروعة و... فلا يمكن حرمان فرد من الأفراد من حقوقه الإنسانيّة بداعي كونه أبيضاً أو أسوداً، رجلاً أو امرأة، عاملاً أو حاكماً، قرويّاً أو مدنيّاً..

٤. ورد في آيات قرآنية عديدة الحديث عن حقوق المرأة؛ والتأكيد أن لها حقوق مشتركة مع

الرجل، وإنّ بعض هذه الحقوق حقوق فرديّة وبعضها إجتماعية. فالمرأة عضو أسرة ولها

حقوق مشتركة إلى جانب الرجل كما لها حقوق خاصّة مميّزة، وهنا نشير إلى أهم هذه الحقوق المشتركة:

* في البدء نتناول فهرساً من الحقوق، ثمّ نتناولها بشيء من الشرح المقتضب:

- الحقوق الفردية والاجتماعيّة.
- حقّ الحياة.
- حقّ الكرامة.
- حقّ المساواة.
- حقّ الحرّيّة.
- حقّ المالكيّة.
- الحقّ السياسي - الاجتماعي.
- الحقّ المعنويّ.
- حقوق الأسرة.
- حق التعليم والتربية.
- حقّ التزويج والزواج واختيار الزوج.
- حقّ المعاشرة الصالحة.
- حق الإرث.

الف وب: الحقوق الفرديّة والاجتماعية:

١ـ حقّ الحياة: المرأة باعتبارها إنساناً وعضواً في البنية الاجتماعية، هي كما الرجل؛ لها حقّ الحياة، وجميع الآيات التي تثبت حق الحياة والمعيشة للناس تشمل المرأة والرجل ولا تضع

تفاوتاً بينهما أبداً ولا تسمح لأحد في أن يسلبها هذا الحقّ.

وقد حرّم الله تعالى في آيات عديدة قتل الإنسان، سواء كان هذا الإنسان رجلاً أو امرأة. قال تعالى: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾.[1]

من جهة أخرى؛ قد حرّم القرآن وأد البنات وذمّها بأشدّ العبارات حيث قال: ﴿ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾.[2] (وهناك آيات و روايات عديدة بهذا الصدد). وهذا التحريم والذمّ ورد باعتبا رأنّ القرآن المجيد يعدّ خلقة المرأة والرجل خلقةً واحدة.. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء ﴾.[3] كما أنّه أدان كلّ أشكال النظرة السلبيّة إلى المرأة وعدّها أمراً قبيحاً للغاية: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾.[4]

٢. حق الكرامة: أحد الحقوق الأساسية للناس؛ ومهم النساء؛ حقّ الكرامة، بمعنى الحيثيّة والاحترام والشرف، وهي على قسمين:

١. الكرامة الذاتيّة.

٢. الكرامة القيميّة.

فيما يتعلّق بالكرامة الذاتيّة للإنسان ثَمّ آيات قرآنيّة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾.[5]

١- سورة المائدة / ٣٢.

٢- سورة التكوير / ٨ ـ ٩.

٣- سورة النساء / ١.

٤- سورة النحل / ٥٨ و ٥٩.

٥- سورة الإسراء / ٧٠.

←

وعن الكرامة القيميّة يقول القرآن: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.(١)

ثُمّ إنّ القرآن المجيد لم يقرّ تفاوتاً بين المرأة والرجل، وجعل التقوى المعيار في الكرامة، مضافاً إلى أن كتاب الله تعالى قد أقرّ جملة تعاليم إضافيّة لحفظ كرامة المرأة وحرّم إهانتها وهتك حرمتها والتجاوز على كرامتها، ونشير هنا إلى نموذجين:

الف: المنع من تهمتها بالفاحشة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.(٢)

ب: المنع من النظرة الحرام: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾.(٣)

إنّ حرمة واحترام المرأة يقتضي أن لا تكون موضع نظرة السوء، ذلك لأنّ هذا العمل مقدّمة للهتك والانتفاع السلبي منها، ويتبع ذلك جملة مفاسد اجتماعيّة من ضمنها الاضطراب الأمني حتّى بالنسبة إلى الأخت والأم...

٣. حقّ المساواة إزاء تنفيذ القانون:

بمعنى أنّ جميع الناس ـ رجالاً ونساءً ـ متساوون أمام القانون بلا أي تفاوت من حيث اللّغة والجنس والقوميّة والمذهب والعقيدة والحالة الاجتماعيّة..

والقرآن الكريم قد أقرّ هذه المساواة ونفى أي شكل من التفاخر الأسري والقومي والاجتماعي والوطني.. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾.(٤)

١- سورة الحجرات / ١٣.

٢- سورة النور / ٢٣.

٣- سورة النور / ٣٠.

٤- سورة الحجرات / ١٣.

واضح أنّ هذه المساواة من حيث تنفيذ القانون، أي نوع العلاقة والانتفاع من جميع مزايا المعيشة، مثل حق الملبس والمسكن و.. وليست المساواة في السهم والنصيب، وهذا عين العدالة، حيث العدالة تستوجب إعطاء كل شخص بما يستوجب حقّه، وكذلك الموقف منه..

٤. حقّ الحرّيّة:

حقّ آخر من حقوق الإنسان الطبيعيّة؛ حقّ الحرّيّة الذي هو الآخر لم يجعل فيه الإسلام تفاوتاً بين المرأة والرجل، وواضح أنّ المراد من الحرّيّة في الإسلام ليس الحرّيّة المطلقة التي تبيح كلّ شيء، وأن الحرّيّة الحقيقيّة هي الانعتاق من عبوديّة الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء والطاغوت..

وإنّ في النظام الحقوقي هناك حرّيّات لها أنواع وأقسام نشير هنا إلى بعضها:

* حرّيّة العقيدة: فلا حقّ لأحد أن يفرض رأيه وعقيدته على الآخرين لاسيّما وأنّه تعالى يقول: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ولذا؛ أجاز الإسلام لأتباع الديانات الأخرى العيش بأمان وحرّيّة إلى جانب المسلمين وفي البلاد المسلمة ما داموا لا يتعرضون لأموال المسلمين وأعراضهم بسوء.

حرّية التفكير: هناك مئات الآيات تدعو الناس إلى التفكّر والتعقّل، ومعلوم أنّ هذه الحرّيّة ثابتة محفوظة ما دامت لا تؤدّي إلى سقوط إنسانية الإنسان ومدافعة الممارسات المؤدّيّة إلى التطوّر والتكامل البشري.

* حرّيّة البيان والتعبير: حرّيّة التعبير إحدى الحقوق الإنسانيّة الواضحة والمؤكّدة. ولكن يجب الالتفات إلى أنّ حرّيّة التعبير لا تعني السماح لكلّ شخص أن يتسبب بأذى الآخرين وإهانتهم، بل إنّ الإسلام قد رسم حدوداً عقلائيّة لهذا النوع من الحرّيّة بما يضمن للناس أمنهم واحترامهم..

قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ

هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾.[١] وواضح أنّ اختيار واتّباع أحسن القول يكون ممكناً ضمن أجواء حرّيّة التعبير والبيان.

٥. حقّ التملّك والمالكيّة:

قال عزّوجلّ: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾.[٢] وهذه الآية تشير إلى نقطتين أساسيتين فيما يرتبط بمالكيّة المرأة:

الأولى: الاستقلال في المالكيّة والتملّك: فالنساء كما الرجال يملكن كسبهنّ وعملهن ونشاطهن، بمعنى أنّ كلّ ما يحرزن من مال وثروة يعود إليهنّ ولا حقّ لأحد في التدخل بشأنها إلّا أن يأذنّ بذلك... ولازم هذا القول أنّ للنساء حقّ التصرّف في أموالهنّ.

الثانية: النشاط الاقتصادي: كذلك يفهم من الآية أعلاه أنّ للنساء حقّ النشاط والفعّاليّة الاقتصاديّة والعمل.

وبالنتيجة؛ يكون بمقتضى هذه الآية أنّ الاكتساب والنشاط الاقتصادي جائز للمرأة، مضافاً إلى حقّها في الانتفاع بثمرة عملها ونشاطها..

٦. حق المشاركة في الفعّاليّات السياسيّة والاجتماعيّة:

القرآن الكريم والنصوص الإسلاميّة والشواهد التاريخية تبيّن قضيّة أن للمرأة أن تشارك ـ مع مراعاة العفاف والحياء ـ في الفعاليّات السياسيّة والاجتماعيّة، من جملة ذلك حقّها في البيعة للقائد[٣] والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الاجتماعي والحضور والمشاركة في الفعاليات الاجتماعيّة وإحياء الشعائر الدينيّة، مثل الدعاء أو المباهلة و مشاركة بعض

١- سورة الزمر / ١٧ ـ ١٨.

٢- سورة النساء / ٣٢.

٣- المراد هو أن البيعة تكون للنبيّ والإمام المعصوم صلوات الله عليهما [المترجم].

النساء في حروب صدر الإسلام وخوض الصراع السياسي ـ العقائدي كما فعلت مولاتنا الصدّيقة الزهراء(ع) باعتبارها قدوة النساء وسيّدتهن، وكذلك ما قامت به ابنتها الصديقة الصغرى السيدة زينب(ع)..

ـ في البدء نشير إلى آيات قرآنيّة شريفة تتناول المشاركة الاجتماعيّة للنساء:

الف: آية البيعة:

قال عزّ من قائل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ ﴾.[1]

ب: آية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

هذه الوظيفة الاجتماعيّة تعمّ جميع أهل الإيمان؛ المرأة والرجل؛ كما وصف الله المؤمنين العاملين بهذه الوظيفة حيث قال: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾.[2]

ج: آية المباهلة:

انبرى مخالفو الرسول الأعظم(ص)، ومن جملتهم نصارى منطقة نجران إلى اختباره بسؤالهم عن النبيّ المسيح(ع) وجاؤوا المدينة لهذا الغرض، وبعد استماعهم الإجابات النبويّة الثاقبة القاطعة لم يرتدعوا عن الاستمرار في معارضتهم للإسلام.. فما كان إلّا أن أمر سبحانه وتعالى نبيه صلوات الله عليه وآله أن إذا جادلك الذين أدليت لهم بحججك الثابتة فادعهم إلى المباهلة... أي: أدعهم إلى التضرّع بين يدي الربّ العزيز ليفتضح الكاذب

١- سورة الممتحنة / ١٢.

٢- سورة التوبة / ٧١.

←

ويعاقب، وهنا كان حضور للسيدة الزهراء(ع) الإلهيّ المميّز: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾.[1]

الشواهد التاريخيّة:

غير القرآن وآياته الكريمة؛ هناك شواهد تاريخيّة تحكي مشاركة النساء في الساحات السياسيّة والاجتماعيّة، نشير هنا إلى بعض النماذج:

الف: أنّ النساء المسلمات شاركن في معارك صدر الإسلام كما في معركة أحد وعملن في تضميد ومداواة الجرحى، ومنهنّ (نسيبة الجراحة).[2]

ب: الحضور السياسي للسيدة الصديقة الزهراء(ع) وموقفها من المخالفين لأهل البيت صلوات الله عليهم وخطابها. باعتبارها القدوة الفذّة للمؤمنين. الخاص بإحقاق الحقّ والدفاع عن الولاية في مسجد المدينة..[3] شاهد على ما ذكرنا من حضور المرأة ومشاركتها في أهمّ المسائل الاجتماعيّة والسياسيّة والعقائدية..

ج: نموذج آخر.. الحركة الزينبيّة العظيمة في مشروع عاشوراء الإلهي والدفاع الفذّ لهذه السيدة العلوية. الفاطميّة. الحسينية عن الدين و الإمامة والمظلوميّة.. فمواقف وخطب واحتجاجات هذه المرأة الربّانية عن أهل بيت العصمة والطهارة صلوات الله عليهم في مقابل طغاة الأمويّين ومشروعهم الشيطانيّ دليل واضح جدّاً على دور المرأة. أو ما ينبغي لها من دور . في المسائل الاجتماعيّة والسياسيّة والدينيّة.[4]

١- سورة آل عمران / ٦١.

٢- راجع: الإختصاص، ص١٥٨

٣- راجع: الإحتجاج، ج١، ص٩٨

٤- راجع: نفس المصدر، ج٢، ص٣٠٧

شروط الحضور والمشاركة السياسيّة والاجتماعيّة للنساء:

النساء كما الرجال؛ لهن أن يشتركن في مختلف الفعّاليّات الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصادية، ولكنّ هذه المشاركة منوطة بجملة قيود لئلّا تستثمر المرأة استثماراً سلبياً يجرّها إلى المفاسد الاجتماعيّة، وقد بيّن الإسلام مجموعة من الشروط التي تصبّ في صالحها وكذلك في الصالح العام، وهي عبارة عن:

الف: حفظ الحجاب، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾.[١]

ب: الامتناع عن الخضوع في القول: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾.[٢] أي أنّ على المرأة أن لا تتحدّث بطريقة تثير رغبة الرجال فيها..

ج: الامتناع عن النظر الحرام إلى الرجال: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾.[٣]

د: الورع عن الظهور المثير وكلّ ما يجلب النظر المحرّم إليهنّ، مثل التبرّج وإظهار الزينة والمشي المثير ولبس لباس الشهرة والشهوة واستعمال العطور لدى حضور غير المحارم...

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ... وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾.[٤] كما لو مشت وقد تحلّت قدمها بالخلخال ليسمع الرجال صوته.. وقال سبحانه أيضاً: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى[٥] ﴾ منعاً للتمظهر بين الناس كما كانت نساء الجاهليّة تفعل..

١- سورة الأحزاب / ٥٩.

٢- سورة الاحزاب / ٣٢.

٣- سورة النور / ٣١.

٤- سورة النور / ٣١.

٥- سورة الأحزاب / ٣٣.

هـ: مراعاة العفاف والطهر: فالحضور في الساحة الاجتماعيّة مشروط بالعفّة.. والعفيف من يحفظ نفسه في مواجهة الوساوس الشيطانيّة وضغوط هوى النفس ويحرسها من الخطأ والانحراف. فإن وجد الفرد المؤمن نفسه مثاراً من جهة العوامل الموجبة للوساوس والإثارة؛ لزمه الحذر من أن ينحرف، والأخذ بزمام السيطرة وقياد نفسه؛ رعايةً للعفاف.. وعلى هذا الأساس وجدنا القرآن المجيد يوصي الذين يعجزون عن الزواج بلزوم جانب العفّة والشرف: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللهُ مِن فَضْلِهِ ﴾.[1]

٧. الحقوق المعنوية:

ورد في التعاليم القرآنية أنّ المرأة تماثل الرجل في أن تتمتّع بالروح الإنسانيّة الكاملة وحرّيّة الإرادة والاستقلال في العمل، وبعبارة أخرى: للمرأة الحقّ التامّ في التطوّر والسموّ والتعالي المعنويّ الروحي.[2]

وواضح أنّه سبحانه وتعالى في الآيات المشار إليها في الهامش قد خاطب النساء كما هو خطابه المقدّس للرجال بالأجر المعنوي والسعادة الأخرويّة، وقد أقرّ لهنّ حقوقاً متساوية مع ما للرجال...

ج: الحقوق الأسريّة

١- سورة النور / ٣٣.

٢- سورة التحريم / ٦. وآيات عديدة مثل ما ورد في سورة غافر / ٤٠ و سورة النحل / ٩٧ و سورة النساء ١٢٤ / و سورة آل عمران / ١٩٥ / و سورة الأحزاب / ٣٥ و... مثال ذلك ما ورد في سورة النحل / ٩٧ حيث ق ال تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

وقال سبحانه في سورة النساء / ١٢٤:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾

وقال عزّ اسمه في سورة الأحزاب / ٣٥:

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

←

١. التعليم والتربية:

أوّل حقّ من حقوق المرأة الأسريّة؛ حق التعلّم والتعليم، وهذا الأمر والحقّ يشمل حياة المرأة في بيت أبيها أو لدى حياتها مع زوجها أو في حال سلطتها على نفسها كما لو فقدت زوجها بموته أو طلاقه..

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾.[١]

وبديهيٌّ أن حفظ النفس والأهل من نار جهنّم يكون ويتمّ تحت مظلّة التعلّم والتعليم والتربية الصحيحة وإفساح المجال لتحقّق ذلك.. وهذا من جملة حقوق أهل البيت على وليّ أمرهم..

ويقول سبحانه في آية أخرى: ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾.[٢]

٢. حق الزواج واختيار الزوج:

للمرأة حقّ على أسرتها وعلى الحاكم أن يوفّرا لها أسباب وأرضيّة زواجها وأن يساعدانها في هذا المجال.. يقول القرآن الكريم: ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ﴾.[٣] ومن جهة أخرى؛ فإنّ حقّ الزواج واختيار الزوج عائد إليها؛ ولا يسع أحداً أن يجبرها على ما تكره، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.[٤]

١- سورة التحريم / ٥.

٢- سورة الزمر / ١٥.

٣- سورة النور / ٣٢.

٤- سورة البقرة / ٢٣٤.

←

٣. المعاشرة بالمعروف:

قال تعالى بهذا الصدد: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾.[١] وعلى الرجال أن يراعوا هذه الحقوق.

وفي الواقع؛ إنّ هذا القسم من الآية يشير إلى ضرورة الاحترام المتقابل بين الرجل والمرأة في جميع المجالات، وهذا الاحترام نوع من المعاشرة بالمعروف..

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾.[٢] فالمعاشرة بالمعروف حقّ للنساء على الرجال ولا يصحّ لهم التخلّف عن أدائه..

٤. حقّ الإرث:

القرآن المجيد قائل بالإرث لكلٍّ من المرأة والرجل: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾.[٣]

وهذه الآية الشريفة ترسم خطّ البطلان على ما كان من تقاليد الجاهليّة، حيث كانت المرأة والطفل يحرمان من إرثهما، بل وأوجبت لهما إرثاً كما هو للرجال.

جدير بالذكر أنّ المرأة كما الرجل تعتبر جزءاً كاملاً من المجتمع الإنساني، ولكنّ لازم الجزئيّة الكاملة أن يكون لها كلّ حقّ محرز للجزء الاجتماعي الآخر، وذلك تبعاً لاختلاف الأفراد من حيث الموقع والوزن الاجتماعيين اللذين يوجبان التفاوت في الحقوق.. كما أنّ ذلك يوجب التطور والنمّو الاجتماعي.. علماً أنّ حقوق الرجال كذلك تتفاوت حسب وزنهم الاجتماعيّ..

١- سورة البقرة / ٢٢٨.

٢- سورة النساء / ١٩.

٣- سورة النساء / ٣٢.

الآية ١٢٥

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. حيث تناولت الآيات السالفة الحديث عن تأثير الإيمان والعمل وأنّ الانتساب لمذهب ما غير مؤثّر في واقع الإنسان ومصيره.. فإنّ هذه الآية دفعت احتمال الشبهة وأكدت أفضليّة وأرجحيّة الدين الإسلامي على جميع الأديان.

٢. رغم أنّ مضمون هذه الآية ورد بصورة استفهام، إلّا أنّ المراد منها هو أخذ الإقرار من المخاطَب بها تجاه هذا الواقع..

٣. أحصت في هذه الآية الشريفة ثلاثة معايير لأفضليّة الدين..

الف: التسليم المطلق لله تعالى: ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله ﴾.

ب: الإحسان: ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾.

ج: اتّباع ملّة إبراهيم الحنيفيّة: ﴿ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾.

٤. الإحسان والعمل الصالح يشمل كلّ إحسان بالقلب واللسان والعمل (وفي هذه الآية) بمعنى أنّ كلّ عمل يؤدّيه الإنسان في مسار العبوديّة لله تعالى يجب أن يؤدّيه وكأنّه ينظر إلى ربّه المتعال، وإن لم يرَ الله؛ فإنّ الله يراه وينظر إليه ويشاهده كما ورد في الحديث النبوي الشريف المنقول في (تفسير نور الثقلين) في ذيل هذه الآية حيث ورد الردّ على سؤال في معنى

الإحسان: «أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».[١]

٥. حيث أنّه سبحانه قد اتّخذ إبراهيم (ع) خليلاً، فلا بدّ من السؤال عن معنى الخليل...

لعلّ (الخليل) مشتقٌّ من مادّة الخلّة على وزن الحجّة بمعنى الرفيق.. أو لعلّه مأخوذ من مادّة الخلّة على وزن ضربة بمعنى الحاجة.. وقد وقع الاختلاف بين المفسّرين في أي المعنيين أقرب إلى المراد ومفهوم الآية.

فذهب جماعة إلى أنّ المعنى الثاني هو الأقرب إلى حقيقة الآية، ذلك لأنّ النبيّ إبراهيم (ع) كان يعي ويشعر جيّداً بأنّه محتاج إلى الله تعالى في جميع الأشياء على الإطلاق.. ولكن حيث الآية أعلاه تقول: ﴿ وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فإنّه يفهم بأنّ المراد منها هو الخلّة والرفقة.. لأننا إذا قلنا بأنّ الرب العزيز قد اتخذ واصطفى إبراهيم خليلاً رفيقاً، كان ذلك أنسب بكثير، كما يبدو من قولنا بأنّ الله اتخذ إبراهيم المحتاج إليه، فضلاً عن أن حاجة المخلوقات إلى ربّها غير لا تشبه حاجة إبراهيم (ع) لربه كما هي الآية (١٥) من سورة فاطر القائلة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ ﴾ خلافاً لخلّة الله ورفقته التي لا يتساوى فيها المخلوقون تجاه ربّهم.

٦. يمكن أن نقول: ما هي ميزات إبراهيم التي جعلت الله تعالى يرفعه إلى مقام الخلّة.. وقد وردت روايات عديدة مختلفة بهذا الصدد، ويمكن أن تكون كلها مدعاة ودليلاً على هذا الاختيار، ومن جملة تلكم الروايات ما ورد عن مولانا الإمام الصادق (ع): «اتّخذ الله إبراهيم خليلاً لأنّه لم يردَّ أحداً ولم يسأل أحداً قطّ غير الله...»[٢] ونفهم من روايات أخرى أنّه (ع) قد حظي بهذا المقام الرفيع لكثرة سجوده وإطعامه الجياع وصلاته في جوف الليل، أو لأجل سعيه الحثيث في طريق طاعته ربّه المتعال...[٣]

١- تفسير نور الثقلين، ج١، ص٥٥٣

٢- عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٧٦

٣- علل الشرائع، ج١، ص٣٤ و٣٥

الآية ١٢٦

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

النقاط المستفادة من الآية

١.السماء، بمعنى الجو المحيط بأطراف الأرض وسائر النجوم والكواكب والفضاء الرحب، وجذ ر كلمة (السماء) من السموّ بمعنى العلوّ.

٢. وردت كلمة (السماء) في القرآن (١٢٠) مرّة بصيغة المفرد، و(١٩٠) مرة بصيغة الجمع، ووردت (١٠٠) مرّة لوحدها، فيما وردت (١٧٣) مقرونة إلى كلمة الأرض ثم مؤخّرة عنها (٧) مرات، وقد أطلقت في الموارد أدناه:

٣. حيث قال القرآن في الآية السابقة ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا... ﴾ فقد ذكر في هذه الآية وبعد الإشارة إلى مالكيّة الربّ المطلقة وإحاطته بكلّ الأشياء، وكأنّه يريد القول إنّ الله المحيط بالسماوات والأرض وأنّ جميع الأشياء منه.. وهنالك يتبيّن من هو المسلّم لله ومن هو غير المسلّم له..

٤. حينما تكون السماء والأرض مسلّمتين لله، فما بال العبد الحقير الذي لا قدرة له في مقابلهما يمتنع عن التسليم، وهو الضعيف أمام ملك الله.. حتى لو امتلك الدنيا طولاً وعرضاً وتربّع على عروش السلطة والغِنى، إذ لا مناص له من التسليم لله؛ لعجزه عن الفرار من مملكة الربّ العزيز أو من الموت المقدّر من جهة الله تعالى أيضاً ﴿ وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾.

الآية ١٢٧

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

النقاط المستفادة من الآية

الف: وردت الإشارة في هذه الآية الشريفة إلى (١٤) موضوعاً:

١. حقوق المرأة كانت مدا رالبحث والنقاش لدى مسلمي صد رالإسلام ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء ﴾.

٢. الدفاع عن حقوق النساء والصغا رواليتامى، ممّا يدلّ على تعرّضهم للظلم على مدى التا ريخ.

٣.الدفاع عن حقوق النساء حكم إلهيّ لا يقبل الإشكال ﴿ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ ﴾.

٤. التشريع للأحكام يجري من جانب الله، فيما البيان مهمّة للرسول(ص) ﴿ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ ﴾.

٥.التصريح بمحق السنن الجاهليّة بالفتاوى ﴿ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ ﴾.

٦.اجتناب حرمان النساء من الإرث بداعي التقاليد الجاهليّة ﴿ لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾.

٧.التا أكيد على مالكيّة المرأة وحقّها في الإرث ﴿ كُتِبَ لَهُنَّ ﴾.

٨. عدم الرغبة بالزواج من الفتيات اليتيمات مرادف لحرمانهن من الإرث، كما أنّ الرغبة في الزواج منهنّ لأخذ ما عندهنّ من إرث نوع ظلم لهنّ ﴿ تَرْغَبُونَ ﴾ بمعنى الميل وعدم الميل.

٩. حفظ حقوق اليتامى مسؤوليّة الجميع ﴿ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى ﴾.

١٠. النهوض بواقع اليتامى مهمة تقع على المجتمع الإسلامي ككل ﴿ تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ ﴾.

١١. التعامل العادل مع الأيتام كنموذج لفعل الخير ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ ﴾.

١٢. خدمة المحرومين والدفاع عنهم ﴿ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾.

١٣. الإيمان بالعلم الإلهي خير تشجيع على فعل الخير ﴿ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾.

١٤. علم الله بالوقائع قبل وقوعها ﴿ تَفْعَلُواْ... كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾.

ب: حقوق النساء قضية سامية يتصدّى الله لتشريعها دون أي شخص آخر ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾

ج: ينبغي الالتفات إلى أنّ جملة ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ لغةً مشتقّة من مادة الفتوى والفتيا؛ بمعنى الإجابة على المسائل الصعبة، وحيث أنّ الجذر الأصلي لهذه المفردة بمعنى الشاب اليافع؛ أن تكون بخصوص المسائل التي يجيب عنها الإنسان إجابات حديثة، ثمّ يتمّ اختيارها للإجابة على جميع المسائل..

الآية ١٢٨

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾

شأن نزول الآية

ورد في كثير من كتب التفسير والحديث في شأن نزول هذه الآية أنّ رافع بن خديج كان له زوجتان؛ إحداهما مسنّة والأخرى شابّة يافعة، فطلّق الأولى، ثمّ اقترح عليها قبل انقضاء عدّتها أن يرجعها إن كانت راغبة في الرجوع وأن عليها أن تصبر إن قدّم عليها زوجته الشابّة، وإن أحبّت صبر حتّى تنتهي أيام عدّتها لينفصلا.. فقبلت المرأة اقتراح زوجها رافع بن خديج وتصالحا، فنزلت هذه الآية وبيّنت حكم هذه الحالة..[1]

النقاط المستفادة من الآية

١. (النشوز) في اللّغة من مادّة النشز بمعنى الربوة، وإذا استعملت في المرأة والرجل؛ فهي بمعنى التمرّد والطغيان، وقد بيّنت الأحكام المرتبطة بنشوز المرأة في الآيات ذات الصلة. ولكن جرت الإشارة إلى مسألة نشوز الرجل هنا، والآية تقول: ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾.

٢. كلمة ﴿ لاَ جُنَاْحَ ﴾ تبيّن حقيقة تنازل أو بذل شيء من حقوقها برضاً منها وطيب خاطر؛

١- مجمع البيان، ج٣، ص١٨٣

ولا إكراه عليها في ذلك.. ولهذا؛ لم يكن عليها بأس فيما بذلت...

٣. تفهم مسألتان فقهيّتان بالنظر إلى شأن نزول هذه الآية:

الأولى: أنّ أحكاماً؛ مثل تقسيم أيّام الأسبوع بين الزوجين؛ لها حيثيّة حقٍ لا حكم؛ ولذا؛ كان للمرأة أن تتنازل عن حقّها كلّيّاً أو جزئياً باختيارها.

الثانية: لا يلزم لدى الصلح بين الزوجين أن يبذل أحدهما عوضاً أو أن يكون هذا العوض مالاً، وإنّما يمكن لإسقاط حقّ من الحقوق أن يكون هو العوض.

٤. قوله تعالى ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ مفعم بالمعنى، وذلك أنّه وبالبناء على هذه الآية الشريفة التي وردت بخصوص الاختلافات الأسريّة، ولكن من البديهيّ أنّها تؤكّد وتبيّن قانوناً كلّيّاً وعامّاً يحكي عن أنّ القاعدة الدينيّة في جميع الأمور تبتدئ وتتمّ على أساس الصلح، وأنّ النزاع والفُرقة خلاف الطبع الإنساني السليم والحياة المستقرّة، ولذا؛ لا ينبغي أن يحصل النزاع إلّا في موارد الضرورة والاستثناء..

٥. هناك من الأفراد من يخرج عن نطاق العقل والدين؛ فيذهب إلى أنّ الأصل الأوّل في الحياة ـ كما هي الحياة الحيوانيّة السبعيّة ـ هو تنازع البقاء والصراع وخوض الحرب لإحراز التكامل والكمال.. ولعلّ هذا النوع من التفكير يشكّل مصدر كثير من الحروب وإراقة الدماء على مرّ العصور.. في حين أنّ ابن آدم ولحيازته العقل والذكاء يختلف عن الوحوش والسباع، وإنّما يكون تكامله تحت مظلة التفاهم والحوار والتعاون واحترام الطرف الآخر؛ دون التنازع.. بل إنّ أصل تنازع البقاء حتى بين الحيوانات لا يمثل الأصل المقبول والدائم لإحراز التكامل..

٦. جرت الإشارة في هذه الآية إلى سبب ومصدر الكثير من الصراعات والحروب، إذ قال تعالى: ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ حيث أن كلّ فرد يحبّ ويفضل نفسه على غيره في الغالب ممّا يضطرّه إلى الصراع ومحاولة أخذ حقوقه بالتمام والكمال..

٧. الحقيقة التي يجب أن نعيها جميعاً هي أن البخل والخسّة تمثّل مصدر كثير من

الاختلافات مع أنّها إحدى الصفات الأخلاقيّة والنفسية الذميمة والمذمومة، وعلى هذا الأساس؛ كان لزاماً على الناس أن يسعوا حثيثاً في إصلاح أنفسهم، وأن يتّخذوا من الصفح شعاراً.. وفي هذه الحالة؛ لا يتمّ اقتلاع الخلافات الأسريّة فحسب، وإنّما ينتهي الأمر إلى القضاء على كثير من النزاعات الاجتماعيّة وغيرها..

٨. حيث أنّ من الممكن للرجال أن يسيئوا التصرف والانتفاع والاستغلال لحكم الله تعالى للنساء في ضرورة الصلح والصفح عن أزواجهم الناشزين.. فقد وردت الوصيّة في آخر الآية بالإحسان والورع، ثمّ التحذير من الغفلة عن ضبط النفس ومراقبة السلوك وعدم الانحراف عن جادّة الحقّ والعدل لاسيّما وأنّه تعالى عالم بكلّ ما يصدر عن الإنسان من تصرّفات: ﴿ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

الآية ١٢٩

وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾

النقاط المستفادة من الآية

مقدّمة

نُقل أنّ أبي العوجاء ـ الدهريّ المعروف ـ واجه هشام بن الحكم، وهو أحد أصحاب الإمام الصادق(ع) ـ وسأله قائلاً: أليس الله حكيماً؟

فقال هشام: أنّه حكيم، بل أحكم الحكماء.

فسأله ابن أبي العوجاء عن الآيتين محطّ البحث بالقول: فلماذا أمر الله من جهة الرجال بالعدالة بين الزوجات، ومن جهة أخرى قال: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء ﴾ وأضاف ابن أبي العوجاء قائلاً: فأيّ حكيم هذا الذي يقول ويأمر بذلك؟!

قال هشام: فلم يكن لي من جواب في ذلك الوقت، ثمّ إنّي قدمت المدينة وجئت مولاي أباعبدالله الصادق(ع). فقال لي: يا هشام! لمَ لم تأتِ في وقت الحجّ والعمرة؟ فقلت: نفسي لك الفداء؛ قد جئتك لأمر مهمّ... إنّ ابن أبي العوجاء سألني مسألة وليس عندي جوابها.. فقال الإمام(ع): وما هي؟ فحدّثته بالمسألة. فقال(ع): المراد بالعدالة في الآية الثالثة من سورة النساء؛ العدالة في النفقة (وحفظ حقوق المرأة وطبيعة السلوك تجاهها) وأمّا المقصود

بالعدالة في هذه الآية (١٢٩) من سورة النساء، فهو أمر محال؛ إذ العدالة في الميل القلبي.

وحين عاد هشام من سفره والتقى ابن أبي العوجاء، أجابه على ما سأل..

فقال هذا الأخير متعجّباً بامتناع: أقسم على أنّ هذا الجواب ليس من عندك؟![1]

١. سؤال: بالنظر إلى الآيتين (٣ و ١٢٩) من سورة النساء وحيث أنّه سبحانه وتعالى يعلم بعجز الرجال عن تحقيق العدالة بين زوجاتهم، كيف أجاز الزواج من أكثر من زوجة، فما هي العلّة في أن دعاهم الله ـ بذلك ـ مع عدم العدل منهم؟!

لدى الإجابة على هذا السؤال والشبهة نشير إلى الأمور أدناه بشيء من البحث والتحقيق:

الأمر الأوّل: أنّه سبحانه وتعالى قد أكّد ووصّى في الآية الثالثة من هذه السورة بتحقيق العدالة بين الزوجات. وفي هذه الآية أشار وبيّن مفهوم العدالة أساساً، فقال: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ فالأمر وإنّ بدا للوهلة الأولى أنّ ثَمّ تعارضاً بين مفهومي الآيتين، ذلك لأنّ الوصيّة وردت في الآية الأولى بتحقيق العدالة، وفي الآية الثانية؛ جرى الحديث عن نفي إمكانية تحقيق العدالة.. ولكن مع إعمال الدقّة والملاحظة المطلوبة في الآية الثانية التي تبين مفهوم العدالة، يمكن فهم التفاوت المقصود ومدلول الآيتين بوضوح، لأنّ العدالة في الحقيقة بمعنى أنّ على الرجل أن يتخذ لنفسه وسلوكه طريق الاعتدال حيث لا إفراط ولا تفريط..

الأمر الثاني: في الآية الثالثة من سورة النساء، وحينما ورد التأكيد بتحقيق العدالة بين الزوجات، فإنّما هي العدالة في جميع الاتّجاهات؛ فضلاً عن حقوق مثل: إعطاء نفقة المعيشة؛ من قبيل المأكل والمسكن والملبس والمعاشرة و... والحقوق الأخلاقيّة، مثل: حسن المعاشرة والسلوك تجاه الزوجات.. وعلى هذا؛ لنا أن نتصور نوعين من العدالة من قبل الرجال

١- الكافي، ج٥، ص٣٦٢

المتزوجين بـأكثر من زوجة طبقاً لهذه الآية، وهما: العدالة العملية والعدالة القلبيّة.. أما في قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ... ﴾ فقد نفى إمكانية تحقيق العدالة بمفهومها الشامل من قبل الرجال، وقال بأنّ الميل القلبي والمحبّة الباطنية تجاه الزوجات أمر معجز للرجال تجاههنّ.. لاسيّما وأنّه سبحانه قال في منتهى الآية ﴿ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ أي: كمن لا زوج لها.

الأمر الثالث: من عبارة ﴿ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ... ﴾ يتّضح أنّ العدالة المشار إليها في صدر الآية والتي تم التعبير عنها بأنها غير ممكنة للرجال، هي العدالة بمفهوم (الميل القلبي) تجاه جميع الزوجات، أمّا فيما يرتبط بالجوانب الأخرى، فإنّ مراعاة العدالة في الحقوق الشرعيّة والأخلاقيّة؛ وطبقاً للآية الثالثة من سورة النساء، فعلى الرجال المقترنين بـأكثر من زوجة؛ فهي شرط مؤكّد ولازم الإحراز والتحقيق..

النتيجة: ممّا ورد بيانه لدى تفسير الآيات بهذا الصدد؛ يتّضح أنّ المراد بالعدالة في الآية الثالثة من سورة النساء هو الناحية العمليّة؛ وهو أمر ممكن لمن كان له أكثر من زوجة، وأنّ ما تمّ نفيه من العدالة في الآية (١٢٩) من سورة النساء؛ هو الناحية القلبيّة والميل النفسي لدى الرجل المتزوّج بـأكثر من زوجة واحدة.. وعليه؛ لا يبقى ثَم تعارض وتهافت بين مدلولي الآيتين..

٢. قوله سبحانه: ﴿ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ الوارد في الآية السالفة؛ وذكر فيه الأمر بالإحسان والتقوى؛ هو بمثابة تهديد للرجال ذوي الزوجات المتعدّدات، وأنّ عليهم أن يراقبوا سلوكهم تجاههنّ، لئلّا ينحرفوا عن مسار ومسمّى العدالة.. وهنا قد يرد التوهّم بأنّ مراعاة العدالة حتّى في مورد المحبّة والعلاقة القلبيّة أمر غير متاح..

٣. هذه الآية تجيب على السؤال المتقدّم وتقول بأنّ العدالة فية العلاقة القلبية والمحبّة أمر غير ممكن تجاه جميع الزوجات وإن سعى الرجل إلى إعمالها فيما بينهنّ ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ

أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾.

٤. من قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ يفهم أنّ بين المسلمين من كان يبذل كلّ جهده بهذا الصدد، ولعلّ بذل الجهد ذاك كان محاولة للامتثال للأمر المطلق لتحقيق العدالة الواردة في الآية الثالثة من هذه السورة، حيث ورد: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً ﴾.

٥. بديهيٌّ أنّ القانون السماوي لا يمكن أن يكون مخالفاً للفطرة، أو أن يتم التكليف بما لا يطاق.. وحيث أنّ للمحبّة القلبيّة أسباباً مختلفة؛ ولعلّ بعضها خارج عن اختيار الإنسان؛ لم يرد أمر بمراعاتها، ولكن الأمر الصريح ورد فيما يتعلق بالسلوك لدى رعاية الحقوق بين الزوجات لإمكانيّة تحقيقه بينهنّ..

٦. قوله عزّ من قائل: ﴿ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ يبيّن خطورة أن يعمد الرجل إلى إساءة التصرّف والاستغلال، ولهذا؛ قالت الآية الشريفة: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ... تَمِيلُواْ... ﴾ بعد عجزكم عن المساواة القلبيّة بين الزوجات، فتعمدوا إلى ترك الواحدة منهنّ بحيث تجعلوا منها كمن لا زوج لها فتفرّطوا في حقوقها العمليّة.. ﴿ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾.

٧. قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ الوارد في خاتمة الآية تحذير للذين كانوا يقصّرون في مراعاة العدالة بين زوجاتهم قبل نزول هذه الآية. وتأكيد لهم بأنّهم إذا سلكوا مسلك الإصلاح في علاقتهم مع زوجاتهم والتقوى في حفظ حقوقهنّ، فإنّ الله سيغفر لهم ما قد سلف منهم ويشملهم برحمته وعفوه..

٨. رويت أحاديث في موضوعات رعاية العدالة بين الأزواج ما يشير إلى عظمة هذا القانون، منها: أنّ أميرالمؤمنين(ع) كان لا يتوضّأ إلّا في بيت زوجته في يومها. كما نقرأ عن خاتم الأنبياء(ص) أنّه كان يقسم بين نسائه في مرضه فيطاف به بينهنّ. ونقل عن معاذ بن جبل أنّه استعمل القرعة حينما توفّيت زوجتان له بسبب الطاعون، لدفن من وقعت عليها القرعة لئلا

يخالف العدالة بينهما.[١]

٩. معلوم أنّنا إن فسّرنا كلمة العدالة في الآيتين بمعنيين: العدالة في النفقة والعدالة في الميل القلبي، فذلك لتوفّر القرينة الواضحة في الآيتين.. ففي ذيل الآية مورد البحث ورد بصراحة ﴿ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ وبهذا أبيح الزواج من أكثر من واحدة بشرط الامتناع عن إلحاق الظلم بإحداهنّ مع حصول الميل القلبي إلى واحدة منهنّ. وفي مطلع الآية الثالثة من ذات السورة أبيح تعدّد الزواج بصراحة..

١- مجمع البيان، ج٣، ص١٨٥

الآية ١٣٠

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١.لطالما أكد الإسلام في وصايا كثيرة على توقّي الوقوع في الطلاق، ولعلّ إحدى النقاط ما وردت في مسألة النشوز بين المرأة والرجل، أمّا إذا بلغ الخلاف بين المرأة وزوجها إلى حدٍّ لا يسعهما فيه حلّ هذا الخلاف، ولم يستطع الحكمان أن يحدّدا مصير الخلاف.. تبدّل جوّ الأسرة إلى جهنّم حيث لا يمكن تحمّل الحياة من قبل المرأة و زوجها. والإسلام وإن أدان الطلاق واعتبره أبغض الحلال عند الله تعالى، فإنّه لا يرضى للمرأة وللرجل أن يهدرا حياتهما على سبيل الإجبار أو يحوّلاها إلى عيشة في قفص تحت مسمّى الجوّ العائلي؛ حيث العداء والخلاف المتواصل.. وهنالك يصير الطلاق جائزاً..

٢. وردت في القرآن الكريم حوالي (٢١) آية عن الطلاق، وقد طفحت سياقات هذه الآيات بالدروس والإثارة، رغم أنّها جرت مجرى المسائل الحقوقيّة وتبيّن أحكامها وقوانينها، وقد حوت جملة من الوصايا والنقاط الأخلاقيّة الظريفة.

٣. لا شكّ في جواز أصل الطلاق في الإسلام؛ ولكن يجب الوقاية من وقوعه وإيقاعه إلى الحدّ المقدور.. أمّا إذا انطفأت شعلة المودّة والحبّ والتفاهم في الجوّ العائلي وبين المرأة وزوجها؛ فإنّه لا تبقى وسيلة غير الطلاق، لأنّ مواصلة الحياة في هذه الحالة أمر مؤلم للغاية، ولا ينتج عنه سوى مزيد من الاختلاف والتضادّ والسلوك غير المشروع والتصادم والمشاكل...

٤.إذا تسبّبت مواصلة الحياة الأسريّة بما لا يطاق بحيث تصير الحياة فيها حياة مرّة مظلمة

ولم يمكن إصلاحها بوجه من الوجوه.. فإنّ الزوجين غير مجبرين على إدامة هكذا حياة، إذ لو بقيا يعيشان معاً لأصبحا سجينين إلى آخر عمرهما.. ولكن عليهما ـ والحال هذه ـ أن يتّخذا قراراً شجاعاً وأن لا يهلعا من المستقبل.. ذلك لأنّهما إذا انفصلا في ظلّ هكذا ظروف، فإنّ الله تعالى سيغنيهما من فضله ورحمته، ولعلهما يختاران لأنفسهما أزواجاً غير أزواجهم وعيشة خيراً من عيشتهما ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾.

الآية ١٣١

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. حيث جرت الإشارة إلى أنّ الزوجين إن انفصلا على أساس الضرورة التي لا تبقي لها طريقاً غير الانفصال، فإنّه لا مانع من هذا الانفصال.. فلا يخافا المستقبل، إذ الله تعالى يغنيهما من فضله وكرمه.. ولهذا؛ وجدنا الآية أعلاه تضيف القول بأنّ هذا الربّ الغنيّ المطلق غير عاجز عن إغناء عباده ﴿ وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾.

٢. ثُمّ للتأكيد على التقوى بهذا الصدد وفي كلّ أفق من آفاق الحياة تقول الآية إنّه تعالى قد وصى اليهود والنصارى ومن هم قبل المسلمين ممّن لهم كتاب سماوي وكذلك المسلمين. بدورهم. أن يلتزموا جانب التقوى ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللهَ ﴾.

٣. التقوى اسم مصدر من جذر (و ق ي) وهي بمعنى الامتناع والتحصّن والحذر الشديد والاستثنائي.

٤. المراد من معنى التقوى؛ بلوغ الإنسان إلى صفة تمنع الإنسان من التمرّد على إرادة الله تعالى وارتكاب المعصية، وتدفعه إلى الطاعة والعبوديّة ويمكن تسمية المتّصف بهذه الصفة بالمتّقي، وبعبارة أخرى تكون التقوى: حفظ النفس عن المحرّمات والمكروهات..

٥. جعل القرآن الكريم التقوى شرطاً لقبول الأعمال: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾.[1]

٦. التقوى حالة أمر الله تعالى بها جميع عباده:

﴿ وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾.

٧. للتقوى مراتب ودرجات:

الف: التقوى العامّة.

وهي بمعنى الحذر من العقاب؛ مثل عقاب جهنّم كما ورد في الآيات أدناه:

﴿ وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾.[2]

ب: التقوى الخاصّة:

لمّا كان للتقوى درجات كما قال تعالى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وقد أوردت الآيات أدناه ما تطلق عليه بالتقوى الخاصّة، وهي تتفاوت عمّا ذكرناه:

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.[3]

ج: التقوى الأخصّ:

أعلى درجات التقوى التي أشار إليها القرآن الحكيم:

١- سورة المائدة / ٢٧.

٢- سورة التحريم / ٦.

٣- سورة المائدة / ٩٣.

←

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.[١]

* ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.[٢]

وعلى هذا؛ فإنّ كلّ من يكتسب ويحرز درجة من درجات التقوى؛ عليه أن يضاعف جهده لينال درجة أعلى..

٨. أنّ تنفيذ الأمر بالتقوى في صالح الإنسان عموماً، والله غنيّ عنه إن كفر وطغى وتمرّد، إذ لا ينال اللهَ ضرر، لأنّ له ملك السماوات والأرض، وهو الجدير بالحمد والثناء: ﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾

٩. الغنيّ المستغنيّ بالمعنى الواقعي هو الله عزّوجلّ، ذلك لأنّه الغنيّ بالذات والغني عن غيره إنّما يكون بعونه تعالى، وإلّا فإنّ الجميع محتاجون إليه، كما أنّه تعالى بالذات مستحقٌّ للحمد والثناء.. وكماله كمال ذاتي على عكس كمال غيره الذي هو عارية ويأتيه من جهة خارجيّة..

١- سورة آل عمران / ١٠٢.

٢- سورة التغابن / ١٦.

الآية ١٣٢

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. في هذه الآية الكريمة وللمرّة الثالثة اعتمدت القول بأنّ كلّ ما في السماوات والأرض ملك لله عزّ اسمه وأنّه هو الحافظ والماسك لهنّ.. ﴿ وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً ﴾.

٢. يمكن أن يطرح سؤال هنا، وهو: لماذا هذا التكرار ثلاثاً في هذه الفاصلة القصيرة، فهل هو مجرّد تأكيد؟ أم يحمل إشارات خاصّة؟

ينبغي القول لدى الإجابة: إنّ الدقة في مضمون الآيات يشير إلى أنّ ثَمّ مطلباً في كلّ مرّة يتكرّر فيها هذا المطلب. فمثلاً: إنّ العبارة الأولى جاءت لإعلام الزوجين أنّهما إذا انفصلا عن بعضهما لضيق الحياة الزوجيّة، فإنّه تعالى سيغنيهما من فضله، ولإثبات هذا الوعد الإلهي يذكّرهما سبحانه بأنّه المالك الغنيّ المطلق لكلّ ما في السماوات والأرض.. وإنّ تكرار العبارة للمرة الثانية الوارد بعد التوصية بالتقوى، لئلّا يتوهّم بأنّ تنفيذ هذه الوصية والالتزام بها ينفع الله في شيء، أو أن مخالفتها يضرّه سبحانه في شيء.. وفي الحقيقة؛ إنّ هذا القول شبيه بما قاله مولانا أميرالمؤمنين(ع) في خطابه لهمام رضوان الله عليه:

«إنّ الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم؛ غنيّاً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم؛ لأنّه لا تضرّه معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة مَن أطاعه».[١]

وتكرار العبارة للمرة الثالثة كان بمثابة المقدّمة لما سيأتي من بحث في الآية (١٢٣) حيث

١- نهج البلاغة، ص٣٠٣

يتجدّد الحديث عن مالكيّة الله سبحانه لكلّ عالم الوجود..

٣. ورد الحديث عن عجائب خلقة السماء (١٧٣) مرّة في القرآن المجيد، وفي مقابل ذلك؛ ورد القول عن العلاقة بين السماء والأرض وخلقتهما وعجائبهما (٧) مرّات، وذلك في سورة البقرة؛ الآيات (٢٥٥ و٢٨٤) وسورة النساء؛ الآيات (١٢٦ و١٣١ و١٣٢ و١٧٠) وفي سورة الأنبياء؛ الآية (٣٠).

٤. لعل السبب في كثرة الحديث عن خلقة السماء وعجائبها، في مقابل الآيات السبع الواردة في بحث العلاقة بين السماء والأرض، هو العجائب المكشوفة في السماء ومخلوقاتها؛ في مقابل الأرض وعجائبها، ولذلك كانت الغلبة العدديّة..

٥. كلّما تعاظمت قوّة وقدرة الوكيل؛ كان فعله ودوره أكبر، ولهذا؛ فإنّ الله الذي خلق السماء والأرض أعظم وأقوى وأقدر وكيل للإنسان على الإطلاق..

٦. يجب أن نعلم أن الإنسان الناجح هو الذي لا ينتفع من وكيله في التظلم والدفاع فحسب، وإنّما ينبغي له أن يستفيد منه في جميع الأمور وأي وكيل أفضل من الله تعالى في الدفاع والاهتداء والاستلهام و...؟

الآية ١٣٣

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. لأنّ الله تعالى أوصى في الآيات السالفة جميع الناس بالتقوى، فكان عليهم تنفيذ هذا الأمر وهذه الوصيّة الإلهيّة.. أمّا إن امتنعوا عن ذلك واختاروا الكفر، فعليهم أن يعلموا ويتأكّدوا من أنّه عزّوجلّ غنيٌّ عنهم لأنه المالك المطلق والخالق لهم، وله التصرّف كيف شاء في مملوكه الإنسان ومملكته في الوجود.. وله أن يستبدل الناس العصاة بخلق جديد من الناس يعبدونه لا يشركون به طرفة عين.. فهو القادر على كلّ شيء..

٢. بملاحظة هذه الآية الشريفة يتكشّف أنّها ناظرة إلى استبدال غير المتّقين بمتّقين، ويؤيّد هذا المعنى ما رواه البيضاوي في (تفسيره) وفي (التبيان) و(مجمع البيان) عن الرسول الأعظم(ص) حيث نزلت هذه الآية؛ فوضع النبي كفّه على ظهر سلمان رضوان الله عليه وقال بأنهم قوم هذا يعني عجم الفرس...[1] في إشارة إلى ما سيقدّمه الإيرانيون من خدمات للإسلام في مستقبل الأيام..

٣. وبالتدبّر في هذه الرواية نفهم أنّ بعض المفسّرين حين احتملوا أن يكون معنى الآية أنّه تعالى إذا أراد؛ دمّركم واستبدلكم بقوم آخرين أو مخلوقات أخرى بدلاً عن الإنسان العاصي الكافر.. فإنّه احتمال غير رصين، لبعد هذا المعنى عن سياق الآية...

١- تفسير البيضاوي، ج٢، ص١٠٢ والتبيان، ج٣، ص٣٥٢ ومجمع البيان، ج٣، ص١٨٧

الآية ١٣٤

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. الخطاب في هذه الآية ورد في الذين يدّعون الإيمان بالله تعالى، ويشاركون بأنفسهم في ميادين الجهاد ويلتزمون بتعاليم الإسيلام ولكن دون أن يكون لهم هدف إلهي، وإنّما غايتهم من كلّ ذلك الحصول على نتائج مادّيّة ودنيوية كغنائم الحرب أو السمعة الطيّبة أو المنصب على اختلاف مشاربه.. ومثل هؤلاء مخطؤون غاية الخطأ.. ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾.

٢. هذه الآية تدلي بمزيد الإيضاح وببيان جديد، خطأ تاركي التقوى والمتجاهلين الخشية من الله تعالى، الوصيّة بالتقوى والورع.. فهي تقول: لا تتركوا التقوى والوصيّة الإلهيّة بها من أجل الأجر الدنيوي والربح المادي، وعليكم أن تعوا بأن الأمر بذلك مشتبه؛ لأن الثواب الدنيوي والأخروي عند الله تبارك وتعالى؛ فلماذا تعمدون لتكونوا ضيّقي النظر قليلي الطموح فترغبون بالحقير القليل من الأجر وترغبون عن الآخرة وهي الأشرف والأكثر قيمة وسموا؟.. فلماذا لا تطلبون من الله الأجرين معاً.. أجر الآخرة والأولى..

ولكن! بمزيد من الملاحظة في هذه الآية الشريفة نفهم التالي: أنّه وإن فسّر بعض المفسّرين هذه الآية بما ذكرنا، إلّا أنّه يبدو - والله أعلم - أنّ المراد من ثواب الدنيا والآخرة؛ سعادة الدنيا والآخرة معاً، وأنّهما عند الله تعالى فحسب، ممّا يفرض على العبد أن يتقرّب إليه سبحانه، فحتّى إن أراد ثواب الدنيا فقط؛ لزمه الطلب منه سبحانه وحده..

٣. تتحدّث هذه الآية مرّة أخرى عن الحقيقة القائلة بأنّ الإسلام غير ناظر إلى الحيثيّة المعنويّة والأخروية فحسب، وإنّما جعل لأتباعه سعادة مادّيّة وأخرى معنويّة.

٤. لأنّ السعادة الدنيويّة والأخرويّة لا ينالها الإنسان في غير مسار التقوى، ولأنّ التقوى لا تحرز من غير طريق العمل بأحكام الدين؛ فإنّ سعادة البشر لا تتحقّق إلا تحت مظلّة الدين ورحابه.

٥. كيف يمكن تصوّر عدم وصول أحدهم إلى الثواب إلّا عن طريق الفيض الإلهيّ؟

حيث أنّه سبحانه الوحيد السميع البصير والخبير بحاجات خلقه والبصير بأمورهم والسميع لدعائهم والعارف بنواياهم جميعاً، واطّلع على أعمال المتّصفين بصفات النفاق ﴿ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾.

الآية ١٣٥

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. ذكرت هذه الآية أصلاً أساسيّاً وقانوناً كلّيّاً فيما يتعلّق بإجراء العدالة في جميع الموارد، وأمرت المؤمنين الالتزام بالعدالة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾.

٢. ينبغي الالتفات إلى أنّ القوّامين جمع قوّام، والكلمة صيغة مبالغة بمعنى كثير القيام. أي: يجب القيام بالعدل في كلّ حال وفي كلّ وقت حتّى يكون الالتزام بالعدل صفة دائمة في الإنسان المؤمن، ويكون الانحراف عن العدل مخالفاً لطبعه وروحه..

٣. استعمال كلمة القيام هنا يمكن أن يكون بسبب أنّ على الإنسان أن ينهض لإنجاز عمله ومتابعته، وعليه؛ فإنّ القيام بالعمل كناية عن عزمه الراسخ والجاد، وإن كان هذا الفعل لا يحتاج إلى القيام والنهوض بالجسم، كما هو عمل القاضي والقضاء. كما يمكن أن يكون التعبير هذا من حيث أنّ القيام عادة ما يكون فيه الشيء كموقف عمود ثابت في الأرض دون أي انحراف واعوجاج فيه.. وهكذا يكون تنفيذ العدل، حيث ينبغي أن يكون ثابتاً مستقيماً لا انحراف فيه.

٤. أحد مصاديق تحقيق العدل، يظهر في مسألة الإدلاء بالشهادة، إذ ينبغي الصدق فيها

وترك أيّ حسابات جانبيّة لتكون شهادة بالحقّ وإن أدّت إلى إلحاق الضرر بأقرب الناس إلى الشاهد، أباً كان هذا الشاهد أو أمّاً أو غيرهما من ذوي القربى، ناهيك عن البعيد والأبعد: ﴿ شُهَدَاء للّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾.

٥. للأسف نلاحظ أنّ الإدلاء بالشهادة في جميع المجتمعات، ولاسيّما الجاهليّة منها، يكون في الغالب على أساس الحبّ والبغض وطبيعة العلاقة بين الشاهد والمشهود له أو عليه، حيث لا يعار للحقّ والعدالة أهمّيّة تذكر.. وقد روى ابن عبّاس أنّ حديثي الإسلام في المدينة كانوا إذا شهدوا على شيء؛ وضعوا في اعتباراتهم طبيعة العلاقة مع من يشهدون له أو عليه، أمّا إذا كانت شهادتهم تؤدّي إلى ضرر ما بقريب لهم؛ امتنعوا عن أن يشهدوا.. ولكن طبقاً لهذه الآية صار هذا الموقف الأخير غير متناسب وروح الإيمان ورسالته، إذ المؤمن الواقعي هو الذي يجرّد نفسه عن أيّ اعتبارات اجتماعية وغيرها لدى ادلائه بالشهادة، ولا يحسب للنفع أو الضرر بأقاربه حساباً.. بل ويتجاهل الحالة المصلحيّة بالمرّة..

٦. قوله تعالى: ﴿ شُهَدَاء للّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ يبيّن حقيقة أنّ للأقارب أن يدلوا بشهاداتهم وإن أدّت إلى الضرر مع حفظ أصول العدالة...

٧.أحد عوامل الانحراف عن أصل العدالة أن يحسب الشاهد حساباً للأغنياء أو للعواطف الناشئة عن رؤية فقر الفقراء حيث تحول دون الشهادة بالحقّ، هذا في الوقت الذي يجب أن نعي فيه بأنّ الذي يشهد له أو عليه كان غنياً أو فقيراً، فإنّ الله تعالى أعلم بواقعه، دون أصحاب المال والثروة الذين قد يقومون بإيذاء الشاهد بالحقّ مع حفظ الله له، ولا الفقير سيبقى فقيراً جائعاً إذا ما أجري العدل بحقه ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا ﴾.

٨. يجب أن نعلم أنّ الشاهد أثناء الشهادة ملزم بأداء الشهادة رضاً لله تعالى بعيداً عن الهوى واتّباع الضغوط النفسية الباطلة لئلّا يحال دون تحقيق العدالة ﴿ فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ ﴾.

٩. يعلم من قوله سبحانه: ﴿ فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ ﴾ أن مصدر المظالم والجور عبادة النفس، ولو أن مجتمعاً خلا من عبادة الذات والهوى، لانتفى منه الظلم والجور، ولهذا؛ ورد النصّ مرّة أخرى على ضرورة تحقيق العدالة معتمداً على عدم عبادة الهوى، قائلاً: إن منعتم من نيل الحقّ، أو حرّفتم الحقّ، أو أعرضتم عن الحقّ بعد اتّضاحه، فاعلموا أنّه سبحانه عالم خبيراً بسلوككم الضال هذا ﴿ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

١٠. جملة ﴿ وَإِن تَلْوُواْ ﴾ إشارة إلى تحريف الحقّ وتغييره.. بيد أنّ جملة ﴿ أَوْ تُعْرِضُواْ ﴾ إشارة إلى الامتناع عن حكم الحقّ ﴿ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ ﴾.

١١. لعلّ العلّة في استعمال كلمة ﴿ خَبِيرًا ﴾ في منتهى الآية دون كلمة (عليم) هي أنّ كلمة الخبير تطلق عادة على المطّلع على الجزئيّات والتفاصيل لموضوع ما، والإشارة إلى أنّه تعالى خبير بأدنى انحراف لكم ومنكم عن الحقّ والعدالة وهو الأعلم بالمبررات لذلك، أو لدى تحييد الحقّ إلى من ليس له الحقّ.. ينذر بأنّه عزّوجلّ يعاقب عليه..

١٢. هذه الآية الشريفة بمثابة بيان كلّيّ واهتمام استثنائي من جانب الدين الإسلامي بمسألة العدالة الاجتماعيّة في جميع الآفاق، وقد وردت واستعملت أنواع التأكيدات في هذه الكلمات المقتضبة للإشارة إلى أنّ مدى الاهتمام الكبير من قبل الإسلام بهذه المسألة الإنسانيّة والاجتماعية العظيمة.. مع أسفنا البالغ للفاصلة والهوّة السحيقة التي تعزل هذا الأمر الديني الجليل عن سلوك المسلمين، وهذا من دلائل وأسرار تراجع المسلمين وتأخّرهم عن الأمم الراقية...

الآية ١٣٦

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَـٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

شأن نزول الآية

نقل ابن عباس أنّ هذه الآية الكريمة نزلت في جماعة من شخصيات أهل الكتاب، مثل عبدالله ابن سلام وأسد بن كعب وأخيه أُسيد بن كعب وآخرين.. ذلك أنّهم جاؤوا رسول الله(ص) منذ البداية وقالوا له: نحن نؤمن بك وبكتابك القرآن وبموسى والعزيرعليهما السلام، غير أنّنا نكفر بالكتب السماوية الأخرى وباقي الأنبياء، فنزلت هذه الآية الشريفة وأعلمتهم بضرورة الإيمان بجميع الكتب والرسل و..[١]

النقاط المستفادة من الآية

١. نظراً إلى شأن نزول الآية الشريفة، فإنّ وجهة خطابها إلى جمع من مؤمني أهل الكتاب الذين اكتفوا بعد قبولهم الإسلام بإظهار الإسلام مع بقائهم على دينهم السابق وعدم قبول الأنبياء والكتب السماوية السابقة.. فأمرهم القرآن بالإيمان بجميع الأنبياء والكتب السابقة،

١- مجمع البيان، ج٣، ص١٩١ و١٩٢

ذلك أنّهم ينطلقون وينتهون إلى حقيقة واحدة بل ويطلبون حقيقة واحدة (مع كونهم متفاوتي الدرجات والفضل وكلٌّ منهم يحمل رسالة هي أكمل ممّا سبقها).

٢. لا معنى لمسلم أن يقبل نبيّاً ويرفض آخر، اللهم إلّا لو كانت حقيقة الأنبياء قابلة للتبعيض والتجزئة. أو أن يكون للتعصّب القابليّة على الحيلولة دون الواقعيّات، ولذا؛ فقد رأينا الآية تقول: إنّ على المؤمنين أن يؤمنوا حقّاً بالله وبالرسول الأعظم وبالكتاب الذي أنزل معه وبالكتب التي سبقته..

٣. بغضّ النظر عن شأن النزول المذكور، فإنّ وجهة الخطاب لهذه الآية إلى المؤمنين كما يبدو.. المؤمنون الذين أسلموا في الظاهر دون أن ينفذ إيمانهم إلى أعماق أنفسهم.. هنا حيث توجّه الدعوة إليهم ليؤمنوا حقّ الإيمان.. كما يحتمل أن يكون خطاب الآية موجهاً إلى جميع المؤمنين الذين آمنوا إيماناً إجماليّاً بالله وبالرسول.. دون المعرفة بالجزئيّات والتفاصيل العقائديّة الإسلاميّة.. وهنا يأمر القرآن المجيد المؤمنين بأن يكونوا مؤمنين واقعيين بجميع الأنبياء والرسالات السابقة والملائكة.

٤. إنّ مفهوم عدم إيمان أحد المسلمين بالأنبياء والكتب السماوية والملائكة هو إنكار للحكمة الإلهيّة، إذ كيف يمكن لله تعالى الحكيم أن يترك الأجيال السابقة بلا قائد ومرشد ليعيشوا الحيرة طيلة حياتهم؟!

٥. ترى هل أنّ المراد من الإيمان بالملائكة ملائكة الوحي فقط حيث أنّه لا يمكن التفكيك بين الإيمان بهم وبين الأنبياء والكتب التي جاؤوا بها؟ أم أنّ المقصود هو الإيمان بجميع الملائكة؟

ينبغي القول لدى الإجابة: إنّ المراد هو الإيمان بالجميع، إذ كما أن قسماً منهم مأمورون بإنزال الوحي والتشريع، فإنّ جمعاً منهم مأمورون بتدبير عالم التكوين، وإنّ الايمان بهم أفق من آفاق الإيمان بالحكمة الإلهيّة المقدّسة.

٦. في الحقيقة؛ إنّ الإيمان بأصول خمسة في هذه الآية أمر لازم وحتميّ، بمعنى لزوم الإيمان بالمبدأ والمعاد كما هو الإيمان بكتب السماء والأنبياء والملائكة...

٧. التعبير بـ ﴿ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴾ استعمال لطيف، بمعنى أنّ هكذا أشخاص قد انحرفوا بشكل ليس من السهل عليهم فيه العودة إلى جادّة الهداية القويمة.

٨. خاتمة الآية تبيّن مصير الغافلين عن هذا الواقع، فتقول: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴾.

الآية ١٣٧

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. هذا التقلّب المتواصل، وهذا التلوّن اليوميّ؛ إمّا أن يكون نابعاً عن الجهل وعدم التحقيق الكافي في مباني الإسلام وقواعده، وإمّا نتيجة مؤامرة من قبل المنافقين والكفّار المتطرّفين من أهل الكتاب لإحداث زلزال في إيمان المؤمنين الحقيقيّين.. كما نقرأ في الآية (٧٢) من سورة آل عمران المباركة حيث قال تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

٢. (الارتداد) لغةً بمعنى الرجوع إلى الغير، وتارة يكون بمعنى الصيرورة والحدوث..

٣. (الارتداد) في التعريف الإسلامي هو حالة اعتقاديّة جديدة، حيث ينكر المسلم أحد أركان الدين الثلاثة، أو ينفي أصلاً ضروريّاً في الدين بحيث يستلزم إنكار الأصول الدينيّة الثلاثة.. وفي المفهوم القرآني؛ يتصوّر الارتداد بصور عديدة، مثل الارتداد عن الدين إلى الكفر والرجوع من الدين إلى الكفر، وكذلك الردّة إلى الدين السابق..

٤. تكرّر المفهوم الاصطلاحي للارتداد بصور متعدّدة في القرآن المجيد، فتارة ورد الارتداد عن الإيمان إلى الكفر، مثل قوله تعالى: ﴿ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ

إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾.[١]

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾.[٢]

وأيضاً: ﴿ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾.[٣]

وفي بعض الآيات ورد الارتداد بمعنى الرجوع عن الدين إلى الكفر، وهو نفسه المفهوم الاصطلاحي حيث بُيّن بصورة أخرى، من جملة ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ﴾.[٤]

٥. بالنظر إلى أنّ كثيراً من آيات القرآن المجيد متعلّقة بالإيمان بالتوحيد والنبوّة والمعاد، حيث تتّضح كيفيّة التعريف الاصطلاحي للارتداد في هذه الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾.[٥] وكذلك الآية القائلة: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴾.[٦] ويفهم من هاتين الآيتين والآيات المشابهة المتعلّقة بالإيمان بالتوحيد والنبوّة والمعاد، وإنّ الكتب والرسل تندرج في أصل النبوّة وكذلك الملائكة بلحاظ كونهم وسائط في الوحي ونزول الكتب على الأنبياء... وهذا المدّعى حظي بتأييد الكثير من الأحاديث، مثل قول الرسول الأعظم(ص): «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر».[٧]

٦. كما هو المبيّن في الكتب الفقهيّة؛ فإنّ الارتداد له شروطه الخاصّة؛ مثل البلوغ وكمال

١- سورة آل عمران / ١٠٠.

٢- سورة آل عمران / ٨٦.

٣- سورة آل عمران / ١٠٦.

٤- سورة المائدة / ٥٤.

٥- سورة البقرة / ٢٨٥.

٦- سورة النساء / ١٣٦.

٧- كشف الأسرار، ج٣، ص١٩

العقل والاختيا ر وعلم المرتد بمدلول اللّفظ وقصد هذا المدلول اللّفظي. ومن المذاهب الفقهيّة ما ردّ بعض هذه الشروط.

وقد صرّح بالشروط المحققة للارتداد عبر آيات الارتداد واستند عليها في ذلك. ومفهوم هذا الشرط أنّه إن ارتدّ شخص بالإجبا ر والإكراه عن ضرورات الدين أو أركانه؛ فلا يعدّ مرتدّاً؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.[1]

٧. بيّن القرآن المجيد الآثا ر السيّئة للارتداد، حيث نشير هنا إلى بعضها:

الف: الحبط وزوال ثواب الأعمال السالفة تبعاً للذنوب اللّاحقة كما ورد في قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.[2] وكما قال عزّوجلّ: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.[3]

ب: أنّ الغضب والعذاب الإلهي يشمل حال المرتدّ كما جاء في قوله سبحانه: ﴿ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ ﴾.[4]

وبموجب هذه الآية العظيمة تمّ تقسيم المرتدّ إلى قسمين: المرتدّ باختياره ورغبته عن عقيدته؛ وهو المتورّط بغضب الله جلّ جلاله؛ الذي عنته الآية القائلة: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ

١- سورة النحل / ١٠٦.

٢- سورة المائدة / ٥.

و كذلك أوّل أهل البيت عليهم السلام هذه الآية الشـريفة و مفردة (الإيمان) الواردة فيها بأميرالمؤمنين عليه السلام باعتباره الإيمان كلّه كما ثبت ذلك في قول النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله في يوم الخندق: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه» فصار من يجحد بولاية هذا الإيمان العظيم كافراً مرتداً خاسراً حابطاً ما تقدّم منه من أعمال صالحة... [المترجم].

٣- سورة البقرة / ٢١٧.

٤- سورة النحل / ١٠٦.

←

وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.[١]

ج: أنّ الشيطان يزيّن للمرتدين ارتدادهم وأعمالهم فيخدعهم كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾.[٢]

د: أنّه سبحانه وتعالى لا يهدي المرتدين، كما ورد في الآية القائلة: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ﴾[٣] وهذا النصّ الشريف استفهام بحرف ﴿ كَيْفَ ﴾ يفيد الاستبعاد والإنكار، أي أنّ هداية المرتدين الجاحدين أمر محال وغير ممكن. وإنّ وجود صفة الارتداد في الأفراد المرتدّين تسبّب عدم هداية الله تعالى لهم.. وهذا ما لا منافاة فيه مع أنّهم إن تابوا عن ارتدادهم؛ هداهم الله ورحمهم..

هـ: على أساس الآية القرآنية، فإنّ لعنة الله والملائكة والناس أجميعين ستلحق بالمرتدّين، كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ ﴾.[٤]

ولفظة ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ الواردة في أوّل الآية إشارة إلى من ورد ذكرهم في الآية (٨٦) من سورة آل عمران حيث قالت: ﴿ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ... ﴾

ولعنة الله تعالى تعني: أنّه سيطردهم ويبعدهم عن رحمته والسعادة التي أراد لعباده. ولعنة الملائكة والناس على هكذا أفراد بمعنى أنّ الملائكة والناس اللّاعنين يطلبون من ربّهم أن يبعد المرتدّين عن رحمته..

أنواع الردّة

١- سورة آل عمران / ١٠٦.

٢- سورة محمد / ٢٥.

٣- سورة آل عمران / ٨٦.

٤- سورة آل عمران / ٨٧ ـ ٨٩.

٨. طبقاً لرأي أغلب فقهاء الشيعة؛ فإنّ المرتدّ على نوعين: مليٌّ وفطريٌّ.. علماً أنّ بعض علماء الشيعة؛ مثل الإسكافي وابن الجنيد وكذلك فقهاء المخالفين لم يقبلوا التقسيم أعلاه وذهبوا إلى أنّ جميع أنواع الارتداد سواء صدر عن المرأة أو الرجل إنّما هي على حدّ سواء.. وأنّ الآيات القرآنيّة الواردة بهذا الصدد يفهم منها الرأي الأوّل، حيث لم تجعل فرقاً بين ردّة الرجل والمرأة وبين المرتدّ الملّيّ والفطريّ. إلّا أنّ الروايات الشيعيّة أثبتت التفاوت بين المرتدّ الملّيّ والفطريّ،[1] ولذا قد ذهب غالب الفقهاء إلى كون المرتدّ على نوعين؛ ملّيّ وفطريّ.

وفي تعريف المرتدّ الفطريّ ثَمّ آراء ثلاثة وتعاريف ثلاثة:

أوّلاً: أنّ المرتدّ الفطريّ هو من انعقدت نطفته وكان والداه أو واحد منهما مسلماً، ثم خرج عن الإسلام حين بلوغه، سواء كان قد أظهر الإسلام عند البلوغ أو لم يظهر..

ثانياً: أنّه يقال للمرتدّ فطريّاً إذا انعقدت نطفته وكان والده أو أحدهما مسلماً؛ وقد أظهر الإسلام عند بلوغه ثم خرج عن الإسلام.

ثالثاً: أنّ المرتدّ الفطريّ هو من كان ـ عند ولادته ـ أحد والديه أو كلاهما مسلماً؛ ثم أظهر الإسلام عند بلوغه؛ ثمّ عافه..

وفي مقابل هذه التعاريف الثلاثة، هناك ثلاثة آراء أو ثلاثة تعاريف للمرتدّ الملّيّ..

ومن وجهة النظر الفقهيّة الشيعيّة؛ فإنّ المرأة المرتدّة تقبل توبتها؛ سواء كانت مرتدّة فطريّة أو ملّيّة. أمّا الرجل المرتدّ الملّيّ؛ فتوبته تقبل؛ دون المرتدّ الفطريّ.. مع أنّ كثيراً من فقهاء الشيعة؛ مثل ابن الجنيد والإسكافي وصاحب (المسالك) وصاحب (العروة الوثقى) وصاحب (الجواهر) قائلون بقبول توبة المرتدّ الفطريّ.[2]

وقال بعض فقهاء الشيعة؛ مثل صاحب (العروة الوثقى): الأقوى قبول توبة المرتدّ الفطري

١- راجع: وسائل الشيعة، ج٢٨، ص٣٢٣ إلى ٣٣٠

٢- مسالك الافهام، ج١٥، ص٢٤ و٢٥ وجواهر الكلام، ج٤١، ص٦٠٨ والعروة الوثقى، ج١، ص١٤١.

في جميع الحالات إلّا في وجوب القتل وخروج زوجته عن الزوجيّة وحبسها في عدّة الوفاة وانتقال ماله السابق (على الارتداد) إلى الوارث.. فالتوبة في هذه الموارد لا يكون لها أثر، وعليه؛ فإنّه يطهر بعد توبته؛ وعبادته صحيحة.

٩. أنّ هذه الآية تخلو من أيّ دلالة على عدم قبول توبة هكذا أفراد، بل إنّ موضوع وخطاب الآية هو وفاتهم على حالتهم وشدّة كفرهم.. وهكذا أفراد وبمقتضى إيمانهم وعملهم غير جديرين بالمغفرة وبالهداية إلّا أن يعودوا إلى رشادهم ويجدّدوا النظر في مواقفهم..

١٠. قال العلامة الطباطبائي: يجب أن نعلم بأنّ الإيمان لم يستقرّ في قلوب هكذا أفراد وأنّهم قد اتخذوا أمر الله هزواً؛ وأنّه لا أمل في توبتهم.. وأنّ من كان كذلك فإنّ إيمانه غير جاد فلا يقبل منه.. أمّا إن كان إيمانهم إيماناً جادّاً؛ فالمغفرة والهداية ستشملانه، لأنّ الله تعالى قد وعد بقبول التوبة الصادقة للناس.[١]

وذهب بعض العلماء إلى أنّ الآية تدلّ على أنّ اشتداد الكفر بعد الإيمان المسبوق بالكفر يبلغ بالإنسان إلى الحدّ الذي لا يهتدي فيه إلى الصراط القويم، وهنالك لن يشمل بالرحمة الإلهيّة، مع إمكانيّة رحمته بعد توبته وإيمانه وقيامه بالعمل الصالح. ولكن بعد اشتداد كفره وتكرّره، فإنّما يكون الفرد مستهزئاً.. فلا يرحم ولا يغفر له..

١١. وردت في الفقه الإسلامي مجموعة عقوبات للمرتدّ، من قبيل القتل، والسجن المؤبّد، والحرمان من الإرث، وتقسيم الأموال، وعدم قبول التوبة، والانفصال عن الزوج، وممنوعيّة الزواج وغير ذلك.. ومن بين هذه العقوبات المذكورة في كتب آيات الأحكام والتفاسير: عقوبة زوال الزوجيّة وممنوعيّة الزواج وعدم قبول توبة المرتدّ في حال اشتداد الكفر وتكرار الردّة...[٢]

١- الميزان، ج٥، ص١١٣

٢- التبيان، ج٣، ص٥٥٧ و٥٥٨

الآية ١٣٨

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. البشارة لغةً بمعنى ما يظهر أثرها على ملامح الوجه؛ سواء كانت لفرح أو حزن، وإن كان في هذا الأخير تستعمل مجازاً.

٢. استعمال كلمة البشارة في مورد العذاب الإلهي في هذه الآية وآيات أخرى بمثابة التحذير واعتبار مواقف وآراء وأفعال المذنبين أموراً تافهة خاوية، وهذا ما يشبه الاستعمال الشائع بين عوامّ الناس، حيث أنّ إحدهم إن فعل فعلاً سيّئاً وأُريد تهديده أو الاستهزاء به قيل: خذ جزاءك!

٣. وردت في آيات القرآن صور التخويف والتبشير معاً وبشكل متتالي، فتارة تورد البشرى ثمّ الإنذار، وأخرى ترد البشرى بعد الإنذار مثل قوله تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.[2]

٤. التعبير بالبشرى للعذاب نوع طعن وملامة أيضاً، وإلّا فهو في الحقيقة؛ التخويف دون البشرى.. وقول الآية ﴿ بَشِّرِ ﴾ بعذاب أليم هو تحكّم، بمعنى أنّهم كانوا ضالّين في الدنيا، ولكنّهم في نهاية المطاف عاجزون عن التمرّد على أوامر الله تعالى، ولذلك؛ يقعون في العذاب، وعليه؛ فإنّ الله يريد للناس أن ينتبهوا ويحذروا أكثر من أي وقت مضى، وليس أن ينسبوا التناقض إليه سبحانه وتعالى، وأنه يقول ما لا ينبغي، أي: البشارة والعذاب!!!

١- سورة البقرة / ٢١٣.

٢- سورة الأعراف / ١٨٨.

الآية ١٣٩

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (١٣٩)

مقدّمة

المنطق القرآني قائل بأنّ العزّة الواقعيّة والمطلقة متعلّقة بالله جلّ جلاله، وكذلك عائدة إلى من يقف في الصفّ الإلهيّ.. فبين الحقّ والباطل؛ بين الجبهة الإلهيّة والجبهة الشيطانيّة؛ إنّما العزّة من شأن الذين يصطفّون إلى جانب الربّ الجليل.. هذا هو منطق القرآن المجيد.. قال سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [1] وكذلك قال: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.[2] فالمنافقون لا يعلمون أين هي العزّة وما هو مركز العزّة الحقيقيّة. وفي سورة النساء نقرأ عن الذين يصلون أنفسهم بمراكز القدرة الشيطانيّة لينالوا شيئاً من القوّة والعزّة، قال تعالى: ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيعًا ﴾ وفي سورة الشعراء المباركة نطالع تقريراً عن المصاعب التي واجهها الأنبياء العظام. مثل نوح وإبراهيم وهود وصالح وشعيب وموسى على نبينا وآله وعليهم الصلاة والسلام حيث أبلغوا الأُمم المتعاقبة رسالات الله تعالى.. وفي كلّ مقطع من مقاطع التقرير القرآني هذا؛ أراد الله تعالى تأكيد غلبة جبهة النبوّة على جبهة الكفر، قال عزّ اسمه: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [3] ﴾ بمعنى أنّه مع كونهم كانوا الأكثرية وكانت القوّة والمال

١- سورة فاطر / ١٠.

٢- سورة المنافقون / ٨.

٣- سورة شعراء / ٨ و٩.

←

والسلاح بأيديهم، إلّا أنّ جبهة التوحيد هي التي انتصرت عليهم.. وفي هذا آية من آيات الله تعالى وهو العزيز الرحيم.. وبعد تكرار معنى هذا التقرير طيلة سورة الشعراء المباركة تراها تخاطب النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله في خاتمتها بالقول: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ[١] ﴾ فهو أهل لأن يكون الضامن لانتصار الحق وأهله على الباطل وأهله ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾[٢] فهو الحاضر الناظر ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[٣] ﴾ إذن؛ المنطق القرآني يدعو إلى طلب العزّة من الله وحده لا شريك له..

النقاط المستفادة من الآية

١. العزة في اللّغة العربيّة تعني القدرة والصلابة، وقد اعتبرت هذه الآية والآية العاشرة من سورة فاطر منحصرة في الله جلّ جلاله وفي الآيات محطّ البحث أضافت القول: ﴿ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ذلك لأن أولياء الله وأحباءه مغمورون بالعزّة الإلهيّة ومتوكّلون على قدرة الله العزيز..

٢. العزّة على الدوام مستلّة من العلم والقدرة، والذين لا قدره ولا علم لهم عاجزون عن فعل شيءٍ ليكون منشأً لعزّتهم.

٣. هذه الآية تحذّر المسلمين جميعاً أن لا يبحثوا. في جميع شؤون حياتهم الاقتصاديّة والثقافيّة والسياسيّة وغير ذلك. عن العزّة في موالاتهم لأعداء الإسلام، وإنّما عليهم التوكّل والاعتماد على الله سبحانه الذي هو مصدر كلّ العزّة، وغير الله من أعداء الإسلام لا عزّة لهم ولا يستطيعون إعطاءها غيرهم.. وحتّى لو كان لهم من العزّة شيء، فإنّهم غير جديرين بالاعتماد والثقة، ذلك لأنّهم متى ما اقتضت مصالحهم تصرّفوا وفق هذه المصالح وتركوا

١- سورة الشعراء / ٢١٧.

٢- سورة الشعراء / ٢١٨ و٢١٩.

٣- سورة الشعراء / ٢٢٠.

أقرب الناس إليهم واتّبعوا رغباتهم ومنافعهم وكأنّهم لم يعرفوهم من قبل، وهذا ما يشهد به التاريخ على مرّ العصور.

٤. لكلّ إنسان هدفه في اختيار رفيقه وخليله.. ولعلّه يهدف من صداقة أحدهم أن يشاركه العمل وكسب الرزق، أو أن ينتفع من عزّته بين الناس شيئاً.. والآن ينبغي أن نسأل الذين يستبدلون الرفقة مع المؤمنين بموالاة الكافرين؛ نسألهم عن غايتهم من ذلك... وهل أنّهم يريدون من ذلك تحقيق العزّة والكرامة حقاً من خلال موالاة الكافرين؟ ولكنّ هؤلاء الكافرين لا عزّة ولا حيثيّة ولا كرامة ربّانيّة لهم بما كفروا بربّهم وأنكروا فضله وحقّه عليهم، فهم عاجزون عن أن يعطوهم من العزّة شيئاً.. وعليه؛ فما الغاية من موالاتهم، والحال أنّ العزّة كلّها مخصوصة لله تعالى، ولأنّ العزّة تقوم على أساس العلم والقدرة، ومن كان قليل العلم والقدرة ليس له أن يكون منشأً للعزّة.. وقد أوصى لقمان الحكيم لدى تربيته ابنه بالانقطاع عن الدنيا وسؤال غير الله تعالى وكان يقول: يا بني! إن أردت العزّة كلّها، فاقطع أملك عمّا في أيدي الناس، ودع عنك الطمع وما بلغ بالأنبياء ما ترى إلا بما قطعوا من الطمع...[1]

٥. حيث كانت العزّة خاصّة بالله تعالى، فإنّ على طالبها أن يتخذ من الطاعة والعبوديّة لله مسلكاً.. وفي مقابل هذا، فإنّ معصية الله توجب ذلّة الإنسان في الدنيا والآخرة.

لقد كان من خبر بني إسرائيل أنّهم مع كلّ ما أنعم الله به عليهم؛ جحدوا وعبدوا العجل، فأنزل الله عليه عقاباً عظيماً لما عصوه، وأذاقهم طعم الذل في هذه الدنيا، وهذا ما صرّحت به الآية (٦١) من سورة البقرة.

٦. بملاحظة الآيات القرآنية الخاصّة بموضوع العزّة، يكون القول ممكناً بأنّ للقرآن نظرتين للعزّة: نظرة من الأسفل للأعلى، وطبقاً لذلك: تكون العزّة خاصّة بالله تعالى..

١- قصص الأنبياء عليهم السلام، الراوندي، ص١٩٥

ومن هنا؛ عدّ القرآن العزّة خاصّة بالله تعالى في ثلاث آيات متشابهة، وهي تبيّن أنّ من يطلبها؛ عليه أن يطلبها من الله، من ذلك قوله سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾،[١] فلا موجود عزيز بذاته، قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.[٢]

ونظرة أخرى من الأعلى إلى الأسفل. وفي رحابها تكون العزّة الإلهيّة شاملة لرسول الله(ص) والمعصومين عليهم السلام والأدنى منهم فالأدنى، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.[٣]

عوامل تحقّق عزّة النفس

١. إطاعة الله

كما أنّ أول مانع دون تحقّق عزّة النفس يكمن في الطغيان والتمرّد على إرادة الله تعالى، إذ أنّ من يتّصف بروح التمرّد لا يسعه الاتّصاف بالعزّة، وحيث يرى مثل هذا الفرد نفسه غنياً عن ربّه المتعال، ولا يشعر بكونه عبداً، فإنّه غير جدير بحضور مدرسة الكرامة الإلهيّة.. وهذا أوّل مانع يجب التخلص منه ودفعه..

يقول القرآن المجيد بهذا الصدد: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ﴾[٤] وهذا ما يوجب ذلّة الإنسان في الدنيا والآخرة..

٢. تقوى الله

التقوى غطاء يحفظ الإنسان من التلوّث، لأنّ التقوى بمعنى الحفظ والحصانة من كلّ ضرر قد يصيب الإنسان، وقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «من أراد أن يكون أعزّ الناس؛ فليتّقِ

١- سورة فاطر / ١٠.
٢- سورة الصافات / ٨١.
٣- سورة المنافقون / ٨.
٤- سورة العلق / ٦.

←

الله»[١] والتقوى تؤدّي إلى المجد وترشد الإنسان إلى الطريق وتصنع منه كائناً عظيماً متحرّراً من قيوده. وروي عن مولانا الإمام الصادق (ع): «ما نقل الله عزّوجلّ عبدا من ذلّ المعاصي إلى عزّ التقوى إلا أغناه من غير مال وأعزّه من غير عشيرة وآنسه من غير بشر».[٢]

٣. المنطق الصالح

ضمن جعله العزّة أمراً خاصّاً بالله سبحانه و الرسول والمؤمنين فإنّه يبين طريق الوصول إليها: ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا ﴾.[٣]

١- كنز الفوائد، ج١، ص٣٥١

٢- الكافي، ج٢، ص٧٦

٣- لعل ملاحظة تبدو ضرورة في البين؛ و هي أنّ كلمة (المؤمنين) هي صيغة جمع مذكّر سالم محلّى بالألف واللّام العهديتين، فلابد من القول بأنّهم جماعة محدّدة معرّفة لدى القائل و هو الله تعالى.. و الروايات و جملة ثقافة العترة الطاهرة طالما أكدت بأنّ المراد من المؤمنين في هذه الآية الكريمة هم المعصومون المطهّرون بعد خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وممّا يعضد هذا المراد أن سياق الآية يتناول موضوع الولاية واتّخاذ الولي و موضوع الإعراض عن الولي الحقيقي و التوجّه إلى غير من أمر الله سبحانه بولايتهم و البراءة من أعدائهم، و من هنا؟ كانت العزّة الأصليّة لله الذي كلّ العزّة للرسول و لآل بيته المعصومين صلوات الله عليهم، و هي العزّة التي تضمن الكرامة و الحقّ و السعادة في الدنيا و الآخرة [المترجم].

الآية ١٤٠

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

شأن نزول الآية

نقل عن ابن عباس في نزول هذه الآية أنّ جماعة من المنافقين كانوا يحضرون مجالس علماء اليهود، مجالس كان يستهزأ بها بالقرآن المجيد، فنزلت الآية أعلاه وبيّنت سوء عاقبة هذا السلوك..[١]

النقاط المستفادة من الآية

١. في الآية (٦٨) من سورة الأنعام، وهي من السور القرآنيّة المكّيّة ورد الأمر صريحاً للرسول الأكرم(ص) أن إذا شاهد مجلساً يستهزأ فيه بالآيات القرآنيّة أو يخاض فيه بالباطل، فعليه أن يعرض عن المشاركين في ذلك المجلس.. وقد جرى تأكيد هذا الأمر في هذه الآية الشريفة وتحذير المسلمين بأنّ القرآن قد أمرهم بأن إذا سمعوا من يكفر بآيات الله العظيم ويستهزئ بها؛ فلا يجلسوا إليهم حتّى يخوضوا في حديث غير حديثهم الكافر. ومعلوم أنّ هذا الحكم غير مختصّ بالنبيّ الأعظم(ص)، بل هو حكم عام خوطب به صاحب الرسالة، وفلسفته

١- مجمع البيان، ج٣، ص١٩٤

واضحة تماماً، وهو بمثابة مواجهة عمليّة لها بعدها السلبي إزاء هكذا ممارسات ضالّة..

٢. أنّ نتيجة الحضور والمشاركة في هكذا مجالس ومواقف أن يكون مصير غير الملتزمين بهذا الأمر والحكم من المسلمين مصير الكافرين المستهزئين ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾

٣. أنّ المشاركة في هكذا مجالس ومواقف بمنزلة الكفر والاستهزاء بالقرآن، وإن كان المسلم المشارك ساكتاً متفرّجاً، لأنّ هذا النوع من السكوت والتفرّج بمثابة الرضا والإقرار الفعلي.. ولو أنّ النهيّ عن المنكر لم يكن ممكناً، فعلى الأقلّ؛ لابدّ من أن يعمد المؤمن إلى المواجهة السلبيّة إزاء الكفر والاستهزاء بالحقّ والابتعاد عن بيئة المعصية ومجلسها وموقفها..

٤. الذين يشجعون العصاة بسكوتهم في هكذا مجالس ينالهم ذات العقاب الذي يستحقّه العصاة المستهزئون: ﴿ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾

٥. معايشة الكافرين تكون غير ممنوعة في حال لم يعمد إلى إهانة الآيات الإلهيّة، ولم يصدر عنهم خطر ما، لأن عبارة ﴿ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ تبيح المعايشة..

٦. مجاملة هكذا أفراد أمارة على روح النفاق في المجامل، لأنّ المسلم الواقعي يمتنع أبداً عن المشاركة في مجالس النفاق والاستهزاء بالآيات والأحكام الدينيّة وإهانتها. أو أن يصدر عن المسلم موقف الاعتراض.. أو أن يغادر المستهزئين للإعلان عن عدم رضاه عن سلوكهم المشين؛ على الأقلّ...

الآية ١٤١

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. كلمة (تربّص) بمعنى الانتظار والملاحظة والدقّة، وتأتي بمعنى الحبس أيضاً..

٢. هذه الآية والآيات التي تليها تفضح صفات ثقافيّة وأفكار المنافقين المضطربة..

٣. المنافقون هم الذين يطمحون دوماً إلى استغلال كلّ حادثة والانتفاء من ورائها، فتارة يكونون رفاق القافلة وتارة يصيرون رفاق اللّصوص وقطّاع الطريق، ويقضون أعمارهم في هذه التناقضات واللّعب على الحبال، بحيث إذا نال المسلمين نصراً؛ تظاهروا في الوقوف معهم ويقولون لهم: ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ ألم نساعدكم.. ألم يكن موقفنا معكم مؤثّراً في نصركم؟ وعليه يجب عليكم أن تشركونا في نجاحاتكم وغنائمكم المادّيّة والمعنويّة ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أمّا إذا كان النصر حليف الكافرين، سارعوا إلى التقرّب منهم وأعلنوا تأييدهم لهم وقالوا: نحن الذين شجّعناكم على مواجهة المسلمين ولم نسلّم لهم، وعليه؛ فإنّنا شركاء في نصركم، وهم لدى ذلك؛ يصرّون على كفرهم وتجسّسهم لصالح الكافرين تمهيداً لنصر جديد للكافرين: ﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾؟

٤. لكلِّ نفاق عاقبة ونهاية، ولابدّ أن يحلّ وتتكشّف فيه الخفايا وتزاح الأقنعة من وجوه المنافقين الكالحة.. وهو يوم القيامة حيث يقضي الله فيه على رؤوس الأشهاد، علماً أنّه سبحانه وتعالى لن يجعل للكافرين سلطة على المؤمنين: ﴿ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾.

٥. هذه الآية سمّت نصر المسلمين فتحاً، بينما سمّت نصر المشركين نصيباً، وفي هذا إشارة إلى أنّه إنّ كان النصر حليف الكافرين ونصيبهم؛ فإنّه محدود ومؤقّت ومتزلزل، فيما الفتح والنصر النهائي سيكون إلى جانب المؤمنين.

٦. سؤال:

هل الغاية من عبارة: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ عدم النصر للكافرين على المؤمنين من حيث المنطق، أم أنّه يشمل الناحية العسكرية وأمثالها؟

ينبغي القول لدى الإجابة:

حيث أنّ كلمة (سبيل) من قبيل أنّ النكرة في سياق النفي تدلّ على العموم، فيفهم من هذه الآية أنّ الكفّار لن يتفوّقوا على المؤمنين؛ لا من الناحية المنطقيّة، ولا من الحيثيّة العسكريّة والسياسيّة والثقافيّة والاقتصاديّة وغير ذلك..

وحيث يمكن الاستشكال على هذه الإجابة؛ فيقال: ولماذا نشاهد انتصارات الكافرين على المسلمين في ميادين الحرب والمواجهات والنزاعات السياسيّة والاقتصاديّة وغيرها؟

الإجابة على هذا السؤال والإشكال تكمن في القول:

إذا كنّا نشاهد انتصارات الكافرين على المسلمين في شتّى الميادين، فذلك لأنّ كثيراً من المسلمين هم مسلمون في ظاهرهم؛ فضلاً عن أنّهم غير مؤمنين في واقعهم، وقد غفلوا أو تغافلوا عن مقتضيات الإيمان ولم يعودوا يعرفون ولا يتحمّلون مسؤوليّاتهم الرساليّة.. فلا خبر عن أخوّتهم ولا وحدتهم ولا جهادهم الحقيقي ولا علمهم وثقافتهم المطلوبة بهذا الصدد.

٧. استدلّ جماعة من الفقهاء ـ في شتّى المسائل ـ بهذه الآية الشريفة للقول بعدم تسلّط

الكفار على المؤمنين من الزاوية الحقوقيّة، والنظر إلى العموميّة في هذه الآية؛ فإنّ هذا الشمول ليس بعيداً عن الأذهان...

الآية ١٤٢

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٤٢)

النقاط المستفادة من الآية

أوردت هذه الآية أربع صفات أخرى من صفات المنافقين في كلمات موجزة:

١. حرف الواو في كلمة ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ واو حاليّة، ويفهم منها أنّ المنافقين يريدون خديعة الله سبحانه وتعالى، والحال أنّه خادعهم..

٢. لتحقيقهم الأهداف المشؤومة، تراه يدخلون من طريق المخادعة، بل ويريدون أن يخدعوا الله عزّوجلّ أيضاً، والحال أنّهم راكسون وواقعون في الخديعة منذ لحظتهم الأولى، ذلك لأنّهم يهدرون نعمة وجودهم لنيل ربح بسيط ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾.

٣.إنّهم بعيدون عن ربّهم ولا يلتذون بمناجاته، ولهذا السبب؛ إذا قاموا إلى الصلاة والعبادة، قاموا كسالى، أي: غارقون في الكسل: ﴿ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى ﴾.

٤. لأنّهم لا يؤمنون بالله ولا بوعوده العظيمة؛ تراهم يراؤون إذا عبدوا أو عملوا عملاً صالحاً، فلا يتقرّبون بشيء إلى ربّهم المتعال ﴿ يُرَآؤُونَ النَّاسَ ﴾.

٥. هؤلاء إذا ذكروا الله، ذكروه بأفواههم دون قلوبهم وعقولهم وضمائرهم، بل ولا يذكرونه إلّا قليلاً ﴿ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾.

الآية ١٤٣

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. ينبغي الالتفات إلى أنّ كلمة (مذبذب) اسم مفعول من مادّة (ذبذب)، وفي اللّغة بمعنى الصوت المخصوص الصادر عن حركة الشيء المعلّق، فإذا اصطدم بذبذبات الهواء سُمع.. كما تقال للأجسام المتحرّكة والأشخاص التائهين والمتحيّرين المفتقرين للخطة والمنهج..

٢. أشير في هذه الآية إلى صفة أخرى من صفات المنافقين باعتبارهم أشخاصاً متحيّرين لا هدف لهم وليس لديهم منهج ومسار محدّد، وهم لا إلى صفّ المؤمنين ولا إلى صفّ الكافرين ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء ﴾.

٣. كلمة (مذبذب) أحد ألطف الاستعمالات اللّفظية التي أوردها القرآن بخصوص المنافقين، وهي في الحقيقة إشارة ضمنيّة إلى هذا المطلب القائل بأنّ التعرّف إلى الفرد المنافق يتم بالالتفات إلى تذبذبه الممزوج بإيقاع مخصوص، كما تفهم هذه الحقيقة من خلال هذا التعبير؛ فكأنّ المنافق جسم معلّق فاقد للتوجّه إلى ناحية ما بذاته، وإنّما الدوافع والأهواء هي التي تذهب به إلى هذه الناحية أو تلك؛ فتستدير به إلى حيث تتّجه..

٤. المنافقون وبسبب نفاقهم وأعمالهم سقطوا إلى حيث لا يهديهم الله ولا يدافع عنهم، بل ويبقيهم على ضلالتهم، وإن من يضلّه الله لن يجد طريقاً للخلاص والنجاة: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾.

الآية ١٤٤

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. الولاء والبراءة من أهمّ الأصول الثابتة في الإسلام، بمعنى تولّي الله تعالى وحبّه وإطاعته وتولّي الرسول وحبّه وإطاعته وتولّي المؤمنين [المعصومون] وحبّهم وإطاعتهم، وحبّ المؤمنين عموماً، والبراءة من الكفر والكافرين وممّن هم على شاكلتهم.

٢. علاقة المحبّة بين المؤمنين يجب أن تكون إلى الحدّ الذي تستوجه علاقة أعضاء الجسد الواحد فيما بينها.. والولاء المنفي والسلبي في الإسلام هو عبارة عن أنّ المسلم المؤمن يجب أن يعتبر نفسه في مواجهة دائمة مع غير المسلم المؤمن وأنّه ينازع جسماً غريباً عن الكيان المسلم المؤمن.. ومعنى هذا أن يتجرّد عن ولاء غير المؤمن.. ومن هنا؛ لا يصحّ أن تكون علاقة المؤمنين بغيرهم كما هي علاقة المؤمنين بالمؤمنين، بمعنى أن يكون المؤمن عضواً في الكيان غير المؤمن، أو أن تكون عضويته في الجسد الإيماني غير ذات أهميّة وتأثير في عمليّة الصراع والمواجهة.

٣. لا منافاة بين أن يحسن المسلم المؤمن إلى غير المسلم المؤمن، وهو في الوقت نفسه لا يواليه؛ أي لا يعدّه عضواً من كيانه أو جزءاً من هذا الكيان، أو أن يعامله معاملة الأجنبي الغريب عنه.. كما أنّه لا منافاة بين الولاء السلبي وبين أصل المحبّة الإنسانيّة والتراهم..

٤. ليكون الإنسان إنساناً؛ يلزمه أن يحبّ أقرانه من البشر حيث يهتم كلّ الاهتمام بمصير

وصلاح وسعادة جميع الناس. أمّا لو افترضنا أنّ فريقاً من الناس أصيبوا بمرض ما، وكان حبّ الانسانيّة يوجب إنقاذهم.. وماداموا لم ينجوا، فإنّ حبّ الإنسانية يقتضي الإحسان لهم، ولكنّ حبّ الإنسانية هذا لا يوجب أن يكون الاتصال بينهم (لا سيّما إن كان مرض هؤلاء مرضاً خطيراً معدياً) وبين الأفراد السالمين المعافين، ومن هنا حيث أجاز الإسلام الإحسان إلى غير المسلم من جهة، ومن جهة أخرى لم يجز أن يوالي المسلم المؤمن غيره..

٥. رغم أنّ القرآن المجيد منع المسلمين بشدّة عن أن يوالوا غيرهم، ولكن هذه الممنوعيّة لا تقتضي اعتبار العلاقات الإنسانية أمراً سيّئاً في كل الأحوال أو كونها مخالفة للإحسان إلى غير المسلم. لأنّ القرآن يصرّح في موضع آخر بالقول: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾،[1] ولهذا؛ لم يقل الإسلام بأن تنحصر أعمال الإحسان بين المسلمين فحسب، وأن لا ينال خيركم غيركم، وكيف يكون الإسلام كذلك فيما نبيّه صلوات الله عليه وآله هو الرحمة المهداة للعالمين؟!

٦. المسلم يجب أن يعي دوماً أنّه عضو في المجتمع المسلم وأنّه جزء من كلّ، وجزء الكلّ وعضو البدن؛ شاء أم لم يشأ؛ قد تضطره الظروف والأحوال إلى خلق علاقة مع جزء وعضو من جسم آخر، وعضو الجسم المسلم يجب أن تكون علاقته بعضو الجسم غير المسلم ليس كما هي العلاقة مع أعضاء الجسم المسلم أو تعارضها على الأقلّ، بمعنى لزوم أن لا تؤدي علاقة المسلم بغير المسلم إلى الإضرار بالكيان المسلم، وعليه، فإنّه لا يمكن المساواة في العلاقة بين المسلمين المؤمنين وبين المسلمين المؤمنين مع غيرهم، أو أن تكون هذه العلاقة الأخيرة أمتن وأعمق من العلاقة الأولى...

٧. قبول ولاية ووصاية الكفار جريمة واضحة مخالفة للقانون، وهي نوع شرك بالله العظيم،

١- سورة الممتحنة / ٨.

وطبقاً لقانون العدالة الإلهيّة؛ فإنّها تستوجب العقاب الشديد، ولذلك؛ رأينا الآية أعلاه تتابع قائلة: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ وهو الحجة البالغة في الإعراض عنكم وتعريضكم للعذاب الشديد؟..

الآية ١٤٥

إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ
فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. ﴿ الدَّرْكِ ﴾ هو أعمق نقطة بحريّة، كما يعبّر بهذه الكلمة عن المطلب العميق الذي يُفهم.. والدرك هو السلم الذي ينظر لدرجاته من أعلى إلى أسفل، ويقال لدرجات السلّم درجة إذا أريد بها التوالي صعوداً، وكما أنّ للجنّة درجات، فإن لجهنّم دركات.. ثمّ إنّ منزلة المنافقين في النار أسفل من موقع الكفّار فيها ﴿ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ ﴾ والنار مراتب ﴿ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ ﴾ ولا نجاة للمنافقين من النار ﴿ لَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ ولا شفاعة للمنافقين في القيامة ﴿ لَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾.

٢. يفهم من هذه الآية أن النفاق ـ من وجهة النظر الإسلاميّة ـ أسوأ أنواع الكفر، وأنّ أبعد الناس عن الله تعالى هم المنافقون، ولهذا كانت منزلتهم أسوأ وأقبح موضع في النار.. وهكذا ينبغي أن يكون. لأنّ الخطر القادم من المنافقين تجاه المجتمعات الإنسانيّة لا يقاس بخطر آخر: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾.

٣. المنافقون ـ وباستغلال الحصانة التي يوفّرها لهم التظاهر بالإسلام ـ يهاجمون الأفراد المجرّدين عن وسائل الدفاع بحرّيّة وجبن، فيطعنونهم بخنجر الغدر.. وعداؤهم هذا يظهرونه بمظهر الودّ والصداقة، وهم بذلك يتفاوتون عن صراحة عداء الكافرين للدين وأهله، فهم أسوأ درجة من هؤلاء المتجاهرين العداء.. وفي الحقيقة؛ إنّ النفاق منهج الأفراد عديمي الشخصية والملوّثين الجبناء..

٤. المنافقون؛ ولأنّهم يتهافتون في مسا ر السقوط والحقارة، وحيث يتظاهرون بكونهم من المسلمين وينتفعون من مزاياه وخصوصيّاته، إلّا أنّهم في باطنهم يوالون الكافرين ويتّبعونهم ويتمنّون نصرهم.. ولكنّ الله تعالى سرعان ما يحاسبهم فيحشرهم في أسفل مواضع النا رحيث لا يجد ون ناصراً ينصرهم ويخلّصهم من العذاب، كما أنّ ظاهر إسلامهم في الدنيا قد ينقذهم من عاقبة الكفر في الدنيا ولكنّهم في الآخرة لا أمل لهم في النجاة...

الآية ١٤٦

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. في هذه الآية الشريفة ولبيان أنّ الأفراد الملوّثين من المنافقين لهم إذا ما تابوا وأصلحوا أعمالهم وقلوبهم؛ أن يحظوا بلطف الله ورحمته بعد أن يتمسّكوا بالدين والإيمان ويخلصوا لله سبحانه ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ ﴾.

٢. قوله سبحانه في آخر الآية ﴿ ... فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بعد توبتهم وإصلاحهم واعتصامهم بالله وإخلاص دينهم لله.. إشارة إلى أنّ مقام المؤمنين الثابتين أعلى مقاماً ومنزلة من هؤلاء التائبين، فهم الأصل وهؤلاء فرع، والفرع يستلهم نوره وصفاته من الأصل..

٣. موضوع آخر يجب الالتفات إليه؛ هو أنّ مصير المنافقين واضح حيث أسفل دركات النار، في حين أنّ المؤمنين لهم أجر عظيم حيث لا حدّ ولا إحصاء له؛ إذ هو متعلّق بلطف الربّ المتعال..

٤. التوبة لغةً بمعنى الرجوع والعود عن الذنب.. وهو في الحقيقة وفي تعريف المتشرّعة عبارة عن الرجوع عن الطبيعة [الحيوانيّة] إلى حيث روحانيّة النفس بعد أن لوّثتها المعصية والتمرّد على الإرادة الربوبيّة.. فيرجع بذلك إلى نور الفطرة والروحانيّة التي كانت الظلمة قد حجبتها... وقد عرّفت التوبة في الكتاب المجيد على أنّها رجوع الإنسان المذنب، كما وردت بمعنى إعطاء التوفيق من جهة الله إلى عبده العاصي، كما ورد قبول التوبة من جهة الله تبارك

وتعالى.. وبالنتيجة؛ يمكن القول: إن كل توبة تصدر عن الإنسان محفوفة بتوبتين إلهيتين:

الف: إعطاء التوفيق للعبد ليتوب ويعود إلى التوّاب الرحيم.

ب: قبول توبة العباد.

الآية ١٤٧

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. تشير هذه الآية الشريفة إلى حقيقة مهمّة؛ وهي أنّ العذاب الإلهيّ الأليم لا يكون لأنّه عزّوجلّ يريد تعذيب عباده والانتقام منهم لإظهار قدرته عليهم، وأنّ المعصية الصادرة عن العاصين تلحق به سبحانه ضرراً؛ فيجبره بتعذيبهم، لأنّ ذلك كله يستلزم النقص، والذات الإلهيّة المقدّسة مبرّاة من هذا النقص... وإنّما العقاب الإلهي للعصاة ما هو إلا صدىً لنتائج سوء عقيدة العاصي وعمله السيّئ، ولذا قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾؟.

٢. بالنظر إلى أنّ حقيقة الشكر: استثمار كلّ نعمة في السياق الذي خلقت وجعلت من أجله، فإنّ من الواضح أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ واستفدتم من المواهب الإلهيّة بما هو مناسب وجدير بها ولم تسيئوا استثمارها، فلا ريب في أنكم لن تنالكم أدنى عقوبة، لأنّ حقيقة الشكر هي استثمار النعمة في سياقها المطلوب والمنظور الذي رسم لها..

٣. سؤال: لماذا جعل الشكر مقدّماً على الإيمان؟!

يمكن القول للإجابة على السؤال أعلاه: إنّ علّة تقدّم الشكر على الإيمان؛ باعتبار أنّ الإنسان المنعَم عليه ما لم يعرف النعم والمواهب ولم يبلغ مقام الشكر، فإنّه يعجز عن معرفة المنعِم عليه، إذ النعم وسيلة لمعرفة المنعِم. وقد ورد في الكتب العقائديّة الإسلاميّة وفي بحوث لزوم معرفة الله تعالى (وجوب معرفة الله) استدلال جمع من المحقّقين بطريق وجوب

شكر المنعِم، وعلى أنّ مسألة الوجوب الفطري في الشكر على النعمة تمثّل قسيماً للزوم معرفة الله تعالى.

٤. قوله سبحانه: ﴿ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ يؤيّد ويؤكّد القول بأنّ الله تعالى عليم مطّلع . على الإطلاق . على أعمال العباد ونواياهم وعقائدهم، وكذلك هو شاكر لأعمالهم الصالحة ومجزٍ عليها..

الآية ١٤٨

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. في هاتين الآيتين إشارة إلى قسم من التعاليم الأخلاقيّة في الإسلام، إذ يقول سبحانه: ﴿ لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾

٢. كما أنّ الربّ المتعال ستّار العيوب؛ فهو لا يحبّ للناس هتك أستار بعضهم بعضاً ليذهب بعضهم بكرامة بعض: ﴿ لاَّ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ ﴾.

٣. من الطبيعي أن يكون لكلّ إنسان نقاط ضعف خفيّة، فإنّ تقرر إظهار وإشهار نقاط الضعف هذه؛ فلا ريب في أنّ حالة سوء الظنّ ستتفشّى في الوسط الاجتماعي بشكل عجيب، وسيصعب التعامل فيما بينهم، وعليه؛ فإنّه توطيداً للعلاقات الاجتماعيّة؛ ورعايةً للجانب الإنساني؛ وجب الالتزام بقاعدة الستر إلّا إن تضمّن ذلك تحقيق هدف صحيح.

٤. ينبغي الالتفات إلى أنّ المراد من كلمة ﴿ السُّوَءِ ﴾ هو كلّ سوء وقبح، وأنّ المراد من كلمة ﴿ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ إظهار لفظيّ، سواء كان ذلك على سبيل الشكوى أو الحكاية أو اللّعن أو الذمّ أو الغيبة.. ومن هنا؛ كانت هذه الآية من جملة الآيات التي يستدلّ بها على تحريم الغيبة، مع أنّ مفهومها غير منحصر بالغيبة، وإنّما تشمل أنواع بذاءة القول وإساءة اللّفظ..

٥. قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَن ظُلِمَ ﴾ مبرّر شرعيّ للمظلومين في مواجهة ظلم الظالمين والدفاع عن أنفسهم، إذ لهم الحقّ في التشكّي أو أن يظهروا الذمّ والنقد والغيبة للظالم وممارساتهم، إلى الحدّ الذي ينالون حقّهم ويدفعون الظلم اللّاحق بهم..

٦. في الحقيقة؛ إنّ الهدف من هذا الاستثناء والسماح للمظلوم بالتعبير عن مظلوميّته، هو الحيلولة دون تمادي الظالمين في ظلمهم.. ولا ريب أن هذا الحكم الأخلاقي محدود فيما يتعلق بظلم الظالم؛ دون بقيّة تفاصيل حياته الأخرى البعيدة عن الظلم والممارسات غير الأخلاقيّة..

٧. العبارة القرآنيّة: ﴿ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ تحذير للمظلومين لئلّا يعمدوا إلى تجاوز الحدود فيستغلوا القانون الذي أباح لهم الشكوى والذمّ، ويعمدوا إلى إشهار معايب الناس دون مبرّر شرعي تحت طائلة الظلم الذي لحق بهم ﴿ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾.

٨. بالالتفات إلى أهمّيّة حرمة الغيبة، قد أصدر القرآن في هذه الآيات مجموعة أحكام مؤكّدة بهذا الصدد:

أ: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾.[1]

ب: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾.[2]

ج: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾.[3]

د: ﴿ لَّا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾.[4]

١- سورة الحجرات / ١٢.

٢- سورة الهمزة / ١.

٣- سورة النور / ١٩.

٤- الآية مورد البحث و التفسير.

الآية ١٤٩

إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

النقاط المستفادة من الآية

ترد الإشارة هنا إلى النقطة المقابلة لما سبق، وهو أنّ إظهار إيجابيّات الأشخاص أو إخفاءها، لا مانع منه (خلافاً للسوء الذي يجب كتمانه إلّا في الموارد الاستثنائيّة) وكذلك اتخاذ مسلك العفو؛ فهو أفضل خياراً، ذلك لأنّ هذا الفعل في حقيقته فعل الإلهي، إذ مع القدرة على كلّ شكل من أشكال الانتقام، إلّا أنّه سبحانه يعفو عن عباده الجديرين بالعفو..

﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْتُخْفُوهُ أَوْتَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾

في الحقيقة؛ إنّ الآية الثانية تقع مقابل الآية الأولى من جهتين:

الأولى: الجهر بالسوء إزاء المساوئ ثمّ العفو لمن صدر عنهم الظلم.. ولكن! أليس العفو عن الظالم يوجب تقويته ودعمه؟!

وهنا يرد السؤال القائل: أليس العفو والصفح عن الظالم في حقيقته يوجب إقرار الظلم؟ أوَ ليس العفو مشجعاً للظالمين على ظلمهم؟ ثمّ أليس هذا الأمر نوع ردّ فعل سلبيّ وتحذيريّ للمظلومين؟

جواب السؤال هو: أنّ العفو والصفح لا علاقة له بضرورة إحقاق الحقّ ومواجهة الظلم، وبهذا السبب ورد القول والأمر في التعاليم الإسلاميّة (من جهة): (لا تظلِمون ولا تُظلَمون) والقول: «كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً» وقوله تعالى بهذا الصدد: ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ﴾ و(من جهة أخرى) يرد الأمر بالعفو والصفح كما قال تعالى: ﴿ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ

لِلتَّقْوَى ﴾

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ﴾

رغم أنّه من الممكن أن يرى بعض قليلي العلم تضادّاً بين هذين الحكمين بدءاً. ولكن مع الأخذ بنظر الاعتبار إلى أنّ ما ورد في المصادر الإسلاميّة يوضح أنّ للعفو والصفح مقاماً محدّداً، لئلّا يساء استغلاله، فيما المواجهة مع الظالمين ورفض الظلم له مقام آخر وحديث مغاير..

وإنّ العفو والصفح مختصّ في القدرة والنصر على الأعداء وإلحاق الهزيمة التامّة بهم، بمعنى أن لا يستشعر الخطر والتهديد الجديد من ناحيتهم، وإنّما العفو يكون بمثابة نوع إصلاح وتربية للأعداء، ودعوتهم إلى تغيير مواقفهم المعادية؛ كما حدث ذلك في التاريخ الإسلامي حيث يصادفنا هكذا أفراد، وشاهد هذا المدّعى ما ورد في الحديث المعروف: «إذا قدرت على عدوّك؛ فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه».[1]

أمّا مع استمرار خطر الأعداء واحتمال عودتهم وإمكانيّة أن يدفعهم العفو إلى مزيد من الجسارة والاستعداد، أو أن يعدّ الصفح عنهم نوع استسلام ورضاً بالظلم، فإنّ الإسلام لا يجيز مثل هذا الصفح أبداً، ولم يعمد قادة الإسلام في هكذا موارد إلى اختيار جانب العفو والصفح أبداً...

١- نهج البلاغة، ص٤٧٠

الآية ١٥٠

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾

في هذه الآيات جرى وصف حال جمع من الكافرين والمؤمنين ومصيرهم، وإنّ الآيات السالفة التي اختصّت بالمنافقين كانت أكملت هذا المطلب.

وفي الحقيقة؛ إنّ هذه الجملة تشير إلى حال اليهود والنصارى، إذ اليهود لم يقبلوا عيسى الرسول(ع)، والاثنان معاً لم يقبلوا خاتم الأنبياء(ص)، والحال أنّهم قد ثبتت لهم نبوّة هذين النبيّين من الكتب السماويّة وهذا التمييز في قول الحقائق الصادر عن الأهواء النفسيّة والتطرّف الجاهل، وعن الحسد في أحيان أخرى وعن ضيق النظر.. وهو أمارة الكفر بالأنبياء وبالله تعالى، ذلك لأنّ الإيمان لا يكون طبقاً لرغبة الإنسان؛ فيرفض ما لا يتّفق وهواه، وإنّما الكفر نوع عبادة للهوى، فيما الإيمان يمكن في قبول الحقائق؛ سواء طابقت ميوله أو لهم تطابق.

ثمّ الآيات التالية؛ ستشير إلى المؤمنين بالله والرسل ولا يفرّقون بينهم... وبموقفهم الإيجابي الناضج هذا يؤكّدون تسليمهم وإخلاصهم للحقّ ومواجهتهم للجهل والتطرّف، وهنالك يؤتيهم الله أجرهم.. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.[1]

١- سورة النساء / ١٥٢.

الآية ١٥١

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾

النقاط المستفادة من الآية

الذين كفروا بالله وبأنبيائه وأرادوا ولا زالوا التفرقة بين الله تعالى والأنبياء وأعلنوا إيمانهم ببعض النبيين دون البعض الآخر، وظنّوا أنّهم بذلك يختطّون لأنفسهم طريقاً خاصاً بهم.. هؤلاء هم الكافرون حقّاً..

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً* أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾.. ولذلك؛ نجد القرآن في الآيات أعلاه يعدّ هؤلاء الأشخاص كافرين تمام الكفر؛ مع أنّهم يدّعون الإيمان بالله وببعض الأنبياء، ويقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ﴾ ممّا يعني انعدام إيمانهم انعداماً كلّيّاً ولا قيمة له بالمرّة، لأنّه لا ينبع من معين البحث عن الواقع.. وفي خاتمة الآية؛ يهدّدهم القرآن بالقول: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

وصف العذاب الإلهي هذا بالمهين؛ يمكن أن يكون من جهة رغبتهم في التفرقة بين أنبياء الله، وهذا لعمري إهانة للأنبياء؛ فلا بدّ من تلقّيهم العذاب المناسب..

إيضاح: تارة يكون العقاب أليماً ﴿ عذاب أليم ﴾ مثل الجلد والأذى البدني. وتارة يكون مهيناً ﴿ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ مثل قذف القاذورات على بدن وملابس أحدهم أو أن يصرخ في وجهه. وقد يكون عظيماً ﴿ عذاب عظيم ﴾ مثل المعاقبة في محضر الناس، وتارة يكون ذا أثر في عمق وجود الفرد المعذَّب ويبقى إلى مدّة مديدة. وقد يكون ﴿ عذاب شديد ﴾ مثل الحبس لمدّة

طويلة مع فرض الأعمال الشاقّة، وأمثال ذلك..

ومعلوم إنّ وصف العذاب بأحد هذه الأوصاف للتناسب بينه وبين الذنب الذي يستوجب العذاب، ولذا؛ فقد ورد في الكثير من الآيات القرآنيّة أنّ عذاب الظالمين عذاب أليم، لأنّه يتناسب وألم الظلم الذي يوقعونه بحقّ عباد الله الأبرياء. ومن كانت جريرتهم الأهانة أو الذين تكون ذنوبهم شديدة الوقع، لهم عقابهم المناسب لجريرتهم وذنبهم.. وعلى أي حال؛ فإنّ ذكر الأمثلة أعلاه كان بغرض تقريب الفكرة والمطلب إلى الأذهان، وإلّا فإن عقوبات عالم الآخرة غير قابلة للقياس مع عقوبات عالمنا الدنيويّ..

الآية ١٥٢

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

النقاط المستفادة من الآية

لا ريب في أنّ الإيمان بالأنبياء والاعتراف بمقاماتهم لا يتنافى والقول بأفضليّة بعضهم على بعض، ذلك لأنّ التفاوت بينهم كالتفاوت في طبيعة مهامّهم، والمراد بذلك أن لا نفرّق بين الأنبياء بلحاظ الإيمان بهم.

جدير ذكره؛ أن الآيات أعلاه قد عدّت القائل بالتفريق بين الأنبياء كافراً حقيقيّاً، ولكنّ الآيات ذاتها لم تعدّ المؤمنين بجميع الأنبياء مؤمنين حقيقيّين، وإنّما وصفتهم بكونهم مؤمنين فحسب.. ولعلّ هذا التفاوت ناتج عن أنّ المؤمنين الحقيقيّين هم الصالحون النزيهون؛ مضافاً إلى إيمانهم بجميع الأنبياء أيضاً.. وشاهد هذا المدّعى الآيات الواردة في مطلع سورة الأنفال حيث وصفت (المؤمنين حقّاً) بأنّهم المؤمنون بالله والقائمون بجملة أعمال صالحة، مثل التزامهم بالصلاة والزكاة والتوكّل على الله ومن يمتازون بالنمو والرشاد الأخلاقي والاجتماعي وغير ذلك: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ... أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾.[1]

وفي منتهى الآية مورد البحث والتفسير وقعت الإشارة إلى أنّ هذا الفريق من المؤمنين إن كانوا قد ارتكبوا موبقة العنصريّة والتفرقة وذنوباً أخرى، فإن كان إيمانهم إيماناً خالصاً وعادوا إلى ربّهم بإخلاص؛ فإنّ الله تبارك وتعالى سيعفو عنهم ويغفر ذنوبهم ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

١- سورة الأنفال / ٢ ـ ٤.

الآية ١٥٣

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾

شأن نزول الآية

جاء في تفسير(مجمع البيان) و(أسباب نزول القرآن) في شأن نزول هذه الآية وما بعدها أنّ جماعة من اليهود جاؤوا رسول الله(ص) وقالوا: إن كنت نبيّاً من الله حقّاً؛ فاعرض علينا كتابك السماوي دفعةً واحدة، كما جاءنا موسى بالتوراة دفعة واحدة، فنزلت هذه الآيات وأجابتهم على مطلبهم..[١]

النقاط المستفادة من الآية

١. لا شكّ في أنّ هؤلاء اليهود لم يكونوا ذوي نوايا حسنة، ذلك لأنّ الغاية من نزول الكتب السماويّة؛ الإرشاد والتربية والهداية، وقد يحدث أن تتحقق الغاية المذكورة بإنزال الكتب السماويّة دفعة واحدة؛ وقد يكون ذلك بالتدريج.. وعلى هذا؛ لزم هؤلاء اليهود أن يطلبوا من النبي الخاتم(ص) الدليل والتعاليم السامية، لا أن يطالبوا أو يعيّنوا كيفيّة نزول الكتاب

١- مجمع البيان، ج٣، ص٢٠٥ وأسباب نزول القرآن، ص٣٧

السماوي (القرآن) ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء ﴾ ناهيك عن أنّ الرسول ليس هو الجهة المنزلِة للكتاب، وإنّما هو الله عزّ اسمه.

٢. تبعاً لهذا الطلب المغرض من اليهود، فقد بيّن الله تعالى عدم حسن نيّتهم، وضمن مواساته لنبيّه الحبيب صلوات الله عليه وآله؛ استعرض القرآن المجيد شيئاً من تاريخ العناد وثقافة اليهود التبريريّة إزاء نبيّهم الجليل موسى بن عمران(ع) ﴿ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللهِ جَهْرَةً ﴾

٣. الطلب العجيب وغير المنطقي لقوم موسى(ع) يفضح عقيدتهم الوثنيّة وتصوّرهم لله عزّوجلّ جسماً محدوداً.. ولا شكّ أنّ ذلك نابع من عنادهم ولجاجتهم، ممّا تسبّب في نزول الصاعقة عليهم بظلمهم ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾

٤. إحدى الممارسات القبيحة الأخرى لليهود وبعد معاينتهم لكلّ تلكم المعجزات والدلائل الواضحة والشهيرة من النبي موسى(ع).. أنّهم اختاروا لأنفسهم عبادة العجل أثناء غيبة موسى(ع) التي لم تستغرق أكثر من أربعين يوماً ﴿ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾.

٥. الله الغفور الرحيم؛ ومع كلّ هذا الطغيان والعناد والتمرّد الإسرائيلي؛ عفا عنهم؛ لعلّهم يكفّون عن سلوكهم الجاهليّ المشين ﴿ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ ﴾

٦. الله تعالى ينصر رسله وأنبياءه في الشدائد ليتغلّبوا على أعدائهم أعداء الله.. ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾

الآية ١٥٤

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. سؤال: ما هو المراد من رفع الطور فوق رؤوس بني إسرائيل؟

بالنظر إلى قدرة الله الأزليّه اللامتناهية التي خلقت مليارات النجوم والمجرّات وبمسافات فضائيّة دقيقة جدّاً، لا يستحيل عليها فعل وإيقاع الحادثة التي تحدّث عنها القرآن الكريم في هذه الآية. بل لا يستحيل عقلاً ولا علماً ولا تثير عجباً إذا ما نسبت لله القادر على كلّ شيءٍ، و قد أورد كتاب الله المجيد عبارة ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ ﴾ مراراً في آياته بخصوص بني إسرائيل وقوم موسى(ع). وهذه الآيات تشترك في إشارتها إلى واقعة تاريخيّة حدثت بسبب عصيان اليهود لتعاليم الله تعالى في حقبة موسى(ع)؛ حيث رفع الله الطور فوق رؤوسهم.. وعليه؛ فإنّ هذه الآية تحدّثت عن شيء من العظمة والقدرة الإلهيّة فيما يتعلّق بمعاقبة الكافرين المتمرّدين على إرادة الله وتعاليم الأنبياء..

نعم؛ يمكن أن تكون واقعة العقاب هذه خارقة للعادة من النظر العاديّة والطبيعيّة، ولكن ينبغي القول إنّ هذه الحادثة شأنها شأن معاجز الأنبياء الأخرى (كإحياء الموتى من قبل النبي عيسى(ع)، أو إخراج الناقة من داخل الجبل من قبل النبيّ صالح(ع) أو بحضوره و...) إذ هذه المعاجز ونظائرها تعدّ منجزات خارقة للعادة، ولكنّ إرادة الله وإذنه قد تجلّيا أمام أعين الناس..

٢. ذهب بعض المفسّرين في وصف كيفيّة رفع جبل الطور واستقراره فوق رؤوس اليهود إلى

أنّ الجبل قد انقلع من موضعه بإرادة الله تعالى حتّى صا ركمظلّة لهم.. وفيما يتعلّق بجزئيّات هذه الواقعة ثَمّ احتمالات قيلت، وهي تؤدّي إلى تعرّض الجبل لزلزال شديد، فاهتزّ أيّما اهتزاز، وقد كان بنو إسرائيل أسفل منه فشاهدوه حتّى أظلّهم من فوقهم، وظنّوا أنّه متساقط عليهم، إلّا أنّ اللّطف الإلهيّ هدّأ زلزلة الجبل حتّى عاد إلى موضعه الأوّل.. كما ورد الاحتمال الآخر الحاكي بأن قطعاً عظيمة من الجبل قد انفصلت عنه بفعل الزلزلة والصاعقة الشديدة حتّى مرّت فوق رؤوس بني إسرائيل فرأوها للحظات رأي العين وظنّوا أنّها ساقطة عليهم.[١]

٣. يبدو من الوصف والتوجيه المذكور أنّه كان يهدف إقناع المخاطبين بأنّ هذه المعجزة الإلهيّة لم تكن بالأمر العجيب وأنّها تتناسب وتتناغم والعقل البشري. ونحن نؤمن بأنّ كلّ موضوع غير محال عقليّاً؛ دون الحاجة إلى توجيه وتبرير في مجال القدرة والإرادة الإلهيّة.. وأنّه لدى وصف جزئيات وتفاصيل معجزة ما، ينبغي الاستناد إلى المرويّ من الحقّ والعودة إلى الموازين العقليّة المسلّم بها فحسب.

٤. حيث استولى الهلع والرعب على بني إسرائيل لدى مشاهدتهم هذه المعجزة الإلهيّة.. أخذ الله تعالى عليهم الميثاق وقال لهم: ﴿ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ توبةً عن ذنوبهم.. ثمّ أكّد عليهم أن يكفّوا أيديهم عن [صيد السمك] أو طلب الرزق في يوم السبت؛ تربيةً لهم على عدم تجاوز الحدود.. وأخذ عليهم في ذلك ميثاقاً وعهداً غليظاً.. ولكنّهم (أكثرهم) لم يفوا بما عاهدهم عليهم الله ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾.[٢]

١- راجع: تفسيرالمنار، ج١، ص٣٤٢ و٣٤٣ وتفسير الامثل، ج١، ص ٢٩٤.

٢- لعلّ المواثيق التي أخذها الله تعالى على بني إسرائيل كثيرة و متفاوتة في الفترات الزمنيّة.. و إنّ الروايات التفسيريّة الواردة بهذا الشأن تؤكّد أنّ أهمّ تلكم المواثيق ما تضمّنت موالاة وتبجيل نبي آخرالزمان و أوصيائه المطهّرين صلوات الله عليهم أجمعين.. بل و لعلّ هذه النصوص الكثيرة من الآيات التي تناولت قصص بني إسرائيل في القرآن تعود إلى أهمّيّة هذا الموضوع و مصيريّته بالنسبة لهم و أنهم أكثر الأمم التي خوطبت بهذه العقيدة الحقّة، بدءاً من حقبة العذاب الفرعوني الذي كانوا يتعرّضون له قبيل نبوّة موسى عليه السلام و

←

٥. ترى هل أنّ اليهود ـ بسوابق أجدادهم المظلمة ـ صادقون فيما طلبوا منك يا رسول الله؟ ولو كانوا كذلك؛ فلماذا لم يعملوا ويؤمنوا بما جاءت به الكتب السماويّة السابقة بخصوص علائم نبيّ آخر الزمان صلوات الله عليه وآله؟ ترى ما السبب الذي كان يقف وراء كلّ هذا التحريف والتجاهل والتغابي والإخفاء للحقائق المحمّديّة؟!

٦. يمكن أن يُستشكل بالقول: ما العلاقة بين أفعال يهود بني إسرائيل السالفة باليهود المعاصرين للحقبة النبويّة ـ القرآنيّة؟!

نقول: إنّ اليهود المعاصرين لصدر الإسلام لم يصدر عنهم اعتراض وإدانة وبراءة من أفعال أسلافهم، بل إنّهم طالما وافقوا عليها وتباهوا بها، ولهذا؛ كانوا شركاء في عواقبها، لوقوفهم في صفٍّ واحد مع أسلافهم...

٧ ٧. ورد في شأن نزول بعض الآيات أعلاه أنّ اليهود الذين ادّعوا ـ في محضر النبيّ الأكرم (ص) ـ أنّ التوراة قد نزلت بشكل دفعة واحدة، ليس بالادّعاء المسلّم والمعلوم الصحّة، ولعلّ الأمر الذي أدّى إلى القول بهذه الشبهة هو الوهم بأنّ الوصايا العشر قد نزلت على موسى (ع) دفعة واحدة، وأمّا تعاليم التوراة الأخرى؛ فلا دليل على نزولها مرّة واحدة في أيدينا..

ما تلاها من مواجهة لفرعون و بعد نجاتهم بإغراقه، ثمّ عبورهم البحر و ابتلائهم بالتيه الشـــهير.. فكان ممّا عُرض عليهم من توبة بعد الكثير ممّا صـــدر عنهم من خطايا؛ أن أوجب الله عليهم أن يدخلوا باب حطّة [لتحطّ عنهم ذنوبهم؛ كمشـــروع إلهي للتوبة عليهم] و يقولوا كلمة واحدة في إطار دعائهم و استغفارهم، و هي كلمة (حطّة) أي: حطّ يا ربّنا عنّا ذنوبنا.. و كانت الملائكة قد صوّرت تمثالين لوجهي نبيّ آخر الزمان و وصيّه أميرالمؤمنين صلوات الله عليهما و آلهما.. إلّا أن العنصريّة الإسرائيليّة لم تسمح لهم باستيعاب الأمر و الوفاء بالميثاق الذي قطعوه مع ربّ العزّة في الإقرار للمصطفى و المرتضى عليها و آلهما السلام بالفضل و الولاية.. فاستدبروا الباب و راحوا يدخلون الباب المقدّس على أعقابهم استهزاءً و سخريّة بأمر إلههم ونبيّهم.. و هكذا كان موقفهم تجاه سائر المواثيق الالهيّة؛ عناداً و كفراً [المترجم].

الآية ١٥٥

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. هذه الآية وما بعدها تتناول معاصٍ أخرى لبني إسرائيل حيث التمرّد والعداء المتواصل لأنبياء الله تعالى.

٢. أنّ نقض العهود والمواثيق من الذنوب التي تدمّر الثقة الاجتماعيّة وتزيل العلاقات الطيّبة بين الناس.. كما أنّ الوفاء بالعهد والميثاق حقّ إنساني فضلاً عن كونه حقّاً إسلاميّاً.

٣. اليهود جماعة ناقضة للعهود وقاتلةٌ للأنبياء ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقًّ ﴾

٤. الوفاء بالعهد والميثاق الإلهي أمر لازم ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ﴾

٥. الآيات الإلهيّة هي (معاجز الأنبياء و...) مورد إنكار اليهود ﴿ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللهِ ﴾.

٦. اليهود لا تبرير ولا عذر لهم في قتل الأنبياء ﴿ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقًّ ﴾ ومع أنّ قتل الأنبياء لا مبرّر ولا حقّ فيه، إلّا أنّه تعالى جعل قيد ﴿ بِغَيْرِ حَقًّ ﴾ وذكره ليكون المعنى إشارة إلى أنّ قتلة الأنبياء كانوا بصيرين بأنفسهم حيث قتلوا الأنبياء.

٧. أنّ استقامة الأنبياء في إبلاغ رسالاتهم ثابتة حتّى قتلهم وشهادتهم في سبيل الله: ﴿ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقًّ ﴾.

٨. اليهود وبإظهار عجزهم عن إدراك خطاب الأنبياء؛ إنّما يستهزئون بتعاليمهم ﴿ وَقَوْلِهِمْ

قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾.

٩.﴿ غُلْفٌ ﴾ جمع أغلف، ويقال للشيء ذي الحجاب، ويبد وأن مراد اليهود ودعواهم في عبارة ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أنّ قلوبهم ذات حجاب، استهزاءً بالأنبياء.

١٠. اليهود بادعائهم العلم الوفير أرادوا القول بأنّهم في غنىً عن تعاليم الأنبياء ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ والاستنتاج أعلاه قائم على أنّ ﴿ غُلْفٌ ﴾ جمع غلاف بمعنى الظرف.. فيكون مرادهم من العبارة أعلاه أنّ قلوبهم مفعمة بالعلم ولا حاجة بهم إلى تعاليم الأنبياء.

١١.أن تكون تعاليم الأنبياء غير علميّة، هي عذ ر يهوديّ واه لعدم تسليمهم ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ يعكس مراد اليهود من أن قلوبهم مليئة بالعلم.. بمعنى أنّ تعاليم الأنبياء إن كان لها أساس ومبنىً علميّ، لوعاها اليهود ولوسعتها قلوبهم.. ولهذا فإنّهم أرادوا القول أنّهم لا يقبلون تعاليم الأنبياء لعدم علميّتها...

١٢. اليهود محطّ لعنة الله تعالى وغضبه لنقضهم المواثيق وإنكار الآيات الإلهيّة وقتل الأنبياء ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ... وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء ﴾ والاستنتاج أعلاه مبنيٌّ على أساس ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم... ﴾ بقرينة الآيات المشابهة، ومتعلّق بفعل محذوف كما هو قوله تعالى: ﴿ لعنّاهم ﴾.

١٣. غرور اليهود العلميّ في مقابل دعوة الأنبياء، يستلزم تورّطهم في اللّعن الإلهيّ ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ فكلمة ﴿ قَوْلِهِمْ ﴾ عطف على ﴿ نَقْضِهِم ﴾ وعليه؛ متعلّق بفعل محذوف (لعنّاهم) أي: (بقولهم... لعنّاهم).

١٤. كفر اليهود أوجب أن يطبع الله تعالى على قلوبهم ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾.

١٥. قلوب اليهود محاطة بحجاب يمنع من نفوذ تعاليم الأنبياء إليها ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾.

١٦. قلوب اليهود فارغة ـ خلافاً لادّعاءاتهم ـ من العلم والمعرفة وعاجزة عن إدراك تعاليم

النبيّ المصطفى(ص) ﴿ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا ﴾ ومن هنا؛ يعلم أنّ مراد اليهود من جملة ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ هو ادّعاء العلم الوفير..

١٧. عجز القلوب أو قدرتها على إدراك تعاليم الأنبياء بيد الله تعالى: ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾.

١٨. القلب من وسائل المعرفة ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾.

١٩. العجز عن إدراك المعارف الدينيّة ناتج عن العناد والكفر، إذ الكافرون غير معذورين عند الله ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ كما أنّ المقصود من جملة ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أنّ اليهود عاجزون حقّاً عن إدراك تعاليم نبي الإسلام والأنبياء الآخرين، وعلى أساس مدّعاهم هذا يظنّون معذوريّتهم، وجملة ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ ﴾ يوضح مسألة أنّ عجز اليهود عن وعي خطاب النبيّ الأكرم(ص) لا يمكن أن يكون عذراً عند الله تعالى، لأنّ الكفر من جهتهم سبب ما آلوا إليه من عدم معذورية ولعن وعقاب..

٢٠. اليهود قائلون بالجبر ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ ويحتمل أن يكون مراد اليهود من ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أنّهم ينسبون كفرهم إلى العوامل غير الاختياريّة.

٢١. العناد وعدم التصديق عامل انغلاق القلب دون المعارف الإلهيّة وعدم الانفعال والتأثّر بأسباب الهداية ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾.

٢٣. القلوب المطبوع عليها والانغماس في العناد والتمرّد ـ كما هي حالة اليهود ـ منعتها دون قبول الإسلام ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾.

٢٤. الكثير من اليهود لن يؤمنوا بدين الإسلام أبداً ﴿ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾

٢٥. قليل من الناس بين اليهود من كان يقنعهم الحق في العصر النبوي: ﴿ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾.

الآية ١٥٦

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. لقد أسرع اليهود في طريق الكفر إلى الحدّ الذي اتّهموا فيه الطاهرة مريم أم نبيّ الله العظيم.. التي حملت بأمر الله، بأن لها زوجاً.

٢. البهتان خطيئة في مصافّ الكفر﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ... بُهْتَانًا ﴾.

٣. في المجتمع الفاسد، تارة يرمى أطهر الناس بأقبح التهم وأفظع الأوصاف: ﴿ قَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا ﴾.

٤. ورد اتّهام السّيدة مريم(ع) في الآية (٢٧) من سورة مريم أيضاً.

٥. نسبة الزنا إلى مريم في حقيقتها نسبة إلى النبي عيسى(ع) وعدم جدارته ـ والعياذ بالله ـ بهداية وقيادة الناس، وهذه التهمة دليل كفرهم بهذا النبيّ الجليل..

٦. يقال للتهمة بهتاناً حيث يبهت الطاهرون إذا ما رموا بالباطل..

٧. للبهتان العظيم عذاب عظيم، وقد ورد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.[١]

٨. قال رسول الله صلوات الله عليه وآله لأميرالمؤمنين(ع): «مثلك مثل عيسى، فريق رموا أمّه بالفاحشة، وفريق اتّخذوا منه ربّاً».[٢]

١- سورة النور / ٢٣.

٢- الدر المنثور، ج٢، ص٢٣٨

الآية ١٥٧

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. حتّى أولئك الذين يتفاخرون ويتبجّحون بقتل الأنبياء ويقولون: نحن الذين قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ ﴾ لم تكن معاصيهم لتنحصر بهذا القول والادّعاء.

٢. لعلّ وصفهم المسيح برسول الله كان من باب الاستهزاء والسخرية، والحال أنّ ادّعاءهم هذا كان كذباً.

٣. هؤلاء لم يقتلوا المسيح(ع) أبداً ولم يصلبوه، وإنّما صلبوا شخصاً آخر كان يشبهه ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾

٤. أولئك الذين اختلفوا في المسيح(ع)، كانوا في شك ولم يؤمنوا بما يقولون، وقد اتّبعوا الظنّ ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾

٥. وضع المفسّرون جملة احتمالات حول ما اختلف عليه في المسيح(ع):

الاحتمال الأوّل: أنّ الاختلاف كان متعلّقاً بأصل منزلة و مقام عيسى(ع)، حيث قال بعضهم: إنّه ابن الله، وقال آخرون كما قال اليهود بأنّه لم يكن نبيّاً أصلاً.. والجميع على خطأ..

الاحتمال الثاني: يمكن أن يكون الاختلاف قد وقع في كيفيّة القتل، إذ ادّعى بعضهم قتله،

وآخرون نفوا القتل أساساً، ولم يكن أحد منهم على يقين في قوله ومدّعاه.

الاحتمال الثالث: مع أنّ مدّعي قتل المسيح(ع) . بسبب عدم معرفتهم به شخصيّاً . كانوا في شكٍّ من مدّعاهم وفيما أنّهم قتلوه حقّاً أو قتلوا شخصاً آخر بدلاً عنه، فقد أكّد القرآن مآل عيسى(ع) قائلاً: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ... وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾.

٦. من الموضوعات التي أدرجتها الآية الشريفة هي أنّ الذين اختلفوا في المسيح . واختلافهم هذا لم يكن عن علم ويقين؛ بل ناشئ عن الظنّ، والمراد من هذا الاختلاف اختلاف بين النصارى أنفسهم بخصوص ماهيّة المسيح(ع) وكيفيّة صلبه. قال الملائكيّون . وهم فرقة من فرق النصارى . إنّ المسيح حينما صلب كانت له حيثيّة ناسوتيّة؛ وهي المرتبطة بالجانب الإنساني منه، كما كانت له حيثيّة لاهوتيّة، وهي المرتبطة بالجانب الإلهيّ منه، فصلب وقتل[1] وفي مقابل هذه الفرقة؛ هناك فرقة النسطوريّين التي ذهبت إلى أن الحيثيّة الناسوتيّة من المسيح هي التي صلبت وقتلت[2] ولكنّ فرقة اليعقوبيين من النصارى ذهبت إلى أنّ عملية القتل والصلب شملت الحيثيّتين (الناسوت واللّاهوت).[3]

٧. وقع اختلاف شديد بين النصارى في هذه المسألة وتحديد الحيثيّة التي طالها الصلب، حتّى كفّر وقتل بعضهم بعضاً حتى عقد مؤتمر في عام (٤٥١) ميلادي في مدينة كالسدون في آسيا الصغرى، وبعد مداولات مطوّلة، تمّ إقرار جملة من الأصول والكلّيّات فيما يتعلّق بماهيّة المسيح، وهذه الأصول والكلّيّات أضحت القاعدة الأساسيّة للكنيسة الكاثوليكيّة.. والمؤمنون بهذه الكلّيّات عرفوا بعنوان (المنوفيزيتين). ومؤتمر كالسدون أعلنون الناسطرة مخطئين كافرين، ومع ذلك بقي هؤلاء باعتبارهم فرقة مستقلّة في الشام وتنفّذوا في

١- الملل و النحل، الشهرستاني، ج ١، ص ٢٢٢.

٢- نفس المصدر، ج ١، ص ٢٢٥.

٣- نفس المصدر، ج ١، ص ٢٢٧.

بقاع أخرى.[١]

٨. من بين النصارى من يقول بعدم صلب المسيح(ع)، وإنّما صلب شخص آخر بدلاً عنه وهو أحد حواريّيه، وقد وقع الإقرار في إنجيل (برنابا) بذلك، وهذا الإنجيل يقبله الكثير من النصارى ويعملون به. ويشير هذا الإنجيل الى أنّ اليهود ومعهم ممثل السلطة الرومانيّة قد صلبوا يهودا الأسخربوطي بدلاً من عيسى بن مريم(ع)، وكان بينهما شبه كبير، فاعتقلته السلطة الحاكمة وصلبته.[٢]

٩. القرآن الكريم يقول في الآية أعلاه: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ... وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ ولكنّ الأناجيل الأبعة المشهورة حاليّاً ذكرت مسألة صلب المسيح(ع) وقتله، وقد تناولت هذه الأناجيل في فصولها الأخيرة شرح هذه القضيّة، ومعتقد النصارى في العصور الأخيرة قائم على هذه الفكرة..

١٠. يؤكّد النصارى مسألة صلب المسيح كثيراً، وقد اتّخذوا من الصليب شعاراً ليتذكروا صلبه على الدوام، وعلى العموم؛ فإنّ خطابهم التبليغي والتبشيري قائم على هذا الأساس.. والحديث الوحيد الذي يرفعون عقائرهم به هو حديث فداء عيسى لذنوب أتباعه..

فهم يؤمنون بأنّ الناس جميعاً مذنبون بالفطرة.. ويذهبون إلى أنّ آدم(ع) الذي عصى الله تعالى حيث تناول من ثمر الشجرة التي نهي عن الاقتراب منها حتّى طرد من الجنّة.. وأنّ هذا الذنب قد تسرّب إلى ذرّيته العريضة الطويلة.. كما يذهبون إلى أنّ كلّ إنسان يولد من أمّه مذنب؛ ولهذا تراهم يعمّدونه ليطهر من ذنبه.. أنّهم قائلون بصلب عيسى وقتله ليتطهر الناس فداءً منه لهم..

١١. النصارى الحاليّون لا يقولون بنبوّته لغرض هداية وتربية وإرشاد الناس، وإنّما يعدّونه

١- تاريخ جامع الأديان، جان ناس، ص ٤٢٦ و٤٢٧.

٢- إنجيل برنابا (الترجمة الفارسيّة)، ص ٢١٤ إلى ٢١٧.

إلهاً، أو أحد الآلهة الثلاثة، وأنّ الغاية الأصليّة من مجيئه لهذا العالم هي الفداء وابتياع ذنوب البشر...

١٢. مع التصريح القرآني بأنّ عيسى لم يقتل ولم يصلب، فإنّ مجالاً للشكّ والشبهة في أنّه عليه السلام لم يصلب، لأنّ القرآن ـ حسب معتقدنا نحن المسلمين ـ وحي إلهي ولا شك فيه ولا ريب، وإنّ أجلى دلائل وقوع التحريف في الإنجيل هو هذا التناقض الواضح فيه، إذ يثبت لأيّ قارئ له بدقة وملاحظة.

١٣. لا يتردّد مسلم في القول ببطلان عقيدة مقتل المسيح لأنّ:

أوّلاً: كون المسيح (ع) نبيٌّ كسائر الأنبياء، فهو ليس الله ولا ابن الله، وإنّما الله إله واحد ولا شبيه له ولا نظير ولا مثل، وليس له زوجة وولد.

ثانياً: أنّ الفداء والتضحية للآخرين مطلب غير منطقي أصلاً، إذ كلّ امرئ بما كسب رهين، وأنّ سبيل الخلاص والنجاة منوط بالإيمان والعمل الصالح.

ثالثاً: فكرة فداء المذنبين تشجّعهم على النساء والإفساد والوقاحة.. وإن رأينا القرآن قد أكّد مسألة عدم صلب المسيح ـ مع كونها تتضمّن موضوعاً بسيطاً في ظاهر الأمر ـ فذلك درءاً لهذه العقيدة الخرافيّة، حيث يكذّب أشدّ التكذيب مسألة شراء ذنوب العصاة، وليمنع النصارى عنها ليعلّق نجاة الناس على إيمانهم الحقّ وأعمالهم الصالحة، دون الاحتماء بالصليب.

رابعاً: هناك قرائن تضعّف مسألة صلب المسيح.. ونحن نعلم أنّ الأناجيل الأربعة المتوفّرة تستشهد على تحقّق عملية الصلب، وكلّها قد دوّنت بعد عشرات السنين من رحيل المسيح، وذلك بأقلام تلامذته، أو تلامذة تلامذته.. وهذا ما يقرّه مؤرّخو النصارى قبل غيرهم!

١٤. نعلم أن تلامذة المسيح (ع) حين هجم الأعداء عليه وعليهم قد فرّوا، وهذا ما تشير إليه الأناجيل، وعلى هذا؛ فإنّهم قد سمعوا بقضيّة الصلب من أفواه الناس فيما بعد، وكما سنشير

لاحقاً، فإنّ الأوضاع قد أدّت إلى مزيد من الشبهة والاشتباه في أصل القضيّة، خصوصاً وأن شخصاً آخر هو الذي اقتيد للصلب..

١٥. العامل الآخر المنتج للشبهة بشخص آخر وجعلها ممكنةً: أنّ الذين كلّفوا بالقبض على النبيّ عيسى(ع) قد اتجهوا إلى بستان (جستماني) الواقع خارج المدينة، كانوا جنوداً روميين من الذين كانوا يعملون في أحد المخيّمات، فكانوا لا يعرفون اليهود ولا يعرفون تقاليدهم ولغتهم، كما لم يكونوا يعرفون تلامذة عيسى ولا يميّزون بينه وبينهم..

١٦. الأناجيل تقول: الهجوم على مكان المسيح قد تمّ ليلاً، وكم هو بسيط أن يعتقل في تلك الفوضى وذلك الظلام شخص بدلاً عن آخر﴿ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ... ﴾.

١٧. يفهم ممّا كتب في الأناجيل جميعاً أنّ الشخص الذي اعتقل اختار الصمت في محضر بيلاطس (حاكم بيت المقدس الرومي) وقلّ أن انبثقت كلمة عن شفتيه؛ أو كان دافع عن نفسه.. وبعيد جدّاً أن يكون النبي عيسى(ع) هو الذي اعتقل؛ فيرى الخطر محدقاً به ولا يدافع عن نفسه مع كونه خطيباً مفوّهاً معروفاً بالشجاعة والشهامة العظيمة ﴿ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ... ﴾.

١٨. ألا يحتمل أن يكون قد جرى اعتقال (يحتمل قويّاً أن يكون الذي تمّ اعتقاله هو يهودا الاسخريوطي الذي كان كثير الشبه بالمسيح(ع) فخانه و تجسس عليه) شخص آخر، فاستولى عليه اضطراب شديد جدّاً حتّى عجز عن النطق أو الدفاع عن نفسه.. لاسيّما وأنّنا نقرأ في الأناجيل أن يهودا الاسخريوطي لم يُر بعد هذه الواقعة، أو أنّه عمد إلى الانتحار كما تقول الأناجيل ﴿ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ... ﴾.

١٩. كما قلنا، فإنّ تلامذة المسيح(ع) قد فرّوا لما استشعروا الخطر طبقاً لشهادة الأناجيل، ولا ريب أنّ نصارى آخرين قد لاذوا بالفرار في ذلك اليوم وكان يراقبون الأوضاع عن بُعد، وعليه؛ فإنّ الشخص البديل المعتقل كان محاصراً بالعسكريين الروميين، وقد خلا الموضع من أي

صديق ونصير، وهكذا؛ لا يبقي مجالا للتعجب من وقوع الشبهة والاشتباه.

٢٠. نقرأ في الأناجيل أنّ الشخص الذي جرى صلبه قد شكا إلى الله أن تركه وحيداً حتّى يقتل من قبل الأعداء.. فلو كان المسيح قد جاء إلى هذه الدنيا ليصلب ويكون فداءً للمذنبين، ما كان ليقول ما قال بل كان ليشكر.. وهذا القول يوضح جيّداً أنّ الشخص المصلوب كان رجلاً ضعيفاً جباناً عاجزاً، حيث لا يمكن أن يصدر عن عيسى(ع) كلام مثله.. ومجموع ما تقدّم بمثابة قرائن تبيّن مذهب القرآن بخصوص وقوع الشبهة في صلب المسيح وقتله..

الآية ١٥٨

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٥٨﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. المراد من الرفع في هذه الآية ليس رفع مقام ودرجة النبيّ عيسى(ع) ، كما ورد في شأن بعض الأنبياء، بل بالنظر إلى سياق الآيات وقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ... بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ﴾ وبملاحظة الروايات الكثيرة، يكون المراد هو أنّه سبحانه قد رفع عيسى بروحه وبدنه إلى الأعلى؛ وأنّه لم يمت، بل هو حيٌّ في العالم العلويّ..[١]

٢. ورد في الروايات أنّه عليه السلام سينزل إلى الأرض حين يظهر الإمام الحجّة المنتظر عجّل الله تعالى فرجه الشريف؛ فيقتل الدجّال، ثمّ سيموت كما يموت الناس.[٢]

٣. معلوم أنّ قول القرآن الحكيم بأنّ الله تعالى قد رفع عيسى(ع) إليه يراد منه ـ كما نصّت الروايات المتواترة المستفيضة ـ رفع عيسى(ع) إلى السماء الرابعة، وهي الموضع المجهول بالنسبة لنا، إذ الأمر المسلّم عدم وجود مكان لله عزّ اسمه وأنّه ليس في العالم العلوي فحسب، وعليه؛ فإنّ رفعه إلى الله جاء بمعنى رفعه إلى حيث الرحمة الخاصّة وحصوله على المقام العليّ في السماء الرابعة والبقاء على قيد الحياة؛ مع ملاحظة عدم اطلاعنا على تفاصيل حياته عليه السلام هناك.

٤. رغم أنّ النصارى والمسلمين ـ أتباع الأناجيل والقرآن ـ يؤمنون بمآل عيسى إلى العالم العلوي، إلّا أنّ المسلمين يؤمنون بعدم صلبه وقتله، وإنّما رفع إلى السماء حيّاً.. غير أنّ

١- راجع: بحار الأنوار، ج١٤، ص٣٣٥ إلى ٣٤٤

٢- تفسير فرات الكوفي، ص١٣٩ و إثبات الهداة، ج٥، ص٢١٧

النصارى يعتقدون بقتله، ثمّ عودته إلى الحياة ثمّ ارتفاعه..

٥. جدير ذكره أنّ في مدينة (سري نكره) الهندية ثمّ قبر منسوب للمسيح وقد كتب عليه عبارة (مقبرة عيسى صاحب) والقاديانيون يذهبون إلى أنّه قبر عيسى بن مريم، ويقولون بأنّه حين اقتيد للصلب تمكّن من الفرار من بين أيدي الجنود واليهود والمجئ إلى كشمير في الهند ثمّ رحل عن الدنيا في هذه المدينة ودفن.[1]

٦. يعتقد القاديانيّون أنّ غلام أحمد القادياني هو المسيح الذي بعث حيّاً وقد ظهر ليجدّد الأحكام الإسلاميّة ويؤمن بالرسالة المحمّديّة.. ونحن نعلم بأن أحمد القادياني ليس سوى ألعوبة استعمارية بيد البريطانيين.. وهو وأمثاله كمحمد علي الباب والمهدي السوداني قد برزوا في حقبة استعماريّة واحدة لبث الفُرقة بين المسلمين، وأنّ الثلاثة معاً يشربون من عين خبيثة واحدة وهي المتجسّدة في الاستعمار البريطاني آنذاك. وعلى هذا؛ فإن المذهب القادياني العجيب القائل بخصوص قبر المسيح ليس سوى مقدّمة لتصحيح ادّعاء غلام أحمد في تجسّد المسيح في بدنه.. ولا قيمة لمزيد من البحث في تفاصيل بدعته وضلالته...

١- تفسير المنار، ج ٦، ص ٤٢.

الآية ١٥٩

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. حيث وقع الاختلاف بين المفسّرين في ضمير﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ أن يعاد على أهل الكتاب أو على النبيّ عيسى(ع)، فقد ورد احتمالان في تفسير هذه الآية:

الاحتمال الأوّل: على أساس أن يعاد ضمير﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ على أهل الكتاب؛ يكون تفسير الآية كالتالي: أن لا أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن هذا الواحد وقبل موته بالنبيّ عيسى(ع)، وذلك حيث يصل الإنسان ـ من أهل الكتاب ـ إلى حافّة الاحتضار وتضعف صلته بعالم الدنيا وتقوى هذه الصلة بعالم ما بعد الموت، فتزاح الحجب من على عينيه وتتّضح وتتكشّف له الكثير من الحقائق ويطلع عليها.. وهنالك يشاهد المسيح بعين الحقيقة؛ فيسلّم له.. فيؤمن له من كان كافراً به، ويعود عن شبهته من كان متّخذاً إيّاه إلهاً.. فيكون هذا الإيمان كإيمان فرعون الذي أحاط به العذاب والغرق، فآمن بربّ العالمين، وذلك حين شاهد مقدّمات العذاب والدمار والموت؛ وهناك لم ينفعه إيمانه ذاك بشيء..

الاحتمال الثاني: إذا أعدنا الضمير في قوله ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ على النبيّ عيسى(ع)، فيكون المراد أنّ جميع أهل الكتاب سيؤمنون بهذا النبيّ قبل موته.. إذ اليهود ـ آنذاك ـ سيؤمنون بنبوّته التي أنكروها من قبل، وكذلك النصارى سيتراجعون عن القول بإلوهيته.. وسيحدث ذلك ـ طبقاً للروايات المتواترة بين المسلمين ـ في حقبة الظهور المهدويّ المقدّس، حيث ينزل عيسى(ع) من السماء ويصلّي خلف الإمام ويراه اليهود والنصارى على حدّ سواء؛ فيؤمنون به

وبالإمام..[١] وواضح أنّ المسيح وبحكم أنّ رسالته متعلّقة بالماضي، فيكون مكلّفاً في عصر الظهور المهدويّ الشريف باتباع إمام الدين الإسلامي. وقد رجّح المرحوم العلّامة الطباطبائي أن يكون الضمير المشار إليه عائد على النبيّ عيسى(ع)، وهو يوحي أنّه لا يزال حيّاً يرزق عند الله تعالى، وأنّه سيعود إلى أهل الكتاب ليؤمنوا به.[٢]

٢. سؤال: جاء في الآية (١٤) من سورة المائدة الشريفة: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ... ﴾ فيما قالت الآية (١٥٩) من سورة النساء الكريمة: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ وهذا يعني قبول أهل الكتاب ديناً واحداً، وأنّ هذا الواقع سيتحقّق في زمن الظهور المهدوي . حسب عقيدتنا، والحال أنّ بين الآيتين أعلاه اختلافاً دائماً واقعاً بين النصارى، فيما الآية محطّ البحث تشير إلى وحدتهم، فكيف يكون الجمع بينهما؟

الجواب: إن لاحظنا الآيات بدقّة وأمعنّا النظر في تفسيرها الصحيح، لوجدنا أن لا اختلاف بينهما أبداً.

فآية سورة المائدة تناولت العقاب ونقض الميثاق من قبل النصارى وسوء عاقبة ذلك إلى يوم القيامة، حيث العداوة والبغضاء بينهم، وتلك عقوبتهم إنّما حصلت لهم بسبب أنّه مع وجود النبيّ عيسى(ع)؛ وهو نبي رحمة كان يدعو قومه إلى السلام، ويشجعهم على الاهتمام بأمر آخرتهم والإعراض عن لذائذ الدنيا وزخارفها المغريّة وينهاهم عن أن يكونوا وحوشاً كاسرة.. إلّا أن من كانوا يدّعون اتّباعه نسوا ما كان يذكّرهم ويوعظهم.. فما كان من الله تعالى إلّا أن ألقى العداوة والبغضاء بينهم وقال فيهم: ﴿ ...فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وجعل هذه العداوة والبغضاء ملكة راسخة في الأمم النصرانيّة، ولا

١- تفسير القمي، ج١، ص١٥٨
٢- الميزان، ج٥، ص١٣٤ و١٣٥

ريب في أنّ نا ر الآخرة ستكون مآلهم، حيث لا مفرّ لهم منها، فإن خرجوا من غمّ عادوا إلى غمٍّ مثله أو أسوأ منه، ثمّ يقال لهم: ذوقوا عذاب الحريق.. فهم قد اختلفوا بمجرّد أن رفع عيسى إلى السماء، فتباغض الحواريون ودعاة الرسالة المسيحيّة.. ولقد اشتدّ الاختلاف بينهم بمرور الوقت وتعاقب الأجيال حتّى عمّ الاختلاف والتباغض جميع النصارى، فوقع القتال بينهم وتعاظمت الحروب والغارات، مما تسبّب في الضياع والتهجير والفساد، إلى أن قامت الحروب العالميّة بينهم، حروباً هدّدت واقع العالم ومصيره بالفناء والانقراض.. وكلّ ذلك؛ تجسيد للوعد الإلهي الوارد في الآية مورد التفسير.. وهو ـ أيضاً ـ مصداق تبدّل النعمة نقمةً وضياعاً أشدّ ودماراً أفظع.. وهذا ليس إلّا عقوبة دنيويّة..

أمّا الآية (١٥٩) من سورة النساء فتبيّن مطلباً آخر تقدّم ذكره..

وعلى هذا؛ فإن كلّاً من الآيتين تتناول مطلباً مستقلّاً. فالآية الواردة في سورة المائدة تناولت عقوبة النصارى الذين نقضوا ميثاقهم مع الله ونبيّهم وجملة الخطايا التي ارتكبوها ممّا اقتضى تفشّي العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة.. وآية سورة النساء تشير إلى أنّ أهل الكتاب سيؤمنون بالنبيّ عيسى (ع) في حقبة الظهور المهدوي الشريف، أو أنّهم سيؤمنون به قبل موتهم.. وهم إلى يوم القيامة سيرزحون تحت طائلة العداوة والبغضاء..

وفي (تفسير عليّ بن إبراهيم) نقل عن شهر بن حوشب أنّ الحجاج قال له ذات يوم: إنّ آية قرآنية قد أتعبته وحار في معناها. قال شهر: وأيّ آية هي يا أمير!؟ فقال الحجاج: هي آية: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ... ﴾ وذلك أنّني قد أقتل اليهودي أو النصرانيّ ولا أجد فيه علامة على هذا الإيمان الذي نسبه القرآن له.. فقال شهر: المراد هو أنّ عيسى (ع) سينزل قبل نهاية العالم؛ فلا يبقى يهوديّ وغيره إلّا ويؤمن قبل موته بعيسى (ع)، وهو الذي سيصلي خلف المهدي (ع).. وحينما سمع الحجّاج هذا المطلب قال: ويلك! من أين جِئت بهذا التفسير؟ فقال شهر: سمعته من محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام. فقال الحجّاج: والله جئتَ

بها من عين صافية...[١]

٤. المراد من شهادة المسيح(ع) ضدّ هؤلاء في يوم القيامة هو أنّه سيشهد بكونه قد بلّغ الرسالة وأنّه لم يدعهم إلى ربٍّ غير ربّ العالمين: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾

٥. سؤال: ثَمّ سؤال يطرح نفسه هنا؛ وهو: طبقاً للآية (١١٧) من سورة المائدة؛ فإنّ شهادة المسيح(ع) ستحتصر في يوم القيامة في الفترة التي عاشها بين ظهراني أمته ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ وأما ما بعد موتي (عيسى(ع)) قد سلبه الله القدرة على الشهادة ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ والحال أنّ الآية محطّ التفسير تقول إنّه في يوم القيامة سيشهد على جميع من كان في عصره أو لم يكونوا..

الجواب: بالتدقيق في مضمون هاتين الآيتين، نفهم أنّ هذه الآية تقول: إنّ عيسى(ع) سيشهد ضدّ جميع الذين اتّخذوه إلهاً؛ سواء من عاش في عهده أو من عاشوا ضمن الأجيال التي تلته، وأنّه لم يدعهم إلى عقيدة الشرك بالله، أمّا الآية (١١٧) من سورة المائدة؛ فتتحدّث عن أنّه عليه السلام سيشهد على تبليغه الرسالة بشكل صحيح وكافي إلى الوقت الذي كان بين الناس، فحلت بينهم وبين الانحراف، فلمّا توفّاه الله تعالى ورفعه إليه اتّخذوه إلهاً على سبيل الانحراف والشرك وأنّ الله هو خير شاهد عليهم..

١- تفسير القمي، ج١، ص١٥٨

الآية ١٦٠

فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾

النقاط المستفادة من الآية

١.إحدى السنن الإلهيّة المشروطة في الناس أنّه تعالى يقرّر عذابهم الدنيوي طبقاً لأعمالهم السيّئة، وهذا العذاب يمكن أن يتصوّر بصور مختلفة.

٢. إنّ الانسان وفضلاً عن ارتباطه بالطبيعة وبأفراد الإنسان من نوعه، فإنّه مرتبط بخالق الوجود أيضاً، وإنّ سلوكه إزاء خالقه يكون موضع تقييم وتمحيص، ومتى ما لم يستوجب سلوكه رضا خالق الوجود وغضبه، فعليه أن يتوقّع وينتظر العذاب.. ثمّ إنّ قسماً من هذا العذاب ينزل عليه في حياته الدنيويّة، والقسم الأهمّ والأكبر يلقاه في حياته الأخرويّة. والقسم الذي ينزل عليه في عالم الدنيا يمكن أن يظهر بأشكال متفاوتة.. فيكون لأحدهم بهيئة مرض عضال، ولآخر بشكل حادث اصطدم، ولغيره بصورة موت أو قتل ولده، أو بخسارة تجارية، أو فشل بتحقيق الهدف.. كما قد يكون العذاب الجماعي بصورة سلب الأمان والراحة والاستقرار النفسي والاجتماعي، أو القحط والجفاف والزلزلة والسيل و...

٣. رغم أنّ ظاهر هذه الآية والآية (١٤٦) من سورة الأنعام المباركة؛ يبيّن أن للتحريم حيثيّة عامّة وتشمل غير الظالمين (إذ في الآية ـ ١٦٠. جرى التعبير بـ﴿ لَهُمْ ﴾ خلافاً لمسألة العقوبة الأخرويّة الذي ورد فيه التعبير بـ﴿ للكافرين منهم ﴾ وعليه؛ فإنّ النسبة لأولئك الظالمين يكون التحريم ذا حيثيّة عقابيّة، أمّا بالنسبة للصالحين ـ وهم الأقليّة، فلها حيثيّة امتحانيّة وتربويّة. ولكنّ بعض المفسّرين ذهبوا إلى التحريم الخاصّ بالظلمة، وقد أشير في بعض الروايات إلى

ذلك، كما نقل في (تفسير علي بن إبراهيم القمي) أنّ زعماء بني إسرائيل كانوا قد منعوا فقراءهم عن تناول لحم الطيور وشحوم الحيوانات فحرّمها الله تعالى عليهم جزاءً لهم على ظلمهم هذا.[١]

٤. روايتان في هذا الموضوع:

قال أميرالمؤمنين (ع): «لا يهلك على التقوى سنخ أصل، ولا يظمأ عليها زرع قوم...»[٢]

قال الإمام الصادق (ع): «إذا فشا الزنا؛ ظهرت الزلازل»[٣]

٥. ضروري هو الانتباه إلى المسألة أدناه: وهي؛ أنّه لا يمكن توجيه الاتّهام إلى الناس بمجرّد مشاهدة بلاء قد نزل أو حادثة قد وقعت في منطقة معيّنة، واعتبارهم مستحقّين لها، ذلك لأنّ الله تعالى وحده هو العالم بطبيعة الصلة بين هذه الحادثة وضررها وبين أفعال الناس. والناس بحكم عبوديّتهم وأخلاقهم موظّفون في الحالات العاديّة أن يدروا عواقب أعمالهم، وبالامتناع عن ممارسة الظلم والتلوّث بالذنوب؛ لئلّا يهيؤوا أرضيّة العذاب والغضب الإلهي لأنفسهم. ولكن بعد وقوع الحادثة لا يصحّ توجيه الاتّهام واللّوم لفردٍ أو مجتمع...

١- نفس المصدر، ص٢٢٠

٢- نهج البلاغة، ص٥٨

٣- الخصال، ج١، ص٢٤٢

الآية ١٦١

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. المراد من تحريم الطيّبات هو نفسه الوارد في الآية (١٤٦) من سورة الأنعام المباركة حيث قال تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ وعليه؛ فإنّ التحريم المذكور تحريم تشريعي وقانوني؛ ولم يكن تحريماً تكوينيّاً، بمعنى أنّ هذا الهبات كانت قد صارت بأيديهم بشكل طبيعي، ولكنّهم منعوا من تناولها شرعاً.. وقد وردت في سفر اللّاويين من التوراة الموجودة بين أيدينا، الفصل الحادي عشر الإشارة إلى قسم من المحرّمات المذكورة أعلاه، ولكن لم يرد فيها أنّ هذا المعنى وهذا التحريم له حيثيّة عقابيّة..

٢. لا يمكن نزول العذاب الإلهي دون أن يسبقه نهي (قبح العقاب بلا بيان) إذ لو أريد معاقبة أحد بلا نهي مسبق، لكان أمراً قبيحاً، وهو بعيد عن المقام الإلوهي، وخلاف للعدل والحكمة ﴿ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ ﴾.

٣. حرمة الربا على اليهود تبيّن أنّ هذا العمل القبيح محطّ غضب الرب، وأنّ حرمة الربا غير مخصوصة بالإسلام، رغم أنّ الوارد من منعه في التوراة المحرّفة خاصّ فيما بين اليهود فقط ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ ﴾.

٤. واضح أنّ عبارة ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ ﴾ توضّح حقيقة أنّ يهود بني إسرائيل كانوا يأكلون الربا رغم المنع الإلهي الديني.

٥. حرف الباء في كلمة ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ باء السببيّة، ومعناه أنّ اليهود كانوا يوفّرون أسباب الباطل وغير المشروعة ليغصبوا الأموال العامّة والخاصّة بالمجتمع، والمراد من ﴿ أَمْوَالَ النَّاسِ ﴾ يمكن أن يشا ربه إلى الثروات الاجتماعيّة مثل المعادن والغابات وغيرها، ويمكن أن تكون الأموال الشخصيّة للآخرين، والاستنتاج أعلاه جرى على أساس الاحتمال الثاني، جدير بالذكر أنّ كلمة ﴿ أَكْلِهِمْ ﴾ لا يقصد به تناول الطعام، وإنّما هو نوع تصرّف..

٦. بالنظر إلى جملة ﴿ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ ﴾ وجملة ﴿ حرّمنا عليهم الطيّبات ﴾ حيث وردت كلمة ﴿ مِنْهُمْ ﴾ في الأولى دون الثانية، يعلم أنّ التحريم قد شمل الكافر منهم والمؤمن، ولكنّ عذاب الآخرة سيحيق بالكافرين منهم فحسب ﴿ حرّمنا عليهم الطيّبات... وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

٧. معلوم أنّ حرف (من) في ﴿ مِنْهُمْ ﴾.. ﴿ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ ﴾ جاء للتبعيض ويوحي بأنّ فريقاً من اليهود لم يكفروا، ولعلّهم كانوا يراعون حرمة الإيمان ويلتزمون بالأحكام الإلهيّة.. كما أنّ من الحرّي بمكان القول بأنّ المراد من الكافر هنا من يكفر عمليّاً، بمعنى عدم التزامه بالأحكام الإلهيّة.

٨. توفّر المعيار في نوع الأشخاص يصحّح جعل وشمول القانون لجميع الأفراد، وإنّ معيار تحريم الطيّبات على اليهود؛ هو الظلم والعناوين الأخرى المذكورة في هذه الآية والآية التي تليها، ولهذا؛ كان تخلّف وعصيان فريق من المجتمع يمكن أن يكون سبباً لتعرّض جميع أفراد المجتمع للعقوبة الدنيوية ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم الطيّبات... وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

٩. الظلم والصدّ عن سبيل الله وأكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل.. كلّ ذلك يوجب توجّه الإنسان إلى الكفر، أو يوجب الكفر بعينه ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم الطيّبات... وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

١٠. الكفر يوجب تعرّض ابن آدم لعذاب القيامة الأليم، ولعذاب الآخرة أنواع ومراتب ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

١١. استعمال صيغة الفعل الماضي في ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ يدلّ على وجود جهنم في الزمن الحاضر، لاسيّما وأن هذا الاستنتاج مجترٌّ من أنّ ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ هو عذاب الآخرة.

١٢. الظلم والصدّ عن سبيل الله و أكل مال الناس بالباطل يوجب عقوبة الدنيا وعذاب الآخرة ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم الطيّبات... وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

الآية ١٦٢

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. حظي المؤمنون الطاهرون من اليهود بالثناء في هذه الآية ووُعدوا بالأجر العظيم والثواب الجزيل.

٢. ينبغي أن نعلم بأنّ الإسلام لا يذمّ قوميّة لمجرّد كونها قوميّة، وإنّما الذمّ القرآني الوارد في اليهود وإدانته لهم؛ متوجّه في حقيقته إلى المنحرفين منهم، ولذا؛ نجد هذه الآية قد استثنت المؤمنين الصالحين منهم، بل إنّها أثنت عليهم ووعدتهم بالأجر العظيم ﴿ لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ... سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

٣. لا شكّ في أنّ جمعاً من كبار اليهود قد أسلموا بمجرّد ظهور الإسلام ومشاهدتهم لدلائل حقّانيّة الرسالة والرسول الخاتم صلوات الله عليه وآله، ولطالما دافعوا عنه بأموالهم وأرواحهم حتّى حظوا باحترام وتقدير النبي والمسلمين.

طبقاً لهذه الآية الشريفة؛ فإنّ الإيمان بالأديان الماضية والقرآن وبقيّة الكتب السماوية غير كاف، إذ لابد من اقتران الايمان بالله والمعاد وإقامة الصلاة بإخراج الزكاة في سبيل الله تعالى.

٥. كما أنّه سبحانه بشير، كذلك هو نذير، فكما يهدّد الكافرين بعذابه الأليم، كذلك يبشّر المؤمنين بالأجر العظيم ﴿ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا... أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

الآية ١٦٣

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. للوحي معاني وآفاق مختلفة، وجامعها كلها الإلقاء السريع والخفيّ، وهذا المعنى مشترك في جميع مصاديق الوحي وأبعاده، سواء كان لدى إلقاء الأمر التكويني على الجمادات، أو إلقاء الأمر الغريزي على الحيوانات، أو بالتفهيم الفطري والقلبي على الناس العاديين، أو بتفهيم رسالة الشريعة على الأنبياء، سواء بالإشارة أو الخفيّ من الكتابة، وفي جميع هذه المصاديق والنماذج تكون خصوصيّة التفهيم والإلقاء الخفيّ..[1]

٢. آفاق الوحي المختلفة في القرآن:

الأوّل: (وحي النبوّة والرسالة) حيث ورد في هذه الآية ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾.

الثاني: (وحي الإلهام) حيث قال تعالى في الآية (٦٨) من سورة النحل:

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾.[2]

١- علوم القرآن، سعيدي روشن، ص ٢١ و٢٢.

٢- و قد أوّل المعصوم عليه السلام، أي: أخبر قارئ الآية بمعناها الأوّل و الأصل بأن النحل هنا أريد بهم الأئمّة الاثنا عشر ـــ و من هنا كانت

←

الثالث: (وهي الإشارة) كما ورد في الآية (١١) من سورة مريم بخصوص زكريّا(ع): ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾.

الرابع: (وحي التقدير) قال سبحانه في الآية (١٢) من سورة فصّلت: ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا ﴾.

الخامس: (وحي الأمر) حيث نقرأ الآية (١١١) من سورة المائدة: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي ﴾.

السادس: (الوحي بمعنى البيان الخفيّ) كما قال تعالى في الآية (١١٢) من سورة الأنعام بخصوص الشياطين: ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾.

السابع: (وحي الخبر) كما نقرأ عن جمع من الأنبياء في الآية (٧٣) من سورة الأنبياء: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾.[١]

٣. سؤال: كيفيّة تكلّم الله مع الأنبياء؟

ينبغي ـ لدى الإجابة على هذا السؤال ـ مراجعة القرآن، وطبقاً للآية (٥١) من سورة الشورى يمكن تحديد ثلاثة طرق للتكلّم المراد: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء ﴾.

الطريق الأوّل: (الوحي بصورة الإلقاء في القلب) وحسب تعبير الروايات: (النفح في الذهن والنفس) وفي هذا النوع؛ الوحي النازل على نبيّنا المصطفى(ص) حيث كان ـ مراراً ـ لا يسمع صوتاً ولا يرى ملكاً، وإنما كان يستلهم المطالب بروحه وقلبه مباشرة..

الطريق الثاني: (الوحي من وراء حجاب) بحيث يسمع النبيّ صوتاً من دون أن يرى

من ألقاب أميرالمؤمنين عليه السلام: أمير النحل ـــ فيما الجبال هم شيعة الأئمة.. (راجع: تفسير القمي، ج١، ص٣٨٧ ومناقب آل أبي طالب عليهم السلام، ج٢، ص٣١٥) [المترجم]

١- درس‌هايي از علوم قرآني، حبيب الله طاهري، ج ١، ص ٢٥١.

المتكلّم.. ويقصد بهذا النوع من الوحي أنّ الله تعالى يوجِد صوتاً في مكان ما؛ فيسمع النبيّ هذا الصوت بحيث يمكن القول إنّ الموضع الذي يوجَد فيه هذا الصوت نوعَ واسطة بين الله والنبي، ولنا ـ من هذا النوع من الوحي ـ أن نشيرإلى كلام الله تعالى مع النبيّ موسى(ع)، حيث تكلّم الله معه بصوت أوجده وخلقه، حتّى أنّ النبيّ موسى كان يسمع الصوت المخلوق من كلّ جهة، فقيل له: كليم الله.. ونظير هذا الوحي خطاب الله تعالى في المعراج إلى حبيبه المصطفى صلوات الله عليه وآله...

الطريق الثالث: (الوحي بإرسال رسول) فيأتي الملك هابطاً بتعاليم الله وأوامره منه سبحانه إلى نبيّه؛ فيلقيها عليها، وحسب الروايات: أنّ هذا الملك قد يأتي النبي بصورته الأصليّة أو متمثّلاً بصورة خاصّة، وقد لا يتمثل لنبيّ فلا يراه، ولكنّه يتلقّى منه الرسالة...

٤. فهم بعض المفسّرين من قوله عزّوجلّ: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا... ﴾ أنّ القرآن يريد الإعلان للنبي(ص) بأنّ دينك يحوي جميع الخصائص والميزات التي كانت للأديان السالفة، وأن ما كان لدى الأنبياء والصالحين هو لديك، وقد أشارت بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام إلى هذا المعنى[١] وإنّما قال المفسّرون ما قالوا بهذا الصدد استلهاما ـ في الحقيقة ـ من هكذا روايات..

٥. إن قلنا ـ طبقاً لمنطوق القرآن ـ بأنّ الزبور من جملة الكتب السماوية قد أنزله الله تعالى على نبيّه داود(ع)، فلا منافاة مع القول بأنّ المعروف هو أنّ أولي العزم من الأنبياء هم أصحاب الكتب السماويّة وكونهم مجدّدين للرسالات والأديان وهم خمسة أنبياء وليس أكثر، ذلك لأنّه كما يفهم من الروايات فإنّ الكتب السماويّة النازلة على الأنبياء على شاكلتين:

الف: أنّ الكتب المتضمّنة للأحكام التشريعيّة والمعلنة للديانة الجديدة هي خمسة

١- راجع: تفسير العياشي، ج١، ص٢٨٥ والكافي، ج٢، ص٦٠١

كتب لا أكثر، وقد نزلت على أولي العزم الخمسة.

ب: هناك كتب أخرى لم ترد فيها أحكام جديدة، وإنّما تشتمل على نصائح وإرشادات ومواعظ ووصايا وأدعيه، وكتاب الزبور من هذا الطراز، والآن يسمّى بمزامير داود الذي تضمّنته التوراة أو ما يسمّى بالعهد القديم، مع أنّ شأنه شأن متن العهدين القديم والجديد الذي لم يسلم من يد التحريف والتغيير، ولكن يمكن القول بأنّه قد حفظ ظاهره نوعاً ما.. وهو يشتمل على (١٥٠) فصلاً، ويسمّى كلّ فصل منها مزموراً، وهو على العموم جملة مواعظ وأدعية ومناجاة...

٦. روى الصحابيّ الجليل أبوذر رضوان الله عليه أنّه سأل رسول الله(ص) من عدد الأنبياء، فقال: (١٢٤) ألف نبي. فسأله عن عدد المرسلين بينهم، فقال: (٣١٣) رسولاً والبقيّة أنبياء. قال أبوذر فسألته عن عدد الكتب السماوية المنزلة عليهم، فقال صلوات الله عليه وآله: (١٠٤) كتاب، عشرة منها نزلت على آدم، وخمسون منها على شيث، وثلاثون على إدريس، وعشرة على إبراهيم.. فيكون مجموعها (١٠٠) كتاب وصحيفة، والتوراة والإنجيل والزبور والقرآن المجيد.[١]

٧. الوحي تارة يكون بمعنى الإلهام، إلهام يستقرّ في قلوب الأفراد المؤمنين وإن لم يكونوا أنبياءً أو أئمّة، مثل قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى... ﴾.[٢]

٨. ﴿ الأَسْبَاطِ ﴾ جمع سبط، بمعنى طوائف بني إسرائيل، إلّا أنّ الاصطلاح هذا يعني هنا الأنبياء المبعوثين من هذه الطوائف..

١- جامع الأخبار، ص١٧٩

٢- سورة طه / ٣٨.

الآية ١٦٤

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١.الهدف من هذه الآية الشريفة القول بأنّ الله تعالى قد عرّف نبيّه المصطفى(ص) قبل نزول الوحي بالأنبياء السابقين، وحينما نزل عليه الوحي والرسالة في مكّة قد بيّن سيرهم بصورة موجزة، وحين الهجرة إلى المدينة نزّل آيات قرآنيّة تناولت بتفصيل تلكم السير الخاصّة بأولئك الأنبياء.

٢.هذا النصّ القرآني يشيرإلى أنّه سبحانه قد بعث كثيراً من الأنبياء والمرسلين ممّن لم ترد أسماؤهم وصفاتهم في القرآن، وإنّما اقتصر كتاب الله الخاتم على ذكر فريق من أعاظم الأنبياء..

٣.قد ميّزالله تعالى نبيّه موسى(ع) أن خاطبه مباشرة وبلا واسطة ملاك الوحي..

وقال بعضهم: المراد أنّ الله تكلّم مع موسى بالطريقة والأسلوب الذي يناسب مستوى فهمه وعقله، وليس كما ذهب أهل الباطل ووصفوه.

وروي أنّ النبيّ(ص) حين تلا هذه الآية؛ قال المبطلون: قد ذكر محمد أسماء عدّة من الأنبياء وتحدّث في وصفهم، ولكنّه لم يقل شيئاً عن موسى.. فنزلت هذه الآية، فقالوا: قد ذكر محمد موسى وميّزه على الآخرين، وذلك أنّه سمّاه كليم الله...[1]

١- مجمع البيان، ج٣، ص٢١٨

الآية ١٦٥

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. الرسل المبشّرون المنذرون أخبروا الناس بأنّ الجنّة والنعيم الإلهي الأبدي بالإيمان، أمّا الكافرون منهم فيساقون إلى جحيم النار والعذاب، لئلّا يكون للناس. بعد البشرى والإنذار وبعد بعثة الأنبياء لهم. عذر وحجّة في مقابل ربّهم المتعال، فلا يقولون: إنّك يا ربّنا لم تبعث فينا رسولاً، ولو أنّك أرسلت إلينا من يخبرنا لآمنّا بك وأطعنا أوامرك! بلى؛ لولا أنّه تعالى قد بعث من بعث من الرسل والأنبياء لكانت حجّتهم قائمة، كما صورت آية آخرى هذا التدبير والاعتذار غير المقبول حيث يقول المبطلون في يوم القيامة:

٢. سؤال: يمكن أن تقول: إن شمل الله الكافرين بلطفه الخاص؛ هل كانوا يؤمنون؟

يجب أن نقول هنا: هذا التصوّر باطل ولا أساس له، لأنّ خالق الوجود إن كان قد أمطرهم برحمته ولطفه الخاصّ؛ فإنّهم سيرفعون عقائرهم بتبرير جديد، ولقال كلّ منهم: يا ربّنا! لمَ لم تشملنا برحمتك ولطفك الخاصّ حتّى نؤمن بك ونطيعك ولجعلنا من تعاليمك منهجاً لحياتنا؟ ولهذا؛ وبهذا الإيضاح، يكون سبحانه وتعالى قد أتمّ حجّته ببعثه الأنبياء على عباده ليبصّرهم بحقيقتهم، تلطّفا منه بهم.. فأمّا إن لم يعِ الإنسان هذه الحقيقة، فإن الحجّة تبقى قائمة عليه أيضاً، ذلك لأنّ الله تعالى قد تفضّل على ابن آدم بنعمة العقل والفطرة الباحثة عن الله تعالى، كما غرس فيه جملة من الحجج الأخرى التي تنتهي بالإنسان إلى الهداية ومعرفة الله سبحانه.. وهذه الحقيقة واضحة المعنى والتفصيل في نصوص الآيات والروايات، وعليه؛

وطبقاً للوارد في الآيات والروايات فإنّ لله على الناس حجّتين:

ألف: الحجّة الظاهريّة، وتتمثل بالأنبياء.

ب: الحجّة الباطنيّة، وتتمثل بالعقل.

ولو أنّ إنساناً أراد تجاهل العقل ودوره في تحديد المصير، والاتّكاء على بعثة الأنبياء باعتبارهم الحجّة الإلهيّة الوحيدة، فسيواجه إشكالين رئيسيّين في طريقه:

الإشكال الأوّل: أنّنا حينما نؤمن بأنّ دعوة النبيّ دعوة سماويّة حقّة، نستطيع حينها الإيمان بوسيلة العقل بالله والتوحيد، أمّا إذا لم نعرف الله ولم نعِ عدالته وحكمته، فإنّنا لن يكون لنا طريق إلى معرفة رسالته ولا رسوله.

الإشكال الثاني: إن اعتبرنا الأنبياء حجّة إلهيّة وحيدة، ولم نعترف بدور وتأثير للعقل، هنالك كيف نعي صدق النبي من عدم صدقه؟ وكيف سنقيّم مضمون الدعوة الساميّة؟ إنّه لا مناص لنا من الاستعانة بشاهد ودليل على صدق النبي، ولابد لنا من نبيّ ثالث يشهد على صدقه.. وإذ ذاك سنقع في الدور والتسلسل الأبدي.. وبهذا الإيضاح، يتبيّن لنا أن الذين يستدلّون بهذه الآية الشريفة على أحاديّة الحجّة الإلهيّة وأنّها تتمثّل بالأنبياء فقط ويتجاهلون بذلك دور العقل ويسقطونه عن الحجّيّة، يكونون قد انحرفوا عن الجادّة الحقّ..

٣. قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ يشير ويبيّن حقيقة أنّه سبحانه وتعالى قادر على معاقبة العصاة وعلى تدبير شؤون عالم الوجود، وعلى أن يبعث الرسالات السماويّة ويبعث الأنبياء، مضافاً إلى أن حكمته تقتضي أن يحمل المرسل رسالته إلى الواقع العملي، وأنّ قدرته سبحانه تمهّد الطريق لتحقيق هذه المهمّة، ذلك لأنّ عدم تحقيق المنهج الصحيح إمّا أن يكون بسبب عدم الحكمة والمعرفة، وإمّا بداعي انعدام القدرة على الإنجاز.. والحال أنّ الأمرين معاً محالان ـ باعتبارهما نقيصتين ـ على الذات الإلهيّة المقدّسة..

الآية ١٦٦

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾

النقاط المستفادة من الآية

في الآية الأخيرة يواسي الله نبيّه ويدفعه إلى مزيد الاستقامة في أن لا يبالي بمن يكذّبون نبوّته ورسالته، ذلك لأنّ الله عزّوجلّ هو الشاهد على صدقه وحقّانيّة رسالته ودعوته..

﴿ لَّكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ ولا ريب أنّ اصطفاء النبيّ لمقام النبوة لم يكن عن عبث، وإنّما الآيات قد نزلت عن علم بجدارة الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله لأداء المهمّة النبويّة العظمى..

﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ هذه العبارة الكريمة يمكن أن تكون ناظرة إلى معنىً آخر، وهو أنّ ما أنزل عليك هو من بحر العلم الإلهي اللّامتناهي، وأنّ مضمونه ومحتواه دليل واضح على أنّه يصدر عن علمه سبحانه.. وعلى هذا؛ فإنّ شاهد الصدق المحمّدي ثابت في نصّ هذه الآيات، ولا حاجة إلى دليل آخر.. إذ كيف يمكن لفرد لم يحضر درساً أن يأتي بكتاب يشتمل على أسمى التعاليم والعلوم والفلسفة والقوانين والقضايا الأخلاقيّة والمناهج الاجتماعية من دون الاتّكاء على العلم الإلهي؟ وفي الخاتمة؛ تضيف الآية أعلاه أنّه ليس الله تعالى وحده الذي يشهد على حقّانيّة النبيّ الأعظم صلوات الله عليه وآله، بل إنّ ملائكة الله تعالى يشهدون أيضاً مع أنّ شهادة الرب المتعال كافية.

﴿ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ﴾.

الآية ١٦٧

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. (الضال) كلمة تقال لمن خفي عليه مراده، وقد انحرف عن الطريق الذي يدلّه على مقصوده، و(الضلالة) تعني العدول عن الصراط المستقيم والميل عن الطريق الأصل، سواء كان هذا الميل قليلاً أو كثيراً، عمداً كان أو سهواً.

٢. الهدى يقابل الضلال، والهداية تعني تحديد الطريق الذي ينتهي بالمرء إلى هدفه المطلوب. ومن حوالي (٢٣٦) سياق قرآني يتناول موضوع الهداية؛ يمكن استنتاج أنّ الهداية بمعنى (إيضاح طريق الحقّ والكمال والخير والصواب) إذ تارة ما يرد بخصوص الإنسان؛ نظير قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾.[1]

٣. في هذه الآية وردت الإشارة إلى فريق آخر؛ قد اختا رأسوأ أشكال الكفر، وهم الذين. فضلاً عن ضلالتهم . يسعون إلى إضلال الآخرين، وهم الذين يستسيغون إلحاق الظلم بأنفسهم وبالآخرين؛ إذ لا هم يسيرون في صراط الهدى ولا يدعون الآخرين أن يسيروا فيه فيهتدوا، حتى يسقطوا . كما سقطوا هم . في وديان الضلال، فظلموهم بمنعهم عن طريق الهدى، ومثل هؤلاء لن يشملوا بغفران الله تبارك وتعالى ولن يهديهم ربّهم إلى طريق سوى طريق العذاب الجهنّمي.

٤. لماذا صار هذا الفريق الأبعد عن الهدى؟!

لأنّهم دعاة الضلال، ويبعد أن يكفّوا عن دعوتهم، فهم قد وضعوا أقدامهم في طريق الكفر

١- سورة العنكبوت / ٦٩.

الممزوج بالعناد؛ وهو الطريق البعيد جداً عن جادّة الهدى.

٥. مصطلح الضلال يتضمّن نوع تحيّر وضياع، والمقصود هو انحرافهم عن الطريق الذي يدلّهم على غاية.

٦. إنّ أعمال وسلوك الإنسان ومواقفه لها دور كبير جدّاً في ضياعه وسقوطه وما يوجب ذلك عبارة عن:

الأوّل: اتّباع الهوى: فما لم يقوّم المرء غرائزه، وعمد إلى إرضائها بما يتجاوز الحدود المعقولة والمنطقيّة؛ خرج عن الجادّة الوسطى حتّى يتورّط في الانحراف والسقوط. يقول القرآن: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ... ﴾[1] والآية تحدد سبب إضلال العبد من جهة الله - كعقوبة دنيويّة - معلول مسلّم به للرغبات النفسانيّة الباطلة..

الثاني: صديق السوء، فلو اختار الفرد هذا النوع من الصديق ولم تكن له القابليّة على هدايته وإرشاده، فإن هو استمرّ في رفقته، احتمل أن يتأثّر به سلباً، وقد وصف القرآن هذا النوع من العلاقة بقوله: ﴿ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾.[2]

الثالث: التقليد الأعمى (الصمنيّة) فالإنسان المطيع لزعماء مجتمعه يغفل عن مصالحه الأخروية، يقول تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾.[3]

الرابع: تقليد الأجداد، فالاتّباع الأعمى لهؤلاء، وكما كان في الماضي سبباً لضلال وضياع أجيال بكاملها، حيث عمدت أمم إلى تقبّل معتقدات أسلافها بلا أي تحقيق وتدقيق في مدى صحّتها وصلاحيتها؛ فوجدت نفسها في أودية من الضلال المبين.. بل إنّ من الناس

١- سورة الجاثية / ٢٣.

٢- سورة الفرقان / ٢٧ ـ ٢٨.

٣- سورة الأحزاب / ٦٧.

المتديّنين يعمدون إلى تقليد صالحيهم؛ فلا يتلمّسون التعاليم الواقعيّة للدين ولا يلتفتون لها، وهذا مذهب مدان من وجهة النظر القرآنيّة. بل إنّ القرآن قد نهى إطاعة الوالدين فيما لو اقتضت ضلال الولد ومعصيته، قال سبحانه: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾.[1]

الخامس: الشعور بالاستغناء، فلو أنّ الفرد استشعر غناه عن الله عزّوجلّ، وذهب إلى كونه قادراً على حل مشاكله وتوفير حاجاته بعيداً عن القدرة الربانيّة، اضطرّه ذلك الشعور إلى الضلال والضياع، وانتهى به إلى الطغيان.. وقد عزا القرآن الضلال الإنساني ـ في بعد من أبعاده المهمّة ـ إلى غفلة ابن آدم ونسيانه التعاليم الإلهيّة وذكر الله المتعال: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾.[2]

السادس: من العوامل الأساسيّة لضلال الإنسان اتّباعه الأعمى للأغلبيّة، وقد كان هذا العامل ـ طيلة التاريخ ـ موجباً لخفاء الحقّ وظهور وانتشار الباطل، لاسيّما وأنّ الطبيعي من الأمر أن تكون الأكثرية على غير الحقّ من كفر وفساد رأي وأخلاق وضلال، كما أشار القرآن الحكيم إلى هذه الحقيقة والقاعدة في آيات جمّة، مثل قوله: وأكثرهم لا يعلمون، أو: وأكثرهم لا يعقلون، أو قوله سبحانه: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾.[3]

السابع: عبادة الأصنام: رغم أنّ هذا النوع من العبادة الباطلة معلول الضلال والضياع؛ إلّا

١- سورة لقمان / ١٥.

٢- سورة الفرقان / ١٧ ـ ١٨.

٣- سورة الأنعام / ١١٦.

أنّه مؤثّر جداً في تكريس الضلال وتجذيره: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ... ﴾.[1] ونلاحظ في هذا النصّ القرآنيّ أنّ النبيّ إبراهيم(ع) قد نسب الضلالة إلى الأصنام..

١- سورة إبراهيم / ٣٦.

الآية ١٦٨

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ١٦٨﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. يشير الله تعالى في هذه الآية إلى أنّ أولئك قد كفروا وفعّلوا كفرهم بممارسة الظلم، فظلموا الحقّ ولم يعوه، كما ظلموا أنفسهم حيث حرموها السعادة وسقطوا في وادي الضلال، كما ظلموا غيرهم حيث صدّوهم عن الصراط السويّ.. ومثل هكذا أفراد لن ينالوا مغفرة الرب، ولن يهديهم الله طريقاً؛ اللّهمّ إلّا طريق جهنم.. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً ﴾.

٢. المغفرة والهداية الإلهيّتان مقترنتان ومتتابعتان، وما لم تكن ثَمّ مغفرة فلا هداية: ﴿ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ... ﴾

٣. هذا اللّطف وهذه العناية الإلهيّة تشمل العبد ليسير في طريق الحقّ، وإلّا فإنّه يبقى أبداً رازحاً في متاهات الدنيا وظلماتها ما لم يكن ثَمّ نور هداية إلهيّة.. ﴿ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً... ﴾

الآية ١٦٩

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. أولئك الذين كفروا وظلموا (ظلموا الحق إذ لم يتصرّفوا بما يجد ر به، و ظلموا أنفسهم حيث حرموها السعادة و سقطوا في وادي الضلال، كما ظلموا الآخرين حيث صدّوهم عن سبيل الحقّ) أولئك لا يغفر الله تعالى لهم ولن يهديهم إلّا لطريق النا ر الجهنّمية..

٢. الآيات الثلاث المذكورة سلفاً تؤكد من جهة أن عقوبة أولئك الكافرين وضلالهم وضياعهم البعيد غير القابل للخلاص، كما وتشير من جهة إلى أنّ ﴿ لَمْ يَكُنِ اللهُ... ﴾ كل ذلك لتوحي بأنّ الغفران لهم أمر مخالف للحكمة الإلهيّة، وما يخالف الحكمة لا يليق بمقام الإلهيّة، كما تعبّر الآيات من جهة ثالثة عن خلود هؤلاء الكفرة الظلمة في جهنم والتأكيد على ذلك بكلمة ﴿ أَبَدًا ﴾ من أجل سعيهم إلى إضلال غيرهم وصدّهم عن سبيل الحقّ فضلاً عن ضلالهم هم، وهذه مسؤوليّة عظمى..

٣. هؤلاء الكفرة ظلموا الحقّ وأنفسهم، وعليهم أن يعرفوا بأنّ التهديد الإلهي بالضلال البعيد وبعدم المغفرة والتخليد في جهنّم، تهديد جدّيّ في حال استمرار غيّهم وكفرهم وظلمهم.. وسيكون التهديد قطعيّاً فعليّاً في حال مواصلتهم للصد عن سبيل الله، وذلك لأنّ الله قاد ر مستطيل على فعل ذلك: ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا ﴾.

الآية ١٧٠

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠ ﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. حيث الآيات السالفة تناولت مصير الأفراد غير المؤمنين، وجدنا هذه الآية الشريفة تدعو الناس إلى الإيمان بعبارات تثير فيهم الرغبة والتوجه إلى الانطلاق نحو هذا الهدف السامي.

٢. الظاهر من إضافة حرفي الألف واللّام في كلمة ﴿ الرَّسُولُ ﴾ هما ألف ولام العهد، للإشارة إلى النبي الذي كانوا ينتظرونه، إذ فضلاً عن اليهود والنصارى الذين كانوا يتوقّعون ظهوره بين الحين والآخر في تلك البقاع المقدسة، فإنّ المشركين بدورهم كانوا على دراية ما بظهوره الشريف..

٣. ورد في روايات أهل البيت عليهم الصلاة والسلام أن كلمة ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ في الآية أريد به ولاية أمير المؤمنين (ع)،[1] فيكون الرسول صلوات الله عليه قد جاء للبشرية بهذه الولاية المقدسة المسمّاة بالحق، وما بعد الحقّ إلّا الضلال.. وقد ذكرت مراراً إنّ هذا التأويل جاء لبيان المصداق الواضح مع أنّه لا يعد دليلاً على حصر المعنى فيه...

٤. هذا الرسول قد جاءكم من قبل الجهة التي ترعى شؤونكم وتربيتكم ﴿ مِن رَّبِّكُمْ ﴾.

٥. قد بعث الله النبيّين وأنزل الرسالات للناس لا لحاجة منه إلى ذلك، وإنّما العلم والحكمة

١- الكافي، ج١، ص٤٢٤

الربانيّة تقتضي ذلك، وها هي تعاليمه الشريفة وأحكامه الفذّة إنّما تنفع الناس لتنظيم حياتهم الدنيويّة وضمان سعادتهم الأخرويّة، فكان من الجدير بهم أن يؤمنوا ويلتزموا بها ﴿ فَآمِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾.

٦. الله عزّوجلّ هو مالك السماوات و الأرض على الإطلاق ﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾.

٧. الإشارة والتصريح بمالكيّة الله في هذه الآية لإعلام الناس بأنّهم إن كفروا أو أسلموا فإنّهم لن يضرّوا الله شيئاً وهو خالق ومالك الناس والسماوات والأرض وما فيهنّ، فلا تضرّه المعصية ولا تنفعه الطاعة، لأن الإرادة والقرار في بقاء أو فناء كلّ شيء عائدان إليه سبحانه لا شريك له..

٨. لأنّ الله سبحانه عالم حكيم، فقد كانت التعاليم التي أنزلها لعباده صادرة عن علم وحكمة ومنافع تصب في صالحكم أيّها الناس ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

الآية ١٧١

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. (الغلوّ) بمعنى التجاوز، والغلوّ في الدين بمعنى الخروج عن الحدود والمعارف الواردة في الكتب السماويّة أو تلك التي علّمها الأنبياء الإلهيّين للناس ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ ﴾.

٢. بملاحظة نصّ الآية التي منعت أهل الكتاب عن الغلوّ في دينهم؛ يلاحظ أنّ التلوّث بالغلوّ وتجاوز حدود الدين من جهة اليهود والنصارى قد تحقّق فعلاً، وليس أنّ النهي هنا جاء لتحذيرهم من تحقيقه والوقوع فيه وضرورة توقّيه: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ ﴾

٣. ينبغي أن نعلم أنّ أتباع الديانات السماويّة معرّضون لخطر الغلوّ والتطرّف السلبي في الدين، فلابدّ لهم من الحذر من أن لا يضبطوا مشاعرهم وعواطفهم المذهبيّة، فيبتلون بالغلو في الدين ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ ﴾

٤. مسألة الغلوّ في الزعامات الدينيّة أحد أهمّ وأخطر منابع الانحراف الحاصل في الأديان

السماويّة، وذلك حيث أنّ الفرد متعلّق بذاته؛ تراه يميل إلى قادته وزعمائه ويعظّمهم أكبر ممّا هو استحقاقهم ليضيف لنفسه عظمة وهيبة.. وقد يحدث أن يُتصوّر بأنّ الغلوّ في الزعماء علامة على الإيمان بهم، بينما الحقيقة تشير إلى أنّ العلاقة بهؤلاء سبب التورّط المهلك في ذلك، ولا ريب أنّ الغلوّ يصاحبه عيب كبير، يتمثل في تدمير الجذر الأصلي للدين والمذهب، وهذا

يعني تخريبه لديانة التوحيد وعبادة الواحد الأحد، ومن هنا؛ أعرب الإسلام . في نصوص ومواقف لا تحصى . عن إدانته وموقفه الصارم إزاء الغلاة، حتّى أن المصادر العقائديّة والفقهيّة عدّت الغلاة أسوأ أصناف الكفّار.

٥. الامتناع عن أشكال الخطاب الباطل بخصوص الله سبحانه وتعالى ولزوم اتخاذ الحقّ محوراً؛ ضرورة غير قابلة للاجتناب في إطار العقائد والكلام: ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقِّ ﴾.

٦. عقيدة النصارى بالمسيح (ع) عقيدة مغالية، لأنّه ابن مريم، وهو رسول الله ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ... إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾.

٧. حيث يوصف الاسم به (ابن)؛ فهو يدل على اسم هذا النبيّ، وبالنتيجة فإنّ ﴿ الْمَسِيحُ ﴾ لقبه ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾.

٨. ذكر اسم مريم في هذه الآية دلالة على عظمة الصديقة مريم (ع) عند الله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾.

٩. نسبة المسيح (ع) في هذه الآية إلى أمه مريم (ع) دلالة على خلقته الاستثنائيّة المجرّدة عن الواسطة ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾.

١٠. قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ تؤكّد أنّ إرادة الله المتعال حاكمة ومتسلطة على قوانين العالم التكوينيّة، رغم أنّ ظاهر القوانين التكوينيّة في خلقة الإنسان تقضي بانعقاد نطفة المرأة والرجل، ولكنّ الله تعالى إذا أراد؛ كان

للجنين أن يتكون في رحم المرأة بلا رجل..

١١. يعتقد بعض المفسّرين أنّ المراد من (كلمة الله) هو نفسها كلمة (كن) التي يخلق الله بها الخلق، ومن جملة هذه الكلمة هي المسيح(ع) حيث خلقه عزّوجلّ: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ ﴾.

١٢. طبقاً لكلام المفسّرين؛ فإنّ الله تعالى عدّ المسيح كلمته كما أنّ مجمل كلامه باعث على هداية الناس، وسمّاه روحه حيث يتسبب بالحياة المعنوية وكذلك الحياة المادّيّة للإنسان ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ... رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾.

١٣. كلمة ﴿ رُوحٌ ﴾ عطف على ﴿ كَلِمَتُهُ ﴾ وبمقتضى العطف يمكن أن تكون كلمة ﴿ رُوحٌ مِّنْهُ ﴾ توصيفاً لعبارة ﴿ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ بمعنى أنّ عبارة (... وروح منه ألقاها إلى روح مريم) في هذه الحالة. كما قال المفسّرون بأنّ (روح) تعني نفحةً، لأنّ النبيّ عيسى(ع) نفحة إلهيّة ألقاها إلى مريم(ع) ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾.

١٤. عيسى(ع) رسول الله، وهذا المنصب لا يتناسب مع الألوهيّة، جدير بالذكر أنّ خطابات النبيّ المسيح(ع) المدوّنة في الأناجيل المتوفّرة قسم منه بين أيدي الناس تحكي عن نبوّته ورسالته لهداية الناس دون ألوهيّته وربوبيته. والعياذ بالله. فعيسى كان كلمة الله ألقاها إلى مريم.. وقد ورد التعبير القرآني بكونه عليه السلام كلمة، وهذا التعبير للإشارة إلى كونه مخلوقاً، كما هي الكلمات المخلوقة، وإنّ موجودات عالم الخليقة هي مخلوقات الله تعالى.. كما أنّ الكلمات تبيّن وتكشف أسرارنا الباطنيّة وتشير إلى صفاتنا و معنوياتنا.. فمخلوقات هذا العالم أيضاً توضّح صفات الجمال و الجلال الإلهيّة، وبهذا أطلقت (الكلمة) في عدّة موارد قرآنيّة على جميع المخلوقات، مثل الآية (١٠٩) من سورة الكهف والآية (٢٩) من سورة لقمان، إلّا أنّ ثَمّ تفاوتاً في مقامات هذه الكلمات، إذ البعض منها مميز عظيم، وبعض منها بسيط

وصغير؛ إلّا أنّ عيسى(ع) له خصوصيّة في خلقته (فضلاً عن مقام النبوّة) وعظمة في مقامه، حيث خلق بلا والد...

١٥. رغم أنّ البعض حاول إساءة استغلال حرف (من) في قوله تعالى ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ وأنّ عيسى(ع) جزء من الله، ويستشهدون بهذا الحرف، ولكننا نعرف أنّ (من) في هكذا موارد ليست للتبعيض، وإنّما هي. حسب الاصطلاح. إنشائيّة لبيان المصدر، وعلى هذا الأساس ينبغي القول بأنّ عيسى(ع) روح خُلق من جهة الله تعالى ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾. وهذا التعبير الوارد في خلقة آدم(ع) بل وفي خلقة جميع البشر قد استعمل في القرآن الكريم أيضاً، وهذا للإشارة إلى عظمة هذه الروح التي خلقها الله تعالى وجعلها في وجود بني البشر عامّة وفي المسيح والأنبياء خاصّة.. وجملة: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ... وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ علاوةً على أنّها ردٌّ على عقيدة الغلوّ لدى النصارى بخصوص عيسى(ع)، فهي إشارة إلى بطلان تهمة اليهود تجاه مريم(ع) أيضاً: ﴿ ...إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾.

١٦. أنّ وصف الله تعالى نبيّه عيسى(ع) بكونه (مبارك) وعدّه كلمته وروحاً منه؛ من ذلك تتّضح عظمته وقدسيّته عند الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾

١٧. ذكر اسم أم عيسى إلى جانب اسمه في (١٦) مورداً قرآنيّاً يبيّن الحقيقة المؤدّية إلى أنّ المسيح(ع) كما هم سائر أفراد الإنسان كان في رحم أمّه جنيناً حتّى ولد كما تولد الأجنّة الإنسانيّة، فرضع لبنها وترعرع في حضنها، بمعنى أنّ جميع الصفات البشريّة كانت متوفّرة فيه، فكيف يمكن لجنين حُكم بقوانين الطبيعة ومتغيّرات عالم المادّة أن يكون إلهاً أزليّاً، لاسيّما وأنّ حرف ﴿ إِنَّمَا ﴾ الوارد في الآية هو بمثابة، ردّ على الوهم الحاصل، ويؤكد على أنّ عيسى(ع) حيث لم يكن له أبٌ، فلا يعني كونه ابناً لله تعالى.. وإنّما الصحيح هو القول بكونه كان ابن مريم فحسب..

١٨. هناك دلائل كثيرة جدّاً وردت في مبحث التوحيد لإثبات وحدانيّة الذات الإلهيّة المقدّسة، وهي تنفي كلّ أشكال الاثنينيّة والثلاثيّة عنه سبحانه، فالله عزّ اسمه وجود لا متناهٍ من جميع الجهات؛ أزلي؛ أبدي؛ غير محدود من حيث العلم والقدرة والقوّة، ونعلم أنه عدم لا يتصور في اثنية وتعدّد... ذلك أنّنا لو افترضنا إلهين بلا نهاية، لكانا متناهيين محدودين، لأنّ وجود الإله الأوّل سيكون فاقداً للقدرة والقوّة والوجود المتوفّر في الإله الثاني، وكذلك حال الإله الثاني الفاقد لوجود الأوّل وميزاته وخصائصه. وعلى هذا؛ يكون وجود الأوّل محدوداً وكذلك هو وجود الإله الثاني، وبعبارة أوضح: لو افترضنا إلهين بلا نهاية من جميع الجهات، فلا بدّ أن الّلا متناهي الأوّل إذا ما بلغ حدود اللا متناهي الثاني؛ فإنه سيضمحلّ وينتهي، وكذلك هو الّلا متناهي الثاني إذا وصل إلى حدود الإله الّلا متناهي الأوّل؛ حيث سيتلاشى، وعلى هذا؛ كان الاثنان محدودين متناهيين، والنتيجة هي أنّ ذات الله التي هي عبارة عن وجود لامتناهي؛ لا يمكن أن تكون متعدّدة...

١٩. النصارى يؤمنون بالتثليث؛ فهم مغالون في الدين: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ... وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ ﴾.

٢٠. في الاستنتاج أعلاه، تكون كلمة ﴿ خَيْرًا ﴾ خبراً لفعل محذوف (يكن) والجملة التقديرية تكون على النحو التالي: (انتهوا! إن تنتهوا يكن خيراً لكم) والمعنى يكون التالي: إنّ خير وسعادة النصارى متعلّقان بالامتناع عن التثليث في الألوهيّة ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ... وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾.

٢١. كلمة ﴿ لَّكُمْ ﴾ إشارة إلى أنّ الاتّجاه إلى التوحيد وأنّ منفعة عبادة الواحد الأحد والامتناع عن الشرك تعود إلى ذات الإنسان؛ دون الله تعالى أو الأنبياء والرسل.. ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾.

٢٢. الإيمان بوحدانيّة الله والإقرار به؛ إيمان وحديث حقٍّ بخصوص الربّ المتعال، أمّا

الاعتقاد بوجود ابنٍ لله؛ حديث باطل بخصوصه وهتك لحرمته.. ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقِّ... إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾.

٢٣. قوله تعالى: ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات... ﴾ دليل وبرهان على مالكيّة الله المطلقة على الوجود ودليل لجملة ﴿ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾: بمعنى عدم وجود ولد له، ومن جملة النبيّ المسيح؛ وهو العبد والمملوك له؛ وهو المالك لجميع الوجود الذي لا حاجة به للولد ﴿ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾..

٢٤. من بين الانحرافات التي تورّط بها النصارى؛ ليس هناك ما هو أسوأ من انحراف التثليث، لأنّهم يقولون بصراحة: الله ثلاثة أنحاء، كما يصرّحون أيضاً بأنّ الله الواحد هو ثلاثة في الوقت نفسه، أي: مع كونهم يقولون بكون الإله واحداً فهو ثلاثة آلهة أيضاً، وهذا القول من الأقوال المشكلة التي ابتدعها النصارى وتسببت بأزمة عقائدية لكبار محقّقيهم...

٢٥. النصارى إن كانوا على استعداد لقبول وحدانيّة الله على سبيل المجاز، واعتبارهم الثليث حقيقةً، وإن كانوا على استعداد لقبول الواحدانية على سبيل الحقيقة وبأنّ التثليث مجاز؛ لكانت المسألة بسيطة، ولكنّ العجب هو أنّهم يعدّون الوحدانيّة والتثليث حقيقيّين وواقعيّين! والذي نشهده مؤخّراً في بعض الكتابات الإعلاميّة والتبليغيّة مؤخّراً من عدّد من الكتّاب غير المطّلعين، والقائلين بالتثليث المجازي؛ إنّما هي كتابات ريائيّة لا تتّفق مع ما في المصادر النصرانيّة وعقائدهم الأصليّة لكبار علمائهم ومحقّقيهم..

٢٦. التثليث؛ ولاسيما التثليث في الوحدة (التثليث في عين الواحدانيّة) مطلب غير معقول تماماً ومخالف بالمرة لبداهة العقل.. ونحن نعلم بعدم إمكانيّة تصور انفصال الدين عن العقل والعلم، إذ العلم الحقيقي يجب أن يتطابق ويتناسب مع المذهب الواقعي دوماً؛ ليسيرا معاً باستمرار.. والحديث عن لزوم التعبّد في الدين حديث غير صحيح.. وذلك إذا تعطّل العقل لدى قبول أساسيّات الدين؛ وتقدّمت مسألة التعبّد الجاهل والأعمى؛ فإنّه لن

يبقى ثمّ فرق وتفاوت بين الأديان؛ وهناك لا يبقى دليل على لزوم أن يعبد الإنسان ربّه أو أن يعبد صنماً.. وما المبرّر للنصارى لأن يبشّروا بدينهم أو أن يبلّغوا لدين آخر؟! وعليه؛ فإنّ الميزات التي يضعونها للنصرانيّة ويصرّون على جرّ واجتذاب الناس إليها؛ هي بحدّ ذاتها دليل على أنّ الدين يجب أن يتطابق مع العقل والمنطق، وهو ما خالفوه تماماً بادّعائهم في مسألة التثليث؛ الدالة على فصل العقل عن الدين..

٢٧. أساساً؛ ما حاجة الله الأزليّ الأبدي والمدبّر لشؤون ومصير جميع الموجودات منذ بدء الخليقة وإلى نهايتها.. ما حاجته إلى ولد؟ فهل شأن الخالق كشأن المخلوق يريد وليّاً للعهد يخلف بعد موته؟! وعلاوة على ذلك؛ فهو مالك ما في السماوات وما في الأرض، وكلّ شيءٍ مخلوق لخالقيّته، والمسيح أحد مخلوقاته، فكيف يمكن القول باستثناء هذا المخلوق؟ وهل يصح أن يكون المملوك والمخلوق ابناً للمالك والخالق؟ ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ فالله عزّوجلّ؛ ليس خالق الأشياء والمخلوقات ومالكها؛ بل هو حافظها ومدبّرها ورازقها ومديرها ﴿ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾.

٢٨. قد أوردت دلائل عديدة في بحث التوحيد لوحدانيّة الذات الإلهيّة، وهي تنفي فكرة ازدواجيّة الربّ المتعال وتثليثه وتعدّده.. فالإله له وجوده اللامتناهي، وهو الأزليّ الأبدي وغير المحدود من حيث العلم والقدرة والقوّة.. و نحن نعلم أنّ اللّا نهائي لا يتصوّر مع التعدّد و الازدواجيّة والتثليث..

٢٩. النصارى اعتقدوا بالتثليث، فواجهوا مسألة غير عقلانيّة، ذلك أن معادلة الواحد المساوي للثلاثة لا يتقبّلها حتى تلامذة الابتدائيّة، ولهذا؛ تراهم يقولون إنّ هذه المسألة لا ينبغي أن تفهم بمقياس العقل دون القلب والتعبّد، وأنّها لازمة القبول بهذا المقياس، ومن هنا؛ بدأت مسألة الانفصال بين الدين وبين منطق العقل؛ حتّى هوت النصرانيّة في وادٍ سحيق؛ اذ لا حيثيّة عقليّة في الدين بمقدار حيثيّتها التعبّدية القلبيّة، وحيث يتجلّى انفصال العلم عن

المذهب ويحصل هذا التضادّ غير المعقول، إذ العلم يقول بعدم التساوي بين الواحد والثلاثة، إلّا أنّ النصرانيّة تصرّ على التساوي.. وهنا ينبغي الالتفات إلى بعض النقاط الخاصّة بهذه الديانة..

٣٠. كيف يمكن للذات الإلهيّة أن تظهر بقالب إنساني وتكون بحاجة إلى جسم ومكان وطعام ولباس وأمثال ذلك... فتحديد الإله الأزلي والأبدي في جسم إنسان ووضعه في رحم الأمّ؛ من أقبح وأسوأ التهم التي تُلصق بالذات الإلهيّة المقدّسة؛ وكذلك هي نسبة الولد إلى الله التي تستلزم عوارض جسمانيّة مختلفة؛ إذ هي نسبة غير منطقيّة وغير معقولة تماماً، وذلك لأنّ كلّ من لا يعيش في البيئة النصرانيّة؛ ولم يعتد هذه التعاليم الخاطئة والموهومة منذ طفولته؛ فإنّه يعجز عن تقبّلها؛ بل ويشمئزّ منها لمخالفتها إلهام الفطرة والعقل، وإن كان النصارى لا يبالون لتعابير من أمثال الله الأب والله الابن؛ فذلك عائد إلى كونهم قد أنسوا لها منذ طفولتهم.

٣١. كما كتب بعض المؤرّخين، فإنّ مسألة التثليث قد انتشرت بحدود القرن الميلادي الثالث بين النصارى، وهي المسألة التي طرأت عليهم بسبب الغلوّ واختلاط النصارى بأقوام أخرى. لاسيّما اليونانيين الوثنيّين. واحتمل البعض أن يكون تثليث النصارى مستلٌّ من ثالوث الهنود (حيث كانوا يعتقدون بثلاثيّة الآلهة) علماً أنّ أيّاً من الأناجيل لم تتطرق إلى هذه المسألة، ولهذا؛ وجدنا محقّقي النصرانيّين يذهبون إلى أنّ مسألة التثليث خفيّة المنشأ، وقال المؤرّخ الأميركي: ولكنّ مسألة التثليث غير واضحة وخفيّة في العهدين القديم والجديد.[1]

٣٢. لوحظ مؤخّراً أن جمعاً من المبشّرين النصرانيين. ولمخادعة بعض الجهال. يعمدون لدى الدعوة لعقيدة التثليث إلى التشبّث بأمثلة سفسطائيّة، كالقول في الوحدة في التثليث

١- القاموس المقدّس، ص ٣٤٥.

(الوحدة في عين التثليث) وإمكانيّة تشبيهها بالشمس جرماً ونوراً وحرارة؛ باعتبار أنّ هذه الأشياء الثلاثة واحدة في الوقت نفسه.. أو تشبيه ذلك بموجود واحد يقف إزاء ثلاث مرايا، فيكون ثلاثاً مع أنّه واحد في الحقيقة، أو تشبيه ذلك بمثلّث له ثلاث زوايا من الخارج، ولكنّنا إذا أوصلنا هذه الزوايا الثلاث بخطّ داخلي واحد؛ وصلنا إلى نقطة واحدة..

٣٣. يقول بعض النصارى أحياناً: إن قلنا بأنّ المسيح هو ابن الله، فمثلنا مثل من يقول بأن الحسين (ع) ثار الله وابن ثاره (دم الله وابن دم الله) أو كما يطلق على أمير المؤمنين علي (ع) بأنّه (يد الله)...

ولكن ينبغي أن نجيب قائلين:

أوّلاً: أنّ هذا المنحى خطأ كبير، حيث قال البعض بأنّ الثأر بمعنى الدم، إذ الثار في لغة العرب لم يأتِ بمعنى الدم، وإنّما ورد واستعمل بمعنى: دية القتيل وما يدفع بدل الدم المراق.. وعليه؛ فإنّ (ثار الله) بمعنى: يا من ديته متعلّقة بالله، أو أنّ الله هو المطالب بدمه وببديل دمه المراق، ويعني أيضاً: إنك يا حسين! إنك لست من أسرة يعمد زعيمها إلى المطالبة بقيمة دمه إذ قتلت، لأنّ دمك لا يعادله شيء؛ وهو المستقر في بطنان العرش.. فأنت يا حسين متعلق بما هو أرقى من عالم الوجود وهو الذات الإلهيّة المقدّسة، وعليه؛ فقد كتب الله على نفسه أن يكون هو المطالب بدمك وحياتك..

ثانياً: إذا عبّر عن رجال الله بعبارة (يد الله) وأمثالها، فهو من باب الكناية والمجاز، إذ الله ليس جسماً حتّى تكون له أعضاء من جملتها اليد.. ولكن هل ثَمّ نصراني قادر حين وصف المسيح (ع) بكونه ابن الله على أن يعدّ ذلك من باب الكناية والمجاز.. لا ريب في عدم وجود هذا النصرانيّ، ذلك لأنّ قواعد ومصادر النصرانيّة قد اتّخذت من المسيح (ع) ابناً حقيقيّاً مباشراً لله عزّوجلّ.. والنصارى يقولون: هذه الصفة خاصّة بالمسيح دون غيره، وما اليافطات الإعلاميّة التي عزت ذلك إلى المجاز إلّا خديعة تستهدف العوام.. (لاحظوا العبارة أدناه التي

دونها مؤلف كتاب (القاموس المقدّس) في لفظة (الله): ولفظ ابن الله أحد الألقاب لمنجينا وفادينا التي لا تطلق على شخص غيره؛ إلّا إذا علم من قرائن واضحة بأنّ المقصود من (ابن الله) ليس هو الابن الحقيقي لله!!!

الآية ١٧٢

لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾

شأن نزول الآية

روى جمع من المفسّرين في شأن نزول هذه الآية أنّ طائفة من نصارى نجران جاؤوا رسول الله(ص) وقالوا: لماذا تعيب على أبينا المسيح؟! فقال لهم: وبمَ عبتُ عليه؟! فقالوا: إنّك تقول إنّه عبد الله ورسوله.. فنزلت هذه الآية وردّت مقولتهم..[1]

النقاط المستفادة من الآية

١. كيف تذهبون إلى ألوهيّة عيسى(ع)؛ والحال أنّه لا يستنكف من العبوديّة لله تعالى، وكذلك هو شأن الملائكة المقرّبين ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾.

٢. من المسلّم به أن من يعبد لا يصحّ أن يكون معبوداً؟ وهل يصح أن يعبد نفسه؟ أو أن يكون عابداً ومعبوداً وإلهاً في نفس الوقت؟! وشاهد ذلك ما نقرأه في حديث عن مولانا الإمام الرضا(ع) يدين فيه النصارى المنحرفين حيث ادّعوا ألوهيّة المسيح، إذ قال الإمام لجاثليق النصارى متهكّماً: قد كان عيسى حسناً في كلّ شيءٍ إلا في أمر واحد، وهو أنّ عبادته لم تكن

١- مجمع البيان، ج٣، ص٢٢٥

ذات شأن... فانتفض الجاثليق وقال للإمام: قد أخطأت خطأً كبيراً.. بل كان من أعبد الناس، فبادره الإمام(ع) من فوره: ولكن من كان يعبد؟ وهل كان يعبد غير الله؟ فهو بإقرارك قد كان عابداً مخلوقاً لله تعالى، ولم يكن معبوداً ولا ربّاً، فأحرج الجاثليق ولم يحرِ جواباً.[١]

٣. (الاستنكاف) بمعنى الامتناع والانزجار عن شيء، وعليه؛ فإنّ لهذه المفردة معنىً واسعاً، وباقترانها إلى كلمة ﴿ يَسْتَكْبِرْ ﴾ تتحدّد في المعنى والمراد، ذلك أنّ الامتناع عن عبادة الله تكون تارة بسبب الجهل والغباء، وتارة تكون بداعي التكبّر والتمرّد، ومع أنّ السببين معصية، إلّا أنّ السبب الثاني أقبح وأسوأ بمراتب.

٤. قد يكون سبب ذكر عدم استنكاف الملائكة عن العبوديّة لله تعالى هو أنّ النصارى قائلون بثلاثيّة المعبود (الأب والابن وروح القدس، و بعبارة أخرى: الإله الأب و الإله الابن و الواسطة بينهما) وعلى هذا؛ فالمراد من هذه الآية نفي المعبود الآخر، أي: المسيح والملك روح القدس ليثبت توحيد الله، وقد يكون ذلك بسبب أن تكون الآية رادّة على شرك النصارى والإشارة إلى شرك عبدة الأصنام العرب الذين كانوا يعتبرون الملائكة بناتاً لله وجزءاً من الربّ!!

٥. الذين يحجمون عن عبادة وعبوديّة الله ربّ العالمين تكبّراً واستنكافاً، سيحضرهم الله في يوم القيامة جميعاً وسيعاقب كلّاً منهم بما يناسبه ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا ﴾.

١- عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص١٥٨

الآية ١٧٣

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

النقاط المستفادة من الآية

١. طبقاً للحديث القائل: «الدنيا مزرعة الآخرة»[١] أي أنّ ما زرعه المرء سيحصد زرعه في الآخرة، وهكذا سيحظى عباد الله الصالحون بالمغفرة والرحمة، أمّا الذين عبدوا غير الله تكبّراً واستنكافاً سيجزون بأشدّ العذاب.

٢. أينما كنّا ومهما فعلنا، لابدّ أن تكون نوايانا رضاً لله تعالى، وينبغي البحث عن رضوان الله بالعمل الصالح.

٣. العمل والصلاح يجب أن يقترنا معاً، إذ لا صلاح بلا عمل، ولطالما جمع القرآن المجيد العمل الصالح إلى الإيمان (سورة البقرة، الآيات ٢٥ و٨٢ وسورة آل عمران، الآية ٥٧ وسورة النساء، الآية ٥٧) رغم أنّ الايمان من العمل الصالح طبقاً لبعض الروايات المصرّحة بأنّ (الإيمان هو العمل)[٢] ولكن العمل جوانحيٌّ جسمانيٌّ وكذلك قلبي وعقلي صادر عن إرادة تجعل الإنسان حاكماً على قلبه وروحه، إذ الإرادة إحياناً. وربّما تكون دائماً. أصعب وأثقل من

١- مجموعة ورام، ج١، ص١٨٣

٢- الكافي، ج٢، ص٣٤

العمل بالجوارح والجسم.

٤. فالمسلم المؤمن يجب أن يكون عاملاً، وأن يكون عمله في إطار الصلاح والخير.. وإنّ القانون والمعيار في تحديد الصلاح من الفساد والخير من الشرّ في العمل في مدى استهدافه رضا الله تعالى من عدم ذلك. وبديهيٌّ أنّنا إذا وفّقنا للعمل إرضاءً لله تعالى نكون قبل ذلك قد وعينا حسن وجمال العمل ومطلوبيّته ثم القيام به.. إذن؛ في باطن اكتساب الرضا الإلهي ثمّ معرفة وإدراك وفطنة والتفات عام وتدبير إلهي يدفع المؤمن إلى العمل..

٥. المراد بالإيمان؛ هو الإيمان بجميع الأنبياء. أمّا المراد بـ﴿ عَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ أنّ المؤمن ينبغي له القيام ـ ما أمكنه ـ بجميع الأعمال الصالحة، إذ من المعلوم أنّ كل فرد مؤمن يقوم بالأفعال المباحة كما تصدر عنه الأفعال المكروهة.. وإنّما المقصود هنا؛ هو أنّه يقوم بجميع الأفعال الواجبة ويمتنع عن الأفعال المحرّمة..

٦. أنّ المراد بقوله سبحانه: ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أنّ الله حين يوفّي عباده الصالحين أجورهم في القيامة، فإنّما يكون ذلك من حيث رحمته وفضله وكرمه تبارك وتعالى، وليس ذلك حقّاً عليه سبحانه أو كونه مديناً لأحد من عباده، ذلك لأنّ كلّ فرد تقتضي عبوديّته أن يشكر ويطيع الله ويعبده.. ومن الطبيعي أنّ ذلك الأجر وفاء بالوعود التي قطعها الله تعالى على كل فعل صالح يصدر عن الإنسان، أو كونها وعود قرآنيّة ونبويّة وإماميّة...

٧. عبارة: ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ تبيّن أنّ العبد المؤمن ذا الأفعال الصالحة ينبغي له أن يعلم بأنّه تبارك وتعالى في يوم القيامة لا يفي بما وعد بواسطة القرآن والأنبياء والأئمّة عليهم الصلاة والسلام ويعطي من الأجر فحسب؛ وإنّما يزيد في الأجر والتفضّل من رحمته وثوابه بأكثر ممّا وعد..

٨. قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ... فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ إشارة إلى استنكاف وامتناع المؤمنين عن الاعتقاد بالتوحيد كما هو مذهب النصارى القائلين بالتثليث، أو كما

قال اليهود وسائر المشركين الذين تمرّدوا بشركهم وبتكبّرهم على تعاليم الأنبياء ورسالات الله عزّوجلّ، ومن الطبيعي أن يكون هذا النوع من الأشخاص المشركين والمنحرفين الضالّين عن الأوامر الربانيّة عرضةً لعذاب الله الأليم..

٩. قول الآية الشريفة: ﴿ وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴾ الوارد في منتهى النصّ العظيم إشارة إلى أنّ أمثال النبيّ عيسى أو مريم أو روح القدس عليهم السلام منزعجون للغاية من عقيدة التثليث الضالّة.. وإلى أنّ الذين يظنّون ـ جهلاً وضلالاً ـ بأنّ عيسى أو مريم(ع) سيخلّصانهم سيلمسون ضلالة أوهامهم الفاسدة، وكذلك هو شأن المتوهّمين من اليهود المنحرفين عن جادّة التوحيد الأصيل؛ إذ تصوّرا بأنّ موسى(ع) أو سائر أنبياء بني إسرائيل سينقذونهم من العذاب.. كما هو اعتقاد المشركين القائلين بأنّ أصنامهم ستشفع لهم.. إذ هو اعتقاد شركي خاطئ ضالّ.. ذلك أنّه لا وليّ ولا نصير في القيامة إلّا الله تعالى ومن يأذن له الله وقال صواباً...

الآية ١٧٤

يَا أَيُّهَا النَّاسُ
قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾

النقاط المستفادة من الآية

مقدّمة

تتمّة للبحوث الخاصّة بانحرافات أهل الكتاب عن أصل التوحيد وقواعد تعليمات الأنبياء في الآيات السالفة، ها هي هذه الآية والآيات التي ستليها تتناول القول الفصل وسبيل النجاة..

١. المخاطب بهذه الآية جميع أهل الأرض في جميع العصور، حيث قال الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله ناطقاً عن الله عزّوجلّ لجميع بني البشر: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

٢. (البرهان) في مذهب بعض محقّقي اللّغة مأخوذ من مادة (بره) على وزن (فرح) بمعنى: الأبيض، ومن هنا؛ كانت الاستدلالات الواضحة تكشف عن وجه الحقّ بالنسبة للمستمع، حيث تضفي عليه نورانيّة ووضوحاً وبياضاً.. تسمّى براهين..

٣. للدليل والبرهان دور مؤثّر في نمو وتربية بني آدم، ونسبة البرهان إلى الربّ هنا توحي أنّ مجيء البرهان يحقّق ربوبيّة الله على الناس ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

٤. طبقاً لما ذهب إليه بعض المفسّرين إضافة إلى وجود بعض القرائن، فإنّ المصداق البارز والمراد من (البرهان) في هذه الآية هو نفس النبيّ المصطفى(ص) باعتباره الحجّة والبرهان الواضح القاطع على حقّانيّة رسالته، وبالنظر إلى الآية (١٧٠) والآيات السابقة؛ يمكن القول إنّ

الأمر الذي قام عليه البرهان هو حقّانيّة الرسالة المحمّديّة.. والمؤيّد لهذا الاستنتاج أعلاه قول مولانا الإمام الصادق(ع) بما يتعلّق بالبرهان في الآية أعلاه، إذ قال: البرهان محمّد(ص)، والنور علي(ع)..[1] وكذلك سمّته آيات قرآنيّة أخرى ﴿ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

٥. فسّر (البرهان) في أحاديث جمّة رويت عن المعصومين عليهم السلام ونقلت في تفسير (علي بن ابراهيم) و(فرات الكوفي) و(العياشي) بأنّه شخص رسول الله صلوات الله عليه وآله، وأنّ النور هو أمير المؤمنين(ع)..[2] ولا منافاة بين هذا التفسير الحقّ وبين قول بعض المفسرين بأن (النور) في الآية هو القرآن، لأنّه يمكن أن يكون (النور) ذا معنىً واسعٍ يشمل القرآن والإمام المعصوم وفي مقدمتهم أمير المؤمنين(ع)، وهم الحافظون للقرآن ومفسّروه والمدافعون عنه..

٦. الله تعالى المنزِل للقرآن للناس جميعاً ومدبّر شؤونهم، إذ أنّ غايته السامية من بعثته الأنبياء وبعثة النبيّ المصطفى(ع) تربية وتعليم جميع بني البشر: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

٧. مخاطب القرآن جميع أفراد الإنسان، والقرآن كتاب مبين ويبيّن طريق الهداية لهم جميعاً ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾.

٨. القرآن نور ساطع وبرهان قاطع على التوحيد ووحدانيّة الله في الاستنتاج أعلاه ﴿ بُرْهَانٌ ﴾ أي القرآن ومتعلّقه بقرينة الآيات السالفة حيث التوحيد والوحدانيّة والآية التالية: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ ﴾ تدلّ على هذا المعنى ﴿ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾.

١- تفسير العياشي، ج١، ص٢٨٥

٢- تفسير القمي، ج١، ص١٥٩ وتفسير فرات الكوفي، ص١١٦وتفسير العياشي، ج١، ص٢٨٥

الآية ١٧٥

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (١٧٥)

النقاط المستفادة من الآية

١. (الاعتصام) في اللّغة بمعنى الامتناع عن الذنوب والفتن، وحين يقال: اعتصم بالله، فالمعنى هو الاستعانة بالله والامتناع عن الذنب والشرّ.

٢. مصطلح (العصمة) مأخوذ من مادّة وجذر الاعتصام، وهي بمعنى أنّ الصيانة التي تتمّ بلطف الله وحكمته تقي صاحبها زلل السقوط في الخطأ فيقال لهكذا عبد: معصوم...

٣. تتوفّر العصمة من طريقين:

أ: الأوّل؛ أن يعصم الله عبده من خداع المخادعين ويحفظه من الوساوس الباطنيّة والخارجيّة كما قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ أي: يحفظك ويصونك ويحصّنك من شرّ الأشرار والظلمة..

ب: والآخر؛ أن يطيع العبد مولاه بحيث لا يخطئ ويمتنع عن ذلك كلّه حتّى يحفظه المولى من الزلل والذنب والخطأ.

٤. قوله تعالى: ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ إنّ أحد آثار ونتائج الاعتصام بالله المتعال . في الواقع . قد ذكر في سورة آل عمران، الآية (١٠١) حيث قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

٥. هذه العبارة تحدّد ثواب الذين يتّبعون برهان الله والنور الذي نزل من عنده.. أي: المتمسّكين بالقرآن وأهل البيت ويتّبعونهم، إذ سرعان ما يجزيهم جزيل الجزاء، وفضلاً عن

ذلك؛ فهم يدخلون رحاب رحمته وفضله؛ ثمّ يهديهم إلى صراط مستقيم، وهذا كلّه وسواه من آثا رالاعتصام بالله تعالى الوارد ذكره سلفاً في الآية (١٠١) من سورة آل عمران: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فتكون العصمة والتمسّك هو الاهتداء إلى الصراط المستقيم..

الآية ١٧٦

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

شأن نزول الآية

كثير من المفسّرين نقلوا في شأن نزول هذه الآية عن جابر بن عبدالله الأنصاري أنّه مرض مرضاً شديداً؛ فعاده رسول الله(ص)، وتوضّأ ثمّ رشّ عليه من ماء وضوئه.. وحيث كان جابر مشرفاً على الموت قال: وارثي أخواتي؛ فكيف يكون ميراثهنّ، فنزلت هذه الآية المسمّاة بآية الفرائض وحدّدت ميراثهنّ..[1] (وقد نقلت هذه الرواية بتفاوت بسيط في تفسير التبيان ومجمع البيان وغيره).[2]

النقاط المستفادة من الآية

١. يذهب البعض إلى أن هذه الآية هي آخر ما نزل في الأحكام الإسلاميّة على الرسول الأكرم(ص)..

١- الدر المنثور، ج٢، ص٢٤٩

٢- التبيان، ج٣، ص٤٠٨ ومجمع البيان، ج٣، ص٢٢٩

٢. ﴿ الْكَلَالَةِ ﴾ بمعنى الورثة الذين لا ولد ولا والد بينهم. وفي اللّغة تعني الإحاطة، وللتاج يقال: إكليل لإحاطته بالرأس، ويقال للآباء والأولاد: لصيق الميّت لملاصقتهم له، ويقال للإخوة والأخوات كلالة لإحاطتهم بالميّت.

وجاء في تعريف آخر: إنّ الكلالة هم الأقارب المحيطون بالميّت، دون المتّصلين بالميت (الموروث) بلا واسطة. ونعلم أنّ الأب والأمّ متّصلان بالميت كما الأولاد، وبما تقدّم؛ يتبيّن أنّ الأخوات والإخوة هم المحيطون بالإنسان دون الأولاد والأب والأمّ..

٣. مسألة الإرث من المسائل الاجتماعيّة في الإسلام؛ وقد بحثت في مطلع هذه السورة، وها هي خاتمة السورة قد أعادت بحثها. والقرآن الحكيم بيّن تفاصيل أحكام الإرث، ذلك لأنّ الإرث بحدّ ذاته من العوامل التي تربط بين أفراد الأسرة الواحدة من جهة، كما يعدّ سبيلاً من سبل توزيع الثروة ومواجهة تكديسها من جهة ثانية، ومن الجهة الثالثة؛ يعدّ موضوع الإرث وأصله نوع احترام لحقوق الفرد (الميّت) فهو الذي تحمّل المشاق في جمع الثروة الموروثة، وها هو الآن جدير بأن تقسم تركته بين ذويه (وارثيه) بعد أداء ديونه وتنفيذ وصيّته.

٤. يفهم من هذه الآيات (آيات الإرث) أنّ للإرث طبقات، فإذا وجدت الطبقة الأولى الأقرب للميت؛ منعت الطبقة الثانية وأفرادها من أن يكون لهم نصيب وسهم في التركة.

طبقات الإرث

الطبقة الأولى: الوالدان والأولاد.

الطبقة الثانية: الأخت والأخ والجدّ والجدّة.

الطبقة الثالثة: العمّ والعمّة والخال والخالة.

ومن وجهة النظر القرآنيّة؛ فإن كان على قيد الحياة أحد من الطبقة الأولى (الوالدان والأولاد) فإنّ أفراد الطبقة الثانية (الأخوات والإخوة والأجداد) لا ينالون شيئاً من الإرث. ومع وجود أحد أفراد الطبقة الثانية؛ فإنّ الطبقة الثالثة بأفرادها (العمّة والخالة والخال والعمّ) لا يصلهم سهم

من الميراث..[١]

٥. الأخوة والأخوات ـ بعد الأب والأم والأولاد ـ هم الطبقة الثانية، ومتى لم يكن للميت إلّا أخت واحدة؛ أخذت نصف التركة، ومتى ما كان له أختان، كان لهما ثلثا المال وقسمتاه بينهما.. أمّا إذا كان العدد أكثر من اثنتين أو كانوا مختلطين، أي: عدّة أخوة وأخوات؛ قسم المال طبقاً لقاعدة ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ وهذا في حال لم يكن أحد أفراد الطبقة الأولى (الأب والأم والأولاد) قد توفّي.

٦. بيّنت هذه الآية ثلاثة قوانين جديدة لتقسيم الإرث؛ وهي عبارة عن:

الف: إن كان الميت رجلاً ولم يكن له ولد، وكان له أخ (شقيق أو من الأب فقط)، أخذ نصف المال.

ب: إن كان الميت امرأة ولم يكن لها ولد، وكان لها أخ (شقيق أو من الأب فقط) أخذ جميع المال.

ج: إن لم يكن للميت ولد، وكان له أختان، كان سهمهما ثلثي المال.

د: إن كان ورثة الميت أخواته وإخوانه، أخذ كلّ من الإخوة ضعفي الأخت.

٧. هذه الآية تبيّن مقدار إرث الأخوة والأخوات، وكما ذكرنا في أوائل هذه السورة عند تفسير الآية (١٢) بخصوص إرث الأخوات والإخوان؛ حيث نزلت آيتان قرآنيّتان؛ إحداهما الآية (١٢) والأخرى الآية محطّ البحث؛ وهي آخر آيات سورة النساء... ومع وجود التفاوت بين هاتين الآيتين في بيان مقدار الإرث، إلّا أنّه كما بيّنّا في بداية السورة أيضاً، فإنّ كلّاً منهما ناظرة إلى نوع من الإخوة والأخوات، فالآية (١٢) ناظرة إلى الإخوة والأخوات من الأمّ، ولكنّ الآية مورد البحث تناولت الأخوات والإخوة من الأب والأمّ؛ أو من الأب فقط، وذلك أنّ الذين يتّصلون بالواسطة

١- الميزان، ج٤، ص٢٢٧ واللمعة الدمشقية، ص٢٢٣.

مع الشخص المتوفّى؛ يكون مقدار سهمهم بمقدار ومستوى صلتهم.. بمعنى أنّ الإخوة والأخوات من الأمّ يأخذون بمقدار سهم الأمّ؛ وهو الثلث. والإخوة والأخوات من الأب، أو من الأب والأمّ يأخذون سهم الأب؛ وهو الثلثان.. ولأنّ الآية (١٢) التي تتحدّث عن إرث الإخوة والأخوات تناولت الثلث، والآية مورد البحث تناولت الثلثين.. ومن هنا يتّضح أنّ الآية السابقة تحدّثت عن فريق الإخوة والأخوات المتّصلين بالميّت عن طريق الأمّ، ولكنّ هذه الآية تحدّثت عن الإخوة والأخوات المتّصلين بالمتوفّى عن طريق الأب أو الأب والأمّ معاً.. فضلاً عن الروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، وهي تثبت هذه الحقيقة..[١] وعلى أيّ حال؛ إذا ما تعلّق ثلث أو ثلثا التركة بالأخ أو الأخت، فإن المتبقّي منها يقسّم ـ طبق القانون الإسلامي ـ بين سائر الورثة..

٨. واضح أنّ هذه الآية تبيّن مقدار إرث الأخوات والإخوة بشرط أن لا يكون للميت ولد؛ ولم تتناول الآية في متنها وجود أو عدم وجود أب وأمّ، ولكن بالنظر إلى مفاد الآيات الأولى من هذه السورة، فإنّ الأب والأم يقفان في مصافّ الأولاد، أي أنّهما من أفراد طبقة الإرث الأولى، فيتضح أنّ المراد من هذه الآية هو حيث لا ولد في البين ولا أب ولا أم، هذا؛ وقد ورد هذا المقطع الشريف من قوله تعالى هنا: ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ﴾ أي: مع وجود البنت للميّت، فإن أخاه وأختاه لا يرثان شيئاً، لأنّه تعالى قد اشترط إرثهما مع عدم الولد للميّت.. والولد يشمل الابن والبنت..

٩. القرآن الكريم وفي الآيات الأولى لهذه السورة المباركة بيّن قوانين إرث الأب والأمّ والولد، وبعد ذلك بيّن حكم إرث المرأة والزوج، وكذاك الأخوات من الأمّ.. وفي ختام السورة أشار إلى أحكام إرث الأخوات والإخوة من الأب والأم أو من الأب فقط. ويبدو أنّه قد اتّضح حكم الأخ

١- الكافي، ج٧، ص١٠٣

والأخت من الأب وأنهما يرثان حين لا يكون الأخ والأخت من الأم، فإذا توفّرا، لم يرث ذاك الأخ وتلك الأخت الذين يتّصلان من الأب قط..

١٠. المسألة الأخرى هي قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ... ﴾ فهو يبيّن أنّ أقارب الميّت لهم سبب في الإرث، وعليه؛ فإنّ كلّ من تربطه صلة قرابة هي أقرب للميّت يكون أحقّ ـ في مقرّرات الإرث ـ ممّن هو أبعد.. وهذه المسائل وقع البحث فيها بين الفقهاء وخبراء الفقه، ولمزيد من الاطّلاع؛ راجع المصادر الفقهيّة في ذلك.

١١. المسألة المهمّة والضرورية هنا هي فيما تتعلّق بأخذ الأخت نصف ما يأخذ الأخ وأن الأختين تأخذان الثلثين، فهي ليست أن يكون ما تبقّى من مال الميت بلا وارث، وإنّما يؤخذ النصف من باب سهمه والباقي يؤخذ من باب الردّ، وهذا الحكم جارٍ أيضاً في الأختين..

١٢. قوله تعالى: ﴿ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ الواقع في ذيل الآية الأخيرة تبيّن أنّ الله تعالى عالم بجميع ما يحتاجه العباد من أمور معاشهم ومعادهم وما توجب حكمته..

في رحاب سورة النساء المباركة

بلطف من الله ورحمة جرى التوفيق للانتهاء من تفسير سورة النساء المباركة؛ وهي رابع سور القرآن المجيد؛ ونحن هنا على أبواب السورة الخامسة.

وقد طالعتنا هذه السورة بعشرات الدروس الاجتماعية والمسائل الصانعة والمربّية للإنسان، وقد مررنا خلال ذلك بحدائق وجنان المواعظ السماويّة وبساتين العطر المفعمة بأنواع وأقسام فاكهة المعرفة والبصيرة والهداية والانطلاق نحو الحقّ والإيمان وصناعة الذات والآخرين.. وهنا طالعتنا جملة مواضيع تضمّنتها هذه السورة المباركة:

١. أصل التوحيد وعبادة الواحد الأحد.

٢. مواجهة العنصريّة.

٣. الوقاية والحذر.

٤. صلة الأرحام.

٥. بناء الذات.

٦. أطر مساعدة المحرومين.

٧. الوصيّة بالأيتام ومراعاة حقوق المحرومين.

٨. الأثر الطبيعي لعاقبة السلوك.

٩. قوانين الإرث.

١٠. التوبة وشروطها.

١١. الدفاع عن حقوق وكرامة المرأة.

١٢. احترام قوانين تأسيس الأسرة وحرمة الزواج من المحارم.

١٣. الزواج الموقّت.

١٤. هدفيّة القوانين الإلهيّة.

١٥. الأمن الاقتصادي.

١٦. تحريم ا لانتحا ر.

١٧. أصل الإدارة في نظام الأسرة.

١٨. التعاون في هذا المجتمع الصغير.

١٩. الاحترام المتبادل للحقوق.

٢٠. سبيل مواجهة الأزمات أو الأسلوب الحكيم.

٢١. العدالة الالهيّة.

٢٢. طهارة الجسم والروح.

٢٣. مصيبة تحريف الحقائق.

٢٤. عاقبة معاندي الحقّ.

٢٥. أعظم الآيات بشارةً.

٢٦. آفة الحسد.

٢٧. الأمانة وتحمّل مسؤوليّتها.

٢٨. العدالة في مختلف الاتّجاهات.

٢٩. البشارة للجديرين بها.

٣٠. الاستعداد الدفاعي.

٣١. جهاد التحرير

٣٢. منطق الخديعة.

٣٣. مصدر الخير والانتصار.

٣٤. الأصل الخالد للرسالة النبوية.

٣٥. منع الشائعات.

٣٦. الأدب الإنساني والإسلامي.

٣٧. في إطا رحقّ الحياة.

٣٨. أفضليّة المجاهدين في سبيل الله.

٣٩. الهجرة وأجرها العظيم.

٤٠. الصلاة وذكر الله في جميع الأحوال.

٤١. المواجهة الشاملة للاعتداء.

٤٢. المناجاة في ثلاثة موارد فقط.

٤٣. خطيئة الشرك القاتلة.

٤٤. أفضل المدينين

٤٥. الصلح والسلام والتعايش

٤٦. شروط تعدّد الزوجات.

٤٧. انهضوا من أجل العدالة.

٤٨. مَعين العزّة والعظمة

٤٩. ممنوعيّة المشاركة في مجالس الرذيلة.

٥٠. آفة الرياء والتظاهر.

٥١. معيا رمعرفة وتمييز المؤمنين المخلصين من غيرهم.

٥٢. سبيل النجاة من آفات الكفر والنفاق والخطيئة.

٥٣. مواجهة الظلم وطلب العدالة.

٥٤. الإنصاف في رحاب الخطاب.

٥٥. حقيقة المسيح؛ ذلك العبد المصطفى والنبيّ الكبير.

٥٦. تقييم عقيدة التثليث.

٥٧. مقام الملائكة الرفيع.

٥٨. رحاب عظمة القرآن والرسول.

٥٩. آفاق عظمة النبيّ(ص).

وعشرات المسائل اللّطيفة والبنّاءة والدروس العقائديّة والفكريّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والأسريّة والإنسانيّة الأخرى.

فهرس الموضوعات

الآخرة: ٥٠٠

إبراهيم(ع): ٤٧٥، ٥٨٧

ابن السبيل: ١٩٠

الإثم: ٢٣٧، ٢٤٧، ٤٢٦، ٤٣٢، ٤٣٣

الآثمة: ٢٩٤

الأجر: ٣١٦، ٥٥٠، ٥٨٥

الإحسان بالوالدين: ١٩٠

الإحسان: ٤٧٥

الأذى: ٨٥، ٤١١

إرث الرجال: ٤٨

إرث النساء: ٤٨

الشهادة: ١٦٦

الإرث: ٤٨، ٥٢، ٥٧، ٧١، ١٠٢، ١٦٦، ٦٢٩

الأرض: ٤٩٦

الأزواج: ٢٦٦

الأسباط: ٥٨٧

الاستغفار: ٢٩٠، ٤٢٤، ٤٣١

الاستهزاء: ٥٢٤

اسحاق(ع): ٥٨٧

الإسلام: ٣٧٧

اسماعيل(ع): ٥٨٧

أصحاب السبت: ٢٣٤

الإصلاح: ١٧٨، ٤٤٠

الإطاعة: ٢٧٣، ٣٠٦، ٣٣٣، ٣٣٥

الإعتصام بالله: ٥٣٨

الإعتصام: ٦٢٧

الإفتاء: ٦٢٩

الإفتراء: ٢٤٧

أكل المال بالباطل: ١٩، ٤٤، ٥٤، ١٥٢، ١٥٥، ٥٨٢

الألم: ٤١٨

الأمانة: ٢٦٨

الأماني: ٤٥٩

الأمن: ٣٤٠

الأنثى: ٥٧، ٤٤٨، ٦٢٩

الإنذار: ٥٩٤

الإنفاق: ١٦٨، ٢٠٦، ٢١١

اولي الأمر: ٢٧٣

أهل الكتاب: ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٤٧، ٢٤٩، ٣٧٧، ٥٥٢، ٥٥٤، ٥٥٨، ٥٦٢، ٥٦٤، ٥٧١، ٥٧٤، ٥٩٢، ٦٠٨

الإيمان: ٢١١، ٢٣١، ٢٦٣، ٢٧٣، ٥٠٦، ٥٠٩، ٥١٨، ٥٣٣، ٥٣٨، ٥٤٧، ٥٥٠، ٥٨٥، ٦٢١

أيوب (ع): ٥٨٧

البأس: ٣٤٣

البخل: ٢٠٣

البروج المشيّدة: ٣٢٧

البرهان: ٦٢٤

البشارة: ٥٩٤

البهتان: ٤٣٣

التثليث: ٦٠٨

التجارة: ١٥٢، ١٥٥

التحريف: ٢٣١

التحية: ٣٥١

التربص: ٥٢٦

التزكية: ٢٤٠

التسليم: ٢٩٤

التقوى: ١١، ٥٢، ٤٨٥، ٤٩٢

التوبة: ٨٥، ٩١، ٩٩، ١٤٧، ١٤٩، ٢٩٠، ٥٣٨

التيمم: ٢٢١

الثبات: ٣١١

الجار: ١٩٠

الجبت: ٢٤٩

الجلود: ٢٦٤

الجمع بين الأختين: ١٢٢

الجنابة: ٢٢١

الجنة: ٧٦، ٢٦٦، ٤٥٧، ٤٦١

الجهاد: ٣١٨، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٤٣، ٣٦٠، ٣٨٢

الجهل: ٩١، ٥٤٢

جهنم: ٢٦٣، ٢٦٤، ٣٧٢، ٣٩١، ٤٤٣، ٤٥٦، ٥٢٤، ٦٠٤

الحب: ٥٤٢

الحجة: ٥٩٤

حدود الله: ٧٦

الحِذر: ٣١١

حرمات النكاح: ١٢٢، ١٢٧

الحرية: ٤٦١

حسد ابراهيم: ٢٥٦

حسن المعاشرة: ١٠٢
الحسنة: ٢١٣، ٣٢٧، ٣٣٠
حقوق المرء: ٤٦١
الحَكَم: ١٧٨،
الحكم: ٥٢٦
الحكمة: ٤٣٥
الحكمية: ٢٨٤، ٤٢١
الحياة الاخرة: ٣١٦
الحياة الدنيا: ٣١٦، ٤٢٩
الخالق: ١١
الخبيث: ١٩
الخدعة: ٥٢٩
الخسران: ٤٥١
الخشية: ٥٢، ٣٢٣
الخوف: ٣٤٠، ٤٢٨، ٤٨٢
الخيانة: ٤٢١، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٣
الخير: ٥٤٥
داوود (ع): ٥٨٧
الدنيا: ٥٠٠
الدية: ٣٦٦
الدَين: ٧١
الذرة: ٢١٣
الذ رية: ٥٢
الذكر: ٥٧، ٦٢٩
الذلالة: ٥٩٩
الذنب: ٤٣١، ٤٥٩
ذ و القربى: ١٩٠
الراسخوان في العلم: ٥٨٥
الربا: ٥٨٢
الربائب: ١٢٢
الرجاء: ٤١٨
الرجال: ١١ ، ١٦١، ١٦٨
الرحمة: ٣٩٠
الرزق: ٣٦، ٥٠
الرسالة: ٢٩٠
الرضاعة: ١٢٢
رؤية الله: ٥٥٢
الرياء: ٢٠٦، ٥٢٩
الريب: ٣٥٥
زبور: ٥٨٧
الزكاة: ٣٢٣، ٥٨٥
الزواج الموقت: ١٢٧

الزواج: ١١، ١١٥، ١١٧، ٤٨٢

الزوج: ١١

الزوجة: ١١

السبت: ٥٥٤

سبيل الطاغوت: ٣٢١

سبيل الله: ٣١٨، ٣٢١، ٣٧٧، ٣٨٢، ٥٩٩

السبيل: ٥٤٧

السفيه: ٣٦

السكران: ٢٢١

السلاح: ٤١١

السلطنة: ٥٣٣

سليمان (ع): ٥٨٧

السماء: ٤٩٦، ٤٧٨

السوء: ٥٤٥

السيئة: ١٥٧، ٣٢٧، ٣٣٠

الشرك: ١٩٠، ٢٣٧، ٢٤٠، ٤٤٦

شفاعة: ٣٤٧

الشقاق: ١٧٨، ٤٤٣

الشكر: ٥٤٠

الشهادة: ٤٤، ٨٠، ٢١٦، ٣١٤، ٥٠٢، ٥٧٤، ٥٩٧

الشهداء: ٣٠٦

الشهوة: ١٤٩

الشيطان: ٢٠٦، ٢٨٤، ٣٢١، ٣٤٠، ٤٤٨، ٤٥١، ٤٥٤

الصاعقة: ٥٥٢

الصالحين: ٣٠٦

الصبر: ١٤٢

الصدقة: ٤٤٠

الصديقين: ٣٠٦

الصراط المستقيم: ٣٠٥، ٦٢٧

الصلاة: ٢٢١، ٣٢٣، ٤٠٧، ٤١١، ٤١٥، ٥٢٩، ٥٨٥

الصليب: ٥٦٤

الضلال: ٢٨٤، ٤٣٥، ٤٤٦، ٤٥١

الضلالة: ٢٢٨، ٣٥٦، ٥٠٦، ٥٣١

الطاغوت: ٢٤٩، ٢٨٤،

الطلاق: ١١٥، ١١٧

الطور: ٥٥٤

الطيب: ١٩

الطيبات: ٥٧٩

الظلم: ٢١٣، ٢٤٠، ٣١٨، ٤٦١، ٥٤٢، ٥٧٩، ٦٠٣
الظن: ٥٦٤
العبادة: ١٩٠، ٦١٩
العجل: ٥٥٢
العدل: ٢٢، ٢٦٨، ٤٨٥، ٥٠٢
العذاب: ٧٨، ٩٩، ٢٠٣، ٣٧٢، ٤١١، ٥١٦، ٥٤٠، ٥٤٨، ٥٨٢، ٦٢١
العزة: ٥١٨
العسرة: ١٦٨
العصيان: ٧٨، ٢١٩، ٢٣١
العفو: ٤٠٠
عيسى (ع): ٥٦٤، ٥٧١، ٥٧٤، ٥٨٧، ٦٠٨، ٦١٩
الغرور: ٤٥٤
الغلف: ٥٥٨
الغلو: ٦٠٨
الغنى: ٤٤، ٤٩٠، ٥٠٢
الغنيمة: ٣٧٧
الفتح: ٥٢٦
الفتنة: ٣٦٣، ٤٠٧، ٤٨٠
الفحشاء: ٨٠، ٨٥، ١٠٢، ١١٩، ١٤٢
الفدية: ٣٦٦
الفضيلة: ١٦١، ٤٣٥، ٦٢١
الفقير: ٤٤، ٥٠٢
الفوز: ٧٦، ٣١٥
قانون الإرث: ٥٧، ٧١
القتل: ١٥٢، ١٥٥، ٣٠١، ٣١٦، ٣٥٨، ٣٦٣، ٣٦٦، ٣٧٢، ٥٥٨، ٥٦٤
القدرة: ٤٩٨
القرآن: ٣٣٧، ٤٢١
القسط: ٢٢، ٤٨٠، ٥٠٢
القسم: ٢٨٧
القصر: ٤٠٧
القصص: ٥٩٢
القعود: ٣٨٢
القلب: ٢٨٩
قول المعروف: ٣٦
كبائر الاثم: ١٥٧،
الكبر: ٦١٩، ٦٢١
الكذب: ٢٤٧، ٢٨٧
الكرامة: ٤٦١

الكره: ١٠٢
الكسب: ٤٣٢، ٤٣٣
الكسل: ٥٢٩
الكفارة: ١٥٧، ٣٦٦
الكفر: ٩٩، ٢٠٣، ٢١٩، ٢٣١، ٢٦٤، ٣٥٨،
٤٠٧، ٤٩٢، ٥٠٦، ٥٠٩، ٥١٨، ٥٢٤، ٥٢٦،
٥٣٣، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٥٨، ٥٦٢، ٥٨٢،
٥٩٩، ٦٠٣
الكلاله: ٦٢٩
كليم الله: ٥٩٢
اللعن: ٢٥٢
اللعنة: ٢٣١، ٢٣٤، ٣٧٢، ٤٥٠
المال: ٣٦، ٤٤،
المتعة: ١٢٧
المجادلة: ٤٢٦، ٤٢٩
المحسنات: ١٢٧
المحيط: ٤٧٨
المذبذب: ٥٣١
المرافقة: ٣٠٦
مرضاته الله: ٤٤٠
مريم (ع): ٥٦٢، ٦٠٨
المستضعف: ٣١٨، ٣٩١، ٣٩٨، ٤٨٠
المسكر: ٢٢١
المسكين: ٥٠، ١٩٠
المشاجرة: ٢٩٤
المصيبة: ٣١٤
معركة البدر: ٣٩١
المعروف: ٤٤٠
المغفرة: ٢٣٧، ٣٩٠، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٣١، ٤٤٦،
٥٠٩، ٦٠٣
المُقيت: ٣٤٧
المملوك: ١٢٧، ١٩٠
المنة: ١٦١،
الموت: ٨٠، ٩٩، ٣٢٧، ٣٩١، ٤٠٢، ٥٧٤
موسى (ع): ٥٥٢، ٥٩٢
الموعظة: ٢٦٨
المِهر: ٣٢، ١٠٢، ١١٥، ١١٧، ١٢٧، ١٤٢
الميثاق: ١١٧، ٣٦٠، ٥٥٤، ٥٥٨
النار: ٥٤، ٧٨، ١٥٥، ٢٦٣، ٢٦٤، ٥٣٦
الناس: ٤٩٨
النبيين: ٣٠٦
النجوى: ٤٤٠

النحل: ٣٢
النساء: ١١، ٣٢، ١٦١، ١٦٨، ٤٨٠، ٤٨٥
النشوز: ١٦٨، ٤٨٢
النصارى: ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٤٧، ٢٤٩، ٥٥٢، ٥٦٤، ٥٧١، ٥٧٤، ٦٠٨
النصيب: ٣٤٧، ٤٥٠
النعمة: ٣١٤
النفاق: ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٩، ٣١٤، ٣١٥، ٣٣٥، ٣٥٦، ٣٦٣، ٥١٦، ٥٢٤، ٥٢٩، ٥٣١، ٥٣٦،
النقير: ٢٥٣
النكاح: ١٩، ٢٢، ٣٢، ٤٤، ١١٩، ١٢٢، ١٢٧، ١٤٢
نوح (ع): ٥٨٧
النور: ٦٢٤
الوالدين: ٥٠٢
الوصية: ٧١
الوعد: ٤٥٧
الولي: ٣٥٨
هارون (ع): ٥٨٧
الهجرة: ٣٥٨، ٤٠٢
الهداية: ١٤٧، ٤٤٣، ٥٠٩، ٥٧٩، ٦٠٣
اليتيم: ١٩، ٢٢، ٤٤، ٥٠، ١٩٠، ٤٨٠
يعقوب (ع): ٥٨٧
يوم القيامة: ٣٥٥
يونس (ع): ٥٨٧
اليهود: ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٤٧، ٢٤٩، ٣٧٧، ٥٥٢، ٥٥٤، ٥٥٨، ٥٦٢، ٥٦٤، ٥٧١، ٥٧٤، ٥٩٢، ٦٠٨

فهرس المحتويات

تفسير سورة النساء المباركة ٥

المقدمة ٧

فضيلة تلاوة هذه السورة ٨

الآية ١ .... ٩

النقاط المستفادة من هذه الآية.. ٩

الآية ٢ .... ١٧

شأن نزول هذه الآية ١٧

النقاط المستفادة من هذه الآية.. ١٧

الآية ٣ .... ٢٠

شأن نزول الآية.. ٢٠

النقاط المستفادة من هذه الآية.. ٢٠

الآية ٤ .... ٢٩

النقاط المستفادة من هذه الآية.. ٢٩

الآية ٥ .... ٣٣

النقاط المستفادة من هذه الآية.. ٣٣

روايات في الموضوع.. ٣٩

الآية ٦ .... ٤٠

نقاط جديرة بالاستفادة من الآية.. ٤٠

الآية ٧ .... ٤٤

شأن نزول هذه الآية ٤٤

النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٥
الآية ٨ .... ٤٦
النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٦
الآية ٩ .... ٤٨
النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٨
الآية ١٠ .... ٤٩
النقاط المستفادة من هذه الآية ٤٩
الآية ١١ .... ٥٢
شأن نزول الآية ٥٢
نقاط ست كمقدّمة في بيان قانون الإرث ٥٣
خصائص قانون الإرث الإسلامي ٥٥
النقاط المستفادة من هذه الآية ٥٦
أسئلة في موضوع الآية ٥٧
ما هو العول والتعصيب في الإرث؟ ٥٩
الآية ١٢ .... ٦٤
شأن نزول هذه الآية ٦٤
النقاط المستفادة من هذه الآية ٦٥
الآية ١٣ .... ٦٩
النقاط المستفادة من هذه الآية ٦٩
الآية ١٤ .... ٧١
النقاط المستفادة من هذه الآية ٧١

الآية ١٥ .... ٧٣
النقاط المستفادة من هذه الآية........ ٧٣
الآية ١٦........ ٧٧
النقاط المستفادة من هذه الآية........ ٧٧
الآية ١٧ .... ٨٢
النقاط المستفادة من هذه الآية........ ٨٢
الآية ١٨ .... ٨٩
النقاط المستفادة من هذه الآية........ ٨٩
الآية ١٩........ ٩٢
شأن نزول الآية........ ٩٢
النقاط المستفادة من هذه الآية........ ٩٣
الآية ٢٠ .... ١٠٤
شأن نزول الآية........ ١٠٤
النقاط المستفادة من هذه الآية........ ١٠٤
الآية ٢١ .... ١٠٦
النقاط المستفادة من هذه الآية........ ١٠٦
الآية ٢٢ .... ١٠٧
شأن نزول الآية........ ١٠٧
النقاط المستفادة من هذه الآية........ ١٠٧
الآية ٢٣........ ١٠٩
النقاط المستفادة من هذه الآية........ ١٠٩

الآية ٢٤ .... ١١٤
النقاط المستفادة من هذه الآية ١١٤
ردّ الشيعة على المخالفين ١٢٣
الآية ٢٥ .... ١٢٧
النقاط المستفادة من هذه الآية ١٢٧
الآية ٢٦ .... ١٣٢
النقاط المستفادة من هذه الآية ١٣٢
الآية ٢٧ .... ١٣٣
النقاط المستفادة من هذه الآية ١٣٣
الآية ٢٨ .... ١٣٤
النقاط المستفادة من الآية ١٣٤
الآية ٢٩ .... ١٣٥
النقاط المستفادة من الآية ١٣٥
الآية ٣٠ .... ١٣٧
النقاط المستفادة من الآية ١٣٧
الآية ٣١ .... ١٣٨
النقاط المستفادة من الآية ١٣٨
الآية ٣٢ .... ١٤٢
شأن نزول الآية ١٤٢
النقاط المستفادة من هذه الآية ١٤٣
الآية ٣٣ .... ١٤٧
النقاط المستفادة من الآية ١٤٧

الآية ٣٤ .... ١٤٩
مقدّمة: هل تحتاج الأسرة إلى رئيس؟! ١٤٩
لمَ لا يتشارك الوالدان في إدارة الأسرة؟! ١٥١
النقاط المستفادة من هذه الآية ١٥١
الآية ٣٥ .... ١٥٨
النقاط المستفادة من الآية ١٥٨
الآية ٣٦ .... ١٦٨
مقدّمة ١٦٨
النقاط المستفادة من الآية ١٦٨
الآية ٣٧ .... ١٨٠
النقاط المستفادة من الآية ١٨٠
الآية ٣٨ .... ١٨٢
النقاط المستفادة من الآية ١٨٢
الآية ٣٩ .... ١٨٧
النقاط المستفادة من الآية ١٨٧
الآية ٤٠ .... ١٨٩
النقاط المستفادة من الآية ١٨٩
الآية ٤١ .... ١٩١
النقاط المستفادة من الآية ١٩١
الآية ٤٢ .... ١٩٤
النقاط المستفادة من الآية ١٩٤

الآية ٤٣ .... ١٩٦
النقاط المستفادة من الآية ١٩٦
الآية ٤٤ .... ٢٠٢
النقاط المستفادة من الآية ٢٠٢
الآية ٤٥ .... ٢٠٣
النقاط المستفادة من الآية ٢٠٣
الآية ٤٦ .... ٢٠٤
النقاط المستفادة من الآية ٢٠٤
الآية ٤٧ .... ٢٠٦
النقاط المستفادة من الآية ٢٠٦
الآية ٤٨ .... ٢٠٩
النقاط المستفادة من الآية ٢٠٩
الآية ٤٩ .... ٢١١
النقاط المستفادة من الآية ٢١١
الآية ٥٠ .... ٢١٧
شأن نزول الآية ٢١٧
النقاط المستفادة من الآية ٢١٧
الآية ٥١ .... ٢١٩
شأن نزول الآية ٢١٩
النقاط المستفادة من الآية ٢١٩
الآية ٥٢ .... ٢٢٢
النقاط المستفادة من الآية ٢٢٢

الآية ٥٣ .... ٢٢٣
النقاط المستفادة من الآية ٢٢٣
الآية ٥٤ .... ٢٢٦
النقاط المستفادة من الآية ٢٢٦
الآية ٥٥ .... ٢٣٢
النقاط المستفادة من الآية ٢٣٢
الآية ٥٦ .... ٢٣٣
النقاط المستفادة من الآية ٢٣٣
الآية ٥٧ .... ٢٣٥
النقاط المستفادة من الآية ٢٣٥
الآية ٥٨ .... ٢٣٧
شأن نزول الآية ٢٣٧
النقاط المستفادة من الآية ٢٣٧
الآية ٥٩ .... ٢٤١
النقاط المستفادة من الآية ٢٤١
الآية ٦٠ .... ٢٥١
شأن نزول الآية ٢٥١
النقاط المستفادة من الآية ٢٥١
الآية ٦١ .... ٢٥٣
النقاط المستفادة من الآية ٢٥٣
الآية ٦٢ .... ٢٥٤
النقاط المستفادة من الآية ٢٥٤

الآية ٦٣ .... ٢٥٦
النقاط المستفادة من الآية ٢٥٦
الآية ٦٤ .... ٢٥٧
النقاط المستفادة من الآية ٢٥٧
الآية ٦٥ .... ٢٦١
شأن نزول الآية ٢٦١
النقاط المستفادة من الآية ٢٦١
الآية ٦٦ .... ٢٦٧
النقاط المستفادة من الآية ٢٦٧
الآية ٦٧ .... ٢٦٩
النقاط المستفادة من الآية ٢٦٩
الآية ٦٨ .... ٢٧٠
النقاط المستفادة من الآية ٢٧٠
الآية ٦٩ .... ٢٧١
شأن نزول الآية ٢٧١
النقاط المستفادة من الآية ٢٧١
الآية ٧٠ .... ٢٧٥
النقاط المستفادة من الآية ٢٧٥
الآية ٧١ .... ٢٧٦
النقاط المستفادة من الآية ٢٧٦
الآية ٧٢ .... ٢٧٩
النقاط المستفادة من الآية ٢٧٩

الآية ٧٣ .... ٢٨٠
النقاط المستفادة من الآية ٢٨٠
الآية ٧٤ .... ٢٨١
النقاط المستفادة من الآية ٢٨١
الآية ٧٥ .... ٢٨٣
النقاط المستفادة من الآية ٢٨٣
الآية ٧٦ .... ٢٨٥
النقاط المستفادة من الآية ٢٨٥
الآية ٧٧ .... ٢٨٧
شأن نزول الآية ٢٨٧
النقاط المستفادة من الآية ٢٨٨
الآية ٧٨ .... ٢٩١
النقاط المستفادة من الآية ٢٩١
الآية ٧٩ .... ٢٩٤
النقاط المستفادة من الآية ٢٩٤
الآية ٨٠ .... ٢٩٧
النقاط المستفادة من الآية ٢٩٧
الآية ٨١ .... ٢٩٩
النقاط المستفادة من الآية ٢٩٩
الآية ٨٢ .... ٣٠١
النقاط المستفادة من الآية ٣٠١

الآية ٨٣ .... ٣٠٤

النقاط المستفادة من الآية ٣٠٤

الآية ٨٤ .... ٣٠٧

شأن نزول الآية ٣٠٧

النقاط المستفادة من الآية ٣٠٧

الآية ٨٥ .... ٣١٠

النقاط المستفادة من الآية ٣١٠

الآية ٨٦ .... ٣١٤

النقاط المستفادة من الآية ٣١٤

الآية ٨٧ .... ٣١٨

النقاط المستفادة من الآية ٣١٨

الآية ٨٨ .... ٣١٩

شأن نزول هذه الآية ٣١٩

النقاط المستفادة من الآية ٣١٩

الآية ٨٩ .... ٣٢١

النقاط المستفادة من الآية ٣٢١

الآية ٩٠ .... ٣٢٣

شأن نزول الآية ٣٢٣

النقاط المستفادة من الآية ٣٢٤

الآية ٩١ .... ٣٢٦

شأن نزول الآية ٣٢٦

النقاط المستفادة من الآية ٣٢٦

الآية ٩٢ .... ٣٢٨
شأن نزول الآية ٣٢٨
النقاط المستفادة من الآية ٣٢٩
الآية ٩٣ .... ٣٣٣
شأن نزول الآية ٣٣٣
النقاط المستفادة من الآية ٣٣٣
الآية ٩٤ .... ٣٣٨
شأن نزول الآية ٣٣٨
النقاط المستفادة من الآية ٣٣٩
الآية ٩٥ .... ٣٤٣
النقاط المستفادة من الآية ٣٤٣
الآية ٩٦ .... ٣٥٠
النقاط المستفادة من الآية ٣٥٠
الآية ٩٧ .... ٣٥١
شأن نزول الآية ٣٥١
النقاط المستفادة من الآية ٣٥١
الآية ٩٨ .... ٣٥٨
النقاط المستفادة من الآية ٣٥٨
الآية ٩٩ .... ٣٦٠
النقاط المستفادة من الآية ٣٦٠
الآية ١٠٠ .... ٣٦١
النقاط المستفادة من الآية ٣٦١

الآية ١٠١ .... ٣٦٥
النقاط المستفادة من الآية ٣٦٥
الآية ١٠٢ .... ٣٦٩
شأن نزول الآية ٣٦٩
النقاط المستفادة من الآية ٣٧٠
الآية ١٠٣ .... ٣٧٣
النقاط المستفادة من الآية ٣٧٣
الآية ١٠٤ .... ٣٧٦
شأن نزول الآية ٣٧٦
النقاط المستفادة من الآية ٣٧٧
الآية ١٠٥ .... ٣٧٩
شأن نزول الآية ٣٧٩
النقاط المستفادة من الآية ٣٨٠
الآية ١٠٦ .... ٣٨١
النقاط المستفادة من الآية ٣٨١
الآية ١٠٧ .... ٣٨٣
النقاط المستفادة من الآية ٣٨٣
الآية ١٠٨ .... ٣٨٥
النقاط المستفادة من الآية ٣٨٥
الآية ١٠٩ .... ٣٨٦
النقاط المستفادة من الآية ٣٨٦

الآية ١١٠ .... ٣٨٧
النقاط المستفادة من الآية ٣٨٧
الآية ١١١ .... ٣٨٨
النقاط المستفادة من الآية ٣٨٨
الآية ١١٢ .... ٣٨٩
النقاط المستفادة من الآية ٣٨٩
الآية ١١٣ .... ٣٩١
شأن نزول الآية ٣٩١
النقاط المستفادة من الآية ٣٩٢
الآية ١١٤ .... ٣٩٦
النقاط المستفادة من الآية ٣٩٦
الآية ١١٥ .... ٣٩٩
شأن نزول الآية ٣٩٩
النقاط المستفادة من الآية ٣٩٩
الآية ١١٦ .... ٤٠٢
النقاط المستفادة من الآية ٤٠٢
الآية ١١٧ .... ٤٠٤
النقاط المستفادة من الآية ٤٠٤
الآية ١١٨ .... ٤٠٦
النقاط المستفادة من الآية ٤٠٦
الآية ١١٩ .... ٤٠٧
النقاط المستفادة من الآية ٤٠٧

الآية ١٢٠ .... ٤١٠
النقاط المستفادة من الآية ٤١٠
الآية ١٢١ .... ٤١١
النقاط المستفادة من الآية ٤١١
الآية ١٢٢ .... ٤١٢
التفسير ٤١٢
النقاط المستفادة من الآية ٤١٢
الآية ١٢٣ .... ٤١٤
شأن نزول الآية ٤١٤
النقاط المستفادة من الآية ٤١٤
الآية ١٢٤ .... ٤١٦
النقاط المستفادة من الآية ٤١٦
الآية ١٢٥ .... ٤٢٨
النقاط المستفادة من الآية ٤٢٨
الآية ١٢٦ .... ٤٣٠
النقاط المستفادة من الآية ٤٣٠
الآية ١٢٧ .... ٤٣١
النقاط المستفادة من الآية ٤٣١
الآية ١٢٨ .... ٤٣٣
شأن نزول الآية ٤٣٣
النقاط المستفادة من الآية ٤٣٣

الآية ١٢٩ .... ٤٣٦
النقاط المستفادة من الآية ٤٣٦
مقدّمة ٤٣٦
الآية ١٣٠ .... ٤٤١
النقاط المستفادة من الآية ٤٤١
الآية ١٣١ .... ٤٤٣
النقاط المستفادة من الآية ٤٤٣
الآية ١٣٢ .... ٤٤٦
النقاط المستفادة من الآية ٤٤٦
الآية ١٣٣ .... ٤٤٨
النقاط المستفادة من الآية ٤٤٨
الآية ١٣٤ .... ٤٤٩
النقاط المستفادة من الآية ٤٤٩
الآية ١٣٥ .... ٤٥١
النقاط المستفادة من الآية ٤٥١
الآية ١٣٦ .... ٤٥٤
شأن نزول الآية ٤٥٤
النقاط المستفادة من الآية ٤٥٤
الآية ١٣٧ .... ٤٥٧
النقاط المستفادة من الآية ٤٥٧
أنواع الردّة ٤٦٠

الآية ١٣٨ .... ٤٦٣
النقاط المستفادة من الآية ٤٦٣
الآية ١٣٩ .... ٤٦٤
مقدّمة ٤٦٤
النقاط المستفادة من الآية ٤٦٥
عوامل تحقّق عزّة النفس ٤٦٧
الآية ١٤٠ .... ٤٦٩
شأن نزول الآية ٤٦٩
النقاط المستفادة من الآية ٤٦٩
الآية ١٤١ .... ٤٧١
النقاط المستفادة من الآية ٤٧١
الآية ١٤٢ .... ٤٧٤
النقاط المستفادة من الآية ٤٧٤
الآية ١٤٣ .... ٤٧٥
النقاط المستفادة من الآية ٤٧٥
الآية ١٤٤ .... ٤٧٦
النقاط المستفادة من الآية ٤٧٦
الآية ١٤٥ .... ٤٧٩
النقاط المستفادة من الآية ٤٧٩
الآية ١٤٦ .... ٤٨١
النقاط المستفادة من الآية ٤٨١

الآية ١٤٧ .... **٤٨٣**
النقاط المستفادة من الآية ٤٨٣
الآية ١٤٨ .... **٤٨٥**
النقاط المستفادة من الآية ٤٨٥
الآية ١٤٩ .... **٤٨٧**
النقاط المستفادة من الآية ٤٨٧
الآية ١٥٠ .... **٤٨٩**
الآية ١٥١ .... **٤٩٠**
النقاط المستفادة من الآية ٤٩٠
الآية ١٥٢ .... **٤٩٢**
النقاط المستفادة من الآية ٤٩٢
الآية ١٥٣ .... **٤٩٣**
شأن نزول الآية ٤٩٣
النقاط المستفادة من الآية ٤٩٣
الآية ١٥٤ .... **٤٩٥**
النقاط المستفادة من الآية ٤٩٥
الآية ١٥٥ .... **٤٩٨**
النقاط المستفادة من الآية ٤٩٨
الآية ١٥٦ .... **٥٠١**
النقاط المستفادة من الآية ٥٠١
الآية ١٥٧ .... **٥٠٢**
النقاط المستفادة من الآية ٥٠٢

الآية ١٥٨ .... ٥٠٨

النقاط المستفادة من الآية ٥٠٨

الآية ١٥٩ .... ٥١٠

النقاط المستفادة من الآية ٥١٠

الآية ١٦٠ .... ٥١٤

النقاط المستفادة من الآية ٥١٤

الآية ١٦١ .... ٥١٦

النقاط المستفادة من الآية ٥١٦

الآية ١٦٢ .... ٥١٩

النقاط المستفادة من الآية ٥١٩

الآية ١٦٣ .... ٥٢٠

النقاط المستفادة من الآية ٥٢٠

الآية ١٦٤ .... ٥٢٤

النقاط المستفادة من الآية ٥٢٤

الآية ١٦٥ .... ٥٢٥

النقاط المستفادة من الآية ٥٢٥

الآية ١٦٦ .... ٥٢٧

النقاط المستفادة من الآية ٥٢٧

الآية ١٦٧ .... ٥٢٨

النقاط المستفادة من الآية ٥٢٨

الآية ١٦٨ .... ٥٣٢

النقاط المستفادة من الآية ٥٣٢

الآية ١٦٩ ..... **٥٣٣**
النقاط المستفادة من الآية ٥٣٣
الآية ١٧٠ ..... **٥٣٤**
النقاط المستفادة من الآية ٥٣٤
الآية ١٧١ ..... **٥٣٦**
النقاط المستفادة من الآية ٥٣٦
الآية ١٧٢ ..... **٥٤٦**
شأن نزول الآية ٥٤٦
النقاط المستفادة من الآية ٥٤٦
الآية ١٧٣ ..... **٥٤٨**
النقاط المستفادة من الآية ٥٤٨
الآية ١٧٤ ..... **٥٥١**
النقاط المستفادة من الآية ٥٥١
مقدّمة ٥٥١
الآية ١٧٥ ..... **٥٥٣**
النقاط المستفادة من الآية ٥٥٣
الآية ١٧٦ ..... **٥٥٥**
شأن نزول الآية ٥٥٥
النقاط المستفادة من الآية ٥٥٥
في رحاب سورة النساء المباركة **٥٦٠**
فهرس الموضوعات **٥٦٤**
فهرس المحتويات ٥٧١